محمد حسن علوان

موتٌ صغير



مؤلف 'القندس'

الفائزة بجائزة الرواية العربية 2015

رواية

دار الساقي

موتٌ صغير

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- صوفيا
- طوق الطهارة
- سقف الكفاية
- القندس
- الرحيل

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

محمد حسن علوان

موتٌ صغير

دار الساقي

الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-927-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

"إلهي
ما أحببتك وحدي
لكن أحببتك وحدك."

ابن عربي

١

أذربيجان

٦١٠ هـ/١٢١٢م

هذا كوخٌ مسنّمٌ في أعلاه. إذا اضطجعت فيه لأنام اضطجعتُ على ميل لفرط ضيقه، وإذا وقفت خنقني دخانُ النار الذي يتجمّع في سنامه ويحجب سقفه، وإذا خرجتُ منه بدت السماء من أمامي كأنها قِطْعٌ ساقطٌ يتعامد مع الأرض تماماً حتى أوشك لو مشيت باتجاهها أن أصطدم بها. وقمة الجبل تجعل الأشياء في سفحه ضئيلةً لا تُرى؛ ساكنةً لا تتحرك؛ حقيرةً لا تؤثر. أكلت الأرض حوافه فبين كل شبرٍ وآخر شقٌّ تدخل منه الريح الباردة في أيام الشتاء ويتسرّب منه الماء في أوقات المطر وتدخل منه الهوام في ليالي الربيع. ولربما تركت الباب مفتوحاً فدخلت سحابةٌ تائهة. ولربما اشتدت الريح فنزعت من الكوخ لوحاً أو لوحين أقضي بعد سكونها نهاراً بأكمله أبحث عنهما. ولربما ثغت أمام بابي عنزةٌ تائهة أو وقع على سقف الكوخ طائرٌ ضعيف. سوى ذلك لا يحدث الكثير في هذا المكان، ولكن الذي يعتمل في قلبي كثير والذي يضجّ بين أنحائي خطير.

هكذا كان الكوخ يوم ولجته أول مرة. وما زدتُ عليه إلا متاعي. حشيّة صوفٍ لم يُندف في ركن الكوخ، وطست وضوءٍ مغموسٌ فيه مشط، إلى جانبه لفائف أوراقي ومصباحي وليقتي ودواتي التي يتجمّد الحبر فيها شتاءً مكوّمةٌ كلها فوق الرف الوحيد في جدار الكوخ. وقريباً من الباب قفيز طحين تستند عليه جرة ماء وفوقها كيس ملح وزبيل تمرٍ وتينٍ مجفف.

ما أكثر هذا المتاع على طالب الخلوة وما أمضاها في إفسادي. إذا سهرتُ لأشهد مطالع الأنوار الإلهية ضيّعت عليّ ذلك حشيّة الصوف بالنوم، وإذا لزمت الصمت لأسمع حفيف الأسرار القدسيّة قرقرت بطني فجعتُ وانشغلت، وإذا أشعلت مصباحي وأخرجت أوراقي وغمست دواتي في قنينة الحبر ووضعتها حيث توقفتُ ليلة البارحة انشقّ من حيث تتماس الدواة والورق شبّاكٌ تطلّ منه أرباض الأندلس وأزقة فاس وزوايا تونس وخوانق القاهرة وشعاب مكة وحوانيت بغداد وغوطة دمشق وبحيرات قونيّة... أي عزلة هذه!

لا أعلم مكاني من الأرض ولكن هذا لا يعنيني وقد ثبّت الله قلبي بالأوتاد الأربعة. كل ما أذكره أني تركت "ملطية" واتجهت شرقاً وعلى ظهري بساطٌ من وبرٍ حملتُ فيه كل متاعي. أمشي حتى أتعب، وآكل مما ألقى، وأنام حيث يطبق الليل. تيبّس باطنا قدمَيّ منذ اليوم الثالث من المشي وصار لونهما غريباً كأنهما ليسا من جسدي. وزادت لحيتي شعثاً وتشققت شفتاي حتى لا أفتحهما لأقضم لقمةً إلا سال منهما خيط دمٍ يسير. لم يبقَ في جسدي عضوٌ إلا أنَّ واشتكى وأنا على سيري لا أتوقف. تتلقفني الطريق بعد الطريق. يصعد بي التل ويهبط بي الوادي. وأمرّ بالناس في القرى والحواضر، وبالوحش في القفر والخلوات. رافقني الهلال والمحاق والبدر قبل أن تقطع الجبال طريقي.

ولّيت وجهي شطر أعلاها وصعدت. أيامٌ طويلة وأنا أتسلق فينقطع بي الوصول فأنزل وأبحث عن طريقٍ أخرى. فأتسلق، ثم أجدني مشرفاً على هاوية، فأعود من حيث أتيت. وأتسلق من جهةٍ ثالثة حتى أجد منفذاً يقرّبني من القمة. وكان الجوع يزداد حدةً كلما صعدتُ إلى أعلى إذ قلّت الأعشاب واصلدّت الأرض. تقرّحت أصابعي وازدادت آلامي فخففت عنها بالبكاء من حين إلى آخر. حتى وقفت على قمة الجبل أخيراً ونمتُ ليلتي الأولى في عرائه. وفي الصباح كانت السماء صافيةً فتراءى لي كوخي هذا عن بعد. اتّجهت إليه فوجدته مهجوراً منذ أمدٍ لا يبدو قريباً، فعلمتُ أني بلغت المعتزل الذي يليق ببيعتي قطباً بعد خمسين سنة على طريق الله المحفوف خلوةً وسفراً وجوعاً ورياضةً ومجاهدة.

كنتُ نائماً عندما بايعتني القوى العلويّة في الليلة التي سبقت خروجي من ملطية. جذبتني فارتفعت عن فراشي معلّقاً في الهواء قيد شبر محمولاً بإرادة العزيز الجبار. لم تكن جذبةً مفاجئة بل انتظرتُ حدوثها في أي لحظة منذ أن أكملت طوافي على أوتاد الأرض طوافاً كُتب عليّ قبل ولادتي. ولكن كل جذبة تصعقني حتى يصير قلبي حمامةً في الملكوت، وكلامي فهوانياً لا تدركه الأسماع، وينخطف البصر بنور الله ولكن تسطع به البصيرة. ثم يكشف الله لي ما يأمر به عبده الفقير إليه المنقطع إلاّ منه. يأمرني أن أكتب كتاباً وأكشف علماً وأصحب شيخاً وأحمل مريداً وأخلو عندما أحتاج إلى الخلوة وأجلو عندما تحلّ الجلوة. كل ما أفعله في طريقي إلى الله هو أمره وتدبيره: السهل والشاقّ، الفرح والحزن، الحل والترحال، العلم والشطح، الحرف والرقم، الكلام والسكوت. وأصبحتُ قطب الشأن الإلهي، وغوث الآن الزماني، مرآة الحق، في يدي طلسم الله الأعظم، وقسطاس الفيض الأعمّ، و...

- أيها الرجل... هل أنت موجود؟

قاطعني الراعي الأذري وهو يناديني بلكنته الأعجمية من خارج الكوخ. فقمت واقفاً وخرجت إليه من فوري ومعي الوعاء والجرة. سلّمتُ عليه وردّ سلامي ثم أخرج من خُرْجٍ بغلته خبزاً وحبوباً وفجلاً وضعها في وعائي. أخذ مني جرتي وملأها بالماء من قربةٍ تتدلى من ظهره، ثم ناولني إياها وعدل قربته ولكز بغلته وهو يقول:

- أراك بعد أسبوع.

ناولته درهمين سلجوقيين.

- أريد حبراً وزيتاً للمصباح.

هزّ رأسه علامة الإيجاب وانصرف. حملت المتاع التي جلبها إلى الكوخ ثم خرجت لأوقد ناراً ورحت أتأمل النسور التي تحوم حول القمة في هذا الوقت من النهار كل يوم في انتظار فريسةٍ ما. سكبت شيئاً من الماء في الوعاء مع حبوب الباقلاء وحفنة ملح ووضعته بين الجذعين المشتعلين وجلست أتدفأ بالنار وانتظر نضج طعامي. أكلت وغابت الشمس. صليت على أصداء عواء ذئبٍ بعيد في السفح. احتجب القمر وراء قمم الجبال الشاهقة وهبط الليل عليّ مثل صندوقٍ مظلم لا فرجة فيه. اتّخذت النجوم فوق رأسي مواقعها نفسها في الليلة السابقة. أويت إلى كوخي وأشعلت المصباح وجلست أكتب ما لا يملك كتابته غيري ولا يعرف شأنه مثلي: سيرة الوليّ الذي اختاره الله لما اختاره وأمره بما أمره. كتبتها تحت ضوء المصباح الذي لا يكذب. حتى إذا اختلف الناس في أمري وجدوا ما يحتجّون به في شأني. بسم الله الرحمن الرحيم. قال السالكُ محيي الدين بن عربي...

السفْر الأول

٢

"كانت الأرحام أوطاننا فاغتربنا عنها بالولادة"

ابن عربي

أعطاني الله برزخين: برزخٌ قبل ولادتي وآخر بعد مماتي. في الأول رأيت أمي وهي تلدني وفي الثاني رأيت ابني وهو يدفنني. رأيت أبي يضحك مستبشراً ببكره الذكر وزوجتي تبكي مفجوعةً في زوجها المسنّ. رأيت فتيل دولة المرابطين يطفئه الموحّدون في مرسيّة قبل ولادتي، ورأيت التتر يدكّون بغداد دكاً دكاً بعد مماتي. رأيت الأولياء يستبشرون بمولد سلطان العارفين والفقهاء يكبّرون لهلاك إمام المتزندقين. رأيت كل هذا بكشف الله الأعمّ ونوره الأسنى في سنواتٍ قليلة من برزخين. فانكشفت لي سرعة عبوري وضرورة فنائي في هذا العمر الذي ليس سوى محض سطرٍ في رسالته الإلهية، لمعة شهابٍ في سمائه العلوية، أثر خفٍّ في أرضه الواسعة.

وانتهى برزخي الأول في رمضان عندما شعرت أمي بآلام الوضع. اعتصرت يداها طرفَي الفراش وابتهل فمها إلى الله أن يجعل مولودها

ذكراً ومخاضه سهلاً. مسحت فاطمة عن جبينها عرق الولادة وعن قلبها قوارض الخوف. ولما ولدتُ أخيراً كان وجه هذه القابلة الطيبة أول وجهٍ أراه في بداية الحياة. قارنته بآلاف الوجوه التي رأيتها في برزخي، آلاف الأولياء، آلاف الأتقياء، وآلاف الزهّاد، وكان وجهها أوسع رحمةً وهو حقيقة ماثلة أمامي. غشي على أمي فور ولادتي فلم يتسنَّ لفاطمة أن تضعني على صدرها كما يفعلون، فغسلتني وكفلتني وراحت تمسح على وجهي كما تفعل الأمهات فتعلّق قلبي بها التعلّق الأول.

وهي أيضاً اتّخذتني ابناً روحياً لها مذ حطّت عيناها على وجهي وغمرتني بحنانها الجارف الذي كان عزائي الأول في فراق برزخي وزادي في ابتداء رحلتي. ما أوجع أن تفارق البرزخ الذي كلّه كشفٌ في كشف لتدخل الدنيا التي كلّها جهلٌ في جهل. من برزخ الحقيقة إلى عالم الشبهات كان انتقالي عبر يدٍ طيبة تسحبني من رحم أمي هي يد فاطمة. استحقت برّي بعد ذلك حتى ماتت في إشبيلية ميتة الوليّات الصالحات ذوات الكرامات العلويّة عجوزاً ذات وجهٍ لم أرَ أجمل منه ولا أنضر. لم تفتأ يوماً تشير إلى قلبي وتقول: طهِّرْ هذا.

وفور أن أفاقت أمي أقبلت عليها الجارات ومساعدات القابلة يقبّلنها ويرددن: "عَتَاقٌ مبارك". ثم توالى دخول النساء دارنا واحدةً بعد الأخرى يهنّئن أمي بحريتها الجديدة بعد أن ولدت ذكراً. راحت كل واحدة تطلّ على مهادي من علٍ بوجوهٍ عملاقة تضحك وتكبّر وتسبّح وتهللّ. حملتني فاطمة إلى أبي ذلك المساء فهشّ وبشّ. وعلمتُ فور أن وقع بصري على وجهه المستدير أن ولادتي هي

تأويل الشامة التي عاشت تحت عينه اليسرى طيلة حياته وبشّرته بها فاطمة: "يا عليّ، إن موقع الشامة من وجهك يعني أنه يولد لك ابنٌ يرفع لك ذكرك ويحفظ لك قدرك ولكن مكانها تحت عينك يعني أنه يخالف دربك".

حمل أبي أقداري في وجهه منذ ولادته ولم يكشفها له إلا ابنه الذي ينام بين يديه وادعاً في مهده. كبرت، وصرت أمدّ يدي لأنوشها فيضحك لأنه يظنني أريد أن أحرّكها من مكانها، ولم يعلم أني كنتُ أتأمل في عمقها وجوهاً صافية وأصواتاً علوية وأتلو نبوءة فاطمة مراراً وتكراراً حتى لا أنساها كما نسيها أبي. رفعت ذكر أبي. أعرف ذلك. ولكني خالفت دربه ونفرت من العمل في بلاط الملوك. سوى ذلك فقد كان وجهي مستديراً كوجهه، وأخذت من ملامحه عينيه البنيتين ووجنتيه البارزتين واستقامة أنفه وغزارة شعره. وأخذت من أمي دقّة أطرافي واتّساع جبيني وانتظام أسناني وبروز ذقني. وكنت إذا قطبت حاجبيّ لأي شأنٍ كان وأنا طفلٌ تضحك أمي لشدة شبهي بأبي حينها. بعد ذلك أضفتُ إلى ملامحي شجّةً في الذقن بعد أن انغرس فيه عودٌ ناتئ من شجرة اللوز نزعته من فوري فشقّ في ذقني جرحاً بطول إصبع ظل بارزاً حتى اختبأ وراء لحيتي عندما كبرت.

حدث هذا في واحدٍ من الأيام التي يستيقظ فيها أبي صباحاً فيجدني قد استيقظت قبله وخرجت ألهو في الحديقة. تحطّ طيور الحميراء على شجرتَي البرتقال المزروعتين على جانبي الباب وقد تشابكت أغصانهما من أعلاه، وتحوم السناجب الحمراء حول شجرة اللوز وتقضم ما يسقط منها، وتنزل طيور الدجّ لتشرب من

الفسقية ثم تطير لتحط على قرميد المنزل. وما كاد أبي يفرغ من إفطاره حتى تناهى إلى سمعه صوت بكائي. هرع إليّ وحملني بين يديه فتلطّخ ثوبه بالدماء التي يثعب بها جرح ذقني. حملني إلى بيت طبيب البلاط الذي يقيم في حيّنا. ركل بابه بقدمه وهو يحملني وصاح منادياً الطبيب بأعلى صوته حتى فتح الباب أخيراً:

- هل لك أن تنظر في هذا؟

- يا لطيف! خير إن شاء الله، ماذا أصابك يا ولد؟

- ضربتني شجرة اللوز.

ابتسم وأدخلنا. أسند رأسي على فخذه وبلّل خرقةً وراح يمسح بها الدماء حتى تبيّن له شكل الجرح فقال:

- سمحاق، ولكنه لم يبلغ العظم.

- وتخيطه؟

- صغيرٌ لا أنصح بخياطته. سيندمل وحده.

- ولكنه ينزف.

- ضمّده بإسفنجة أو خرقة وسيتوقف بعد حين، فهو ليس على عِرْق. وسأعطيك دواءً يلحمه.

قام إلى خزانة أدويته وهو يسأل أبي:

- تفضّل مرهماً أم ذروراً؟

- هاتِ أقلّهما إيلاماً.

- سأعطيك مرهم العفص تضعه على الجرح يوماً واحداً فيلتئم. وسأعدّ مرهماً آخر من المرداسنج تضعه من غدٍ لينبت به اللحم وأرسله إلى دارك.

- جزاك الله خيراً.

حملني إلى البيت وتركني عند أمي وراح ليغتسل ويبدّل ثيابه ويستعد للخروج إلى البلاط كما أوحت به ثيابه التي نعرف وجهته بها. فإذا لبس مقطعه التونسي واحتزم بحزام من الخزّ ووضع فوقها جبّةً من الديباج واعتمر عمامةً علمنا أنه يومٌ عاديّ يذهب فيه إلى عمله في قصر الملك محمد بن مردنيش. أما إذا اعتمر قلنسوةً أو اتّشح بطيلسان فنعلم أنه ذاهبٌ لشأن آخر غير شؤون البلاط يزور أحداً أو يقضي حاجةً في السوق. أمّا إذا لبس البرنس البربري بلا حزام وطيلساناً بلا قلنسوة فالأغلب أنه سيذهب إلى جامع مرسيّة ليلقي درساً أو يحدث حديثاً. لكلِّ مقامٍ لباس. الديباج لحضرة الملك، والطيلسان للعامة، والبرنس للمسجد، وكأن عمل أبي يتطلّبه أن يكون ثلاثة رجال في رجلٍ غير آبه بما تفسده ثلاثة قلوبٍ في صدرٍ واحد. تماماً كما تفعله هذه الأيام ثلاثة دولٍ في جنوب الأندلس: المرابطون والموحّدون والفرنجة.

لم يجرؤ أن يواجه أبي بتناقضاته إلا عبد الله القطّان يوم دعوته للعشاء في بيتنا بإشبيلية بعد سنواتٍ طويلة من مغادرتنا أرض مرسيّة. كنت في السادسة عشرة من عمري وكثيرَ التردّد إلى القطّان الذي لا يجلس في جامع ولا مدرسة، بل يلقي دروسه في الشوارع على المارة والمتسولين بلا أجر. يحدّثهم بما يفهمون ولا يفهمون ويعظهم بما يفعلون وما لا يفعلون. دعوته للعشاء في بيتنا ذلك اليوم وقد هطل المطر غزيراً فبلّله حيث يجلس تحت قوس الحنيّة بإشبيلية. استجاب لي. سمع أبي جلبتنا في باحة الدار وجلبة الطاهي وهو يعدّ لنا الطعام،

فناداني من شرفته وهو يلبس سرواله وقميصه الصيفي الخفيف.

- من معك يا محيي؟

- الشيخ عبد الله القطان.

- خير من زارنا. أهلاً ومرحباً به. سأنزل إليكما.

وينزل أبي وقد لبس برنس البيت، ويخفّ إلى الشيخ يقبّل ما بين عينيه ويحتفي به.

- شرّفت داري وباركت مكاني يا شيخنا. عساك بخير؟

- بخير يا علي. شرّفك الله وبارك فيك.

ولمّا وضع الخادم أمامنا صحن زيرباجة حمام وصحن تين وصحن خضار مسلوقة، حثّ أبي القطّان الذي بدا ساهماً أن يبدأ الأكل. ولكن القطّان ظلّ مطرقاً يحدّق في الأكل كأنه لا يراه. ثم رفع رأسه فجأةً وأمسك بيده طرفَ ذقن أبي وصاح فيه:

- يا شيبةً منحوسة! أما آن لك أن تستحي من الله؟ إلى متى تصاحب هؤلاء الظَلَمَة في البلاط والقصور؟

ثم ترك ذقن أبي ودفع بيده طبلية الطعام وفتح ذراعيه باستهجان واستمر يصيح بأبي:

- أأمنت أن يأتيك الموت وأنت على شرّ حالة؟ أأمنت ذلك؟ هه؟ أجب.

ونظرت إلى أبي فإذا هو مطرقٌ وعلى ملامحه الظاهرة علامات خشوع ولكني ألمح في نفسه علامات تململ. أدنى الشيخ رأسه لينظر في عيني أبي وقال له بصوتٍ أخفض قليلاً:

- أما لك في ابنك هذا موعظةً؟ شابٌّ صغير في شهوته قمع هواه

وطرد شيطانه وعَدَلَ إلى الله تعالى. يصاحب أهل الله، وأنت شيخ سوءٍ على شفا حفرةٍ من النار؟

رمقني أبي بنظرةٍ لا أعرف معناها. هل كان مستاءً أني سمعتُ شيخاً يفضّلني عليه؟ أم أنه شعر أني شكوته إلى القطّان ودبّرت له هذه الموعظة الجافة؟ شهق بعدها وتظاهر أنه يستعبر وفرك عينيه ليستجري دمعة، وراح يحوقل ويستغفر، فكفّ القطان عن موعظته وسمّى بالله ومدّ يده ليأكل. وفجأةً لانت ملامح القطّان بسرعة وارتفع حاجباه واختفى الغضب عن وجهه وراح يسأل أبي بتعجّب وكأنه لم يكن يصيح به قبل ثوان:

- يا لهذا الحمام السمين يا عليّ! أتصدق أني ظننته في أول الأمر دجاجاً صغيراً؟

٣

"كل تقوى لا تعطيك مخرجاً من الشدائد لا يُعوَّلُ عليها"

ابن عربي

لم يولم أبي لي عقيقةً في سابعي لانشغاله في البلاط، ولا في الرابع عشر، ولكنه في اليوم الحادي والعشرين من ولادتي أخذ خروفاً من حظيرة القصر وساقه إلى الجزار ثم عاد باللحم إلى البيت وأمر أمي أن تطهوه على قصعة واحدة ففعلت. ولما وضع الطعام أمام الناس أكل جلاّسه في بلاط الملك من لحم الخروف وعميّ عبد الله وأبناؤه الصغار وكذلك فقراء الحي الذين يُدعون في العقائق. وأما القاضي ابن عرجون وخطيب الجامع الكبير ابن فتح فقد أكلا من الخضار والفواكه المنثورة على جانبي القصعة ولم يقربا اللحم. تطفّل عليهما أحد الفقراء البهاليل سائلاً:

- ما بالكما لا تمسّان اللحم؟

لم يجب أيهما عن سؤاله فانصرف عنهما. حتى إذا غاب أبي ليجلب المزيد من الطعام وقام عمي ليغسل يديه أجابه ابن فتح هامساً:

- إنه خروف من حظيرة الملك ولا شك.
- وماذا في ذلك؟
- ألا تعلم أن في حظيرته خنازير؟

نهض القاضي والخطيب بعد ذلك قاصدين حوض غسل اليدين دون أن يشبعا. كانا تقيين وصالحين ولكن جبانان. لم يجرؤا أن يعترضا على ما جدّ من أمر مرسيّة وهي تتردّى من سيئ إلى أسوأ منذ استغل بن مردنيش الفراغ الذي وقع بين انهيار دولة المرابطين ونشوء دولة الموحّدين فاستقلّ بمدينة مرسيّة ونصّب نفسه ملكاً. ولهذا احتفظ كلٌّ منهما بمنصبه طيلة هذه السنوات. عندما يفسد رأس الرعية يصبح الفساد ديدناً عاماً في البلد، وعندما تكون البلد محاصرة فإنه لا تعود هناك فرصة للهواء النظيف أن يدخل إلى الغرف الخانقة، وعندما تضيق الأرزاق وينعدم الأمل يبرّر الناس لأنفسهم كل عملٍ سيئ بدعوى الاضطرار والضرورة.

استعان ابن مردنيش بالفرنجة لتوطيد ملكه. أفتى له ابن عرجون بجواز ذلك فعقد الملك حلفاً مع ملك الفرنجة ألفونسو، وزوّده الأخير بالمئات من المرتزقة النصارى يجوبون أرجاء مرسيّة وكأن المدينة لهم. جعل لهم الملك كنائس وحانات. وإذا اختصم منهم أحدٌ مع مسلم يُرفع شأنهما إلى الملك وليس إلى القاضي ليضمن ابن مردنيش له حكماً لا يفسد مزاج مرتزقته عليه. لاسيما بعد أن بدأ الموحدون في محاصرته وانضمّ أكثر المسلمين تحت لواء خليفة عنده بيعة واضحة وليس ملكاً لم نعد نعرف دينه ولا هويته.

الآن لم ينفعنا مرتزقة ألفونسو ولا فتاوى ابن عرجون ونحن تحت

هذا الحصار الخانق. فواكه مرسيّة التي طالما كانت رخيصة الثمن وفيرة الثمر أصبح يشقّ على العامة شراؤها. واللحم لا يكاد يتبلّغ به سوى الأغنياء. وسوق البُسُط الكبير أغلقت نصف حوانيته لندرة الصوف والكتّان والخزّ الذي كان يأتي من بلنسيّة وغرناطة وتونس. أما صاغة الفضة فصاروا يشترون من الناس أكثر ممّا يبيعون لهم. امتلأت الشوارع بالشحاذين واختفت المراكب في نهر شقورة بعد توقف المراكبيين عن نقل الناس لأنهم لا يدفعون. التجارة الوحيدة التي انتعشت هي دروس الجامع الذي تضاعفت عدد حلقات العلم فيه لكثرة الفقهاء الذين بارت تجارتهم ولم يبقَ لهم إلا التدريس ليقتاتوا منه، وأقبل الناس عليهم طلباً للسكينة والطمأنينة في زمن القلق والحصار.

أما ابن مردنيش فلا يكاد يغادر قصره، وإن فعل ومشى في الطرقات حفّه جنودٌ كثر وحرسٌ أشداء خوفاً على حياته. وفي ظهيرة يوم عيد الأضحى الرابع بعد الحصار اضطر للخروج ليصلي بالناس ويذبح أضحيته عند ربض الرعاة القريب من النهر، ويعلن للناس أن أضحيته تُجزئ عن رعيته فلا يجوز لأحد من رعيته بعد ذلك أن يضحّي غنياً كان أو فقيراً. وفي مجمل البيان كان المنادي يقول: "... عطفاً من ملكنا المظفر والمجاهد الأكبر محمد بن سعد بن مردنيش على أبناء رعيته وتخفيفاً عنهم فقد ضحّى عنهم بكبشٍ سمين". وبعد صلاة العيد خطب ابن مردنيش خطبةً قصيرة لا تتجاوز دقائق معدودات، ولم يفته أن يقول فيها: "أيها الناس، الصبر مفتاح الفرج. وإنكم ترون أعداء الله يحاصرونكم ويمنعون عنكم الأرزاق. ولو كانوا إخوانكم

في الدين كما يزعمون لما فعلوا ذلك. ولكن الله يريد بكم خيراً، وربَّ ضارةٍ نافعة. أما علمتم بالطاعون الذي انتشر في أرجاء الأندلس فأخذ الصغير قبل الكبير ولم يُبقِ للناس شاةً ولا بعير؟ ها أنتم في معزلٍ منه بفضل الله، فلم ينتقل إلينا هذا الوباء ولم يمسسنا ضرٌّ ما دام أحدٌ لا يدخل المدينة ولا يخرج منها".

ولم يصدّقه أحد. ضاق الناس به ذرعاً ونفد صبرهم. جرح تحالفه مع الفرنجة قلوبهم المؤمنة، وأجاعت مغامراته ضد الموّحدين بطونهم الخاوية. وفوق هذا كله يرون بأعينهم تبختر جنود الفرنجة في الطرقات نهاراً ومجونهم ليلاً، ويسمعون بآذانهم ما يروج بينهم من بذخ مردنيش داخل قصره. وتُجبى الضرائب رغم الحصار بحجة وصول بضائع جديدة حين يقطع الموحدون حصارهم متى ناوشهم الفرنجة. كرهه الناس وعلم هو بكرههم فلا يكاد يخرج من قصره خشية نقمتهم. ولما فعل ذات نهار ناداه القرداني، الذي كان يُرقّص قرده في الشارع ليُضحك الناس، وهو راكب فوق فرسه وبين جنوده:

– يا بن مردنيش...

تجاهله ولم يجبه، فجمع القرداني كفيه مثل بوقٍ أمام فمه وصاح بأعلى صوته:

– كلّمني فإن الله كلّم موسى.

فوقف ابن مردنيش وناداه ليقترب، وقال:

– ماذا قلت؟

– قلت كلّمني فإن الله قد كلّم موسى.

فلوى ابن مردنيش عنق فرسه وصاح به بغضب:

- ذاك موسى! حتى تكون أنت موسى.

ومضى. فصاح القردانيّ من ورائه:

- ذلك الله! حتى تكون أنت الله!

نال القرداني من الضرب ذلك النهار ما لم ينله طيلة حياته. واستلّ أحد الحراس سيفه وضرب به هامة القرد المسكين فخرّ ميتاً. تجمّع الناس عليه بعد انصراف الحراس فلم يتكلم. وقف بصعوبة وحمل قرده الميت وتوارى عن الأنظار فلم يره أحدٌ بعد ذلك. أما الملك فامتنع عن الخروج من قصره وأصبح شديد الخوف من كل شيء. لم يعد يطوف بين غرف نسائه كل ليلة بل اتّخذ لنفسه حجرةً يدعو إليها من يشاء منهن زوجةً كانت أو جارية. ثم انصرف عنهن فأصبح يقضي الأسابيع أحياناً دون أن يمسّ امرأة، ثم ازداد توجساً فأمر بإخراجهن من إيوانه الخاص. ثم أعادهن جميعاً إلى إيوانه وخرج هو لينام في إيوانٍ صغير مرتفع أمر ببنائه عدة أدوار. في الدور الأول جعل جنداً، وفي الثاني حرسه المقربين، وفي الثالث عبيده الأوفياء، ثم ينام هو في أعلاه.

٤

"من غفل أفل"

ابن عربي

مشيت قبل أن أتمّ عامي الأول. نهضت من حبوي ذات مساء لا متمايلاً ولا متعثراً ومشيت كمن هو في الثانية أو الثالثة من عمره. ضحكت فاطمة وتنبأت لي أن أرحل بعيداً ففعلت. منذ أوجدني الله في مرسيّة حتى توفاني في دمشق وأنا في سفرٍ لا ينقطع. رأيت بلاداً ولقيت أناساً وصحبت أولياء وعشت تحت حكم الموحدين والأيوبيين والعباسيين والسلاجقة في طريقٍ قدّره الله لي قبل خلقي. من يولد في مدينة محاصرة تولد معه رغبة جامحة في الانطلاق خارج الأسوار. وفي النزهات التي كان عمي يأخذنا فيها مع أبنائه قرب النهر كنت أتحسّس أسوار مرسيّة الحجرية بيدي وأتساءل ماذا وراءها؟ هل بلادٌ مثل بلادنا؟ هل مدنٌ أكبر من مدينتنا؟ هل أناسٌ مثلنا أم غيرنا؟ وأحمل أسئلتي إلى عمي فيجتهد في رسم خريطة صغيرة على التراب ويريني أين تقع المدن المجاورة فالأبعد منها.

انطبعت في ذهني تلك الخريطة الترابية وأصبح بوسعي أن أرحل في خيالي جنوباً إلى قرطاجنة وشمالاً إلى بلنسية وغرباً إلى قرطبة وإشبيلية وغرناطة.

يكبر عمي عبد الله أبي بسنواتٍ لا يحصيانها ولكنهما يعرفان أن بينهما أربعة أبطن لأطفال ماتوا صغاراً. الطريق من دكانه إلى بيته يمرّ ببيتنا ولذلك كان مرآه مألوفاً لي منذ طفولتي. ثم صار أبي دائم الغياب في البلاط وأنجبت أمي توأماً من البنات فلم يعد في البيت من يملك لي وقتاً. لاحظ عمي ذلك فأصبح يأخذني معه أينما ذهب، إلى دكانه الذي يتاجر فيه بالزيوت والتوابل والأعشاب والأدوية، وبيته الذي يصطخب ببناته الثلاث وابنيه. حتى صلوات الجمع التي يؤديها أبي مع الملك في بلاطه كان عمي يضطر أن يأتي ليصحبني إليها. سوى ذلك كان عمي يتغدّى أحياناً مع أبي. وربما نام قيلولته في الحديقة. وطيلة ما كانت أمي حاملاً كان يجلب لها أعشاباً وأدوية. وبقدر ما كان كثير الاهتمام بما يجري في بيتنا، لم تكن حال أبي ترضيه على الإطلاق. اشتدّ عتابه له يوماً وهما يتناولان العشاء في ساحة الدار حتى فتحت أمي شبّاكها لترى ما حدا بصوت أبي أن يرتفع إلى هذا الحد:

- أتركُ البلاط؟ قلي بربك إن تركت البلاط أين أذهب ومرسيّة محاصرة؟

فيفرج عمي عبد الله ما بين ذراعيه علامة الترحيب ويلقي برأسه إلى الوراء ويقول:

- شاركني في تجارتي وجالسني في دكاني.

- أنت بالكاد تطعم أولادك فكيف أقاسمك تجارتك؟

- لن يموت أحدنا من الجوع. ولكنه سيموت من السيف!

يضع عمي يده على ركبة أبي ويستطرد برجاء:

- إني مشفقٌ عليك يا أخي. لو اقتحم الموحدون مرسيّة أخذوك معه لأنك في حاشية الملك، ولو ثار أهل مرسيّة فلن يفرقوا بين وزيرٍ وسائس!

تململ أبي من الحديث وقال وهو يحاول أن يغيّر مجراه:

- لا أحد يثور يا رجل. والموحدون يقطعون حصارهم بين وقتٍ وآخر ولا يلبثون أن يعترفوا بنا ويسعون للصلح.

- هذا كلام البلاط. هل تريد أن تعرف كلام الناس؟ خذه مني إذن: كل الناس تظن الاستسلام للموحدين هو خير ما يمكن أن يحدث لمرسيّة. فالناس تحت حكمهم من إشبيلية إلى طليطلة في رغد عيش وطيب حال.

- مرسيّة شأنها آخر.

- عند المغاربة كلنا أندلسيون، ولن يفرّق الموحدون بين شرق الأندلس وغربها.

يعتدل أبي في جلسته ويتحدث بحنقٍ:

- يا أخي، هب أني سمعت كلامك، هل تظن ابن مردنيش يتركني أخرج من بلاطه في هذه الظروف؟ والله ليسجنني...

وتشهق أمي عندما سمعت كلمة السجن فيصيح بها أبي:

- أغلقي شبّاكك يا نور.

أرخت أمي السجف على الشباك ولكنها أبقته مفتوحاً. وخفض

أبي وعمي صوتيهما فتابع أبي حديثه:

- الملك في حالٍ لا يتسامح فيها مع أي منسحب من بلاطه. إنه مثل أسدٍ جريح.

ويخفض صوته أكثر من ذلك حتى كاد يصبح همساً ثم يستطرد:

- أحد عبيده أسرّ إليّ أنه يستيقظ في نومه مذعوراً. وإذا أصابه الهلع أيقظ كل من في القصر وأمرهم بالجلوس حوله.

يعتدل عمي في جلسته ويضرب برجله الأرض ضربةً خفيفة دلالة امتعاض ثم يردّ على أبي:

- إن ملكك ليس أسداً بل ذئبٌ خسيس وهو يدفع ثمن خسته. أين هو حليفه ألفونسو الذي كان يدفع إليه الجزية ليحميه من الموحدين؟ وأين هم جلساؤه النصارى الذين ملأ علينا المدينة بكنائسهم؟ ها هم قلبوا له ظهر المجنّ.

ثم اتكأ بيديه على ركبتيه مستعداً للوقوف وهو يقول:

- ولئن اقتحم جيش الموحدين مرسيّة ليفعلنّ به الأفاعيل.

تبكي أمي وتسند رأسها بكفيها معاً مما سمعت. تراكم القلق في صدرها يوماً بعد يوم وزاد كلام عمي قلقها. يا لسوء حظها إذ خرجت من عبودية ودخلت في حصار. زوجة وزير في بلاط ملكٍ محاصر يودّ لو يفتكّ به من هم خارج السور بقدر ما يودّ ذلك من هم داخله. ولو انفرط زمام الأمور لربما سباها الموحدون وصيّروها أمةً من جديد.

يعلم أبي أن الاحتمالات السوداء التي وضعها عمي ممكنة. أنكرها بلسانه ولكن بقية جسمه صدّقتها عندما نحل جسده وشابت لحيته

وانطفأ ضوء وجهه. صار يطيل الجلوس ليلاً بجانب الفسقيّة في ساحة الدار حتى ينتصف الليل أحياناً وهو يقرأ أوراق البلاط ويستقبل ضيوفاً لا نعرفهم. تخيل لنفسه ألف ميتة بشعة لو نقب أحدهم في السور نقبةً يتسلل منها الموحدون أو أشعل أحدهم فتيل ثورةٍ يفجّرها الحفاة والجوعى في الأسواق والأزقة. لا أحد يعلم ما ستأتي به الأيام إلا الله، ولكن الجميع موقنون أن الحال لن تدوم وشيئاً ما سيتغير.

هذا الحدث الذي يترقبه الجميع ويجهلونه أصبح هاجساً من هواجس المدينة حتى تعطّل فيها كل شيء. فلا يذكر أحدٌ متى كانت آخر مرة بُنيت دارٌ جديدة أو فُتح حانوتٌ جديد. لا أحد يستبشر في المستقبل، والجميع قابضٌ على دنانيره ودراهمه لا يبيع ولا يشتري إلا ما يقيم الأود. فازداد الحال سوءاً وكثر المتشردون والمساكين يجوبون الطرقات ويطرقون الأبواب ويأكلون الفضلات ويتسوّلون المارة، فإن غابت عنهم عيون الجند سرقوا ونهبوا. ولذلك نشر ابن مردنيش مرتزقته في المدينة يحرسونها ليلَ نهار، وجعل أشدهم بأساً في حراسة السور حيث لا يأمن أن يمكّن الأهالي الموحدين من التسلل.

٥

"من لا حكمة له لا حكم له"

ابن عربي

دلقت أمي قدر حساء كانت تعدّه للعشاء فاحترقت أصابع قدميها وجانب كعبها وسقطت على الأرض فتورّم وركها وراحت تبكي على أرض المطبخ حتى وافاها أبي على هذه الحال فعزم أن يستخدم من يساعدها، وجلب إلى بيتنا عبداً قصيراً اسمه سلّوم في الثلاثين من عمره أجعد الشعر صغير الأذنين مستدير الوجه. أعطته أمي قميصاً داكناً من الصوف وسروايل قديمة لأبي، وسألته من غد:

- ماذا تطبخ يا سلوم؟

- خادمك سلوم يا سيدتي يطبخ المخلل الإشبيلي، والطنجير الفاسي، والدجاج المدهون، والجلابية، ووثفة الأكباش، وكل المختر‌ات والمخمرات والمركاس...

- هل تطبخ مروزية الخضروات أو مجبنات؟ ليس عندنا لحمٌ كثير.

– نعم يا سيدتي أطبخها كما يطبخونها في غرناطة، ولا أعرف كيف يطبخونها في مرسيّة.

– بالعسل والتين واللوز إن وجد، وإلا بالتمر والبرقوق.

اختبرت أمي طبيخه في أول وليمة أقامها أبي بعدما جلبه. دعا ضيوفاً لم يكشف عن أسمائهم فأعدّ لهم سلّوم طعاماً كثيراً بأمر أبي الذي بالغ في إكرامهم. تحدثوا بصوتٍ عالٍ يشي بخلافٍ في الرأي وهم يتناقلون بينهم رسالة عليها ختم إبراهيم بن همشك موجهة إلى الملك ألقيت من وراء سور وحملها الجنود إلى أبي.

> "من إبراهيم بن أحمد بن همشك إلى محمد بن سعد بن مردنيش. وبعد. فاعلم أن خليفة الموحدين وأمير المؤمنين قد عطف عليّ وضمّني إلى جناحه المكين. وقد أوصاني بك خيراً وأنت صهري ومن أهلي. فإن سلّمت المدينة لم ينلك سوء، وإن سدرت في غيّك فلا تلومنّ إلا نفسك."

انصرف ضيوف أبي وبقي هو جالساً في باحة الدار قابضاً على الرسالة التي أعلن فيها ابن همشك، آخر حلفاء ابن مردنيش، انقلابه عليه وانضمامه إلى الموحدين. أعاد قراءتها عدة مرات ووقف ليمشي خطوات في الفناء قبل أن يعود إلى مكانه. بلغ توتره مبلغه فألقى بالرسالة على الأرض وصاح بحنق:

– فعلتها! فعلتها يا أصلم الأذن!

ثم نادى سلّوماً فهرع إليه:

- اذهب إلى بيت أخي عبد الله وقل له يأتيني الآن.

وما كاد سلوّم يفتح الباب مستعداً للخروج حتى ناداه أبي مستدركاً:

- حسبك. لا تذهب. غداً تذهب.

وظلّ يدور في ساحة الدار مثل رحى. ثم أخرج أخيراً دواته وليقته وأوراقه وأزاح الطعام جانباً وراح يكتب: "من محمد بن سعد بن مردنيش، ملك شرق الأندلس، إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن خليفة المسلمين وإمام الموحدين..." ثم توقف عن الكتابة، وأطرق قليلاً يفكّر بفم مفتوح وعينان تحدقان في شيءٍ لا يُرى في ساحة الدار، ثم أزاحَ الورقة التي كان يكتب فيها وأخرج ورقةً جديدة وكتب: "من قاضي مرسية وإمام الجامع وشيخ المحدثين إلى خليفة المسلمين وإمام الموحدين..."، ثم طوّح بالورقة جانباً وأخذ ورقةً جديدة كتب فيها: "من أهالي مرسيّة الذين يمثّلهم عليٌّ بن عربيّ إلى قائد جيش الخليفة إبراهيم بن همشك".

ماجت مرسيّة بأنباء انقلاب إبراهيم بن همشك ونفاد صبر الموحدين. شاع بين الناس أن في جيشهم مجانق تقذف ناراً ونفطاً حارقاً، وأن جميع الحواضر التي خارج مرسيّة في لورقة وشقر وألمريّة قد سقطت في أيدي الموحدين وسلّمتهم حصونها وقلاعها وأصبح جيشهم مدعوماً بنقاط التموين من مالقة إلى مرسيّة. هذا الحصار إذن لن ينقطع مثل الحصارات السابقة. ثم حلت قاصمة الظهر: سحب ألفونسو كل حامياته الصغيرة شمال المدينة وعاد ليحصن بها مواقعه في العمق.

وصلت كل هذه الأخبار إلى أذنَي أمي من المزيّنات اللواتي ينزعن شعر ساقيها، والخياطات اللواتي يخطن لها ثيابها، والمرضعات اللواتي يساعدنها في رضاعة الطفلتين، وكذلك من بائعات الزينة وقارئات الطالع والعطارات والمدلّكات وحتى الجارات القلائل اللاتي صرن يزرنها بعدما أضحت حرة وسيدة منزل بعد أن كان لا يحقّ لها استقبال الزائرات. وكعادة هؤلاء النساء كن يخلطن خبراً بخبر ويقسمن على صحته وثبوته. وأمي تصدقهن بلا أدنى ارتياب. قالوا لها إن الملك حبس أمه في إحدى غرف القصر بعد أن شكّ في ولائها، وأمر أن لا يدخل عليها أحد ويؤتى إليها بطعامها من فتحة في الباب مثل المساجين. فكنّ يصدرن أصواتاً منفّرة وهن يردّدن ذلك ليظهرن استهجانهن الشديد لهذا الفعل:

– قبيح الخصال... ليس بمستغرب على ابن مردنيش.

– اسمه ابن مارتنيز وليس مردنيش يا أختي! إفرنجي صميم...

– لا بدّ أن هذا فعل الفرنجة بأمهاتهم.

وفي خضم تلك الشائعات التي ملأت عقل أمي عاد أبي إلى البيت يوماً وفي يده درعٌ أسنده على الفسقية ثم صعد إلى الحجرة. خرجت أمي إلى الفناء فرأت الدرع فانتفضت ذعراً وانتابها الغثيان فأفرغت ما في جوفها داخل الفسقية ثم جلست على الأرض وأسندت ظهرها عليها ومدّت إحدى رجليها وجلست على الثانية مثلما تجلس النائحات في المآتم وراحت تندب. أطلّ عليها أبي من الأعلى وقد بلغه نواحها وصاح:

– ما بكِ يا مجنونة؟

ولم تلتفت ناحيته وكأنها لا تسمعه بل ظلت تصيح:

- الحرب الحرب... السبي السبي... يا ويلاه. يا ويلك يا نور تعودين أمةً بعد أن صرت حرة.

- أي حرب يا امرأة؟ لن تقع حربٌ فقومي.

ولم تقم أمي لخوار قواها ولكنها استمرت في النواح بصوتٍ خفيض وأنينٍ مستمر وكأن عينيها ساقيتان من سواقي نهر شقورة. لم تتوقف عن البكاء حتى عندما أخبرها أبي أن درعه ليست درع قتال بل درع رسول، وأنه سيخرج غداً برسالة إلى جيش الموحدين من الملك ولا أحد يعرف فحواها ولم يكشفها الله لي بعد. بل إنها زادت من نواحها ولطمت خديها وهي تقول له:

- ألم يجد الملك رسولاً غيرك والقوم يعلمون أنك حافظ سرّه ومدبّر بلاطه، فسيأسرونك أو يقتلونك أو يفاوضونه بك؟

- يا امرأة، ما هكذا يُدار الأمر في الحروب. الرسل لا يُقتلون.

ووحدي كنت أسمع نبضات قلب أبي تزداد وهو يردّ على أمي بعبارة لم تفلح في تهدئة روعه هو فضلاً عن روعها. كان يعلم أن هذا الاحتمال وارد. فالموحدون ينظرون إلى ابن مردنيش وحاشيته على أنهم كفرة لتحالفهم مع الفرنجة ضد المسلمين، وخونة لانقلابهم على الموحدين وانقضاضهم عليهم قبل الحصار، ولربما قرروا أن زمن الهدنة والصلح قد ولّى، ولا أمان لمن سبقت خيانته وثبت كذبه. وليس من ردٍّ أبلغ من قتل الرسول ليعلم ابن مردنيش مدى غضبهم.

ولكن ليس باليد حيلة. لا أحد من وجهاء مرسيّة يرضى أن يخرج رسولاً. خطيب الجامع يتعلل بمرضه وهو صحيح معافى، والقاضي

ابن عرجون يتعلل بكونه صاحب فتوى الاستعانة بالفرنجة وقد يُصلب لذلك، وحاجب الملك يزعم أنه لا يستطيع مفارقته وهو في هذه الحال من المرض، وشيخ التجار كان قد فرّ من المدينة قبل أشهر وسافر إلى المغرب وظل السوق بلا شيخ، وابنا الملك منصرفان إلى شؤونهما عطفاً على أن أبناء الملوك لا يُبعثون رسلاً. ولئن بعث الملك رسولاً من غير أعيان مرسيّة ووجهائها عُدّ ذلك إهانةً لابن همشك وتضاءل الأمل في استجابته لمضمون الرسالة.

هكذا وجد أبي نفسه الوحيد الذي بوسعه حمل الرسالة. لبس درعه وحمل معه حقيبةً من الجلد فيها خاتم الملك ورسالةٌ منه ورسائلُ أخرى من أعيان مرسية. وعند بابنا كان ينتظره فارسان معهما امرأة في هودج. فخرج إليها واتجهوا جميعاً إلى أقرب نقطة من سور مرسيّة إلى جيش الموحدين. نصب الجنود سلّماً فتسلّقه حتى بلغ أعلى السور ولوّح براية الرسول البيضاء للجيش ثم أشار لصحبه فأخرجوا المرأة من هودجها وساعدوها على تسلّق السلّم حتى بلغت أعلى السور بصعوبة لسمنتها. وما أن بلغت أعلاه حتى جذب أبي السلم وأقامه من الجهة الأخرى ونزل ليجد فارسين من الموحّدين يتجّهان نحوه. نصب قامته أمامها وقال بصوتٍ حازم:

- أنا عليٌّ بن عربيّ، رسول الملك محمد بن مردنيش إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن. وهذه سلمى بنت همشك، أمرني الملك أن أحملها عزيزةً كريمة إلى أخيها إبراهيم بن همشك، وإنه قد ألقى عليها يمين الطلاق ولم تعد زوجته.

وفي الوقت نفسه عصبت أمي رأسها بخرقةٍ صفراء وقد انتهبها

صداعٌ فظيع. أختاي تلعبان بحمامةٍ مهيضة الجناح وجدتاها تتخبّط في ساحة الدار. وفي مجلس أبي يجلس عمي عبد الله منذ الضحى ومعه أحد أبنائه، وأنا أروح وأغدو بينهم وبين أختَيّ اللتين تلهوان بالحمامة. وكان الجو صافياً غير أني أشعر بأقدار الله قد نزلت وأظلّت مرسيّة. ولما كانت الرياح خفيفةً تحرك أغصان البرتقالتين بهدوء اطمأن قلبي أنها أقدارٌ طيبة، فلا الجو هامدٌ كما كان قبل صيحة ثمود ولا شديد الريح كما كان قبل عذاب عاد.

يعد ساعات ظهر أبي في أعلى السور وراح ينزل السلم. وفور أن مسّت قدماه أرض مرسية اعتلى حصانه وسار باتجاه القصر. وعندما بلغه صاح بالحراس:

- أين الأمير غانم؟

وقبل أن يجيبه أحدهم خرج غانم بن مردنيش من القصر فور سماعه صوت أبي. دخلا معاً إلى مجلس الخليفة الذي لم يجلس فيه منذ أشهر وأوصدا الباب. تحدثا قليلاً ثم خرج أبي من عنده وعاد إلى البيت. دخل ونحن متحلّقون حول الطعام. هرعت أمي إليه فور رؤيته ثم وقفت على بعد أقدام منه صامتةً لا تعرف ماذا تفعل. حدقت في وجهه فحسب في انتظار أن ينبس بمصيرها هي وعيالها والمدينة بأسرها ولكن ملامحه الجامدة لم تشِ بشيء. اتجه إلى حجرته دون أن ينبس بكلمة. عادت أمي لتجلس معنا ومدت يدها إلى لقمة ثم أعادتها إلى الصحفة وهبّت واقفةً من جديد ولحقت بأبي. سألته:

- ماذا حدث يا عليّ؟

- ستعلمين في حينه يا نور.

- هل سنكون بخير؟

- نعم، لا تخافي.

خلعت أمي عنه جبّته وملابسه وحملتها خارج الحجرة. جلبت إناء وضوئه ووضأته وبسطت له سجادة الصلاة فكبّر وقرأ بهدوءٍ وارتياح ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾.

٦

"كل وقتٍ يكون لا لك ولا عليك، لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

صباحاً جاء نصر الله وفتحه للموحدين بالطبع وليس لابن مردنيش. سمع الناس منادي الملك في الطرقات فتبعوه إلى بقعته المعتادة في أول السوق، فوقف فيها ونفخ صدره ومدّ يده وكأنه يستدعي السماء وقال: "... عطفاً من ملكنا المظفّر والمجاهد الأكبر محمد بن سعد بن مردنيش على أبناء رعيته وتخفيفاً عنهم بعدما أثقل عليهم الحصار فقد جاءت إلى ملكنا رسل الموحدين بميثاقٍ غليظ يطلبون فيه الصلح على أن تُفتح الأبواب ويُفكّ الحصار. وقد جنح الملك إلى الصلح، والله على ما يقولون شهيد ومن ورائهم محيط".

وفتحت الأبواب ظهيرة ذلك اليوم نفسه ليجد الموحدون أمامهم أعداداً كبيرة من فقراء المدينة ومتشرديها في انتظارهم حشدهم جند ابن مردنيش ليكونوا في استقبال الموحدين. فإن أرادوا خيراً فسترقّ قلوبهم لهؤلاء الجوعى ذوي الأسمال القذرة والعيون الزائغة والشعور

الشعثاء، وإن أرادوا شراً وأعملوا سيوفهم فيهم فسيتسنّى لبقية الناس أن يتدبّروا شؤونهم بالدفاع عن أنفسهم أو أن يولوا أدبارهم فارين إلى أي مكان.

ولما صارت البوابة مشرعةً على مصراعيها مرّت دقائق طويلة ولم يدخل أحد. ثم دخل فريقٌ من المشاة غطّوا أنفسهم بالزرد والحديد في صفين يمشيان حذاء بعضهما بعضاً حتى إذا تجاوزا البوابة افترقا وسار كل صفٍّ بمحاذاة السور الذي يليه، ثم دخل فريقٌ آخر وفعل مثل سابقه، ثم تحركت جماعات من الفرسان كل جماعة فيها أربعة واتخذت كلٌّ منها موقعاً في الباحة التي تلي البوابة، اثنتان عن يمينها واثنتان عن شمالها. ثم جاء من ورائهم صفوفٌ من الرماة صفاً بعد صف وهم في وضع الاستعداد للرمي، وأخيراً جاءت صفوف من المشاة تتجاوز صفوف الرماة وجماعات الفرسان وتتقدم الجميع وتمشي ببطء وحذر وتراقب النوافذ والأبواب خوفاً من كمينٍ مرصود.

لم تمضِ ساعات حتى كان نصف جيش الموحدين داخل المدينة ونصفه الآخر في مواقعه خارجها. وسرعان ما أحكم الجند سيطرتهم عليها وعسكروا في النقاط الرئيسة عند مداخل الأسواق والجوامع والحارات وفي فرقٍ لا تبعد إحداها عن الأخرى أكثر من خمسين ذراعاً حتى لا تؤخذ على غفلةٍ ويهاجمها أحد. وبدأ جمع السلاح في ساحة الجامع في كُوم حسبَ نوع السلاح، فالسيوف في كومة، والخناجر والسكاكين في كومة، والرماح في كومة، والنبل في كومة وأقواسها في كومة أخرى. ومنادو الجيش يطوفون في الشوارع أنّ

من سلّم سلاحه فهو آمن، ومن وجد عنده سلاح فقد أبيح دمه.

ولم تمضِ ساعات حتى اطمأنّ الجيش إلى استسلام المدينة تماماً دون أي مقاومةٍ تُذكر. فراح بعض الجنود يخلعون خوذاتهم. ودخل بعضهم إلى الحمامات ليغتسل. وأخرج بعضهم أموالاً وراح يشتري من الحوانيت. وسرعان ما بدأ المارة يتوقفون ليسلموا على جنود الموحدين ويتكلموا معهم ويجلبوا لهم الطعام والشراب، ويسألوا بعضهم بعضاً من أيِّ البلاد جاؤوا. غادر المرتزقة الفرنجة مرسيّة آمنين دون قتال شرط أن يتجردوا من سيوفهم ورماحهم ونبالهم ولهم أن يحتفظوا بجيادهم وأقواتهم. صرت أرى كلما خرجت من البيت أعلام الموحدين التي تشبه رقعة الشطرنج قد نصبت فوق أبواب المدينة وأسوارها وقصباتها. وفي الجامع أصطفّ أحياناً إلى جوار جنديّ من جنودهم ما زال يرتدي لامة الحرب وعدته. وكنت أصافحهم متى تهيّأ لي ذلك.

دبّت الحياة في أوصال المدينة مرةً أخرى ففتحت الحوانيت الموصدة وانتعشت الأسواق المهجورة وعادت أصوات الباعة تملأ أسماع مرسيّة. ودخل الرعاة الرحّل إلى المدينة بخراف وماعز كثيرة. ووصلت قافلة محملة بالأصواف والكتان والحرير من قرطاجنة. وامتلأت الأفواه والبطون والجيوب فتدفق الرضا من القلوب ليغمر جنود الموحدين حتى لم يكد يخلو بيت في مرسيّة من جندي أو فارس أو قائد يدعوه الناس إلى وليمة تقرباً وتمسّحاً. واستمر أبي لأسابيع في الذهاب إلى البلاط كل يوم وكأنّ أمراً لم يستجدّ قبل أن يعود يوماً بنبأ جديد إلى سمع أمي المتعطّش للأنباء:

- مات الملك ابن مردنيش.

ضربت أمي صدرها وصاحت:

- يا إلهي!

- وسنرحل.

- إلى أين؟

- إشبيلية.

خصّصت لنا أربع ركائب في القافلة المتجهة إلى إشبيلية. لم يشجّعنا أبي على حمل الكثير من المتاع لأن أكثرها اهترأ من كثرة الاستعمال دون وجود بدائل متوفرة في الأسواق في الحصار. ملأتني فكرة السفر غبطةً وسعادة ولهذا راقبت نقل المتاع من البيت إلى الركاب بنشوة وحملت منها بنفسي ما استطعت حمله حتى أفرغنا البيت وأوصدنا الأبواب وراحت أمي تقشّ الفناء من التراب دون سبب سوى أنها تواسي بيتنا الذي سنخلفه وراءنا إلى غير رجعة قريبة. عدت بعد عشرين سنة إلى مرسيّة لأبيع البيت فوجدتُ مقشّتها لا تزال ملقاة في المكان ذاته على حافة مجرى الماء الرخاميّ. تقصّفت أطرافها وتيبّست وتراكم عليها التراب ونمت بين فرجاتها الحشائش. كان والداي في ذلك الحين قد ماتا ولحيتي قد طالت وقد خُلعت عليّ خرقتان من خرق الأولياء.

حملت إحدى المطايا زكيبتين كبيرتين تحويان ملابسنا جميعاً أنا ووالداي وأختاي. وركبت أمي هودجاً مع الطفلتين. وركب سلّوم بغلاً ومعه زكيبة حاجياته وزكيبة أخرى لقدوره ومراجله التي سوف يطهو لنا فيها في الطريق. وركب أبي فرساً في المقدمة ومعه حقيبة

من جلد فيها أوراقه وأختامه ودواته وليقته. رحت أتنقل بين الركائب الثلاث وأمشي أحياناً إذا كانت الأرض صلدة لا غبار فيها تثيره الدواب، وأدخل الهودج لأنام مع أمي إذا أدركني التعب، وأركض مسافة عشرين راحلة تقريباً إلى مطايا عمي عبد الله وعياله فألعب معهم. خرجت معنا على بغلة فاطمة بنت المثنى عازمةً أن تفترق عن القافلة باتجاه قرطبة. وعندما حان ذلك المفترق وانقسمت القافلة إلى نصفين متساويين تقريباً سلّمنا عليها جميعاً. ولما جاء دوري قالت فاطمة:

- ادنُ مني يا بني.
- لبّيك يا أماه.
- في إشبيلية وتدٌ من الأوتاد الأربعة ولا شك.
- ومن هم الأوتاد؟
- أربعة يحفظون الأرض من السوء.
- وكيف أعرفهم؟
- هم يعرفونك.
- وكيف أجدهم؟
- هم يجدونك.

ضمّتني إليها ضمّاً طويلاً حتى مللت. دسّت كفّها في صدري وأغمضت عينيها وقرأت فاتحة الكتاب ثم نقرت بإصبعها على موضع قلبي تماماً وقالت:

- طهّر هذا... ثم اتبعه. وعندها فقط يجدك وتدك.

ولأني كنت طفلاً لا يعي آلام الفراق فقد احتفظت ذاكرتي

بالموقف كما هو ثم تألمت منه لاحقاً بعدما كبرت. لأن آلام الأولياء مثل الديون لا تؤخذ من الأطفال ولا تسقط بالتقادم. فكنتُ أتذكّرها بعد سنواتٍ في درسٍ من الدروس وحولي تلاميذي، فأبكي بينهم فجأةً دون مقدمات، فيقولون:

– ما بك يا سيدنا؟

فأقول:

– تذكّرت دَيْناً فقضيته.

– ومن دائنك؟

– قضاء الله.

– وما دَيْنُك؟

– ألم فراقٍ أنزله الله عليّ فلم أقبضه في حينه لصغر سنّي، فظلّ يحوم بين السماء والأرض حتى حان وقت قضائه، فنزل.

فيسألني أنبههم:

– ألا يُسقطه عنك الله لصغر سنك؟

– لو كان يسقطه عني لما قضاه عليّ وهو أعلم العالمين. قضاء الله لا يردّ على أحد، وكلكم يقضي ديون طفولته في رشده. فمن ضاق صدره دون سبب وشعر بالألم دون داعٍ فليعلم أنه دَينٌ نسيه هو... ولا ينساه الديّان.

ها أنا أنظر إلى مرسيّة من خارجها لأول مرة في حياتي. عالمي الأرضيّ كله منذ ولدت كان في محيط هذه الأسوار التي غابت عن الأنظار بعد ساعات من المسير. ثم غربت الشمس وأنخنا الركاب وأكل الناس وشربوا فجلست مع أبي بين جلسائه على متّكأ يجعلني

أجلس فوقه خشية أن يقرصني ما يؤذيني. أدلي رجلي من علٍ وهما لا تبلغان الأرض ويصبح سمعي وبصري في مستوى أسماع البالغين وأبصارهم، فلا أشعر في جلوسي بينهم أنني أصغر سناً ولا أقل شأناً.

٧

"السفر إذا لم يكن معه ظَفَرٌ لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

في الليل يخيّم هدوءٌ ساحر لا تقطعه إلا جرجرة جمل أو حمحمة حصان. وقبيل الفجر بقليل نسمع هنا وهناك قعقعة أوان وحركةً خفيفة لمن استيقظ مبكراً ثم لا يلبث أن يرفع أحد الرجال الأذان عالياً فيستيقظ الناس وتعلو جلبتهم ويتفرقون في الأنحاء ليقضوا حاجتهم ويتوضأوا استعداداً للصلاة التي ما أن نفرغ منها حتى نستعدّ للمسير. يمرّ خدم القافلة يربطون الجمال بعضها ببعض بالخطام ويأكل الناس ما لديهم على عجل وهم يمتطون رواحلهم ويرفعون نساءهم إلى هوادجهن ثم أخيراً يصيح قائد القافلة من أولها فيردّد صيحته خدمه الموزّعون بطولها حتى آخر القافلة ويبدأ المسير.

الطريق مريحة في الربيع. حاذت القافلة الأنهار ومجاري المياه لا تحيد عنها إلا بضع ساعات بين نهرٍ ونهر أو لنقترب من القرى الصغيرة التي نمرّ بها. مشينا حذاء نهر التين حتى مدينة لورَقَة التي

انقطع النهر بعدها باستثناء مجارٍ وترع صغيرة وبحيراتٍ متقطعة بطول الطريق وأنهارٍ تجري جنوباً. ثم اقتربنا من غرناطة فمشينا حذاء نهر شنيل بضعة أيام. وكثيراً ما أنخنا ركابنا بمحاذاة النهر نستقي منه لشرابنا وطهو طعامنا. وكلما فعلنا جاء ساسة القافلة وفكّوا الخطام الطويل الذي يربط الجمال ببعضها بعضاً فتجلس كل جماعة بين رواحلها فقط. ثم يهرع سلّوم إلى النهر فيملأ قدوره بالماء ويطهو ما تيسّر طهيه من أرانب صيدت في المسير أو أسماك الشبوط التي يلتقطها الخدم بحرابهم من قعر مجاري النهر الضحلة ويبيعونها للناس. كانت القافلة أيضاً تحمل معها أقفاصاً من الخيزران فيها دجاجٌ وحجلٌ بري وزكائبُ من الأرز البلنسيّ والتين المجفف. وفي بعض الرحال صناديقٌ من خشب فيها خضار مزروعة يقطفون منها ويأكلون.

تنفصل جماعة من الرجال عن القافلة أحياناً إذا اقتربنا من حاضرة ما فيدخلونها ليشتروا ما يوصيهم به أهل القافلة من متاع وفاكهة وأدوية. أرسل معهم أبي مرةً سلّوماً ليشتري لنا عنباً من "جِيان" فعاد خالي الوفاض لأن الباعة لم يقبلوا الدينار المردنيشي رغم أن تجار لورقة قبلوا به، فعنّفه أبي لأنه لم يوضّح لهم أن الخليفة لم يمنع الدينار المردنيشي بعد وأن مرسيّة لم تصلها نقود الموحّدين التي تُسكّ في المغرب. ولم يكن واضحاً لأيٍّ ممّن شهد ذلك الموقف كيف توقّع أبي من العبد أن يدخل مع أهل السوق نقاشاً كهذا فيه مرابطون وموحّدون ودنانير وخلفاء وملوك. أطرق المسكين وترك أبي يصبّ عليه غضبه ولومه الذي كان في الحقيقة يخفي خجل رجلٍ

علم للتو أنه لا يملك أن يشتري عنباً لعياله.

بعد هذه الحادثة ظل أبي قلقاً طوال الطريق كلما تحدث أحدٌ عن النقود. سمعته يسأل عمي إن كان يظنّ أن التجار في إشبيلية سيقبلون مقايضة دنانيره المردنيشية بدنانير الموحدين أم أنه سيضطر إلى صهرها فتفقد ثلاثة أرباع قيمتها.

- أنت تعلم أن ابن مردنيش لم يسكّ الدنانير من ذهبٍ خالص ولا من فضةٍ خالصة.

فيجيبه عمي بهدوء وثقة:

- نعم، والموحدون يعرفون ذلك أيضاً.

- ماذا أفعل بدنانيري إذن؟

- سيأتيك عطاءٌ جديد من الخليفة بدنانير موحّدية.

ولم يكن عمي أعلم بهذا الاحتمال من أبي ولكنه أقل مبالاةً منه. فأمواله كلها عبارة عن قنانٍ وزكائبَ وصررٍ من أدويةٍ وتوابلَ ومعادنَ نادرةٍ وأعشابٍ جافة تحملها راحلتان مع عائلته وسرعان ما يتاجر بها في إشبيلية كما ينوي. وهو في أحيان كثيرة يستبدل عشبةً بعشبة مقايضةً بدون مال، وأحياناً يمنح الدواء بلا ثمن لمن لا يملك ثمنه، وقليلاً ما يأبه لأمر المال وجمعه إذا ما تحقق له قوت يومه.

مررنا بقرى أخرى بعد تلك القرية قبلوا بالدينار المردنيشي دون مجادلة. بدا أن بعضهم لم يسمع بدخول مرسيّة في حكم الموحّدين بعد وبدا أن آخرين لا يأبهون بذلك. تمكّن أبي من أن يشتري لنا فاكهةً وطعاماً بعد أن أوشك زادنا أن ينفد. شوى لنا سلوم دجاجتين تحلّقنا حولها تلك الليلة أنا ووالداي وأختاي. بدا التعب واضحاً

على أمي والطفلتين، في حين بدا أبي قلقاً وعصبياً أكثر مما هو تعِبٌ وكأن ضباب مستقبله في إشبيلية يضغط على أعصابه. أما أنا فكأن كل يوم يمرّ عليّ في الرحلة هو يومي الأول الممتلئ بالحبور والدهشة والأمل.

أنخنا المطايا أخيراً على مشارف إشبيلية وقت غروب الشمس حتى ندخلها صباحاً، وشارفت أول رحلةٍ في حياتي نهايتها. وكأن كل ميل نقطعه في أرض الله يتّسع به قلبي ميلاً مثله، ومدّ الله بصري في آفاقٍ لم تعتدها عيناي، وامتلأ صدري بهواءٍ لم أتنفس مثله من قبل، وكنت توّاقاً لرؤية إشبيلية التي كانت تُروى عنها الروايات وتسير بأخبارها الركبان. في قافلتنا هذه من هم مثلي لم يروها من قبل، ولذلك كنت أسمع منهم في السمر أسئلة المتشوقين وإجابات العارفين. وكان عمي من العارفين الذين زاروا إشبيلية مراراً للتجارة.

- كيف هي إشبيلية يا عبد الله؟

- كم مكثت فيها؟

- ماذا في أسواقهم؟

عمي يقطع سيل أسئلتهم الطفولية بقليل صبره.

- قرّوا عيناً أيها الجهلة! ستجدون داراً خيراً من دياركم، فاتركوني وشأني.

ولكنهم لا يكفّون. صائغ الفضة يسأله عن أسواق الفضة، ومعلّم الصبيان يسأله عن حلَقِ الجامع، وعاصر الزيت يسأله عن حقول الزيتون، والزمّار يسأله إن كان أهل إشبيلية يرقصون، والحلاّق يسأله إن كانوا يطيلون الشعور ويعفون اللحى، والخيّاط يسأله ماذا يلبسون.

وعمّي يجيب عن سؤال ويتجاهل آخر. انصرف الناس عنه لبخله في الكلام وأقبلوا على راعٍ مسنّ يرافقه ابنه كانا قد انضما إلى قافلتنا بعد خروجها من مرسيّةً بيومين. تحدث بصوتٍ خفيض لا يسمعه إلا من كان يجلس إلى جواره. جلست حيث يليق بالصبيان فقط أن يجلسوا خلف الرجل المسنّ تماماً، فتسنّى لي أن أسمع صوته الخفيض بوضوح، وكان يتكلم بعربيّةٍ فصيحةٍ جداً لا تشوبها شائبةٌ بربرية ولا مولّدية:

- ... إنها مدينةٌ عامرة، فيها كورٌ جليلة، ومدنٌ كثيرة، وحصونٌ شريفة، وبها أسواقٌ قائمة، وتجارةُ رابحة، وحماماتٌ واسعة، وأرضها شريفة البقعة، كريمة التربة، دائمة الخضرة، وفي جانبها مزارع لم تعرف أرضها الشمس من ظلّ زيتونها وتشابك غصونها.

وتكأكأ الناس حوله حتى قاربوا العشرين رجلاً يستمعون باهتمام لا أدري أشدَّتهم إليه معرفته بإشبيلية أم فصاحة منطوقه؟ لاحظ ازدياد الناس من حوله فاهتزّ صوته وراح يرفع جفنين ثقيلين إلى الناس في وسطيهما عينان مبتلّتان كما هي عيون المسنّين، وأسهب في حديثه وقد اكتسب صوته نغمة الحكّائين:

- هواؤها معتدل، ومبانيها حسنة، وأهلها ذوو أموالٍ عظيمة، ولكنهم ذوو خلاعة، ينتهزون فرص الزمان الساعة تلو الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج، وناديها البهج، وقد قيل لرجلٍ رأى مصر والشام أهما أحسن أم إشبيلية؟ قال بل إشبيلية، فإن شرَفها غوطةٌ دمشقية بلا سباع، ونهرها نيلٌ مصريّ بلا تماسيح.

٨

المخطوط في حلب

٦٤٦ هـ/١٢٤٨م

- يا طاهر...

- ....

- طاهر، أين أنت؟

ولم يجبني ولدي. يبدو أنه خرج من البيت وأنا لا أقوى على الحركة بسبب ضلعي الذي كسره سعالي الحاد. أريد شربة ماء تُذهب عني هذه الحرقة في جوفي والحشرجة التي في حلقي ولا أشعر بقدرة على جلبها. جرة الماء مسندة على الجدار قريباً من الشبّاك لتظلّ باردة، وإلى جوارها ما جلبه طاهر من أعشاب وأدوية وأدهنة فور وصولنا من بيت المقدس. سفرٌ طويلٌ في ليالٍ باردة أنزل بي هذا المرض. والله الشافي.

- يا طاهر. أين أنت يا ولدي!

ولم يرجع لي إلا الصدى. قلبت نفسي بصعوبة وحاولت أن أجلس. وفور أن أدخلتُ في رئتي الهواء الذي أستعين به على الجلوس انتابني سعالٌ

حاد. غصنٌ شائك يجوس في حلقي وحنجرتي ويحرّض هذا السعال الفظيع. قطراتٌ من الدماء على الأرض وحافة الفراش وشيءٌ من الغضب ساورني على هذا الولد الذي تركني طريحاً ومضى إلى ما مضى إليه.

هدأ السعال وأنا على جنبي فقررت ألاّ أتحرك كيلا يعود. أغمضت عيني فأخذتني غفوة. رأيتُ في غفوتي يداً كبيرة تنبت من راحتها ريحانةٌ مورقة وأنا أقبّلها وأشمّها بلا توقف والريحانة تنمو مع كل قبلة وتتفرع مع كل نَفَسٍ أملأ به رئتي من عبقها. نبتت من كل إصبع ريحانةٌ أخرى وراحت تتطاول حتى علت قامتي ووجدتُني أمشي فوق راحة اليد محاطاً بغابة من الرياحين تزداد تشابكاً حتى صرت أدفع أغصانها بيدَيّ لأمرّ من بينها. على بعدٍ كان يتناهى إلى سمعي صوت قرآنٍ وذكرٌ جميل، تسابيحٌ صوفية ونداءٌ رباني. فجأةً تحولت أغصان الرياحين المتشابكة إلى لحيةٍ بيضاء غزيرة الشعر ناعمة الملمس وأنا أغوص فيها مثل طائرٍ يدخل عشه. حتى وجدته واقفاً أمامي:

– مرحباً مرحباً يا سودكين.

– سيدنا؟!

ورفعتُ رأسي فإذا هو هو، بوجهه المنير مثل الساعة الأولى من الشروق، ولحيته البيضاء مثل غيمةٍ طاهرة لا تفارق وجهه، وابتسامته التي كنت أحصد منها قوت يومي وذكر ليلي كله. قال لي وهو يضع يده على وجهي:

– اشتقت إليك يا سودكين.

– وأنا اشتقت إليك يا مولاي.

– الحِق بي إذن. فالمقام هنا واسع ورب الدار كريم.

وفتح ذراعيه وحلّق. وفتحت عيني على وجه طاهر الممتلئ رعباً. يمسح بيده خيطاً من الدماء كان يسيل من فمي ويلوّث وسادتي ووجنتيّ حتى صار

نصف وجهي قانياً يرعب من يراه.

– أبي أبي...

– طاهر.

– لبيك...

– احملني إلى حجرة الكتب.

– يا أبي، أخبرني ما تريد منها أجلبه إليك.

– بل احملني إليها يا ولدي.

دسّ ساعده القوي تحت إبطيّ وساعده الآخر خلف ركبتيّ وحملني بسهولة. كنتُ قوياً مثله تماماً عندما التقيت الشيخ الأكبر في القاهرة. دخل علينا الخانقاه الذي كان مثل حديقة جافة أطلّ عليها الربيع. حلّت البركة في جوانحنا وأعطافنا وخوالج قلوبنا حتى صار الذكر الذي نردّده كل مساء أبلغ مدىً وأعمق أثراً. كل درسٍ ألقاه علينا كان يجعل كلاًّ منا يأوي إلى حجرته في الخانقاه وهو يشعر أنه صار أخفّ وزناً من فرط انفصاله عن الأرض واقترابه من السماء. شعرتُ أنني وجدتُ شيخي الذي أريد بعد سنواتٍ من التردد إلى كل مشايخ الصوفية في القاهرة. ولكنه غريبٌ ورحّال؟ ماذا سأفعل إذا شدّ رحاله ومضى؟ لا أسوأ من فطام المريد قبل أوانه فإنه لا يشبع بعد ذلك قط. ولم أكن قادراً على تحمّل فكرة هذه المجاعة الروحية التي تحدق بي لو أن سيدنا محيي الدين بن عربي يرحل دوني.

يوم رحيله جلست أقرب ما أكون إليه. وضعت يدَيّ على نعليه وانتظرت خروجه وهو يودّع رفاقه. ولمّا خرج ألبسته نعليه ومشيت معه إلى منطلق القوافل. وفي الطريق فاتحته بما يختلج في صدري:

– يا سيدنا، إني مريدٌ وأنت رحول.

- وماذا تريد؟

- أريد صحبتك وخدمتك وعلمك.

- الحق بي إذن، فالمقام واسع ورب الدار كريم.

لم أتمالك نفسي من السعادة، فعانقته عناقاً شديداً. فضحك من قوة بدني وشدة ساعدي، وربت على مفتولِ ساعدي وهو يقول:

- إن خير من استأجرت القوي الأمين.

ها هو القويّ يتهادى بين يدي ابنه محمولاً مثل شوالٍ من طحين. إذا ما ذهبت القوة بمرور السنين فما ذهبت أمانتي لشيخي ومولاي. والأمانة تنام في جوف هذه الصناديق المتراكمة فوق بعضها بعضاً في حجرة الكتب. أضجعني طاهر على حشية الكتابة ورفع وسادةً لتسند رأسي ثم هرع ليجلب طست الماء يمسح به وجهي من أثر الدماء. مرت عيناي على كومة الكتب المصفوفة بجوار الجدار التي لم أفرغ من قراءتها بعد، وفي الصناديق التي تعلو بعضها بعضاً كتبٌ قرأتها ولم أعد أرجع إليها.

- يا طاهر، ماذا ستفعل بكتبي بعد موتي؟

بُهت من السؤال المفاجئ ولم يجب. لم يتبع هذا الولد طريقي ولا جذبه ما جذبني. حاولت وما قدرت، أمرته فما ائتمر، وتوددت إليه فلم يجدِ ذلك نفعاً. وشكوته إلى سيدنا يوماً ونحن في دمشق وقد رآني مهموماً من شأنه:

- ما لي أراك مهموماً؟

- ابني طاهر، لا سلك طريقي ولا نهج نهجي.

- الطريق طريق الله، وهو يُسلك فيه من يشاء.

- كنت أتمنى أن أراه متصوفاً زاهداً ليجد في نفسه ما وجدته أنا وأبي من قبلي من اللذة والراحة والطمأنينة.

- لو سلكت أنا طريق والدي لكنت حاجباً في بلاط الموحّدين، فلا لقيتني ولا لقيتك. ولكن الله اختار لي طريقاً غير طريق أبي واختار لطاهر طريقاً غير طريق أبيه.

- يحزُّ في نفسي أن أجده منشغلاً باللهو والتجارة عن الزهد والعبادة.

- لقد شُغل عمي بهذا سبعين عاماً، ثم مات وهو وليٌّ ذو كرامات.

ثم أحاط وجهي بكفّيه كعادته عندما يريد أن تغوص كلماته في قلبي فلا تمحى أبد الدهر وقال:

- اسمع يا سودكين. إن طريق الله هو الطريق العام، أما الطريق إلى الله فيتعدّد بعدد أنفاس الخلائق.

- وهل الطريق الذي سلكه ابني طاهر منها؟

- أجل، التجارة من أعمال الأنبياء. إن الزهد في الباطن وليس في الظاهر، ولا ينبغي لنا أن نزهد في ما خُلقنا من أجله.

ومنذ ذلك الحين لم أقلق على طاهر قط. وهو على انشغاله بتجارته وشؤون دنياه ظل باراً بي لاسيما بعد وفاة سيدنا قبل ثماني سنوات. انتابني الضعف والمرض وما زلت كلما أخذتني عليه حسرة أتذكر أن الطريق طريق الله. فإذا كان الله الذي يختار فلماذا العبد يحار؟

- أجبني يا بني، ماذا تفعل بكتبي؟

- أطال الله عمرك يا أبي. سأفعل بها ما توصيني به.

- خذها جميعاً إلى مدرسة الفردوس واجعلها وقفاً على طلبة العلم هناك.

- كما تشاء.

- واجلب هذا الصندوق الأعلى...

قام إلى الصندوق وحمله بسهولة ووضعه بين يدي. أمرته أن يفتحه ففتحه وأخرج مما فيه الكتاب الذي لم يفارقني يوماً منذ مات سيدنا. رحل معي الكتاب حيثما رحلت وحلّ حيثما حللت. ناولني الكتاب فضممته إلى صدري قليلاً ثم ناولته إياه وقلت:

- إلا هذا الكتاب يا ولدي، أبقِه لديك واحفظه كما تحفظ عينك التي في محجرك، وأوصِ به أولادك من بعدك.

بدت الحيرة في عيني طاهر وهو يقلب عينيه ويمس بيديه غلاف الكتاب الكبير.

- والآن يا بني، افتح الكتاب من حيث تشاء واقرأ عليّ منه ما تيسّر.

وأسندت رأسي إلى الوراء، وأغمضت عينَيّ، ونطقت بالشهادتين سراً لئلا يقلق من شأني فينقطع عن القراءة. كنت أريد أن أموت وأنا أسمع سيرة شيخي الأكبر، البحر الزاخر والعلم الوافر، وبدأت أموت على مهلٍ وبطيب خاطر وفي سمعي تتردد كلمات شيخي بصوت ابني: "قال السالك: المقام واسع ورب الدار كريم".

السِفْر الثاني

٩

"الناس نفوس الديار"

ابن عربي

رفع مؤذننا أذان الفجر على أعتاب إشبيلية فوليناها ظهورنا جميعاً مستقبلين القبلة لنصلي. وبعد فراغنا من الصلاة راقبتُ الرجال يعانقون الرجال، والنساء ينشجن على استحياء وهن يودعن بعضهن. وراح أبي وسلّوم يعدّان الركائب ويرفعان هودج أمي فوق راحلتها. وناولتني أمي قطعة خبز من بقايا الأمس وبرقوقة جافة لإفطاري. وبدأت أختاي تهزجان بأهازيج الأطفال وقد استولت عليهما فرحة دخول إشبيلية. وكنت حتى البارحة لا أقلّ عنهما شوقاً وترقباً حتى أني بالكاد نمتُ ليلتها.

فور عبورنا باب المدينة استوقفنا الحراس ومعهم عرفاء القوافل وراح قائد القافلة يتحدث معهم:

- من أين جئتم؟

- من مرسيّة وأعمالها، ومعنا قلة من أعمال جيان.

– هل أحدٌ من غير أهل الأندلس والمغرب؟

– لا أحد إلا عبيدنا.

– هل تحملون تجارة أحد من جنوة أو سردانية؟

– لا نحمل إلا متاعنا.

فانتحى العريف جانباً وأشار للحرس فراحت القافلة تتهادى ببطء لتدخل المدينة. ثم صاح بقائد القافلة وهو يمتطي فرسه:

– فكوا الخطام وتفرّقوا في الساحة التي أمامكم ولا تدخلوا شوارع المدينة دفعةً واحدة فتثير دوابكم الغبار...

فأومأ له قائد القافلة بالموافقة. وهرع خدم القافلة يفكّون الخطام. واستمر العريف في نشر أوامره رافعاً صوته مع تصاعد جلبة القافلة وهي تهمّ بالدخول:

– ولا تدخلوا الأسواق على ظهور الدواب ولا ترسلوها من غير ممسك.

ودخلنا إشبيلية في صفٍّ طويل وعريف السوق يتأمل الوجوه والأمتعة بتململ ويستجوب بعض من يختارهم وينظر في متاعهم. وانفصلت ركائبنا، نحن وعمي، عن القافلة بعد أن استأجر أبي صبياً يرشدنا فأخذنا بمحاذاة نهر الوادي الكبير لنصادف السفن الكبيرة التي تمخر نهراً وكأنه بحر. وكلنا لم يرَ من قبل إلا تلك المراكب الصغيرة التي تجوز نهر شقورة. أحدث أبناء عمومتي جلبةً من شدة جذلهم بمرأى السفن. وتبادلت مع أبي نظرات اندهاش صامتة. ثم انحرف بنا الصبي بعيداً عن النهر فمشينا وهلةً برواحلنا الأربع التي تحملني أنا ووالديّ وأختيّ وسلّوماً

ورواحل عمي الخمس تحمله وبناته الثلاث وابنيه الصغيرين. وكانت زوجته قد ماتت. أصيبت بالسل في أثناء الحصار فعزلوها في خيمةٍ خارج دارهم اتقاءً للعدوى. وقر في أذني آنذاك رثاء أبي لها:

– المسكينة، ذات الحصارين، الخيمة محاصرة فلا تخرج، والمدينة محاصرة فلا تستشفي.

ولم يكن في مرسيّة حينها طبيب ذو شأن يُعتمد عليه إلا طبيب البلاط الذي يُحظر عليه أن يطبّب عامة الناس. فادّعى أبي أن زوجة عمي هي زوجته وأخذ طبيب البلاط إلى خيمتها. فوقف عند بابها وقال:

– يا امرأة، أخرجي يدك من تحت الخباء أراها.

فأخرجتها، فنظر إلى أظافرها فإذا هي قد سمكت وأصبحت مثل عصيان الطبل، فهزّ الطبيب رأسه وقال لأبي:

– إذا تعجّرت الأظافر فلا شفاء. اجعلوها توصي بما توصي فقد دنا أجلها.

وماتت بالفعل بعد أيام ولم يتزوج عمي بعدها. اعتنت ابنته الكبرى بإخوتها وقد تأخر زواجها حتى بلغت الثلاثين. فصارت لا تراني حتى تمازحني "متى تكبر يا بن العم وتتزوجني؟". وكنت أخجل من قولها هذا وأكرهه، لاسيما إذا قالته لي وهي تقبّلني فتظهر لي تلك الثلمة في أسنانها والثؤلول في أنفها، وتفوح منها رائحة كريهة وكأن أبوها ليس عطاراً!

جنّبنا الصبي المبيت في خان عندما دلّ أبي على دارٍ واسعة

استأجرها وعمي معاً غرب النهر. كان فيها أربع حجرات وفناء واسع. نصب سلّوم خيمةً له في الفناء وأوى عمي وابناه إلى حجرة، وبناته الثلاث في حجرة، وأبي في حجرة وحده، وأنا وأمي وأختاي في أوسع الحجرات. وبعد أيام تغيّر ذلك فانتقل أبي وعمي معاً إلى الحجرة الواسعة، وانتقلت أنا إلى حجرة الصبيان مع أبناء عمومتي. وبالتالي صارت الحجرتان الباقيتان للنساء فقط فتسنّى لبنات عمي أن يجزن بين الحجرتين بحرية. فكلما دخلتُ على أمي وجدت إحداهن جالسة عندها. تزوجت الصغرى منهنّ بعد أشهر قليلة من وصولنا إلى إشبيلية على شاب مولّد أثار حفيظة أبي فاعترض على الزواج:

– ليس عربياً!

فيضحك عمي بلا مبالاة ويقول:

– وأين تجد عربياً أصيلاً في إشبيلية؟!

تخاصما أشهراً بسبب هذه الزيجة فلم يغيّر ذلك قرار عمي. آلمته عنوسة ابنته الكبرى وخشي أن تلحق أختاها بها، فلم يأبه لرأي أبي بل راح يهزأ منه على مسمع منا:

– خادم البربر يستنكفُ أن أزوّج ابنتي لمولّد؟ يا للعجب!

تمّت الزيجة ورحل الزوجان عن إشبيلية إلى شبربل وانشغل أبي وعمي عن خصامهما سريعاً. أبي انتظم في عمل البلاط بعد ان استدعاه الوالي أخيراً. أخبره أن الخليفة يعتزم المجيء إلى إشبيلية بعد أن يفرغ من استعادة بعض القرى الصغيرة قرب قرطبة ولا بد من تنظيم شؤون الدواوين قبل وصوله. أما عمي فقد استغلّ انخفاض

أسعار الحوانيت القريبة من جامع ابن عديس بسبب البدء في بناء جامع القصبة فاشترى أحدها وباشر فيها تجارته.

غير أن الخصام سرعان ما تجدّد مرةً أخرى ونحن جلوسٌ حول العشاء. تحدث أبي كعادته عن الخليفة والوالي والوزراء والكتبة والدواوين مشبعاً إياهم مدحاً وثناءً. اليوم خرج الوالي من قصره فلم يجد جواده جاهزاً فمضى إلى شأنه ماشياً.

- طوبى لإشبيلية هذا الوالي الزاهد المتواضع. لم يمنعه غياب الجواد أن يمضي ليقضي حاجات الناس ماشياً.

قال عمي بصوتٍ خفيض سمعناه جميعاً:

- ليته أسرجك أنت وامتطاك.

نزلت الكلمة الخافتة علينا مثل صاعقة ساد بعدها الصمت وأطرقت الفتيات في خوف وانتفخت أوداج أبي وهو يكتم في داخله بركاناً من الغضب. قام من مجلسه وصرخ صرخةً مكتومة في وجه عمي:

- يا عبد الله! العيال جلوس!

ثم رمى بقية اللقمة التي في يده وانصرف إلى غرفته. ولم ينبس أيُّنا ببنت شفة. حثّت أمي الفتيات على الانتهاء من الأكل ثم لحقت بأبي. شعرت بالخوف من الموقف ولكني تظاهرت بأني متمالكٌ نفسي ولا يهمني الأمر، وبقيت آكل أنا وعمي حتى انتهينا وانفضّ المجلس.

لم تمضِ أيامٌ قليلة بعد ذلك حتى وصل الخليفة أخيراً ورُفعت إليه عطاءات حاشيته الجديدة في إشبيلية كما أعدّها الوالي بصحبة

أبي قبل مجيئه فكان لأبي منها دارٌ في إقليم شرف يسكنها ولا يملكها. فانتقلنا إليها وانتقل عمي إلى دارٍ أخرى قريباً من حانوته.

١٠

"لولا المطامع لانقطعت الهمم"

ابن عربي

ما مرّت بضعة أيام على وصول الخليفة إلى إشبيلية حتى فاجأ الناس بخبرٍ لم يخطر لهم ببال: زواجه من صفية بنت محمد بن مردنيش. شهقت أمي وحجبت فاها وهي تقول بعدما بلغها النبأ من أبي:

– ألم يجد امرأةً يتزوجها سوى ابنة عدوه؟ للتو كان يحاصره؟

فيجيبها أبي وهو يخلع خفّه ويغمسها في طستٍ من الماء:

– إنه دهاء الخلفاء يا امرأة. صفية في بيته، وأختها في بيت إبراهيم بن همشك. أختان من بنات مردنيش في عرين الموحّدين!

– أيأمن جانبها؟

– بل يأمن جانب المردنيشيين كلهم. أذاقهم حزمه وعفوه معاً، وأحدهما حريٌّ بإبقائهم جميعاً تحت سطوته.

– ماذا لو دسّت له السم في الأكل؟

ضحك أبي وقال:

– يا امرأة، أتظنين الخلفاء مثلنا تعدّ لهم زوجاتهم الطعام وينامون إلى جوارهن كل ليلة؟ طعام الخليفة يعدّه طهاة ثقات يقف على رؤوسهم حجّابٌ وعبيد يراقبون كل حركة وسكنة. ونساء الخليفة لا تراه الواحدة منهن إلا يوماً أو يومين كل شهر.

أقام الخليفة مهرجاناً بطول سبعة أيام احتفالاً بانتصاره وزفافه معاً. امتلأت ساحات المدينة بالحواة ومرقّصي الأفاعي والقردانيين يتحلّق الناس حول كلٍّ منهم حتى يتعب أو يملّون منه ثم ينتقلون إلى آخر. خرجنا مع أبي يوماً بعد يوم، أنا وأختاي، ترافقنا أمي في بعض الأحيان وتعود إلى البيت في منتصف اليوم أحياناً أخرى وهي تشكو من الصداع. يصطف عند جدار المسجد حكّاؤون لكلٍّ منهم صبي يجمع له الناس فيردّد بصوتٍ عال وهو يقرع على طبلٍ صغير معلّقٍ بخاصرته: "اِسمع غرائب المَشرق... بغداد والبصرة... دمشق والقاهرة... نحدثكم عن الزير سالم... أبو ليلى المهلهل والبسوس... اسمع ولا تسل... واطرد عن قلبك الملل... هل جاءكم نبأ ثورة الزنج؟".

طفتُ عليهم واحداً تلو آخر. أدسّ جسدي الصغير بين الأجساد المزدحمة. فإن استطعت أن أقف أقرب ما أكون من الحكّاء وإلا تركته إلى حكّاءٍ آخر. حتى بلغت حكّاءً إشبيلياً رأيته مراراً من قبل قريباً من حانوتَ عمي ولم يكن يحكي الحكايات. جلست أمامه وفي الحلقة عشرون رجلاً وبضع نساء يرتدين جلابيب مغربية وجنودٌ مازالوا متّشحين بسيوفهم وصبية متعددو الأعمار، وهو يحكي:

"... ودخلت إشبيلية مراكب المجوس، وأعملوا في أهلها

السيوف والفؤوس، فكأنما ملأوا البحر طيراً جونا، كما ملأوا القلوب شجواً وشجونا، فدخلوا المساجد والبيوت قسرا، واستحيوا أهلها قتلاً وأسرا، وبقوا فيها سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحمام...".

وأخذ صوته يتهدّج قصداً وعيناه تجحظان فانكمش الصبية الصغار على بعضهم خوفاً وهو يصف أهوال غزوة النورمان:

"... وكانت إشبيلية حينها عورة بلا سور، فسهل دخولها على أهل الكفر والفجور، فامتلأت بأسراهم وسباياهم الأساطيل، وساروا بهم جميعاً إلى جزيرة القبطيل، وفرّ الناس من إشبيلية مذعورين، واستنفروا بعضهم للفرار مسرعين. يصيح العربي: مجوس مجوس، والفرنجيّ: فايكنج فايكنج. ولم يسلم من سيوفهم إنسانٌ ولا بهيمة، وأصبحت المدينة كلها لهم غنيمة".

ثم أنهى حكايته النهاية التي تليق بمهرجان الخليفة:

"... ثم جاءت النجدة من قرطبة وقرمونة، وحشد المسلمون لعدوهم من مورور ولشبونة، فناشبوهم القتال في أرباض الشرف، فكانوا خير خلفٍ لخير سلف، ونصبوا المجانق على جانبي النهر الأعظم، فأصابوا بها مراكب من بغى وظلم، فلم يستطع المجوس دخولاً ولا خروجا، وقتلوا منهم صقالبةً وعلوجا...".

وكبّر الناس، ورموا على بساط الحكّاء فلوساً نحاسيّة راح يجمعها وهو يثني عليهم ثم انفضّوا عنه كلٌّ يبحث عن تسلية أخرى.

وفي الأيام الأخيرة للمهرجان امتلأت الطرقات بالجنود من كل صنفٍ ولون. المغاربة ذوو الغفائر القرمزية المنسدلة على أكتافهم فوق ثيابٍ قبطية بيض موشاة ويحملون رايات حمراء؛ والسودان

منهم بدروعهم المصنوعة من الجلد وإبلهم المزينة بأجراسٍ ويلبسون على رؤوسهم طراطير حمراء؛ والأغزاز بلحاهم العجيبة إذ يحلقون جانبي الوجه وأسفل الحلق ويطيلون الشعر النابت من الذقن فقط. وفي الجيش أيضاً بربر وعرب وصقالبة وعبيدٌ. كلهم يمشي مشيةً منضبطة لا يتكلمون فيها ولا يتلفتون يمنةً أو يسرة، بل ينظر كل واحدٍ منها إلى قفا من يمشي أمامه.

اجتمع ما يزيد عن ألفين منهم في ساحة إشبيلية المقابلة للجامع وأمروا أن يجلسوا في حلق مكررة تضم كلٌّ منها مائتي جندي حيث يجلس خمسون منهم في الحلقة الأولى ثم يحيط بهم خمسون آخرون ثم خمسون وهكذا. وفي منتصف كل حلقة يقف شيخٌ يخطب فيهم فيصيح:

- الجهاد ذروة سنام الإسلام.

فيردّد الجنود من خلفه في صوتٍ واحد مهيب ترتجّ له جدران البيوت والحوانيت المتاخمة للساحة:

- الجهاد ذروة سنام الإسلام.

ثم يصمت، فينصرف الجنود على ألواحٍ بيد كلٍّ منهم وينقشون فيها نقشاً العبارة التي ردّدوها للتو. وبعدً فينة من الوقت يصيح الخطيب مرةً أخرى:

- الجهاد بابٌ من أبواب الجنة.

فيردّدون ثم يكتبون. وأبي يقف جنبي يرى ما أرى، ويتناهى إلى أسماعنا أحاديث الناس العابرة وهم يراقبون مشهداً لم يتكرّر من قبل. التفت أبي نحوي وقال بفخار:

- أرأيت ما ترى؟ أنا أشرت بذلك على الخليفة. هذا رأيي. هذا عملي.

- ولماذا يا أبي؟

- لأن الجنود شيعٌ لا يجمعهم جامع. هذا ما لمسته وأنا أقيّد أسماءهم في ديوان الجند. مغاربة ومولّدون وأندلسيون وبقايا جيوش المرابطين ومرتزقة نصارى ومماليك صقالبة. فعلمت أن مذاهبهم متنوعة ومقاصدهم مختلفة وليسوا على قلبٍ واحد.

ثم استحثّني للمشي وهو يكمل حديثه:

- ... فأشرت على وزير الخليفة أن يعيّن لهم من يعلّمهم أحاديث الجهاد ومقتضيات الحال، فاستحسن رأيي ووافق.

وبمزيدٍ من هذه الآراء والمشورات ازداد اهتمام الوالي بأبي فقرّبه منه إلاّ أنه لم يمنحه وظيفةً أعلى من كاتب بلا كتابة. ولهذا لم يكن يقضي وقتاً طويلاً في عمله كما كان يفعل في بلاط بن مردنيش. وكان يعلل ذلك بمزاحمة المغاربة في بلاط الخليفة الذين إذا شاؤوا أن لا يدخل بينهم أحدٌ تحدثوا باللسان المصموديّ الذي لا يعرفه أبي. يعود إلى البيت بعد صلاة العصر إذا علم أن الخليفة لن يجلس للناس، فإن جلس لهم بقي أبي في البلاط حتى غروب الشمس. ولكن هذا لا يحدث كثيراً. فالخليفة دائم الاستئناس لمجلسٍ من خاصته الذين لم يصبح أبي منهم بعد ولن يصبح منهم. فلا هو فيلسوفٌ مثل ابن طفيل ولا طبيبٌ مثل ابن زهر ولا قاضي قضاة مثل ابن رشد.

ورغم ذلك لا تبدو عليه علامات التذمر ولا الإحباط. فهو شاكرٌ للخليفة أن عيّنه في بلاط إشبيلية وأجرى له عطاءً شهرياً وقدّم له هذه

الدار التي نسكن فيها. إنها حالٌ رغدة لرجلٍ كان قبل سنةٍ يقضي لياليه الضيقة في مرسيّة متخيلاً نفسه مصلوباً إلى جانب ابن مردنيش في قصبة المدينة. فعلى أي شيء سيعترض؟ كاتبٌ عند خليفة يحكم المغرب ونصف الأندلس خيرٌ من وزير عند ملكٍ لا يملك أبعد من أسوار مدينةٍ واحدة. حتى دنانيره المردنيشية أخذها منه صاحب المال في البلاط بأمر الخليفة وأعطاه بدلاً منها دنانير موحدية بعددها.

استغل أبي الفائض من يومه في تعليمي. جاز معي أحياء إشبيلية واحداً تلو الآخر يسأل في كل مسجد يدخله عن شيوخه ومعلميه. وتوقف طويلاً في قوس الحنيّة لما سمع أن لعميد فقهاء المدينة درس في مسجدها الضيق. أرسلني إليه في الصباح التالي بعد أن استوثق أني عرفت الطريق ولكن الشيخ ردّني ومعي صبية آخرون قائلاً:

– يا بنيّ، عودوا إلى أهليكم وقولوا لهم إن الحلقة ممتلئة. وليأتوا بكم في شعبان لعلّ المكان يتّسع لكم.

عدت إلى البيت وانتظرت عودة أبي من البلاط وأخبرته وهو يخلع عمامته فأعادها فوق رأسه من فوره واصطحبني إلى بيت الشيخ. طرق الباب ففتحه الشيخ وأطلّ علينا بلحيته الحمراء المخضّبة بالحنّاء وجبينه العريض الذي تزيّنه حبة خالٍ غليظة في منتصف الجبهة تماماً. قال له أبي:

– أسألك العفو يا شيخنا أن جئتكم في ساعة راحة، ولكن عزّ على غريبٍ مثلي في إشبيلية أن يرى ابنه الوحيد محروماً من علمكم محجوباً عن نوركم.

– النور نور الله يا ولدي. ضاقت علينا الحلقة. وإن كثرة الصبيان

تحدث جلبة وتنقص الفائدة. وفي المساجد حلقات أخرى.

- أتمّ الله عليك نعمته يا شيخنا. إني أثق بك. في المدينة من يلحن في كلامه وابني عربيّ أصيل. فلعلك تجد له مكاناً وسيكون لك خادماً ولعهدك حافظاً.

- لا بأس.

ثم التفت ناحيتي وقال مبتسماً:

- وافني في الحلقة غداً يا بنيّ.

١١

"كل فنٍّ لا يُفيدُ علماً لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

بيتنا الجديد في إشبيلية أقلّ مساحةً من بيت مرسيّة إلا أنه أحدث بناءً وأنقى هواءً. ولقربه من الجبل كان عواء ابن آوى ليلاً يفزع الطفلتين فيهدئ أبي روعهما: "أيفزعكم تسبيح ابن آوى لرب العالمين؟" فيذهب خوفهما. وأتخيل الحيوانات المفترسة التي في الجوار أولياء مخلصين لله يسبّحونه غدواً وعشياً. حجرتي الشرقية تجعل النوم بعد شروق الشمس مزعجاً ولا يطاق. يطلّ شباكها على بيتٍ صغير تجلس أمامه طيلة اليوم عجوزٌ خرفت. كلما فتحت شباكي راحت تحدثني بلغةٍ لا أفهمها وتصرخ أحياناً وتقذفني بنوى الفاكهة. أخاف منها ولا أفتح النافذة إلا لماماً. لأبي حجرة وحده ولأمي حجرة مع الطفلتين. وفي الأسفل فناء أغلبه بركة مستطيلة واسعة عمقها أقل من شبر مرصوفة ببلاطات بحجم الإبهام حمراء وزرقاء كنت أعدّها وأنزعج كلما وجدت عددها بين ضلعين لا يتساويان. أما الأشجار

فلا برتقال ولا زيتون، رغم أن المدينة تكاد تغطيها هاتان الشجرتان ولكن برتقالها مرّ لا يؤكل ليس كبرتقال مرسيّة. وبجانب السور كرمة عنب متسلقة وفي طرفها شجرة سفرجل وفي الطرف الآخر شجرة صنوبر شاهقة تكاد تميّز بيتنا من أول الحيّ كنت أستدلّ بها على البيت أول الأيام في إشبيلية. زرع سلّوم زروعاً متفرقة ليكفي نفسه مشقة الذهاب إلى السوق، فأثمر في حديقتنا الطماطم والليمون والإسفرج.

جعل أبي لنفسه متكأ في الحديقة تحت كرمة العنب يجلس فيها أغلب أيام السنة التي يعتدل فيها الطقس. يكتب ويقرأ ويستقبل ضيوفه ويتناول طعامه فيها أحياناً. وأكثر من يجالسه فيها تاجر مواشٍ اسمه عبد الصمد. يتردد بين إشبيلية وإستجة ويقيم في بيت صهره في آخر الدرب. يطرق الباب في الموعد الذي يظن فيه أبي جالساً في الحديقة فإن وجده وإلا انصرف. شكا له أبي مغاربة البلاط مراراً:

– أهمُّ بالشيء يومين وثلاثة لا أرى أحدهم يعينني حتى إذا شارف على الانتهاء سبقوني إلى الوالي ليبلغوه بذلك.

فيهزّ عبد الصمد رأسه مستنكراً ويقول:

– سبحان من جعل فيهم الأمر من بعدما كانوا مشتتين في الصحراء لا قوة لهم ولا شأن.

فيستدرك أبي إذ يخيفه مثل هذا القول:

– لا لا، الحق أن فيهم أخياراً. وقد نصروا الإسلام وأقاموا العدل. والخليفة على رأسهم. ولكن منهم من يغمط الأندلسيين حقهم ويُحقّر شأنهم.

– يظنون أنهم أنقذونا من مهلكة وحفظونا من ضياع. ويوم كانت دولة الخلافة في الأندلس كانوا يأتون بحثاً عن عملٍ وقوت.

ويهزّ أبي رأسه متّفقاً بقوة ويسود الصمت ثم يقول أبي:

– وما بالهم يتحدثون باللسان المصموديّ كأنهم رحّل في قلب الصحراء؟ والله لقد رأيت الخليفة مراراً ما سمعته يوماً يتحدث بهذا اللسان رغم أنه يتّقنه، بل يتحدث بعربيّةٍ فصيحة وكأنه ولد في بادية العرب!

– كي لا تفهم ما يقولون فتعلم ما يدبّرون.

وينصرف عبد الصمد بعدما ينفّس أبي غضبه ويروّح هو عن نفسه. ثم زادت أعمال أبي حتى لم يعد يجد وقتاً يجلس فيه في الحديقة. صار يتناول غداءه وعشاءه في البلاط ويقضي ما بينهما مكلّفاً بما يحب ويكره من أعمال تبدأ بمرافقة الوالي عند طوافه على أماكن الأشغال ليدوّن ما يأمر به وتنتهي بتحديد أنصبة العلف للدوابّ المستخدمة في البناء. حدث هذا بعدما انفتحت شهية الخليفة للبناء بورود أموال المكوس والجزية على خزينة الموحدين أعقاب ما فتحوه من مدنٍ وحصونٍ وقلاعٍ في شرق المغرب وجنوب الأندلس. واستقدم من أجل ذلك بنائين وجيّارين ونجارين من فاس ومراكش وعيّن من إشبيلية العشرات من أهل الحساب ليقيدوا الأشغال ويشرفوا على الإنفاق. نشط العمل لإكمال جامع القصبة وقنطرة النهر التي تربط بين إشبيلية وبُطريانة. وصل إشبيلية بعد ذلك العريف الشهير ابن باسة مكلفاً ببناء قصر البحيرة. أسال له المياه من قلعة جابر وأحضر له أشجار غرناطة لتثمر في القصر رماناً وتفاحاً.

ثم جعل حديقةً واسعةً من حدائق القصر مخصصةً لأشجار الفرصاد حتى تربى فيها دودة الحرير.

عمّت جلبة البناء والتشييد إشبيلية كافة. حتى حيّنا الهادئ استيقظ ذات صباح على عشرات البنّائين يحملون جذوع أشجار ثقيلة وطويلة متجهين إلى دار صناعة السفن التي أمر الخليفة بتوسعتها. أراها كلما خرجنا لنتريّض قرب النهر ونسبح في أيام الجمع. قرّر أبي ذات صيف أن يعلّمني السباحة والرماية وركوب الخيل، وبدأ بالسباحة التي كرهتها مذ سمعت حكاية النورمان الذي أتوا من هذا النهر. ولكني أخوض النهر سابحاً على كل حال، ومعي سلّوم يلازمني مثل سوار كما توصيه أمي. نهر إشبيلية بارد وصخور قعره حادة خلاف شقورة الذي كان جريانه أهدأ وماؤه ضحلاً. يصيح بي أبي: "اقفز هنا... واسبح من هنا إلى هنا" ثم يلقي حديدةً في النهر ويقول: "ائتِ بها".

استمرت هذه الدروس بلا جدوى. كنت أكره السباحة وتزعجني برودة الماء واتّساخه. ما عرف أبي أن السباحة هي العوم في ملكوت الله، والرماية هو قول الحق في موقف الخوف، وركوب الخيل هو السفر في طلب العلم. أخذ أبي الظاهر وكشف الله لي الباطن. فأجبرني على ما لا أحب وأمرني بما لا أطيق. غضب من تلكؤي ذات يوم فأمرني ألا أخرج من النهر حتى أسبح بين ضفتيه. بكيت وتوسّلتُ إليه فأصرّ على موقفه. التيار قويّ والماء بارد وأبي يقف على حافة النهر عاقداً ذراعيه أمام صدره عابس الوجه ويرمقني بنظرات صارمة. سبحت حتى منتصف النهر. وهن ساعداي وصرت أجاهد

لأبقي رأسي فوق الماء. بلغت الضفة الأخرى أخيراً وخرجت من الماء فصار أبي يصيح بي لأعود ويقذفني بالحجارة. عدت إلى الماء وأنا متعبٌ وخائف وأرتجف برداً. سبحت قليلاً ثم شعرت أن التيار يجرفني معه. انتبهت إلى أبي وسلوم يركضان على الضفة ليلحقا بي. أخيراً قفز سلوم إلى النهر وجذبني حتى خرجنا معاً.

مشى أبي أمامنا إلى البيت وهو لا يكلّمني. ظلّ جسمي يرتجف برداً وخوفاً معاً. رفعت قميصي ليغطّي رأسي ومشيت مشيةً لا أشعر فيها بقدميّ ولا أرى طريقي. كلاليب باردة تقبض ظهري وتهصر كتفيّ. عضدني سلوم بعدما صرت أنتفض نفضات قوية وشعرت بالسائل الدافئ بين فخذي بعدما فقدت السيطرة على مثانتي. أخيراً حملني سلّوم على ظهره بعدما تخاذلت قدماي حتى إذا دخلنا الحيّ ولاحت شجرة الصنوبر فقدت وعيي.

١٢

"يا حذري من حذري!"

ابن عربي

أركض في أزقة إشبيلية بلا أنفاس. كلما دخلت زقاقاً اتّسعت المسافة بين أحجاره فأتعثر وأقاوم وأستمر في الركض حتى أصبحت المسافة بين كل حجرين بحجم أقدامي فصرت أركض في المساحات الخالية وأتجنّب الأحجار. ثم ضاقت المسافة مرةً أخرى بشدة حتى قبضت على قدمَيّ. أصبحت عاجزاً عن المشي وأغلالي هي الطريق كله. بدأ الماء يتصاعد من بين الشقوق ويغطّي كعبيّ فساقَيّ فركبتَيّ. أحاول أن أميل على وجهي لأتمكّن من السباحة فيندفع الماء في فمي وأنفي فأشرق وأكاد أختنق. أشدّ قدميّ محاولاً التخلص من الأغلال الحجرية فيظهر لي ذيلُ تمساحٍ ملتفٌّ حول ساقي. وفي الأفق تراءت لي سفن النورمان ذات الرأس التنينيّ تطفو على بساطٍ من النار وتقترب مني والقوم على سطحها يلوّحون لي بهراواتهم من بعيد. دفعتُ الماء بذراعَيّ بيأس علّه

يطفئ النار التي تحتهم فخرجت أصابعي من الماء معقودةً ببعضها بعضاً مثل كرةٍ من الصوف. شعرت أنني هالكٌ لا محالة، ورحت أحاول بصعوبة أن أتذكّر الكلمات التي تقال قبل الموت. غبارٌ ثقيل يدور في رأسي ويصنع زوابع صغيرة في كل ركنٍ من رقعة أفكاري الجدباء. انحسر الماء فجأةً وسقطتُ على وجهي وسمعت قرع أقدامهم وهم يقتربون مني. أنا عاجزٌ عن الحركة. خدّاي ملتصقان بالتراب وعيناي لا تريان أبعد من أنفي. رأيت أصابع أقدامٍ أمامي، قبيحة الأظافر سوداء الأطراف متّسخة، فعلمت أن أحدهم يقف فوقي الآن يوشك أن يهشّم رأسي بهراوته. غاص رأسي بين كتفي في انتظار الضربة ولكنها لم تأتِ، بل نزلت عليّ بدلاً منها عباءةٌ من الكتّان، خفيفةٌ لكنها دافئة. التحفت بها وبقيت على الأرض ورأيت النورمان يركضون بعيداً وقد بدا عليهم الذعر، ويحاولون تسلّق سفنهم فيسقط بعضهم على بعض، ثم بدا لي وكأن أرجلهم تُقصف بمجانيق مسدوحة على الأرض فهي تصيب أرجلهم وتكسر ركبهم وسيقانهم، فيئنّون من الألم. التفتُّ ورائي لأرى صاحب العباءة فرأيت قائداً لم أتبيّن ملامحه، له منكبان عريضان حتى كأنه يرتدي درعاً تحت عباءته، وكان يشير بسيفه تجاه النورمان فتنهمر عليهم ضربات المجانيق، ثم يخفض سيفه فتتوقف الضربات، ثم يشير به مرةً أخرى فتعود الضربات تنهمر. ثم التفت جهتي في خضم المعركة وابتسم. وفور أن افترّ ثغره عن الابتسامة خفتت أصوات المعركة وإن ظلت مستمرة، وتردّد في السماء صوت تلاوات بعيدة لصبيان متحلقين حول شيخ، ثم علا عليهم صوت شيخهم

وهو يقرأ: ﴿... إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، فوجدتني أقف على قدميّ وكأني خارج من جدث ثم أتقدم نحو النورمان وهم صرعى على الأرض كسيحين فأردّد مع الشيخ الذي يتلو: ﴿... وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾، واقتربت منهم فصاروا ينظرون نظراتٍ راجية ويُمعنون في صراخهم وتأوهاتهم وتتّسع أفواههم حتى دخلت فيها بعض مرجومات المجانيق، وكنت أسرع في مشيي كأني أقفز وأنا أقرأ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ...﴾ ثم أقف عن رأس أحدهم وهو يشدّ على ساقه ويعضّ على شفتيه من فرط الألم ﴿... وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ثم أخذ يكلّمني بالجرمانية كلاماً لا أفهمه بلهجة متوسّلة وأنا أجيبه بالقرآن: ﴿... فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وفاض الماء، وجرفهم بعيداً هم وسفنهم وأنا أراقبهم والنهر يحملهم إلى البحر ويفرغهم فيه فأصيح فيهم: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ... وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ...﴾. ثم جفّ الماء واستوى الطريق واتّسعت السماء فجأةً حتى كأنها تحتضن الأرض مثل وليدٍ صغير، ولمحت القائد يقف إلى جواري وهو يتأمل الأفق. سألته: "من أنت يا عماه؟"، فالتفت إلي وكأني به قد فتح فمه ليجيب: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. تردّد صوت أبي بالآيات وأنا أفتح عينيّ بجهد وأبصره متربّعاً عند رأسي ويده على جبيني فأغمضت عينيّ مرةً أخرى ليستمر في تلاوته: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، وتركت أبي يقرأ

السورة كاملةً مرات ومرات دون أن يدري أني أفقت من غشيتي.

الأيام التالية كانت كلها يس. يس في صباحي ومسائي. يس في غدوي ورواحي. وقرت هذه السورة في قلبي وكأني لم أقرأها من قبل قط بالقراءات السبع وأعرف كل حركةٍ وشدّةٍ وغنّة وإظهارٍ وإقلابٍ فيها. ولكنها هذه المرة لم تكن سورةً فحسب بل كانت رسالة الله إليّ قلبي ومشكاة الهدى في الطريق. كل بشرى فيها هي بشراي، وكل نذيرٍ هو نذيري، وسأبقى طيلة عمري واقفاً عند أسوار هذه السورة أسألُ الله أن يكشف لي أسرارها ويفتح لي أبوابها ويعينني على سبر أغوارها وفهم أطوارها. والله لا يمنح مفاتيح السور ولا يفتح أبواب القرآن إلا للأولياء الذين يعرفونه حق معرفته، ويحبونه حق محبته، ويتعلقون به حق التعلق. إن الله يعدّني لما قدّره لي. رحلت الحمّى عن عظامي وبقيت "يس" في صدري.

١٣

"الخاطر الأول لا يخطئ"

ابن عربي

شاع بين الناس أن جامع ابن عديس مسكونٌ بروح الأسقف إيسيدور الإشبيلي لأن حجراً من ضريحه استُخدم في بناء مئذنة المسجد. ولهذا تتابع موت المؤذنين الذين تعاقبوا على الأذان فيه. تطوّعت بضع حناجر للأذان في المسجد بعدما امتنع البلاط عن تعيين مؤذن له. ظلّ هذا الجامع القديم يضيق بالمصلّين أسبوعاً بعد أسبوع حتى أضطر للصلاة أحياناً في قبوه إذا لم أحضر منذ الصباح. أما عمي فينتظر حتى تبلغ صفوف المصلّين عتبة حانوته فيبسط سجادته معهم ويصلّي دون أن يضطر للمشي خطوةً واحدة، فلا يسمع الخطبة ولا يأبه بها ولطالما كان صوت التكبير لا يبلغ حيث هو، لاسيما إذا كانت الرياح شديدة أو المطر ينقر على الصفائح التي تُظلِّ مداخل الحوانيت فيتطوع بعض المصلين لترديد التكبير صفاً بعد صف. ولكن الأمر يختلط على بعضهم أحياناً، فلربما قام الإمام

من السجود وهو بعد ساجدون فيسجد سجدته الثانية فلا يدرون عن ذلك، ثم يتفاجأون بالتسليمة وهم بين السجدتين فلا سجدوا ولا تشهّدوا.

كنت أقضي طيلة النهار في هذا الجامع المزدحم بالحلقات. إذا جعتُ ذهبت إلى عمي فأطعمني مما لديه خبزاً أو فاكهةً أو جبناً. اعتاد زيارتي له كل ضحى وصار يفرح بي لاسيما وقد شبّ ابناه عن الطوق مؤخراً فصارا إلى غير ما يحب. لا عملا معه في تجارته ولا جلسا معه في دكانه. انغمسا في ملذات إشبيلية. أغلب الوقت يتسكعان على ضفة النهر الكبير يترصّدان القشتاليات اللاتي يخطرن بخُمُرٍ لا تكاد تستر شيئاً، وكثيرٌ منهن يحلمن بالزواج من عربيٍّ لتضمن بقاءها في الأندلس ولا تكون عرضةً لخطر السبي أو النفي كلما اشتبك المسلمون والقشتاليون.

وبالفعل اصطادت إحداهن أكبرهما وسعى إلى نكاحها. استشاط أبي غضباً لمّا علم بالأمر وغادر البلاط ذلك اليوم متجهاً إلى دكان عمي مباشرةً وكنت عنده:

- يا أخي ماذا تريد أن تفعل بنا؟ أتريد أن يقال إنّنا لم يعد يُعرف لنا أصلٌ من فصل؟

وكان عمي مطرقاً وعلى رأسه غمامةٌ من كدر فلم يجب. واستمر أبي في كلامه:

- أن تزوّج ابنتك من مولّدٍ مسلم فذلك مقبول على قبحه، ولكن أن تزوّج ابنك الأكبر من نصرانية قشتالية! ماذا يقول عنك الناس؟

أشاح عمي بيده وأجاب بصوتٍ ثقيلٍ منهك:

- كفّ عني يا عليّ، فأنا لم أوافق على هذه الزيجة ولكنه رجلٌ ونكاحه لا يشترط موافقتي. ولو كان يأتمر بأمري لكنت تراه يبيع ويشتري في هذا الدكان.

ضرب أبي كفاً بكفّ وهدأ صوته وقال:

- ألن تحرّك ساكناً إذن؟

فقام عمي من متّكئه وراح يملأ كأسه من جرة الماء وهو يجيب أبي دون أن ينظر إليه:

- حرّك أنت سواكنك إن كنت تقدر على شيء، لقد أوكلتك الأمر.

ولم يقدر أبي على شيء. تمت الزيجة واختفيا عن الأنظار حتى لم نعد نعلم أهما في إشبيلية أم غادراها. أما ابنته الكبرى فقد عادت إلى البيت ركضاً ذات يوم وهي تصيح بأن هناك من يطاردها. كان الدرب خالياً عندما خرج الجيران يبحثون عن المطارد فلم يجدوا له أثراً. وفي يوم آخر وخزت بائع السمك بمهزام النار عندما وقف عند الباب كعادته ليبيع أسماكه. صاح متألماً فصاحت به. اجتمع الناس فقالت: "لقد بغى علينا الفاجر ابن الفاجرة". اكتوت في صدغها ونُقرة قفاها عندما استبدّ بها الوسواس فأغلقت نوافذ البيت بألواح من خشب، ونامت في صندوق الثياب خشية أن يلدغها لادغ، ولم يجدِ ذلك شيئاً. ثم صارت تهذي.

اختفت تلك الملامح اللامبالية التي كانت تميّز وجه عمي وحلّ محلها قناع قاتمٌ من العبوس والضيق. انكبّ على الخمر حتى صار يغلق دكانه أغلب النهار وهو بداخله يشرب حتى ينام مكانه ولا

يذهب إلى البيت. أرود دكانه كثيراً في إشبيلية وأنا أعلم أن ليس كل ما في الفخار المصفوف على الأرفف زيتٌ بل جلّه نبيذ. وهو لا يعلم أنني أعلم حتى حدثت تلك الحادثة عندما استبدّ الصداع بأمي. جرّبت في سبيل علاجه كل ما يُعرف من دواء. فركت رأسها بدبس السكر ونقعت قدميها بماء الزهر واستنشقت دخان عشرات الأخشاب الثمينة والرخيصة. استحمّت بماءٍ مالحٍ مخلوطٍ بزيت الصفصاف وادّهنت بمرهم مخلوطٍ فيه زيتٌ ورمادُ خُلدٍ ميت، واحتجمت مرتين ولم يفدها بشيء، وفي رمضان أرسلتني إلى عمي:

- ... شيئاً من الشونيز يا محيي. وزيتاً.

وصلت حانوته ودخلت دون أن أسلّم لأجد عمي يشرب من جرةٍ خفية وقد أولاني ظهره. تراجعت هلعاً لشربه في وقت الصيام ولم يرني. ثم عدت وناديته من الخارج وكأني جئت لتوي فأذن لي بالدخول. كنت مرتبكاً والصدمة تلفّ رأسي حتى لم أعد أدري ما أقول.

- أمي تريد شونيزاً أبيض؟

- ماذا قلت؟

- شونيز أبيض.

حدّق عمي في وجهي في استغراب وتجمّدت ملامحه لثوانٍ قبل أن ينفجر ضاحكاً. قهقه طويلاً ثم رمى عليّ واحدة من كراتٍ ليف الاستحمام المصفوفة أمامه فأصابت رأسي.

- ممَّ تضحك؟

- أضحك من جهلك. إن الشونيز لا يكون أبيض.

وعندها شعرت بالغضب، وبدأ الدم يتصاعد إلى عقلي الذي استوعب للتو أن مرتكب كبيرة الإفطار في رمضان يهزأ مني لجهلي بالعطارة، صرخت فيه دون وعي:

- إن جهلي بلون الشونيز لن يضرّني عند الله ولكن لهوك وغفلتك التي أنت فيها ستضرك عنده.

وخرجت من دكانه راكضاً قبل أن أتبيّن ردة فعله. سالت دموعي وأنا أركض باتجاه بيتنا. بلغت البيت وقد اختلط تعبي بغيظي وصدمتي في فسق عمي بحنقي على بيان جهلي. انطلقت كالحصان الهائج إلى حجرة أمي فوجدتها مضطجعةً على ظهرها وقد عصبت رأسها وغطّت عينيها بذراعها.

- أمي!

فزعت لصوتي ورفعت رأسها قليلاً وطالعتني بعينين متعبتين وقالت بصوتٍ واهن:

- ما بك؟ هل أحضرت الشونيز؟

- أبيض أم ماذا؟ كيف تطلبين مني أن أحضر شيئاً لا أعرف لونه؟

- شونيز يا بني شونيز؟ حبة سوداء. ألا تعرف الحبة السوداء؟ وهل تكون إلا سوداء مثل اسمها.

جنّ جنوني عندما صبّت أمي ملحاً على الجرح، ولم أعد أعرف ما أقول، فصرخت فيها:

- وكيف لي أن أعرف؟ هل تريدينني أن أكبر لأصبح شيخاً أحدّث في المسجد أم عطاراً يفطر في رمضان؟

- ماذا؟ من الذي يفطر في رمضان؟

– عمي عبد الله. رأيته يشرب ملء بطنه من جرة نبيذ.

– يا إلهي!

– ... نعم... نعم. في نهار رمضان.

مسّت جبينها بباطن كفّها وأغمضت عينها وقالت وهي تهزّ رأسه بحسرة:

– يا إلهي. رحماك يا ربي. سامحه الله.

انقطعت عن دكان عمي بعدما حدث. صارت أمي تبعث إليه سلّوماً وأسلك أنا طريقاً أخرى إلى الجامع لأتجنّب رؤيته. لم يكن ذلك كله غضباً بل بعضه خوف. فأنا لا أدري كيف وقعت كلماتي في قلبه ولربما كان ينتظر أن يراني ليضربني. ولم يكن عمي يزورنا كثيراً فاستمر انقطاعي عنه أشهراً طويلة. وكلما طال الأمد ازداد تهيّبي من لقائه وحرجي من رؤيته. ثم أصبحت تراودني كوابيس في منامي أراه فيها يوسعني ضرباً في منتصف الطريق والمارة يحاولون ثنيه عن ذلك.

ثم سافر أبي بضعة أيام إلى قرطبة حاملاً رسائل من الخليفة لبعض علمائها وأوكل إلى عمي شؤوننا كالمعتاد. فمرّ بنا بعد سفر أبي بأيام وفتحت له الباب بنفسي فرأيت رجلاً لم أكد أعرفه. احدودب ظهره فجأةً في ظرف أشهر وأصبح يمشي منحنياً انحناءً أقرب إلى الركوع. أدخلته إلى حجرة داخل المنزل لمّا شكا البرد. جلبت له ماءً وجلست إلى جواره وساد بعض الصمت. فقلت:

– هل تشكو من مرض يا عماه؟

وعندها استعبر ورفع إلى وجهي عينين دامعتين وقال:

- لا شيء يوجعني غير ذنوبي يا ولدي.

وتاب عمي. فلا يكاد يغلق دكانه مساءً حتى ينصرف إلى المسجد ويظل معتكفاً فيه طيلة الليل. ثم ينام قليلاً حتى الفجر فيتوضأ ويصلّي مع الجماعة ويذهب إلى دكانه مرةً أخرى. لا يلتقي أحداً ولا يعرف جليساً إلا جاره حسن الشكّاز الذي يحيي معه ليالي الذكر والقرآن والتأمل. داخلني الظن أن موعظتي الغاضبة التي هدرتُ بها على عمي بعد قصة الشونيز كانت سبب هدايته، ومتى طرأ عليّ هذا الهاجس شعرت باعتزاز وفخر ولكني لم أبح بذلك قط خشية أن ينفيه فيكذّبني، والأسوأ أن تأخذه العزة بالإثم فيرجع إلى سالف عهده.

صرت أزورهما في بيت الشكّاز فلا أدخل عليهما إلا وهما في ذكرٍ عالٍ وتسبيح متتالٍ. وأحياناً يقرآن القرآن بصوتٍ مشترك فيُبكي أحدهما الآخر. وأحياناً يحدّثنا الشكّاز فنغرق في حبّ الله لا يقطع خلوتنا أحد. وأحياناً أنام في بيته فشهدت بذلك أولى كرامات عمي عندما يستيقظ فجراً فيقول:

- قوموا فقد طلع الفجر.

- من أين تعرف ذلك؟

- شممته. إن لأنفاس الفجر رائحة.

في إحدى هذه الليلات طرق الباب علينا ابن عمي ففتحت له فإذا به يترنّح في مشيه وقد بدا ثملاً:

- أين أبي؟

أدخلته فاتّجه إلى أبيه مباشرةً وهو لا يكاد يرى الشكّاز جالساً إلى جواره فقال له:

- أبتاه. أعطني مالاً فقد نفد المال الذي أعطيتني إياه.

- ما عندي مال فاغرب عن وجهي.

فصرخ بأعلى صوته:

- قلت أعطني مالاً...

- اصرخ حتى يذهب صوتك. لا مال عندي.

- قلت أعطني مالاً أيها الخرف... تكنزها وأنت تموت عمّا قريب. أعطني مالاً!

- إن لم تخرج ضربتك بعصاي مثل الدوابّ...

فوثب على أبيه فجأةً واعتلاه فلمحت عينا عمي لوهلة وقد بدا فيهما هول الصدمة ومنتهى الخيبة. فهرعنا إليهما ودفعناه فحطّم جرة الفخار وطوّح بكتابٍ كان يقرأ منه الشكّاز وخرج. اعتدل عمي في جلسته وهو يلهث، وسرعان ما تجمّعت في عينيه الدموع وارتعش وجهه ببكاءٍ قريب وراح يردّد على نفسه:

- أقرحتَ قلبي أقرح الله قلبك وعجّل بموتك.

فمسح الشكّاز على رأسه وبدنه وهو يقول له بصوتٍ هامس:

- ارجع في قولك وادعُ له بالهداية فإن الله يهدي بدعاء الوالدين.

- لم يكن هذا دعاءً بل كشف.

ثم فاضت عيناه بدموع غزيرة وهو يقول:

- يموت قبلي وأموتً بعده بأربعين يوماً.

١٤

" كل مكانٍ لا يؤنّث لا يعوّل عليه"

ابن عربي

انتقلت حلق العلم والتدريس إلى جامع القصبة. بقي القليل منها في جامع ابن عديس يزاحمهم في ساحته الباعة الجائلون الذي سمح لهم ببسط بضائعهم أو أنهم تسللوا إليها ولم يمنعهم أحد. انتقلت بدوري إلى القصبة ملتحقاً بحلقة الشيخ الذي أشرقت به سماء إشبيلية في يوم صحو. وصل يوسف الكوميّ من فاس تسبقه أخبار كراماته وجليل أعماله. وجد لي أبي مكاناً في حلقته فوراً وقطع كل دروسي الأخرى. وعندما جلست بين يديه أول مرة شعرت أني أجلس أمام مشكاة مضيئة. نفر منه أغلب الصبية لدوام عبوسه وتقطيب حاجبيه. وكان يبقى على هذه الهيئة طيلة اليوم حتى يرى فقيراً فيضحك، ثم يناديه ويجلسه جواره ويطعمه من طعامه ويهبه من ماله فلا يبقى في صرّته شيء.

اختاره أبي لي شيخاً فوضعني على أول الطريق دون أن يدري.

قدّر الله أقداره في السماء وأنفذ أبي مشيئته في الأرض، والتقى أخيراً المريد بمراده. سافرت في ملامحه مثل حمامةٍ لم تعرف سماءً أكثر أماناً من وجهه، ولا روحاً أكثر رحابةً من روحه. جعلني الجالس عن يمينه. أقرأ المتن الذي يشرحه، وجعل عن يساره صبياً آخر اسمه أحمد الحريري. لقيته في تلك الحلقة لأول مرة فصار صديق العمر الذي بسطت له موضعاً في القلب لم أطوِه قط طيلة حياتي بعد ذلك. كنا أنبه تلميذين في حضرة الشيخ. حتى اصطفانا من بينهم جميعاً ذات يوم وقال لنا:

- تأتيان من غدٍ إلى المنتيار كل يوم.

- وماذا نفعل يا شيخنا؟

- نقرأ **رسالة القشيري**.

ورغم سعادتي بهذا الاصطفاء سألته:

- ولماذا لا ننتظر حتى تعود من خلوتك ونقرأها عليك في الجامع؟

- ستعلمان هناك.

خرجنا جميعاً من باب المدينة لنصل إلى جبل المنتيار قريباً من صلاة الظهر، فصلّينا في صومعةٍ قديمة في أعلى الجبل ينام الشيخ في طرفها. وبعد الصلاة أخرج الرسالة من بين متاعه وناولني إياها وقال:

- اقرأ يا محيي... إن استطعت.

تناولت **الرسالة** من يده وفتحت غلافها وهممت بالقراءة. ثم اعترتني رعشةٌ فجأةً لا سبب لها. احتبست الكلمات الأولى في حنجرتي ولم أستطع دفعها أبعد منها. رفعت عيني إلى الشيخ فإذا

هو أعظم شأناً وأجلّ مكانةً من كل صورةٍ رأيته فيها من قبل. هممت بالقراءة مرةً أخرى فزاد ارتعاشي واهتزت الأوراق في يدي حتى كدت أخلع بعضها من خيطها. حاولت مراراً ففشلت وكأنما فقدت صوتي تماماً. فسقط الكتاب من يدي ورفعت إلى الشيخ عينين زائغتين قد مُلئتا خوفاً ورهبة.

حمل الشيخ **الرسالة** وعلى وجهه ابتسامةٌ طفيفة وناولها لأحمد وقال:

- اقرأ يا أحمد.

تناول أحمد **الرسالة** متوجّساً مما فيها والتفت إليّ بقلق، ثم استعاذ وبسمل، وفتح **الرسالة** وبدأ يقرأ. فخرج صوته واضحاً وقرأ بكل يسر حتى أوقفه الشيخ وراح يشرح. ومكثنا على هذه الحال، أحمد يقرأ والشيخ يشرح، وأنا صامت لا أسأل ولا أجيب. ذهبت رعشتي وظلت حيرتي مما حصل تعصف بذهني. فلما جاء العصر وصلّينا قال الشيخ:

- تمكث أنت معي يا محيي ويعود أحمد.

ثم التفت إلى أحمد وقال:

- تذهب إلى أهل محيي وتخبرهم أنه في خلوة معي حتى نتمّ **الرسالة**.

غادر أحمد ورحت أتأمل الصومعة الصغيرة متخيّراً زاويةً مناسبةً للنوم في حين كان الشيخ يصلي. وما أن فرغ من صلاته حتى أشار دون أن يتكلم إلى زاويةٍ قرب الباب لأنام فيها. خرج من الصومعة ومكثت أفكّر في حالي هذه. لم أكن قد مارست خلوةً من قبل ولا

أعرف ما يتعيّن عليّ فعله. الشيخ بلا خادم. هل أخدمه؟ لم أجلب معي طعاماً كافياً. ماذا سنأكل؟ لماذا اختارني الشيخ أنا لإتمام **الرسالة** معه وصرف الحريري؟ بقيت محاطاً بهذه الأسئلة حتى عاد الشيخ. قصد ركناً من الصومعة لم يكن ظاهراً لي من قبل، ثم عاد وملءُ يديه تمرٌ وتينٌ جافّ ووضعه أمامي وقال:

– أعرف أنك لم تجلب معك طعاماً. هذا طعامك.

– ولكن هذا كثيرٌ جداً يا شيخ. تكفيني خمس تمرات أو ست.

– هذا ليس طعام يوم. هذا طعامك لأسبوع.

ثم أشار بيده حيث جرة الماء وقال:

– احملها واتبعني.

خرجنا من الصومعة ومشينا باتجاه قمة الجبل حتى بلغنا نبعاً يخرج منه ماءٌ دافئ، فأمرني أن أشرب وأملأ الجرة. وكان الماء سيئ الطعم. توضأنا. وملأتُ الجرة وعدت أتبعه إلى الصومعة. وفي طريق نزولنا قلت له:

– يا شيخ، لقد شقّت عليّ قراءة **الرسالة** بسبب التعب ومشقة الطريق وأنا...

– لا يا محيي، لم يكن ذلك السبب.

– ... مشينا منذ الفجر ولم نتوقف، ولا بد أنّي تعبت.

– قلت لك ليس هذا هو السبب يا محيي.

كانت نبرته حازمة رغم خفوت صوته وهو يكلّمني دون أن يلتفت إليّ. شعرت بالحيرة من تفنيده لحجتي دون أن يخبرني بالسبب. بدا الأمر وكأنه يوبّخني على ذنبٍ لا أعرفه فلزمت الصمت حتى وصلنا

إلى الصومعة ودخلنا. وضعت الجرة وجلسنا. فتناول **الرسالة** من بين متاعه وناولني إياها مرةً أخرى وقال:

- اقرأ.

فقرأت. بسهولة ويسر. بلا عيٍّ ولا مشقّة. وقلبي هادئ وأنفاسي منتظمة حتى أمرني أن أتوقف، وقال:

- يجدر بك الآن أن تكون أكثر تعباً من ذي قبل، ولكنك قرأت.

- لماذا يا شيخ؟

- لأني في المرة الأولى قبضتُ يدي وأنت تقرأ فاستعصت عليك القراءة، والآن بسطتها فقرأت.

- وكيف يمنعني قبضك ويرسلني بسطك يا شيخ؟

- لأني شيخك. جعلني الله مرادك وأنت مريدي. أقبضك وأبسطك بأمر الله.. ثم أرسلك بعد أن تضع قدميك على أول الطريق.

مكثنا في الجبل أسبوعاً حفظت فيها **رسالة القشيري** عن ظهر قلب. واختليت بنفسي طويلاً وابتهلت إلى الله أن يعينني على الطريق الذي جعله قدري. ثم أرسلني الشيخ وظل في صومعته. فاتجهت إلى إشبيلية صباح يومٍ بارد لم أشعر فيه بالبرد، معتزماً سفراً طويلاً لم أشعر فيه بالتعب. ولما بلغت سفح الجبل أرسلت عيني إلى قمته حيث اختفت الصومعة. ودمعت عيناي على فراق شيخي فاستيقنت نفسي أني أصبحت مريداً حقيقياً يبكيه فراق مراده. تضاعفت هيبة الشيخ وهو في المنتيار أضعاف هيبته في إشبيلية. ولم أعرف سرّ ذلك رغم أني فكرت فيه كثيراً وابتهلت إلى الله أن يكشف لي فلم يفعل إلا بعد سنواتٍ طويلة وأنا في مكة. تدافعت في رأسي الأفكار بشكلٍ

غزير وانهمرت مثل شلالٍ من الرؤى فعرفت أنه الكشف فهرعت إلى قلمي وكتبت:

اكتملت في جبل المنتيار مكانة الشيخ الروحية. المكان ذكر. المكانة أنثى. آدم كان ذكراً لم يكتمل إلا بحواء. المنتيار كان جبلاً لم يكتمل إلا بالشيخ. إن آدم بلا حواء فردٌ لا ذرية له. إن الجبل بدون الشيخ تضريسٌ لا قيمة له. إن المكان بلا مكانة لا يكفي. لا بد من تأنيث المكان حتى تكتمل مكانته.

١٥

المخطوط في حلب

٦٥٧هـ/١٢٥٩م

قايضتُ تسعة عشر بقرة بجملٍ واحد وأظنني كنت من الرابحين. متى اقترب الأعداء من المدينة زادت أسعار الدوّاب التي ترحل وهوت أسعار الدواب التي ترعى. الباعة يعرضون كل ما في حوانيتهم ومخازنهم بأبخس الأسعار والناس يشترون كل ما يعرضه الباعة من موئن وزاد وعِلاف وتمر بكل ما في جيوبهم من دنانير ودراهم. هذا يتخفّف من بضاعته ليرحل وذاك يتزوّد لرحيله بما يحتاج. الجميع راحلون من استطاع إلى ذلك سبيلا. ومن يتأخر فقد لا يسعه ذلك. رأيت بعضهم يخرج من بيته إلى السوق ثم إلى خارج حلب مباشرةً دون أن يعود إلى بيته. ومن كان منهم نصرانياً آثر الرحيل غرباً باتجاه أنطاكية وأضنة وسيس وطرسوس، ولذلك احتشدوا عند باب أنطاكية غرب المدينة وخلعوا زنانيرهم التي كانوا يُعرفون بها وارتدى بعضها صلباناً صغيرة. وحمل كثيرٌ من الصاغة بضاعتهم قريباً من الباب لمّا علموا أن النصارى يشترون الذهب والفضة بادئ الأمر، ثم انقطعوا عن ذلك بعد

أن شاع بين الناس فعلهم هذا خشية أن يترصّدهم اللصوص وهم في الطريق إلى الديار النصرانية.

أما أغلب المسلمين فيتجهون جنوباً باتجاه دمشق وما ورائها إلى الحجاز ومصر. وقرت في قلوبهم خطب الجمعة طيلة السنة الماضية التي لم تتناول سوى شأنٍ واحد: النبوءة الإلهية التي تحققت بقرب يوم القيامة عندما ظهرت نار الحجاز التي تضيء لها أعناق الإبل ببصرى. جمعة بعد جمعة ظل الخطباء يحذّرون الناس من اقتراب يوم القيامة ويسردون عليهم علاماته وأحداثه المرتقبة. ولما سقطت بغداد بيد التتر أشاعوا بين الناس أن هولاكو هو المسيح الدجّال ولا منجى منه إلا بالهجرة إلى الأراضي المقدسة. خطيبنا بالذات كان مؤمناً بذلك حق الإيمان:

> ... يا أيها الناس، إنما سمي المسيح الدجال بهذا الاسم لأنه يمسح الأرض في زمنٍ قصير. وهذا قائد التتر هولاكو لعنه الله قد مسح الأرض من أذربيجان إلى الشام في أسابيع. وهو أيضاً دجّال يدّعي الإسلام والإسلام بريء منه. فمن كان منكم يؤمن بنبوءة حبيبنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فليتّبع ما أوصانا به، فقد قال إن الدجّال يخرج من خلة بين الشام والعراق، فيعيث يميناً وشمالاً، وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه إلا مكة والمدينة.

وكانت فرائص الناس ترتعد في ساحة المسجد. وظل حديثهم مثل هذا في الساحات والأسواق والبيوت والمزارع والحمامات. يخفت كلما أطال هولاكو حصار مدينةٍ ما ويزداد كلما اجتاحها واقترب أكثر من حلب. حتى

سقطت ماردين أخيراً في يده ولم يعد بينه وبين حلب ما يحجزه عنها فدبّ الذعر في قلوب الناس. لم أرَ السوق الذي نشأت في أرجائه مذ كنت طفلاً في مثل هذه الفوضى من قبل. كل البضائع مصفوفة عند أبواب الحوانيت وليس في جوفها. الدوابّ تُساق في وسط السوق وليس في أطرافه ولكن لا أثر لأمناء السوق ليضبطوا شؤونه. أصوات الباعة أصبحت صراخاً عالياً يعلو بعضهم بعضاً. انتشرت البسط في غير مواضعها. بائع السرج في سوق العطّارين، وبائع القماش في سوق الحدادين، وفي الأزقة تناثرت أوعية وقناني وجرار مهشّمة وقمام يدوسها الناس بعد أن تخلّص منها الباعة لمّا لم يجدوا من يشتريها.

سقت الجمل إلى البيت على عجلٍ ووجدت أبي واقفاً عند الباب نافد الصبر. وفور أن رآني صاح بي:

- ما الذي أخّرك يا ولد! أسرع...

وكنت أنتظر ثورته إذا علم بصفقتي الخائبة ولكنه لم يفعل. رحت أحمل معه الصناديق التي خلّفتها ورائي يملؤها ويوصدها هو والعبد ياقوت وأنا أتساءل إن كان واعياً بما جرى. هل انتبه إلى أنني قايضتُ عشرين بقرةً بجملٍ أم لا؟ وقف يلهث وقد أكمل تحميل أحد عشر بغلاً بالصناديق والزكائب والمؤن، فقلت وأنا أمرّ بجانبه وكأني أحدث نفسي:

- عشرون بقرة بجمل! أي جنونٍ هذا.

فقال أبي دون أن يلتفت ناحيتي:

- المجنون هو الذي أخذ منك أبقاراً ستهلك بين يديه تباعاً.

ثم أشار إلى الهودج المطوي على الأرض وقال لي مستحثّاً:

- هيّا، انصب الهودج لأمك.

خرجت أمي أخيراً من الباب وهي تنفض يديها علامة الفراغ من العمل:

- لم يبقَ في الدار شيء يا طاهر.

- سنرحل قبل الغروب إذن.

دهشت أمي من قراره المفاجئ:

- ليلاً؟ ألا نصبر حتى الفجر.

- لا. حتى لو لم يصل التتر فإنه سرعان ما تعمّ الفوضى المدينة ويصبح خارجها أكثر أماناً من داخلها.

- وماذا عن اللصوص وقطّاع الطرق؟

التفت أبي ناحية أمي وابتسم لأول مرة منذ صباح اليوم وهو يقول لها:

- صدقيني لن ينقطع الطريق من حلب إلى دمشق البتّة! بل إنها حلب التي ستخلو من الناس بعد أيام قليلة.

طفرت على جفن أمي دمعة مفاجئة وهي تطرق برأسها على ميل وتتأمل عتبة الباب التي تقف عندها:

- ودارنا؟ وأهلنا؟ وجيراننا؟

فقلّد أبي نبرتها وهو يقول:

- وحانوتي؟ وتجارتي؟ وبضائعي؟

غرق وجه أمي دموعاً وتحشرج صوتها وهي تقول:

- يا لهذه الحال الكسيفة!

- علينا أن نحفظ رؤوسنا فوق رقابنا الآن يا أم إسماعيل. لقد سقطت ميفارقين وماردين والرّها قبلنا وهي أشدّ منعةً من حلب.

- كنت أظن أسوارنا أعلى وقلعتنا لا تقهر.

- إن حاصرونا متنا جوعاً. سمعتُ أنهم دخلوا ميفارقين بعد حصارها

عاماً فوجدوا أهلها كلهم موتى!

– لطفك يا رب...

جلست أستمع إلى هذا الحوار بين أبويّ وأنا أتميّز غيظاً وأرتجف خوفاً في الوقت نفسه. جيوش التتر تزحف نحونا وجيوش الناصر يوسف رابضة في دمشق كما يربض الدجاج على بيضه! لا نصرنا ولا انتصر لنفسه. والمسلمون كلهم بلا خليفة لأول مرة منذ بزغ فجر الإسلام. قطز في مصر والناصر في الشام والمغيث في الكرك! نعم والله إنهم دجاج كلهم. كل دجاجة تربض على بيضها حتى يأتي هولاكو ويكسر بيضهم كله!

دخل أبي إلى البيت وراح يطوف حجراته ليتأكد من خلوها. ثم خرج وراح يعدّ الصناديق التي فوق البغال عدّاً هامساً وهو يشير بإصبعه إلى كل صندوق يعدّه. ثم دخل البيت مرةً أخيرة وعاد يحمل صندوقاً خشبياً محكم الإغلاق جميل الصنعة عليه نقوشٌ ذات خطٍّ متقن وجميل، وضعه في خرج البغل الأول الذي يركبه هو ثم عاد ووقف أمام الباب حتى خرجت أمي وهي لا تزال دامعة العينين مصفرّة الوجه، وكلمت أبي:

– ألن نمرّ ببيت رقيّة؟ ربما احتاجت إلى مساعدتنا؟

– سنلقاهم عند باب قنسرين.

– وسمية؟

– كل بناتك سيكونون هناك مع أزواجهن. لقد طاف عليهنّ إسماعيل هذا الصباح.

دخلت أمي هودجها واستقرت فيه فأقمت البعير ووضعت خطامه في يد ياقوت الذي كان قد اعتلى بغلته فعلاً. ومشينا في قافلتنا الصغيرة وأنا أهجس في نفسي بقلق: "أي قافلة هذه بأحد عشر بغلاً وبعيراً لتاجر حلبيّ

لا تثير طمع كل لصوص المدينة وأرباضها؟". جاءني صوت أمي من داخل الهودج تذكّرنا بدعاء السفر. وما أن خرجنا من حيّنا حتى سمعتها تكلّم نفسها بصوتٍ يتهدج بكاءً:

- استرنا يا ستّير واحفظنا يا حفيظ.

بلغنا باب قنسرين لنجد السلفين ينتظراننا. أشار أبي لزوج سميّة أن يركب أحد البغال لما لم يجد معه راحلة ثم تجاوزنا الباب ونحن مع خلقٍ كثيرٍ هاربين من جحيم التتر الذي اقترب. مدينة بأسرها تنفض بنيها عنها كما تنفض اللديغة فراشها. رأيت جيرةً لنا وصحاباً وأصحاب حرف وأمناء بل رأيت جنوداً يلوذون بالفرار تتدلى خوذاتهم ودروعهم من رواحلهم فاطمأن بعضنا إلى كون القافلة محمية بمن يجيد حمل السلاح وإن كان فاراً من معركة.

قطعت هذه الطريق بين حلب ودمشق مراتٍ عديدة مع أبي ونحن نحمل تجارتنا بين المدينتين ونتجاوزها أحياناً إلى نابلس والكرك ولكن لم يسبق لي أن رأيت الطريق مزدحمةً بالمسافرين إلى هذا الحدّ حتى في مواسم الحج. وعندما بلغنا دمشق كانت مزدحمةً بشكل لم أره في حياتي قط. ولولا حظوة أبي عند بعض تجارها لما وجدنا مكاناً ننام فيه تلك الليلة ونؤوي دوابّنا. ولكن أبي كان قد أرسل قبل مجيئنا من يضمن لنا داراً ومأوى. أما أغلب من رافقنا المسير فقد نصبوا خيامهم في أطراف المدينة. المئات منها في صفوفٍ غير منتظمة، يجوس بينها رجال ونساء وأطفال وعبيد وباعة متجولون وبهاليل جلبهم الفضول وفضلاء جاؤوا ليتصدقوا على عابري السبيل.

صباح اليوم التالي لوصولنا قال أبي:

- أنا ذاهبٌ إلى ضريح سيدنا. من شاء منكم أن يصحبني.

خرجت معه أنا وأمي وسمية. أما رقية التي كانت حبلى فقد آثرت أن تبقى

مع زوجها الذي قرصته عقربٌ في السفر وأصابته الحمّى. خرجنا مشياً إلى قاسيون حيث مقابر آل الزكيّ ودخلنا معاً وأبي يحمل معه الصندوق الجميل. وقف أمام الضريح المغطّى بالجص وسلّم على الشيخ الأكبر وراحت أمي وسمية تدعوان بهمسٍ لا أسمعه. وسلّمتُ بدوري على الشيخ الذي رافقه جدي سودكين سنواتٍ طويلة على الطريق. ثم قام أبي وقصد خادم الضريح في ركنٍ منزوٍ يقرأ القرآن. سلّم عليه ثم جلس بين يديه وقال:

- هذا كتاب لشيخنا الأكبر بخط يده أوصاني به والدي وهو على فراش الموت أن أحفظه كما أحفظ عيني التي في محجري. وإني لا أعرف مكاناً أكثر أماناً له من ضريح صاحبه. فهل من سبيل لأضعه داخل الضريح؟

بدا الاهتمام الشديد على وجه خادم الضريح فطوى المصحف الذي بين يديه والتفت جهة أبي وهو يسأله:

- أين هو؟

وضع أبي الصندوق أمامه وفتحه لتظهر الأوراق المجلّدة تجليداً حسناً وقد زخرفت أطرافها بيد ورّاقين مهرة على ورقٍ حلبيٍّ صقيل معالج بمواد تحفظه من التقادم، فبدت صفحاته لامعة وخطه واضحاً. مسّ خادم الضريح الكتاب وندّت من فمه تنهيدة واستعبر وظهر في عينه التماع دمعةٍ حبيسة.

- بلى صدقت. نردّ الوديعة إلى صاحبها.

السفْر الثالث

١٦

" الزمانُ مكانٌ سائلٌ، والمكانُ زمانٌ متجمِّد"

ابن عربي

توفّي أخو الخليفة فجأةً فتعيّن على أبي السفر إلى مراكش. رجوته أن أرافقه فوافق وأمرني أن أستعدّ للسفر ثم نكص. أخبرني أن الوفد قرر السفر عبر النهر حتى بحر الظلمات كسباً للوقت والمركب لا تتّسع لي. ربت على كتفي بحنوّ وقال:

- لو كانت قافلةً لكان تدبير راحلة أمراً سهلاً.

انقبض قلبي وشعرت بحزنٍ مشوب بيأس. انكمشت أسوار إشبيلية في عيني حتى غدت سجناً حجرياً هائلاً لا فكاك منه. بلغت الخامسة عشرة دون أن أرى من هذا العالم الواسع سوى مرسيّة وإشبيلية. أدمعت عيناي أمام أبي فرقّ قلبه وقال:

- لا تأس يا بنيّ. إن عدتُ من سفري آخذك إلى قرطبة.

عاد بعد شهرين ومعه صندوقٌ كبير من حجر الشبّ قال إن صديقاً له من التجار أوصاه به. لا أدري كيف وجد في المركب مكاناً

لصندوق يبلغ ضعفي حجمي ولم يجد مكاناً لي. كان بادي الحبور بعد عودته. سرّ الخليفة بمقدم الوفد وهيّج حضورهم اشتياقه إلى إشبيلية فأمر لهم جميعاً بعطاءٍ سخيّ ثم كتب معهم كتاباً إلى واليه جاء فيه: "... وبما أفاء الله علينا من فيض الخراج وخيرات الغنائم، أمرنا بوضع المكوس كلها عن إشبيلية فلا يؤخذ من أحدٍ شيءٌ بعد اليوم، والحمد لله وحده". فأعلن الوالي ذلك للناس من يومه وأرسل إلى الخطباء أن يذكروا ذلك في خطب الجمعة ويدعوا للخليفة بالنصر والتمكين في قمع الخارجين عن حكمه في قفصة وما جاورها.

كان من العطاء الذي أمر به الخليفة لأبي فرساً عربية وحليّاً مراكشية لأمي. ولكن سرورها بالحليّ تبخّر سريعاً لمّا علمت أن الخليفة وهب أبي جاريةً قشتالية من الجواري اللاتي كنّ يردن إلى بلاط الموحدين من ألفونسو كل سنة كجزءٍ من الجزية المفروضة عليه. لم يُبلغنا أبي بشأنها أول الأمر حتى إذا مرّ أسبوعان من وصول أوامر العطاء إلى الوالي جاءت درّة إلى بيتنا محمولةً في هودج صحبة جنديين. أدخلها أبي فور وصولها حجرة أختيّ ثم دخل على أمي وقال لها:

– اسمعي يا نور. لقد وهبني الخليفة جاريةً، وإني لا أريد منها ولداً، فلا تثيري المشكلات وإياك وسوء الأدب.

تماسكت أمي أمامه وهي تعده بالسمع والطاعة. فلمّا خرج بكت بصمت وولولت وهي تعضّ على مخدة حتى لا يعلو صوتها. حتى إذا أفرغت ما في صدرها من البكاء والزفرات قامت إلى حجرة الفتيات لتجد درّة جالسةً في طرفها صامتةً والفتاتان تحاولان التقرّب منها

والكلام معها. أمرتها أن تنهض وتتبعها. طافت بها أرجاء البيت حجرةً حجرة، ثم علّمتها كيف تقوم بشؤون أبي وتغسل ثيابه وتعدّ سريره وتسخّن وضوءه وتنظّف حمامه. وقالت لها:

– أصبحتِ منذ اليوم مسؤولةً عن كلّ ما يتعلق بسيدكِ.

ولمّا عاد أبي مساءً استقبلته أمي بأدبٍ وترحاب ثم قالت له:

– بارك الله لك في جاريتك. لقد وصفتُ لها أعمالها وشرحتُ لها كيف تقوم بخدمتك. وأنا كما ترى كبرتُ ولم أعد أطيق العمل. وهذا الصداع لا يكاد يفارقني. فإن أذنت لي أن أقيم مع بناتي في الحجرتين الشرقيتين وتقيم أنت ودرّة في الحجرتين الغربيتين، ويقيم محيي في الحجرة السفلى. إن ذلك أصلح لك من الانتقال بين سريرين كل ليلة.

أذن لها أبي بعد أن تظاهر بالامتعاض وعدم الرضا وإن كان راضياً في داخله. عكسي أنا الذي أبديت الرضا وفي داخلي ضيقٌ وحزن. لا شيء في هذا البيت يلهمني علوَّ الهمّة ولا بلوغَ المراد. أمي البكّاءة المستسلمة وأبي الحائر بين الدنيا والدين. بلغت أختاي عمر النساء وصرن يلبسن الخُمُر ولكنهما لا تكادان تدركان الفرق بين العدس والعلس، ولا تهتمان بغير تناقل الحكايات وترقّب المزيّنات وترديد الموشّحات. حتى سلّوم لا يكاد يكلّم أحداً وكأنه ثورٌ مربوط في ساقية يعلف ويعمل فحسب. شعرت أن عائلتي تعيقني عن المسير وتحرمني من المراد. ولن يلبث أبواي أن يشيخا فأنشغل بهما وأختاي تتزوجان فيخلو البيت عليهما.

ثمة أسير في صدري يريد أن ينطلق. شمسٌ تنتظر أن تشرق. قافلةٌ تتوق لأن ترحل. في البيت ينشغل أبي بجاريته وأمي ببناتها

وخارج البيت لا جديد. خفتت حتى حلقات العلم ومجالس الذكر ما دام الخليفة قد رحل وفي حاشيته كل العلماء والفقهاء والفلاسفة والأطباء. خوت إشبيلية من كل ما يقدح الفكر ويثير العقل. لم يبقَ في المدينة بأسرها شيخٌ يُعتدّ بعلمه إلا حضرت درسه وقرأت كتبه، ولم يبقَ ورّاقٌ إلا غشيت دكانه وتفحصت مخطوطاته. حتى يوسف الكوميّ دخل في خلوة في المنتيار وأوقف كل دروسه. استولى عليّ الملل وهو شيطانٌ من الشياطين، يقتل الهمّة ويرخي العزم.

مشيت مع الحريري عصراً بجانب النهر لا نلوي على شيء. كان أقصر مني قامةً حتى ليبدو وكأنه أخي الأصغر على الرغم من كونه يكبرني بعامين. اشترينا لوزاً محلّى بالسكّر وجلسنا على ضفة النهر نتحدث. قلت له إن بيتنا لا يطاق. أمي مصدوعة دائماً. أختاي في شأنهما. أبي بين بلاطه وجاريته. العجوز التي تقيم وراء بيتنا لم تعد تشتم فقط بل أصبحت ترمي بالحصى والنعل من يمرّ منّا أمام بيتها. سمع الحريري كل ما قلته ثم ضحك وهو يقول إن حال بيتهم ليس أفضل من بيتنا. أمه مسنّة لا تقدر على رعاية نفسها، وأخوه الأكبر الذي يعمل خيّاطاً يتعهدها بالرعاية. أبوهما كان جندياً في جيش المرابطين مات يوم دخول الموحدين إلى الأندلس.

- ما رأيك أن نهرب؟

قالها الحريريّ بذلك الجذل المشوب بالمرارة. هززت رأسي وابتسمت دون أن أردّ عليه. فاستطرد قائلاً:

- نذهب إلى مصر، أو إلى دمشق، أو ربما دار السلام.

كان قلبي يخفق اشتهاءً لكل هذه المدن. تلذذت بما يقول رغم

هزله، وتركته يسترسل في أحلامه وهو يقضم اللوز المحلّى ويتأمل الأفق الذي يختفي فيه آخر النهر:

– هل سمعت بابن جبير الغرناطي؟ له كتابٌ عند الورّاقين.

– عن ماذا؟

– عن رحلته إلى مكة. والناس تتداول في شأنها قصةً مضحكة.

– وما هي؟

اعتدل في جلسته والتفت ناحيتي وابتلع ما كان في فمه من لوز ثم قال في جذل:

– حسناً، يقول الورّاق الذي قرأت الكتاب في دكانه إن والي غرناطة استدعى ابن جبير ليكتب له رسالة، فدخل عليه ابن جبير والوالي يشرب الخمر، فقدّمه لابن جبير فرفض، فهو تقيّ، فغضب الوالي وأقسم على ابن جبير أن يشرب سبعة كؤوس.

غصّ الحريري بضحكه وتوقّف عن الكلام واتّسعت عيناي من الدهشة. أنهى الحريريّ ضحكاته ثم قال:

– تخيّل رجلاً لم يذق الخمر في حياته يشرب سبعة كؤوس تباعاً...

وكركر الحريريّ بصوتٍ عالٍ وراح يقبض على بطنه من الضحك فأجبرني ضحكه أن أضحكَ معه حتى انتهى وقد دمعت عيناه وقال:

– المهم. يقول الورّاق إنه لمّا شرب ابن جبير الكؤوس السبعة قام فسقط، ثم أفرغ ما في جوفه، ثم انكفأ على وجهه. فرقّ الوالي لحاله فأمر حاجبه أن يملأ له سبعة كؤوس بالدنانير الذهبية.

– ذلك أقلّ ما يعوضه عن تقواه!

– أفاق ابن جبير وعاد إلى بيته ومعه كل هذه الدنانير، فقرر أن

ينفقها في الحجّ تكفيراً عن ذنبه، فسافر إليها ومرّ بمصر والعراق وصقلية وكتب كتابه الذي لم يذكر فيه سبب رحلته بالتأكيد.

- أين أجده؟

- عند ورّاقٍ تونسيّ دكانه من الدكاكين التي بين المسجد والممر الذي يخرجك إلى سوق الصاغة. ستعرفه حتماً. في عينه اليمنى حولٌ ودكانه على ميلٍ كأنه مثلث.

- كيف تعرفُ هؤلاء الوراقين؟ لم أره هذا الوراق من قبل.

- أغلبهم يجلبون كتبهم بعد نسخها ليخيطها لهم أخي محمد. فصرت أعرفهم جميعاً، ويسمحون لي أن أقرأ عندهم بلا ثمن.

- غداً نذهب.

١٧

"كل وَرَعٍ مقصورٍ على أمرٍ دون أمر لا يُعوّلُ عليه"

ابن عربي

منذ عرّفني الحريري على من يعرفه من الورّاقين صار سوقهم بيتي الثاني. ولكني لم أكن أقرأ بلا مقابل بل أنقدهم ثمن كل كتاب أقرأه وكل كتاب أطلبه منهم. وكلما ازداد الكتاب غرابةً كلما ازددت فضولاً وازداد طلبه صعوبة. حتى أذهب من ورّاقٍ إلى ورّاق فيأخذونني معهم إلى مخازنهم ويفتشون بين نسخ قديمة عن بغيتي. سلكت الدرب الذي تصطف عليه دكاكينهم عشراتٍ المرات. لم يبقَ منه دكان إلا دخلته باستثناء الوراقين الذين يبيعون كتباً قشتالية ويونانية لا أفهم حرفها. وعند هؤلاء يجلس تراجمة يترجمون كل كتاب بعُشْرِ وزنه فضةً إلى العربية وبنصف العشر إلى القشتالية. ذهبت إلى أحدهم أحمل كتاباً يونانياً وعاقدته على ترجمته لي فوزن الكتاب ونقدته نصف الأجر. إلى جواره يجلس رجل في الستين من عمره ذو ملامح قشتالية، قصير القامة، طيب العينين يبتسم لكل من يمرّ به. راح يتأمل

في الكتاب الذي يقبع في ميزان الترجمان ثم نظر ناحيتي وهزّ رأسه علامة الإعجاب، ثم سلّم عليّ وقال:

- أدفع نصف أجر الترجمان إذا سمحت لي أن آخذه بعد ترجمته للنسّاخين ينسخون منه نسخة.

- لا بأس، ولكن عليّ أن أقرأه أولاً.

- طبعاً طبعاً، لا عجلة.

كان هذا هو فريدريك. استجابة الله لدعائي أن يرفع عن قلبي الملل ويُذهب عن عقلي الكسل. لم يكن عنده دكان في سوق الورّاقين ولكنه مثلي لا ينقطع عنه. تجاذبت معه أطراف الحديث يوماً بعد يوم فوجدت عنده إجابة كل سؤال عن كتب الإغريق والفرنجة، بل وجدته يعلم كثيراً عن كتب الهنود والصينين التي لا نكاد نجد لها ترجمات عربية. دعاني إلى بيته. استأذنته أن أجلب معي الحريري فوافق. ذهبنا إليه معاً وطرقنا الباب فخرج علينا فريدريك مبتسماً ورحّب بنا بلكنته القشتالية.

في مجلسه تسعة رجال وامرأتان. يجلس في المنتصف رجلٌ يقرأ كتاباً والبقية يستمعون. تأملت وجوههم على عجل فإذا رؤوسهم وعيونهم مختلفةٌ ألوانها. عربٌ ومولّدون وفرنجة وبربر. اتّخذنا مجلساً قريباً من الباب حيث أشار لنا فريدريك وأصخنا السمع فكان الكلام عن فيثاغورس والرجل الجالس يقرأ باليونانية ثم يترجم إلى العربية من لحظته. ظلّ يتحدث ويترجم، ثم قام من منتصف المجلس واتّخذ مجلساً إلى جوارنا، وقام رجلٌ آخر وتربّع في منتصف المجلس وأخذ يقرأ من كتابٍ آخر باليونانية ويترجمها إلى العربية

الرجل الذي تحدث قبله: "المنطق وحده هو الخلود، كل شيء غيره فان". فهمست في أذن الحريري: "لعمري إن هذا الذي أغوى ابن رشداً!".

أصبحت أنا والحريري من أكثر الحضور تردداً على مجلس فريدريك ليلتي السبت والأحد. وهو يهشّ بحضورنا ويبشّ. وكنت أستبق موعد الجلسة أحياناً فأجلس مع فريدريك وابنته نتحدث قبل مجيء الآخرين.

- متى وفدت على إشبيلية يا فريدريك؟

- لم أفد. أنا ولدت هنا.

- أبوك إذن؟

- بل جدي. كان أسقف الكنيسة قبل دخول الموحدين.

- عشت في إشبيلية طيلة عمرك إذن؟

- لا، لم أعش فيها. نزحنا عنها نحو الشمال وأنا طفل، وعشنا في قرية قرب طليطلة.

- وماذا عاد بك؟

- عدت بسبب الحرب؟

- حرب المرابطين والموحدين؟

- لا لا، حرب في قشتالة نشبت بين النبلاء على وصاية ألفونسو الثامن الذي تولّى العرش طفلاً. فكرت في الذهاب عند عمومة لي في فرنسا ولكن خفت على كتبي التي ورثتها عن جدي أن تتعرض للمصادرة والحرق. فقد ورثت عنه مكتبةً تعجّ بمخطوطات اليونان والرومان ترجم بنفسه بعضاً منها إلى العربية والقشتالية. وفي حيرتي

سمعنا أن الموحدين لا يؤذون النصارى مثل المرابطين. كانت زوجتي قد ماتت وابنتي غالا بعد في الرابعة عشرة من عمرها فرحلنا معاً إلى إشبيلية.

وكأنما سمعت غالا اسمها فدخلت علينا ترتدي ثوباً طويلاً يغطّي كل جسمها عدا عنقها ووجهها وشعرها المجعد الغزير. كانت عيناها لوزيتين وضيقتين بعض الشيء، وفي نظراتها إلي عدم ارتياح بيّن. راحت تنفض الحشايا وتصفّها على الجدران استعداداً لمجيء الضيوف وتتشاغل بذلك عن الكلام معي أو الاستماع إلي. تشاغلتُ عنها بدوري واستمر فريدريك في حديث عودته إلى إشبيلية.

- وجدت بيت جدي مهجوراً فاشتريته. واشتريت مزرعة بهشية على الجروف المحيطة بإشبيلية سآخذكم إليها يوماً فهي جميلة في الربيع. سترون الدودة القرمزية التي نستخلص منها صبغاً للثياب تحبه القوطيّات كثيراً. أبيعه للقوافل التي تتاجر بين الأندلس وفرنسا.

طُرق الباب فجأةً وهرعت غالا إليه وكأنها فرحت بقدوم من يجعل مقامها أكثر ارتياحاً. دخل الرجال الذين لم أتعرف على أسماء بعضهم بعد. ألقوا علينا التحية بلغات مختلفة كنت أردّ ما كان منها بالعربية، وشعرت بالغيرة من فريدريك وغالا اللذين كانا يردّان كل التحايا وينتقلان في الحديث بين العربية والقشتالية بسلاسة وارتياح.

قدّم لنا فريدريك نبيذاً. أخذت الكأس في حين تردّد الحريري قليلاً ثم أخذه تقليداً لي. رشفت منه رشفةً فلاحظت ارتباكه وحيرته. أنهيت شرابي والحريري بعد لم يُدنِه من فمه. التفتُّ إليه أخيراً وقلت له:

– ألن تشرب؟

– أخاف؟

– ممَّ تخاف؟

– أن يقبضني الله وأنا على معصية.

– ولكنك لست على معصية؟

– وكيف هذا؟ أليست الخمر محرمة؟

– بلى. ولكنك مؤمن. وإيمانك متّصل ومعصيتك متقطّعة. فإن قبضك الله سيقبضك على الإيمان فتكون خاتمتك حسنة.

– حقاً؟

– أجل.

قرّب الحريري الكأس من فمه وشرب قليلاً. نظر إلى عينيّ فأومأت إليه بالتشجيع. ابتسم وابتسمت، وارتسمت على وجهه ملامح اللهو فشرب كأسه كله. ملأ فريدريك كؤوسنا مرةً أخرى فشربنا. سألني الحريري:

– من أفتاك بهذا الإيمان المتّصل والمعصية المتقطعة؟

– لم يُفتِني أحد. كشف الله لي ذلك كشفاً.

جرع الحريري بقية كأسه الثالثة وقال:

– عجباً! لم يكشف لي الله ذلك وأنا معك في كل حلقة ودرس!

– إنما الكشف على قدر العارف. ولا بدّ أن يكون ذا ذوق.

– نعم صدقت. بالنسبة للذوق. ما ذقت أطيب من هذا الشراب.

– أيها الكاذب. إنه أول شراب تذوقه في حياتك!

– يا الله! وكشف الله لك هذا أيضاً؟

ضحكت من سخريته الهادئة وقلت:

- بل كشفته لي عيناك اللتان يبدو فيهما السكر واضحاً.

- كم شربنا؟

- أربعة كؤوس.

- هذا أقل مما شرب ابن جبير. لا بدّ أن نشرب سبعة حتى نسافر مثله.

ثم صاح في فريدريك:

- تنقصنا ثلاثة كؤوس يا فريدريك. نريد أن نرحل إلى المشرق!

١٨

"تتلوّن الحقيقة بوعيّ العارف كما يتلوّن الماء بلون الزجاج"

ابن عربي

قضت درّة ليلاتها الأولى في فراش أبي فهدأ ولعه وقرّر أن يفي بوعده لي. انطلقنا في قافلة طويلة إلى قرطبة فيها رسل من الوالي يحملون رسائلَ وأموالاً وبضائعَ، وتجارٌ صغار لا يملكون قوافلَ كبيرةً فيستغلون قافلة الوالي ليحتموا بها، وبعضهم خدمٌ وعبيدٌ مستأجرون لخدمتنا في الطريق. أبي قائد الركب والجميع يأتمرون بأمره. خرجنا من البوابة الشرقية واتجهنا شمالاً ثم شرقاً في الأيام الأولى من رمضان. الطريق لا تحتاج إلى دليل ولا نجوم ولا فراسة. نهر الوادي الكبير يصل بين المدينتين ولا يحيد باستثناء اعوجاجه في بعض الأماكن، فيمشي المسافرون بمحاذاته حتى يصلوا.

لاح لنا في صباح اليوم التالي قطيعٌ من الحمر الوحشية فخرج إليهم جماعة من الرجال يريدون صيدها. استأذنت أبي أن أخرج معهم فرفض مشدداً أننا في سفر وهو مؤتمن على قافلة ولسنا في

معرض لهوٍ وصيد. وأضاف قائلاً:

- ... لا سيما والبرتغاليون يترصّدون قوافلنا؟

- هل نحن في حربٍ معهم؟

- بالتأكيد. ألا تعي ما نحن فيه؟ دمّر أسطول الخليفة نصف سفنهم.

- ولِمَ لم يقضِ عليهم بالكلية؟

- ليس الأمر بهذه السهولة. البرتغال أشد الفرنجة مراساً وأقواهم عزيمة.

- وهل يهددون القوافل؟

- بل نهبوا عدداً منها بالفعل وقتلوا أفرادها.

- وماذا سنفعل؟

- لدينا أنباءٌ أن الخليفة في مراكش استخار الله في غزوهم.

في اليوم الثالث تراءت لنا أسوار قرطبة عن بعد. دخلنا وقت العصر وتوالت عليّ المفاجآت الصغيرة التي تحدث لفتى يدخلها أول مرة: الرجال لا يغطّون رؤوسهم ويرسلون شعورهم الطويلة على الأكتاف؛ الشوارع مضاءة بالفوانيس التي تضاء ليلاً وتطفأ فجراً؛ الأبنية مشتبكة ببعضها لا أزقة بينها تجتمع فيها الأوساخ أو ينام فيها الشحاذون؛ عرباتٌ تجرّها الثيران تطوف بالأزقة وتجمع القمامة؛ حسن ملبس الناس كافة وكأنهم في يوم عيد.

توغّلنا في المدينة حتى اقتربنا من سوقها. اقترب منا بعض صبيان التجار يسألون عمّا نحمل من بضائع. بدأ بعض التجار الصغار الذين كانوا في معيّتنا بالتفاوض معهم على الفور وانتقلت البضائع بين

الرحال وتمّت البيوع. وقبل وصولنا إلى قلب المدينة وافتنا جوقة فرسان من قصر الوالي قادتنا إلى القصر حيث سلّم أبي الأحمال الرسمية للقافلة إلى كتبة البلاط وتكاتبوا على التسليم ثم تفرقت القافلة، فذهب الجنود إلى دار الجند، والتجار إلى خان التجار، وذهبت أنا وأبي وعبدنا المستأجر إلى نزلٍ يقيم فيه ضيوف الوالي قريبٍ من الجامع الكبير. خرجنا إلى الحمّام لنغتسل من وعثاء السفر. ولما انتهيت لبست قميصاً وسروالاً وجبة، وبقيت حاسر الرأس وقد مشّطه لي أحد عمّال الحمام وصار ناعماً تكاد أطرافه تمسّ كتفيّ. وافيت أبي الذي كان جالساً في حجرة ما بعد الحمّام يشرب نقيع نعناعٍ ساخن فضحك لمرآي على هذه الصورة:

- صرت قرطبياً؟

- ألم تسمع مقولة إمبروز الإفرنجي: إن صرت في روما فافعل ما يفعله الروم.

- من أين سمعت هذه المقولة؟ لا أعرف لك أصحاباً من الفرنجة في إشبيلية.

- سمعتها عند رجلٍ اسمه فريدريك يسرد في مجلسه أخبار الروم والإغريق وعلومهم وآدابهم، وعنده بنت اسمها غالا هي التي ذكرت هذه المقولة.

ابتسم أبي ابتسامةً متوجّسةً ثم قال:

- وكيف تبدو غالا هذه؟

- جميلة مثل كل الفرنجيات يا أبي.

فاعتدل في جلسته والتفت إليّ قائلاً:

- ابني لن يتزوج من الفرنجة، هل تفهم؟

- لم أقل إنني راغبٌ بها. أنا لن أتزوج يا أبي. الزواج ليس للأولياء.

- وهل صرت ولياً؟

- ليس بعد، ولكني سأصير ولياً بإذن الله.

- تعني وليّاً كهؤلاء الذين يهيمون في الطرقات بلا هدى؟

- بل على هدى من ربّهم يا أبي يضيء قلوبهم ولا يرى ذلك إلا مهتدٍ مثلهم.

تنهّد أبي وقال:

- يا بنيّ، إن كنت تظن أن العمر الذي قضيته في خدمة البلاط هو لنفسي فقط فقد أخطأت. لقد مهّدت لك فيه طريقاً يختصر عليك السنوات ويخفّف عليك المهمات. وبوسعي أن أحدّث بشأنك أولي الأمر فتكون كاتباً عند أحدهم، ثم ربما تصير بعد ذلك كاتباً عند الخليفة.

- ولا هذه يا أبي. أريد أن أكون وليّاً فقط.

- وكيف تصير وليّاً؟

- الله الذي يختار أولياءه، وحسبي أن أكون مستعداً لاختياره متأهباً لأقداره.

- ... وستبقى سادراً بلا عمل حتى يختارك الله ولياً؟

- بل أطلب العلم وأثني الركب وألزم الشيوخ. إن هذا أحب لقلبي يا أبي من البلاط والخلفاء. فلا تُلزمني ما أكره فإن القلب قد تعلّق بالله فلا تصرفني عنه.

مدّ أبي رجله وركلني في جنبي وهو يصرخ:

– أعوذ بالله! أتراني شيطاناً يصرفك عن الله يا ولد. قم لا بارك الله فيك واغرب عن وجهي!

غربت عن وجه أبي طيلة اليوم. ذهبت لأزور فاطمة بنت المثنى في بيتها وبلغته بعد مشي طويل فإذا هي تقيم في حجرةٍ صغيرة في آخر زقاقٍ يؤدي إلى مزبلة المدينة. كانت القمامة تحرق والدخان الأسود يملأ الزقاق ويخنق من يمرّ فيه. طرقت الباب ففتحت لي طفلةٌ صغيرة لا أعرف من هي اتضح أنها ابنة جارها يبقيها لدى فاطمة نهاراً ريثما يعمل، فتعتني كل واحدة بالأخرى. أدخلتني فإذا فاطمة جالسة في زاوية وعليها دثارٌ غليظ.

قبّلت يديها وقدميها وجلست إلى جوارها. مدت يدها بطرف دثارها تريد أن تغطّيني فقبلت رغم أني لا أشعر بالبرد. جلسنا متلاصقين في الزاوية نفسها يغطينا دثارٌ واحد. تأملت ملامحها عن قرب وكل تجعيدة جديدة في وجهها تجعلها أجمل. سألتها عن كل ما يسأل عنه ابنٌ أمه بعد غياب فقالت كل ما تقوله أمٌّ لابنها العائد. ضعف كل ما فيها إلا صوتها ظلّ ناعماً هادئاً كأنها شابة. سألتها بعد كلام طويل:

– أماه، لم أجد وتدي بعد.

– ولكنه وجدك.

– فلمَ لم يفصح عن نفسه؟

– حتى تصير أهلاً لذلك.

– قلتِ حتى أطهّر قلبي. أليس طاهراً بما يكفي؟

– وكيف طهّرته؟

- حملته على مكارم الأخلاق وصفاء السريرة وحسن النيّة حتى صيّرته رافضاً كلَّ صورةٍ غير ذلك.

- تلك نصف الطهارة يا بنيّ.

- وكيف أتمّ نصفها الآخر؟

- بأن تُصيّره قابلاً كلَّ صورة!

١٩

"الخفيُّ في الجليّ"

ابن عربي

كان وصولنا إلى قرطبة فألَ سوءٍ على فقيه قرطبة الكبير خلف بن بشكوال الذي توفي ونحن على مشارفها. ذهبت مع أبي إلى دار عزائه فإذا الناس متّشحون بالبياض جميعاً كأنهم يوم عيد. لاحظ أبي تعجبي فقال:

- إن أهل قرطبة يلبسون البياض حداداً.

- ففي أي مناسبة يلبسون السواد إذن؟

بدا لي في كل يوم أقضيه في قرطبة أنها نقيض إشبيلية في كل شيء. مرّ هذا الخاطر بذهني سريعاً وكنت أظنه سيزول ولكن العجب أنه تحوّل إلى حديث مجلس العزاء. دخل ابن رشد، فهبّ لمقدمه المجلس كاملاً وسلّموا عليه وهو مطرقٌ وعلى وجهه علامات الحزن وفي عينه بقايا دمعةٍ جفّت لتوها. تأملت من مكاني الرجلَ الذي مذ وطئت قدماي ترابَ إشبيلية واسمه يتردّد في كل محفل. فإن جلست

في الحلقة سمعتُ شيوخي يأخذون من أقواله ويردون، وإن جلست في دكان عميّ سمعته يستخدم أقواله في الطبّ ليروّج أدويته، وإن جلست في البيت سمعت أبي يتحدث عنه مثلما يتحدث عن جلساء الخليفة المقربين. حتى أمي تحدثني أنها سمعت من المزيّنة التي سمعت من امرأة يونانية متزوجة من تاجرٍ إشبيلي أن ابن رشد يقول أنْ لا فرق بين الرجل والمرأة، وأن للمرأة أن تحكم كما يحكم الرجال وتحارب كما يحاربون. وكانت تسألني:

– ماذا يقول شيوخك في هذا يا محيي؟

وماذا أقول لأمي؟ لم ينقضِ عقدان على انعتاقها من الرقّ والآن تفكّر في الحكم؟ بعض المزيّنات يجب أن تُكمَّم أفواههن قبل دخول أي منزل وحتى تخرج منه. كان ذلك في الأسبوع نفسه الذي أمر فيه الخليفة كل كتبة البلاط أن يتركوا ما بأيديهم وينكبّوا على نسخ تفاسير ابن رشد لأرسطوطاليس حتى صار الورّاقون يبيعون نسخته بربع درهم لكثرة النسخ.

فاض الكيل بشيخنا عبد القيوم الرنديّ الذي كنت أرتاد حلقته آنذاك في مذهب الشافعية، فجاء صباحاً وقال:

– حسبكم ما قرأنا. اليوم نقرأ **تهافت الفلاسفة**.

وأمر أحدنا أن يهرع إلى بغلته ويجلب من خرجها الكتاب فجاء به. تربّع ووضعه على فخذيه وراح يقرأ وقد بدا لنا أنه يقرأه لأول مرة وأن الكتاب لتوّه قد بلغه. "ابتدأت لتحرير هذا الكتاب ردّاً على الفلاسفة القدماء، مبيناً تهافت عقيدتهم، وتناقض كلمتهم، فيما يتعلق بالإلهيات، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على

التحقيق مضاحك العقلاء وعبرةٌ عند الأذكياء. أعني: ما اختصّوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء...» ثم رفع رأسه وحدثنا مباشرة:

- ... وقاضي قرطبة ليس عنهم ببعيد، أسمعتم به؟

فقلتُ على التو:

- ابن رشد.

فقال الشيخ:

- خيّب الله مسعاه. يقول في مجلسه: "الحَسَن ما حسّنه العقل، والقبيح ما قبّحه العقل". ويحه! فأين حكم الله والشرع؟

وكنت أقول في نفسي:

- ويحه! فأين وجيب القلب وكشف الرب؟

ها هو ابن رشد أمامي الآن. جلس في أول المجلس مع الأعيان وتناهى صوته إلى سمعي بوضوح. أرهفت السمع وكأني أتمنى أن يقول ما يزيد يقيني برأيي فيه. المجلس يتحدث عن ابن بشكوال. سمّاه أحدهم ابن قرطبة البارّ الذي ولد ومات فيها. ووافقه آخر وزاد أنه جلس للقضاء بإشبيلية بضع سنوات أيضاً. فالتفت ثالث إلى ابن رشد وقال:

- هل أدركته بإشبيلية؟

فهزّ ابن رشد رأسه بالنفيّ، ثم تحول الحديث إلى المقارنة بين إشبيلية وقرطبة بعد دقائق قليلة من الخاطرة التي هجستُ بها سراً في عقلي عن تضاد المدينتين. فإذا بابن رشد يقول:

- ما أدري ما نقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه

حملوها إلى قرطبة حتى تُباع فيها، وإذا مات مطرب في قرطبة فأريد بيع معازفه حملوها إلى إشبيلية حتى تُباع فيها.

ضحك الناس من قوله وهم في دار عزاء. شعرت بالغضب منه وهو يسيء إلى مدينتي في حين ضحك أبي مع الضاحكين. وعندما سلّم عليه أبدى أبي احتراماً شديداً له حتى أنه قبّل رأسه. عند أبي كان ابن رشد مثالاً لمن جمع المجد من أطرافه: عالمٌ وقاضٍ وجليس الخلفاء. هذا كل ما يطمح إليه أبي في حياته. فوجئت به صباح اليوم التالي يخبرني أن ابن رشد يريد أن يراني.

– أنا؟ لأي شأن؟

– يسمع منك وتسمع منه.

– من أخبره عني؟

– دعك من هذه الأسئلة التي لا تعنيك. اذهب بعد صلاة العصر إلى داره قرب القنطرة وسيدلّك إليها أحد عمال الوالي.

كبّرت لصلاة العصر وأنا أتخيل لقائي مع ابن رشد جزءاً من مؤامرة لإفسادي على نفسي. ولكن الصلاة طهّرت شيئاً من ظنوني فما أنهيتها إلا وأنا أرى الأمر لقاءً عادياً لا يستوجب التربّص والقلق. جلست عند عشرات المشايخ فقرأت منهم وسألت وسُئلت وجادلت بالذي أعلم، فبماذا سيختلف لقائي بابن رشد عن ذلك كله؟ خرجت من الجامع لأجد الفرس مسرجةً. أمسك السائس بخطامها واتجهنا إلى القنطرة.

بيته أصغر مما ظننت، كثير الأشجار على غير عادة بيوت قرطبة، ملتصق بالبيوت التي تليه فلا يمكن أن تدور حول فنائه دورةً

كاملة. أخبرني خادمه أن الشيخ في المجلس مع اثنين من تلاميذه وسينصرفان بعد قليل. دخلت عليهم وسلّمت معرّفاً بنفسي، فقام من مجلسه وسلّم عليّ سلاماً حارّاً وأجلسني إلى جواره. ثم عادت ملامحه تكتسي بالجدية وهو يكلّم طلابه ويشير إلى رسوم على ورق لم أعرف ما تعني. ثم التفت إليّ فجأةً وابتسم مرةً أخرى:

- حيّاك الله وبيّاك. كيف وجدت مقامك في قرطبة؟

وجدتني مكبّلاً بلطفه مضطراً إلى مجاملته. تذكرت من كلامه بالأمس في مجالس العزاء تفضيله لقرطبة فقلت:

- إنها منتهى الغاية وأهلها أولو علمٍ ودراية على عرقٍ كريم وعلمٍ واسع.

- أحسن الله إليك. فهل عرفت منها أحداً من المتصوفة؟

- كلهم لم أدركه. ولكن أدركت آثار يونس بن الصفّار وعبد الرزاق الغزنوي وغيرهما.

- وماذا عن أهل الفلسفة؟ هل أخذت منهم شيئاً.

وعندها شعرتُ أنه من تدبير الله لي بأن أذهب مع أحمد الحريري إلى مجلس فريدريك فأجبت بثقة:

- عرفت من علوم امباذقليس وفيثاغورس وأفلاطون.

ارتفع حاجباه بإعجاب وهزّ رأسه قليلاً ثم قال:

- وهل وجدت ما توصّل إليه الفلاسفة من القوانين الطبيعية تتفق مع رؤية أهل التصوف من الأمور الكشفية؟

- نعم.

- هذا جميل... و...

قاطعته قبل أن يتمّ عبارته:

- ولا أيضاً.

تراجع برأسه قليلاً إلى الخلف وعقد حاجبيه باستفهام وهو يسأل:

- ماذا تعني؟

- أعني نعم ولا.

- وكيف نعم ولا؟

- نعم، إنها تتفق في هذا العالم كما نشهده. ولكنها لا تتفق لأن العالم لا يستمر على ذات الحال.

- أوضح كلامك يا بنيّ... فأنا كبرت ولم أعد متّقد الذهن مثلك.

- إنما قوانين الفلسفة قوانين وضعية تفسّر ما مضى، ولكنها لا تفسّر ما سيأتي كما هو الكشف.

- نعم، إنها لا تتنبأ بالغيب ولكنها تضع القانون الذي إن حدثت فلن تخالفه.

- لا يوجد قانون.

- لا يوجد قانون؟!

- نعم، لا يوجد قانون. يوجد فقط خلقٌ متعلّق بإرادة الله تعالى.

٢٠

"كل نورٍ لا يزيل ظلمة لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

عدنا من قرطبة لنجد عمي عبد الله يُحتضر. انتفخت خصيتاه انتفاخاً عظيماً حتى أنه صار يضعهما أمامه مثل مخدة. ناله منهما أذىً شديدٌ ولكنه لم يجد لهما طبّاً، فأوكل أمره لله كما يليق بالأولياء. دخلت عليه مع أبي وهو يئنّ بصوتٍ خافت، لا ندري أنائمٌ هو أم صاحٍ. كلّمه أبي:

- سليمٌ يا أخي. سليمٌ معافى بإذن الله.

فتح عمي جفنيه ونظر إلينا ثم أجاب:

- الحمد لله على أحواله كلها.

- كيف حالك يا أخي؟

- بين يدي الله، إن بسط فهو رحمن وإن قبض فهو رحيم.

قبّلنا هامته وجلسنا حوله صامتين. راح أبي يجول بعينيه في أنحاء الدار ويحوقل. ورحت أنا أتأمل جبين عميّ المتغضّن ووجهه الذي

يكاد يجفّ مثل تينة يابسة. ولاحظت انفراج رجليه من تحت الغطاء فاعتصر قلبي من هذه الحال المحزنة. وفجأةً راح عمي يردّد شعراً دون أن يلتفت جهتنا:

- زمانٌ يمرُّ وعيشٌ يمرُّ
ودهرٌ يكرُّ بما لا يسرُّ.

ردّد أبي معقّباً على شعره بنبرةٍ متحسرة:

- شفاك الله وأنزل بك ما يسرّك يا أخي.

ابتلّت عينا أبي وأوشك أن يبكي. ضمّ كفّ عمي بيمينه وقبّلها ثم قام وقال:

- أتريد شيئاً؟

حرّك عمي رأسه بالنفي. التفت أبي جهتي وقال:

- امكث أنت مع عمك فلا خادم عنده.

ولزمت بيته أنا والشكّاز وأبي يغدو علينا ويروح ستة عشر يوماً حتى حانت منيّته. شعر أبي بذلك فقرّر أن يقضي الليلة معنا. فرغنا من صلاة العشاء فاستقبل عمي القبلة مضطجعاً واستعدّ للنوم وقال لنا بصوتٍ واهٍ:

- استريحوا. ارقدوا.

اتّخذنا مضاجعنا حوله ونمنا. فلما صار الوقت سَحَراً تنبّهت من نومي وكنت أقربهم إليه فوجدته لا يتنفس. تحسّستُ جبينه فإذا هو باردٌ كالثلج. أدخلت يدي في صدره لأتحسّس نبضه فإذا صدره دافئٌ بلا نبض، فعرفت أن روحه فاضت للتو فبكيت بكاءً عالياً استيقظ له أبي والشكّاز. وضع أبي جبينه على صدر عمي وصار ينوح ويردّد:

"يا أخي يا حبيبي، يا أبي بعد أبي"، حتى بللت دموعه قميص عمي.

قرّر الشكّاز أن يغسله بنفسه. وكان عمي قد أعدّ حنوطه وكفنه قبل أيام قليلة فأخرجها الشكّاز وشرع في تجهيزها. رفعناه معاً ووضعناه على لوح خشب فوق حجرين. خلعنا عنه ثيابه ما عدا العورة بين سرّته وركبتيه. غسل الشكّاز يدَي عمي، ثم لفّ حول يده خرقةً عدة مرات وأدخلها تحت الغطاء ليغسل عورته ثم توقف وقد ارتسمت على وجهه ملامح دهشة. سبّح الله ثم رفع الغطاء عن عورة عمي فإذا خصيتاه قد عادتا إلى حجمهما وكأنهما لم تنتفخا. سالت دموعنا وقال الشكّاز:

– إن هذه كرامة للأولياء، وفيها موعظة فلا حرج من النظر إلى عورته.

وراح الشكّاز وأبي ينشجان وهما يغسلان عمي عارياً ثم كفّناه. فلما استحال عمي جنازةً بيضاء بلا تضاريس انكفأ عليه الشكّاز باكياً، واستعبر أبي، وأما أنا فقد كانت عيناي أجفّ من الصحراء الكبرى التي جاء منها الموحّدون.

حملناه على الأكتاف وخرجنا إلى المسجد. وضعنا جنازة عمي في طرف المسجد وبدأ الناس في القدوم لصلاة الفجر وكلما دخل أحدهم ورأى الجنازة حوقل. وبعد الصلاة حمله بعضهم معنا إلى المقبرة ودفنه معنا جمعٌ يسير. وأشرقت الشمس وإشبيلية ليس فيها عميّ.

في الأيام الأولى بدا أبي متماسكاً رغم حزنه على فقد أخيه، غير أن أياماً تلت كشفت عمق حزنه. سقط آخر جدارٍ كان يستند عليه في

حياته فزاده ذلك قلقاً وحرصاً صبّه على رؤوسنا حتى أصبح كل شيء عنده بحسابٍ وميعاد. لا ينام حتى يوصد بابه ولا يخرج حتى يطوف بالبيت ولا ينفق إلا بمقدار ولا يأكل إلا القليل. مسّني نصيبي من ذلك أيضاً فأصبح دخولي وخروجي بمواعيد. وزاد شعوري بالحبس في إشبيلية. كلما حدّثته عن سفر حدّثني عن خطورة البرتغاليين. زاد الطين بلةً أن سقط في أيديهم حصن شنتفيلة قبل أسابيع وأسروا مئات المسلمين. حثّ خطيب الجامع أهل إشبيلية افتداء إخوانهم وأرسل أبي معي عشرة دنانير وضعتها في خرقة واسعة مُدّت على أرض الجامع يرمي الناس فيها دنانيرهم ودراهمهم وبعض الحليّ. جُمعت الفدية في أيامٍ قليلة بسبب تداعي الناس وكأن كلاًّ منهم يخشى على نفسه من مصيرٍ مماثل. حدّثت أبي بهذا ونحن نتناول العشاء فكانت كل كلمة تخرج من فمي كأنما تدقّ رأس أمي بمطرقة. سألتنا معاً:

– وكم يبعد عنا حصن شنتفيلة هذا؟

– مسيرة أيام.

راحت تحوقل وارتعشت يدها ثم دمعت عيناها وأسندت رأسها على باطن كفّها. سألها أبي بحنو:

– ما لك يا نور؟

– ما لي؟ الكفار يأسرون المسلمين على مسيرة أيام من هنا. ويلي أنا وبناتي!

– لا يطالك أذى لا أنتِ ولا بناتك! استعيذي من إبليس وكفّي عن هذا.

سكتت أمي ولكن أبي استشعر خوفها فقال:

- أتظنين الخليفة يسكت على فعلتهم هذه؟

- وماذا ينتظر؟

- ينتظر اكتمال الجيش وسيعبر به إلى الأندلس قريباً ويؤدّب هؤلاء الكفرة!

أخيراً عبر الخليفة بجيشه مضيق جبل طارق متجهاً إلى إشبيلية. نقل أبي هذه الأخبار لعبد الصمد وهما جالسان في الحديقة. يأكل أبي عنباً في حين يتكئ عبد الصمد بكلتا يديه على عصاه ويسمع كلام أبي باهتمام شديد:

- جيشٌ لم تَسمع به الأندلس من قبل! أكثر من خمسين ألفاً في البر وعشرون ألفاً في البحر!

يرفع عبد الصمد حاجبيه بتعجّب ويبقيهما كذلك في منتصف جبهته ويقول بصوت طويل:

- يا سبحان الله!

فيتابع أبي وصفه باندفاع:

- أرسلنا خراج هذا العام والذي قبله إلى الخليفة وفيه دروعٌ وسيوفٌ ومؤن بدلاً من الذهب. أتعلم لماذا يا عبد الصمد؟

وبدا أن عبد الصمد يعلم السبب ولكنه تظاهر بالجهل لئلا يحرم أبي لذة الكلام:

- لماذا يا أبا محيي؟

- لأننا إن أرسلناه ذهباً وأرسلت كذلك قرطبة وغرناطة وبلنسيّة ذهباً بخس ثمنه وقلّت قيمته لكثرته. لذلك أمر الخليفة أن ترسل كل مدينة له من الخراج ما يجهّز به الجيش.

هزّ عبد الصمد رأسه دلالة الإعجاب والفهم معاً وهو يردّد:

- يا سبحان الله!

- أجل. أجل. كل درعٍ وسيفٍ وسرجٍ وقوسٍ يباع في السوق نشتريه ونبعث به في ثلاثٍ قوافلٍ لا تنقطعٍ. الأولى إلى جيش البر الذي يقوده الخليفة في جبل طارق، والثانية إلى مصب النهر الكبير حيث أسطول البحر بقيادة أبي العباس الصقليّ، والثالثة عند أسطول البحر الثاني في وادي آنة بقيادة ابن الربتير.

- عليّ بن الربتير؟

- نعم.

- ابن العلج الأعرج؟

- أجل.

- يا سبحان الله! نصرانيّ يقود أسطول المسلمين.

- لقد أسلم يا رجل. أين أنت! ألا تعلم؟

- ما علمت. وكيف لي أن أعلم؟

- بلى أسلم. ثم إن أباه من قبله كان قائد جيش الروم في خدمة المرابطين.

- يا سبحان الله!

- المهم، يا عبد الصمد، يبدو أن الخليفة يعتزم أن ينتزع الخطر البرتغالي من جذوره.

استند عبد الصمد على عصاه ووقف مؤذناً بالخروج وهو يقول:

- وفّقه الله في مسعاه. لا بدّ أن أذهب الآن.

- تصحبك السلامة يا عبد الصمد.

٢١

"الحقيقة تأبى الحصر"

ابن عربي

في السوق بدأ أهل إشبيلية يستعدّون للحرب كلٌّ حسب ظنه بها. امتلأت سوق الحدادين بالمسلمين يشحذون سيوفهم ويشترون دروعاً لأجسادهم وخوذاتٍ لرؤوسهم وحدواتٍ لخيولهم خشية أن يستنفرهم الخليفة للجهاد ثم لا يكون في جيشه دروعٌ وخوذٌ تكفيهم. وأما النصارى فراحوا يشترون كل ما يستطيعون شراءه من المؤن القابلة للتخزين كالحبوب والزيت والزبيب ويخزنونها في بيوتهم خشية أن تنقطع القوافل بسبب الحرب أو الحصار وتتوقف المزارع بسبب تجنيد المزارعين المسلمين في الجيش.

غادر مع الجيش عبد الله القطان الذي شدّ لحية أبي ووعظه فلم يجدِ وعظه شيئاً. خرج ماشياً رغم توفر المركوب وهو يردّد:

– قدماي أحوج إلى الأجرِ والمثوبة من الدوابّ.

تجنّبت توديعه رغم أني أعرف أين أجده دائماً عند قوس الحنية، يعظ المارّة ويميط الأذى عن الطريق ويسقي الكلاب والقطط ويدعو النصارى إلى الإسلام ويسدّ أبواب الحانات على قاصديها ليلاً. سيسألني حتماً لمَ لا أخرج إلى الجهاد ويجعل سؤاله أقرب إلى التوبيخ منه إلى الاستفهام ولا يوجد عذر يمكن أن يقنعه بذلك. لن أجاهد تحت راية لا أؤمن بها. والحق أني لا أتمنى للجيش أن يُهزم ولكني أتمنى أن ينسحب باتفاق أو صلح فقط. هل يعلمون أن الحياة في سبيل الله أشقّ وأصعب من الموت في سبيله؟

أخيراً غادر الجيش وهدأت إشبيلية وأصبحت أكثر مللاً. قرأنا كل ما لدى فريدريك من كتب يونانية وبعض الكتب الرومانية التي فيها فلسفة. أوصيت أحد الورّاقين أن يجلب لنا من قرطبة كتباً فلم يجد سوى كتابٍ سيئ النسخ لشانكارا الهندي قرأناه في يومين ثم عدنا بلا كتب. عدنا لنقرأ كتباً سبق لنا قراءتها بشكل مختلف. نجلس في صفين متقابلين. يقرأ كل صفٍّ من كتابٍ ما عدة صفحات ثم يحلّ دور الصف الثاني ليأتوا من بين الكتب التي لديهم على ما له علاقة بما قرأنا. يطول النقاش في بعض الليالي حتى لا نتّفق على شيء. وفي أحيانٍ أخرى نخرج بما يدهش فريديك فيدوّنه حتى تشكل بين يديه أخيراً كتابٌ لطيف يردّ فيه زينون على أبيقور، ويعترض فيه أفلاطون على سقراط، ويحاجّ فيه ابن سينا كلاًّ من الرازي وجالينوس وابن مسرة.

بعد أسابيع أخبرنا فريدريك أن حصاد البهشية اقترب وأنه يقضي هذا الشهر في مزرعته ودعانا للانضمام إليه. اجتمع منا سبعة نصبنا

خياماً في المزرعة تحت كروم العنب التي يعصر منها نبيذه. استأجر لنا عازف عود وطبّال وراقصتين لا تغرب الشمس حتى يبدأون عزفهم ورقصهم. وقبل غروبها نقضي الوقت في الكلام والتنزّه والقراءة. لم تنقطع أباريق النبيذ كلما فرغت إبريق أخذها الخادم وملأها من جرةٍ كبيرة قرب المعصرة. حتى إذا قاربنا السكر انتشيت أنا والحريري ومعنا آخرون وصرنا نرقص، ورقصت غالا، ورقصت جيدو، والمغني يغني موشحاً عربياً تلو موشح، ثم أهزوجةً قشتالية بعد أهزوجة، وصرت أهزّ كأسي للخادم كلما فرغ ليملأه، ثم صرت أهرع بنفسي إلى إبريق النبيذ فأملأ كأسي، ثم صرت أتبرّع بملء كؤوس الآخرين. وكانت غالا ترقص حافية القدمين على بلاطٍ أملس، فإذا بردت قدماها صعدت على المنضدة، فإذا صعدت معها إحدى الراقصتين خشيت أن تنكسر دونهما فتقفز إلى مجالسنا.

ابتسمت في وجهي غالا لأول مرة منذ عرفتها. بادلتها ابتساماً بابتسام ثم صرت أبتسم كلما التقت أعيننا ثم صرت أتعمّد التقاء الأعين لأجل أن أبتسم فعادت إلى عبوسها وتجهمها. جلست قريباً منها فقامت. عرضت عليها مزيداً من النبيذ فاعتذرت. قمت لأرقص معها فجلست. فاستعنت على جفائها بنبيذ أبيها. كلما أشاحت بوجهها عني تجرّعت بقية كأسي. وكلما فرغ المكان منها ملأته مرةً أخرى. وكلما دعوتها للجلوس بقربي فرفضت أجلست مكانها الساقي وقنانيه الطيبة. وهل وُجِدَ السقاة إلا لجفاء العذارى؟ وهل كنا بحاجة إلى الخمر لو أن النساء يُقبلن متى اشتهينا ويُدبرن متى التهينا؟

وقف فريدريك في المنتصف وأشار للمطربين يتوقفا فساد الصمت وأصخنا السمع:

– لنتأمل ما يقول أورفيوس الذي كانت قيثارته برج السماء: "أنا أورفيوس، غنّيت للعواصف حتى نامت، وللصخور حتى ابتعدت عن سفينتنا. لقد ذهبت إلى آخر العالم ورأيت أشياء أجمل ممّا تخيلت".

– هذا والله حسن!

ويعلو هتافنا وتصفيقنا... ونرفع الكؤوس لفريدريك كي يستمر:

"يا إلهي، أنت المدين الذين يفي بدينه دائماً. ونحن نتلكأ على الأرض قليلاً ثم نعود إليك. ثم نحن لك إلى الأبد. ولكن حبيبتي ذهبت إليك أسرع مما يجب. ذهبت إليك قبل أن تزهر زهرتها. وإني أسألك أن تعيرني إياها فقط، ولا تعطني إياها إلى الأبد. سنواتٍ قليلة ونعود إليك معاً".

وأصابت الكلمات قلب الحريري فصاح: "الله حيّ. الله الديّان"، ثم قام ليرقص دون عزف، فبدا مضحكاً. فأشار فريدريك إلى العازف فعزف، وقمنا جميعاً لنرقص في حلقة دائرية مركزها الحريري. وضحكنا كثيراً حتى اقترب الفجر. فأمر فريدريك بالعزف أن يتوقف وقال:

– معنا مسلمون، وصلاتهم حانت.

خرجت أنا والحريري ومعنا ثلاثة آخرون مسلمون. توضأنا في ساقية المزرعة ثم وجدنا خادم فريدريك قد مدّ لنا بساطاً واستعدّ للصلاة معنا. التفت الحريري ناحيتي وقال:

– أتصحّ صلاتنا ونحن سكارى؟

- أتعلم ما تقول؟

- نعم.

- إذن تصح صلاتك، فالآية تقول: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

قدّموني بعد ذلك للإمامة فصليت، وقرأت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في الركعة الأولى. وفي الركعة الثانية قرأت آية ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾. ثم أنهينا صلاتنا وهرعنا إلى المجلس مرةً أخرى. وعندما حاصر الجيش شنترين براً وبحراً كنا نحاصر جيدو وهي تقرأ لنا استغفار شانكارا ربه: "اغفر لي يا ربي ذنوبي الثلاث: مشيت إليك ونسيت أنك في كل مكان، وفكّرت فيك ونسيت أنك أعمق من الأفكار، وصلّيت لك ونسيت أنك أسمى من الصلوات". ولمّا ارتفع الماء وهاجت الريح وخشي الجيش أن يفيض عليهم النهر كنت أقف في وسط رفاقي وأقول: "تأملوا رحمة الله بنا إذ خلقنا. تأملوا حبه لنا إذ نقلنا من العدم الذاتي إلى الوجود الظاهر". ولما نقض الجيش أخبيتهم ظانّين أن الخليفة أمر بالإنسحاب وليس الالتفاف على الحصن، كان الحريري يسأل العازفين أن ينشدوا قصيدة القيراوني "يا ليل الصبّ متى غده". ولما قرعت السيوف بعضها عند أسوار شنترين وحمي وطيس المعركة قرعنا الكؤوس في إشبيلية وتحولت غالا إلى مروحة راقصة. ولمّا طُعن الخليفة تحت سرّته وفرّ به حرّاسه وهو جريحٌ ينزف كان دور سمح بن صالح ليقرأ علينا ما قاله شانكارا: "كي تتحرر من العبودية يجب أن تفرّق أولاً بين ما هو من نفسك وما هو ليس منها. تخلّص من اعتقادك أنك أنت هو نفسها كتلة اللحم التي

اسمها جسدك. ميّز نفسك الحقيقية تجدها متخارجة عن الزمان، لا ماضي لها ولا حاضر ولا مستقبل، عندما تجد سلامك الروحيّ".
وعندما انهزم الجيش أخيراً وعاد حاملاً الخليفة وهو جثةٌ هامدة كنت أقف في وسط الجمع وأقول: "اسمعوا. اسمعوا"، فيتوقف العازف ويجلس الراقص ويرهفون السمع جميعاً، فألقي عليهم ما كشفه الله لي من الشعر:

وحق الهوى أن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما وجد الهوى

ويتعالى الهتاف، ويستحسن الجميع ما قلت. ويقف فريدريك ويقول:

- يا ساقي، اسقنا نخب هذا القول العظيم!

٢٢

"السهر من غير سمر لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

صرت أنام أياماً في مزرعة فريدريك. أفرغ لي أنا والحريري حجرةً تطلّ على حديقة وردٍ صغيرة، يجلب بذوره من بلاد القوط. أستيقظ صباحاً ورأسي ثقيل كأنها قربة لبن مخيض. يجلب لنا خادم فريدريك الذي كان ساقياً بالليل طعاماً سخياً فنأكل أنا والحريري ما يعيد لنا اتزاننا ويذهب الصداع عن رؤوسنا. نمتطي فرسين ونخرج للتريّض في الأرباض المجاورة. نحمل أقواساً ونحاول أن نصطاد وقلّما نفلح. نعود إلى فريدريك فيستقبلنا بنارٍ أشعلها في العراء ووعاءٍ من الفرصاد الأحمر الذي قطفه للتو من أشجاره المتناثرة حول المزرعة. يأمر خادمه أن يفرش لنا بساط الصلاة كلما دخل وقتها وينبّهنا لذلك. ومتى سكن الليل وعمّ الظلام تردد إلى المزرعة أولئك الذين لم يبيتوا معنا من الأمس. وفور اكتمالهم تنطلق نقرة الطبل الأولى تتبعها رنّة عودٍ ونبدأ معاً ليلةً أخرى في دهليز الغياب. نخرج من أجسادنا ونترك

لأرواحنا فرصة أن تغتسل قليلاً من فوضانا.

مرّ اثنا عشر يوماً لم تطأ قدماي فيها إشبيلية وأهلي يظنونني معتزلاً في المنتيار مع شيخ ما. يذهب الحريري ويعود حاملاً أخباري المزيفة إلى أهلي فيُحمّلونه طعاماً لذيذاً يعدّه سلّوم لتلاميذ وشيوخ معتزلين في المنتيار فيأكلها ندامى وراقصون في بهشية فريدريك. الربيع سخيّ والهواء طلق والطعام شهيّ والحديث مسلٍّ والعزف مُطرب والنبيذ كثير. شعرت أن قلبي أكبر حجماً وصدري أفسح مكاناً وأنا هنا. إذا أفقت أسكرني جمال المكان وخضرته وزرعه وسواقيه وأطياره. وإذا أخفى الليل ذلك كله عنا أسكرني نبيذ فريدريك الذي يعصره بنفسه ويعتّقه في براميل لا يبيع منها شيئاً بل يسقيها لأضيافه. كل يومٍ يمرّ أجدني أتحوّل وكأني أرتقي في مقاماتٍ سماوية أو أجوز مراحل أرضية. كل يوم يمرّ أشعر أنه ليس من عمري. اقترضته من رجلٍ ما لا يحب السعادةً. أنفقت دنانيري على عشرين كبشاً سميناً سقتهاً إلى حظيرة فريدريك وأمرته أن يجعل عشاءنا منها كل ليلة كبشاً مشوياً. اعترض فريدريك في بادئ الأمر متعللاً أننا ضيوفه فتمسّكت بموقفي.

مرت تلك الأيام على صفوها حتى عاد الحريري من إشبيلية يوماً وهو مكفهرّ الوجه. وقف بيننا قبل أن نسأله وقال:

- لقد هُزم جيش الموحّدين! البرتغاليون قادمون.

اصفرّ وجه فريدريك وبدا عليه الارتباك. تمسّكت جيدو بيد غالا التي أطرقت صامتة. أمسك السمح رأسه وقد ختمت المفاجأة على فمه. ساد الصمت بيننا لحظات قبل أن يلتفت جهتي الحريري ويسألني:

- ماذا سيحدث الآن يا محيي؟

نظر الجميع جهتي وكأنهم يتفقون على أني الوحيد الذي يعلم بما يدور في البلاط بسبب عمل أبي. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الحرب إلا ما عدّده أبي على سمعي من قوة عتاد الخليفة وبأس جيشه. كيف انهزم؟ يا لها من كارثة لو زحف البرتغاليون جهة إشبيلية؟ نظرت في وجوههم وقلت:

- لقد سيّر الخليفة جيشاً جراراً لا أظن البرتغاليين قادرين على إفنائه. لربما انتصروا في جولة.

لم يبدُ كلامي مقنعاً. ظلت العيون حائرةً لاسيما عيون غالا وجيدو. حوقل الحريري وراح يدعو بهمس. وقفت في وسط الجمع وقلت:

- يا رفاق! لا قبل للبرتغاليين بغزونا. كل ما حدث هو أنهم صدّونا عن بلادهم. هذا لا يعني أنهم قادرون على الارتداد علينا. لديهم خسائرهم بكل تأكيد.

وقف فريدريك وكأنه يفضّ المجلس وقال:

- ليفعل الربّ ما يشاء. سيخبرنا محيي بما يستجدّ من الأمور. أليس كذلك يا محيي؟

- بلى بلى...

- والآن لا أظن البقاء خارج أسوار المدينة فكرة جيدة. فلنعد إلى إشبيلية.

انطلقنا جميعاً عائدين إلى إشبيلية. بدت هادئة وكأن الأنباء لم تبلغ كل بيت بعد حتى بدأت فلول الجيش تصل إلى المدينة. لم يعد إلى إشبيلية إلا أبناؤها. تفرق بقية الجيش كل جندٍ من حيث جاؤوا وركب

المغاربة البحر ومعهم جثمان الخليفة. خيّمت على إشبيلة روحٌ من الخوف والترقّب. تأخر الموحدون في الإعلان عن الخليفة الجديد. ذهب ولاة المدن الأربعة من أبناء الخليفة الراحل لتشييع جنازته في المغرب. ولوهلة بدت الأندلس معلقةً بلا خلفاء ولا ولاة ولا جيوش. كأنما هجرها الموحدون وتركوها نهب المخاوف. توجّس وزراء البلاط من هذا الفراغ فأمروا الحراس بإغلاق أبواب المدينة كما لو أنها في حالة حرب فلا تفتح إلا ساعتين من نهار يكون فيهما الحرس على أهبة الاستعداد. انخفض عدد القوافل الوافدة بشكل كبير باستثناء القوافل المعتادة بينها وبين قرطبة. وتوقفت حركة البناء تماماً لفراغ كرسي الخلافة، فغادر العرفاء والبناؤون والنجارون والجيارون إلى المغرب.

كان أبي في حالٍ تشبه حاله يوم كان الموحدون يحاصروننا في مرسيّة. قلقٌ مشوبٌ بغضبٍ ومزاجٍ سيئ. يأكل وحده ويجلس ساعات طوال في الحديقة لا يتحدث إلى أحد. نال سلّوم من غضبه صفعةً على قفاه عندما نسي أن يشتري حطباً. ومنع إحدى بنات الجيران من الدخول إلى أختيّ وأعادها إلى أهلها بلا سبب. وبدت درّة ذاهلةً وهي تتعرف على مزاج أبي الجديد في حالة لم ترها من قبل. لم تطرح أمي عليه أي سؤال لعلمها أن أسئلتها الخائفة هي أكثر ما يثيره. تعلّم كل من في البيت بالتدريج كيف يتجنّبون أبي، فغرق في عزلةٍ لا ندري بمَ يشغل وقته فيها.

اجتمعت كلمة الموحدين أخيراً على يعقوب ابن الخليفة الراحل وأقرّ بقاء أخيه أبي إسحاق والياً على إشبيلية. وفور وصول هذا الأخير

إلى إشبيلية تردّد صوت المنادي في الطرقات عالياً: "أيها الناس. إنما الخمر رجسٌ من عمل الشيطان فأريقوه، ومن وجد عنده قُتل. أيها الناس. إنما المغنين والقيان من معازف الشيطان، فمن وجد منهم سُجن. أيها الناس. إنما لباس الحرير والديباج الموشّى بالذهب والفضة محرّمٌ على الذكور فمن لبس حريراً صودر منه وجُلد".

وانطلقت الشرطة بعد النداء تنفّذ أوامره، فأريق الشراب في الطرقات حتى ظلت رائحته النافذة أياماً في حي المعصرات وأمام الحانات. وفرّت القيان والمغنون من مجالس الطرب المعروفة واختبأوا في البيوت والمزارع المحيطة. وانهارت أسعار الحرير والديباج في الأسواق لاسيما المخيط منها على هيئة رجل فأصبحت تباع بأبخس الأثمان وتُفتق ويعاد خياطتها على هيئة امرأة. أخرج أبي ثياباً له من حرير أهداه إياها الخليفة الأب طاعةً للخليفة الابن. حملها إلى خياط في السوق ليجعل منها أوشحةً أو خمراً لأختيّ وصهر خاتمه الذهبيّ وأعاد طرقه ليجعل منه خاتماً لأمي. وأصبح يذهب إلى البلاط في زينةٍ أقل ولباسٍ أكثر تواضعاً كما تستدعي الأحوال الجديدة.

وفي يوم دعاني أبي إلى مجلسه بالحديقة، وكان في يده ورقة قد حبّر نصفها فعلاً، فلما رآني قال:

- اجلس، اجلس يا محيي.

جلست وأنا لا أدري ماذا يريد مني. أطلقت عينيّ في الورقة فوجدتها قائمة بأسماء كتب عديدة. راح أبي يمسّ بطرف قلمه بداية اسم كل كتاب وهو يعدّها هامساً. ولما فرغ التفت إليّ وقال:

- أريدك أن تملي عليّ أسماء الكتب التي تُدرّس في الجوامع.
- كل الكتب؟ ولكنها مئات!
- حسناً حسناً، أملِ عليّ كتب المذهب المالكي فقط.

أمليت عليه ما أعرفه من هذه الكتب. وكلما ذكرت أحدها رجع إلى قائمته فإن لم يكن قد رصده من قبل استوقفني ثم كتب اسمه مقروناً باسم الشيخ الذي يدرّسه في حلقته. سألته عمّا يرمي إليه فقال:

- جاءنا أمر الخليفة بوقف العمل بفقه المالكية.
- ولماذا؟
- لا علم لي يا ولدي. بهذا جاءنا بريد الخليفة قبل أيام وفيه أمره باستبدال الظاهرية بالمالكية ومنع مناظرات المتكلّمين. وقد أوعز إليّ الوالي بحصر كل أسماء الكتب المالكية التي تُدرَّس في الجوامع.
- من أجل أن تمنعها؟
- طبعاً.
- هذا علمٌ يا أبي. كيف يُمنع عن الناس؟

وضع أبي قلمه في دواته وراح ينفخ في ما كتبه ليجفّ ويكلّمني دون أن ينظر جهتي:

- وهل لنا من الأمر شيء؟ يقولون فنسمع، يأمرون فنطيع.
- من واجب أهل العلم والكشف والطريق أن ينصحوا هذا الخليفة الجديد، فهو صغير السن لا يعلم.

قهقه أبي من قولي وهزّ رأسه ساخراً وهو يقول:

- تراه صغير السن؟ إنه يكبرك بسنوات يا ولد.

طوى الورقة التي في يده وربطها بخيط وهمّ بالقيام فسألته:

- ماذا ستفعل بهذه القائمة التي كتبت؟

أجاب وهو يتجه إلى داخل المنزل يعرج عرجاً طفيفاً من طول الجلوس:

- نزوّد بها رجال الشرط الذين يطوفون على المساجد ليتأكدوا من التزام الشيوخ بها.

٢٣

"كل بارقة تظهر للمرء ولا تفيده علماً لا يُعوَّل عليها"

ابن عربي

خرجت من البيت وقت الظهيرة وأنا أشعر بضيقٍ خانق. كأنه لم يكن كافياً ضيق المدينة من قبل حتى يضيّق علينا الخليفة بأوامره ونواهيه. ماذا تبقّى لنا لنقرأه في كتب الظاهرية التي لا تحرّك قلباً ولا عقلاً؟ أصبحت إشبيلية لا تطاق فعلاً. الأسواق جامدة. الناس خائفون. النفوس مضطربة. عراك متكرر بين فتيان نصارى ومسلمين حيث يتسكّعون على ضفة النهر. إشاعات غريبة تطلقها المزيّنات عن تسليم الأندلس للفرنجة. أنباء عن أساطيل صليبية تنزل بموانئ البرتغال. تمرّدٌ كبير في إفريقية يهدد الموحدين. حتى الشتاء جاء قارصاً وشديد الريح لا يمكنني معه أن أمشي على ضفة النهر ولا أجول في الأسواق.

صار ملاذي الأخير بيت فريدريك ومزرعته. وحتى هذا الملاذ لم يخلُ من كدر. فقد صار حذراً بعد القوانين الجديدة فلا يقيم مجلسه إلا أياماً قليلة كل شهر. وإذا حضرناها لم نكد نجد ما نقرأه

بعد أن جمع كتبه كلها في صناديق وغطاها بالجلود وأرسلها مع قافلة إلى أخيه في مرسيلية خشية أن تُضبط عنده وتُحرق. وعندما دعانا إلى مزرعته ذات ليلة غاب نصف الذين اعتدنا حضورهم. أحد العازفيَن لم يأتِ ولم يكن في القناني إلا شراب الرّب المرّ بدلاً من نبيذ العنب. جلست أنا والحريري وفريدريك وغالا وجيدو والسمح وخادم فريدريك الصقلبي الذي يستأجره من مالكه. تكلموا عن أشياء لا أذكرها ولا تعنيني. اصطفيت لنفسي قنينةً وشربت. ثم شربت. ثم شربت. ثم استوقفتهم عن الكلام وأمسكت يد جيدو وأوقفتها فتبادلوا نظرات التعجّب والابتسامات المستنكرة. عزف العازف ما أمكنه أن يعزف دون طبّال. حاول الحريري أن يأخذ من يدي القنينة التي بدأ ينسكب ما فيها على الأرض وأنا أرقص فجذبتها إليّ وألصقتها بشفتي وشربت حتى امتلأ فمي واندفعت الخمر في جوفي مثل لسانٍ من لهب. قرّبتُ فوهة القنينة من فم جيدو فتراجعت ودفعتها عن نفسها بلطف. قام السمح وغالا يرقصان ودخلا بيني وبين جيدو وفرّقا بيننا. أفرغت بقية القنينة في جوفي ورحت لأجلب أخرى. ربت فريدريك على كتفي ضاحكاً وقال:

- على رسلك. ما زال الليل شاباً.

ترنّحت فأسندني السمح. وتشبثت بقنينة أخرى ورحت أعبّ منها فيسيل خيطان من الخمر من جانبي فمي. ورحت أرقص. ضممت جيدو وحاولت أن أحمل غالا فآثرتا التوقف عن الرقص وجلستا في طرف المجلس. أحاط بي السمح والحريري وراحا يراقصانني وهما يتبادلان نظرات ذات مغزى وابتسامات قلقة. حاولا مراراً أن يخطفا

القنينة من يدي ولكني كنت متشبثاً بها كأنها إكسير الحياة. صعدت فوق الطاولة وحملت الطبل الذي غاب صاحبه ورحت أطبل عليها كيفما اتفق وأنا أصيح بالعازف:

- أعلى أعلى...

ورحت أدور على نفسي. أدور وأدور وأدور. رفعت يدي اليمنى الممسكة بالقنينة إلى أعلى وخفضت اليسرى إلى أسفل. شعرت أني خفيفٌ مثل ريشة، وأني أصعد إلى أعلى مثل يعسوب. وأغمضت عيني فإذا بي أغمضهما على بياضٍ شديد. ازداد البياض كثافةً وازداد دوراني سرعة. شعرت أني ولجت في ضباب وصارت عمامتي سحابة. شعرت أني مغموسٌ في نورٍ ساطع مثل شمس. دارت حولي النجوم والكواكب. التقطت نجمةً وقبّلتها واستوقفت كوكباً وضممته. تعرّت أمامي كلها فارتميت عليها جميعاً.

وفجأةً خرج من خلف ستار الكون رجلٌ لا ملامح له صاح بي ثم جذبني جذبةً قوية فسقطت على الأرض. تحطّمت المنضدة التي كنت أرقص عليها وسالت على الأرض خمري وكل ما في جوفي. فتحت عينَيّ على وجوهٍ خائفة عابسة. شعرت برعبٍ شديد يجتاحني لم أشهد مثله في حياتي. رشّوا على وجهي ماءً. حلّوا عمامتي. فتحوا قميصي وسكبوا ماءً على صدري. تردد اسمي في أفواههم جميعاً. تنادوا. حملوني. أسندوني. أجلسوني. وفور أن استويت جالساً وتأملت ما هو حولي شعرت أن المكان خانق يكاد يقتلني، والحيطان قاسية تكاد تطبق عليّ، ووجوههم موحشة تكاد تنهش وجهي. فوقفت. تملّصت منهم. قصدت الباب. خرجت

من المجلس راكضاً لا أعرف إلى أين. خلّفتُ ورائي قوماً سكارى حائرين لا يدرون ما حلّ بي.

ركضت بين المزارع في ليلةٍ شديدة الحلكة. تناهت إليّ أصواتهم من ورائي ثم خفتت وخفتت حتى لم أعد أسمعها. ركضت فوق أرض صلبة ثم موحلة. فوق عشب ثم تراب. استوت ومالت. ولم أكن أنظر موطئ قدميّ. تعثرت مراراً وسقطت وقمت وركضت كأن شياطين الأرض كلها تتبعني. بكيت وأنا أركض فاندفعت الدموع فوق صدغيّ وفوق أذني. أخيراً وجدتُ نفسي أمام سور إشبيلية فتريثت وصرت أمشي وأنا ألهث وأسعل. سمعت ثغاء غنم فمشيت باتجاهها حتى رأيت الراعي يرتدي أسمالاً مقطعة وسروالاً متسخاً. قصدته ووضعت يدي على كتفيه وقلت له وأنا ألهث:

– يا هذا... أعطني ثيابك وخذ ثيابي.

لم أنتظر جوابه. رحت أخلع ملابسي وهو ينظر إليّ بعينين متوجّستين. خلعت قميصاً من القطن الناعم وجبّةً وسروالاً جديداً وأعطيته إياها. تحسّسها بيديه فإذا هي فاخرة لا أظنه لبس مثلها قط في حياته. رفع رأسه إليّ وأنا عارٍ تماماً فخلع ملابسه على الفور وناولني إياها. ارتديت قميصه المتّسخ وسرواله الممزق وخلفته ورائي لا يعرف أأنسٌ أنا أم جان، وفي حلم هو أم في يقظة. وظللت أمشي بمحاذاة السور وفي صدري صوتٌ يتردّد صداه بلا نهاية. وجدت نفسي أخيراً في المقبرة، فدخلت وسلّمت وجلت بين القبور فشعرت بسكينة. ثم لمحت قبراً خرباً قد صار أشبه بمغارةٍ صغيرة، فجلست فيه، وبدأت أقرأ القرآن.

٢٤

"كل حالٍ يدوم زمانين لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

صباح اليوم الخامس وجدني سلّوم. كان اليأس قد بلغ منه مبلغه وراح يتحدث وعيناه تفيضان بدموع اختلط فيها الرجاء بالتعب. ولو لم أخرج من المقبرة معتزماً العودة إلى المدينة لربما طال الانتظار. استنفر أبي عشرة جنود بإذنٍ من الوالي للبحث عني في المناطق المحيطة بإشبيلية. أبلغه الحريري أن آخر عهده بي كان في مزرعة فريدريك ووصف له الحال التي خرجت بها من عندهم، كل شيء... كل شيء... حتى قرع الكؤوس وعزف المغني.

دخلت البيت في ثياب الراعي وقد ازدادت اتّساخاً. غطّى التراب وجهي وشحب لوني وغارت عيناي من الجوع، فانفطر قلب أمي لمنظري وجلست على الأرض كما اعتادت إذا جاءتها نوبة البكاء، رجلٌ ممدودة ورجلٌ تحتها، وناحت مثل ثكلى. ظل أبي يحوم حولي وهو لا يعرف بعد أكنت أسيراً فيرفق بي أم تائهاً فيشفق عليّ

أم سكراناً فيُقرّعني. أما أختاي فوقفتا متلاصقتين جوار الباب وفي ملامحهما ذهولٌ وخوف لم يفارقاهما منذ أربعة أيام.

جلست بجوار أمي وأجبت ما تمكّنت من إجابته من أسئلة أبي ثم سمعته ينادي درّة ويأمرها أن تخلي لي حمّامه لأستحمّ فيه. تركت لي درّة في الحمام صابوناً وقنينة من ماء الورد وليفةً جديدة، وأحضر سلّوم إناء الاستحمام مملوءاً بالماء حتى آخره ولم يكن من المعتاد أن يملأه إلى آخره. اغتسلت قدر استطاعتي ولبست ثيابي، وخرجت مبتلّ الشعر والقدمين، ودخلت غرفتي ونمت حتى صلاة الظهر. استيقظت لأجد إلى جواري صحن فاكهة وجبنةً وخبزاً وضعتها أمي إلى جواري في أثناء نومي. أكلت كمثرى وبضع حبات من العنب فأيقظت أمعائي، فذهبت إلى الخلاء وبقيت فيه أعتصر بطني وأشعر بآلام شديدة في معدتي. شكوت إلى أمي فأرسلت سلّوماً ليجيء بشيءٍ من خلّ التفاح والقرفة والمريمية، ومزجت لي القرفة مع خلّ التفاح وزيت الزيتون والزعفران وسقتني إياه فور خروجي من الحمام، ثم غلت لي أوراق المريمية في ماءٍ ساخن وتركته بجواري وراحت تجسّ بيديها ظهري وكتفَي وتمسح وجهي، فوضعتُ رأسي على صدرها وسالت دموعٌ ساخنة من عينَيّ وبكيت.

في المساء عاد أبي من البلاط وقصد غرفتي من فوره. جلس على سريري واطمأنّ على صحتي ثم سألني:

- أين كنت يا ولدي؟ وما الذي فعل بك هذا؟
- كنت في المقبرة يا أبي.
- أربعة أيام في المقبرة؟ لقد ظنناك خُطفت...

- والله لم أعرف أنها كانت أربعة أيام حتى سمعتُ منكم الآن.

- كيف؟ ماذا حدث؟

أعرضت عن الإجابة وأشحت بوجهي بعيداً فكرّر أبي سؤاله. لم أجب، فأمسك ذقني بيده وأدار وجهي ناحيته وكرّر سؤاله وهو ينظر في عينَيّ مباشرة.

- يا بنيّ. قل لي ماذا ألمّ بك...

ثم اختفى الرفق من صوته وحلّ محله الحزم:

- وإياك أن تخفي عني شيئاً.

تنفسّت بعمق ثم أشحت بوجهي مرةً أخرى وقلت:

- إنها الجذبة يا أبي.

- الجذبة؟ ما هي الجذبة؟

- جذبة الصوفية.

نفد صبر أبي من إجاباتي التي بدت له غامضة فقال بصوتٍ عالٍ:

- وما هي جذبة الصوفية هذه؟

- إنها ملاحظة العناية الإلهية للعبد باجتذابه إلى حضرة القرب.

- وكيف يكون هذا؟

- لقد لاحظني الله في حالٍ غير الحال التي اصطفاني لها فجذبني بعنايته. وجذبة الله تطيّر الصواب. أرأيت لو وعظك شيخ فأحسن الموعظة ألا يحيّر فؤادك وتضطرب نفسك؟

- نعم.

- فكيف إذا وعظك الله عزّ وجلّ بنفسه!

- ولماذا يعظك أنت من دون العالمين؟

- لأني وليٌّ من أوليائه.

صمت أبي لحظةً ثم أدار رأسه يمنةً ويسرة وهو يبحث في فضاء الحجرة عمّا يعينه على ضبط أعصابه. زفر زفيراً شديداً ثم قال:

- يا بنيّ أفق مما أنت فيه ولا تسدر في غيّك. أيُّ وليٍّ هذا الذي عمره اثنان وعشرون سنة ويقضي ليله سكراناً مع القيان والغانيات؟

- لقد قدّر الله لي أن أسكر وألهو كي تحقّ عليّ الجذبة وتصدق منّي التوبة.

- هكذا؟ بكل بساطة؟ نسكر كي نصبح أولياء؟

لم أجب عن سؤال أبي الذي اختلط فيه سخطٌ وسخرية. بقيت صامتاً مبتلعاً توبيخه الذي تكرّر مراراً. وحار أبي ماذا يقول فسألني:

- ولماذا المقبرة؟ لماذا لم تعد إلى البيت؟

- في المقبرة علقت نفسي مع الله. وسألته ألف ألف مرة أن يستعملني في ما يرضيه ولا يستعملني في ما يباعدني عنه.

- ألف ألف مرة؟

- نعم يا أبي، ألف ألف مرة. ولما فرغت من ذلك العدد خرجت إليكم فإذا بكم تقولون إنها أربعة أيام في حسابكم. أما في حساب خلوتي فقد كانت ألف ألف دعاء. هذا هو زمني، وشتان بينه وبين زمنكم.

وقف أبي وكأنما قد نفد صبره فعلاً وهمّ بالخروج ثم وقف عند باب الحجرة والتفت ناحيتي وقال بصوتٍ يائس:

- والله يا بني لقد رأيت الصالحين والطالحين، والأوّابين والعصاة، والأبرار والفجّار، ولا أعرف أي صنفٍ منهم أنت. ولا

أظنك إلا قد ذهب بعقلك الغرور وصرت تظن نفسك ولياً وما أنت بوليّ، وتدّعي التقوى وما أنت بتقيّ، وذلك لعمري من فرط فراغك وقلة اشتغالك.

- إني مشتغلٌ بذكر لله وفراغي مليءٌ بنوره.

- خسئت والله. بل مشتغلٌ بالقيان والخمور ثم بمزاحمة الموتى في القبور. أما وقد بلغك أن الخليفة يعقوب أمر أن يُجلد شاربو الخمر ويُقتلوا إن عادوا إليها، فوالله إني أخشى عليك نهايةً ليست لوليّ ولا شيخ، فتدبّر من أمرك.

شجّعتني نبرة أبي اليائسة على أن أقول له:

- إذن دعني أسافر يا أبي.

ثار أبي من طلبي ووقف في منتصف الحجرة ورفع يديه عالياً وهو يصيح:

- تسافر؟ ما وثقت بعقلك في إشبيلية وأنت على عيني حتى أثق بك في غيرها وأنت غائبٌ عني. فاخسأ حيث أنت.

وخرج من الحجرة فعلاً ثم عاد فجأةً وقال:

- واعلم أني مسلّطٌ عليك الرقباء ووالله إن سمعت عنك ما أكره سماعه لأرينّك ما تكره رؤيته.

٢٥

"أنت غمامةٌ على شمسك، فاعرف نفسك"

ابن عربي

انطوت أربع سنوات حدث فيها ما لم يخطر لي ببال: صرت كاتباً عند الخليفة وزوجاً لمريم بنت عبدون. فعل الله ما شاء وقضى بما أراد وليس لي من الأمر شيء. ولكي يُجري الله أقداره انتخب لذلك سانشو الأول ملك البرتغال وأختي الصغرى أم السعد. الأول طلب الصلح من الخليفة بعد أن عبر بجيشه لملاقاته عند شلب. والثانية عقدت حلفاً مع أمي وأختي الأخرى ليبحثا لي عن زوجة تُبعدني عن الجلوس في المقابر. انتهى بي الأمر جليساً للخليفة في النهار ولزوجتي في الليل. لا مقابر ولا صوفيّة. وما زلت حبيساً لأسوار إشبيلية وقد زادت قيودي قيدين آخرين.

بعد عقد الصلح قريباً من شلب قرر الخليفة أن يحلّ في إشبيلية بدلاً من أن يعود إلى المغرب. وفور إفصاحه عن نيّته ترك والي إشبيلية الجيش على وجه السرعة واتجه مع ثلاثة من حراسه إلى إشبيلية على

ظهور أسرع ما لديهم من خيول لعلهم يستعدون لوصول الخليفة. أمر الوالي بجمع أمناء الأسواق ورجال الشرط وأشياخ الحضر وعُمد الأحياء وكتّاب البلاط وقضاة إشبيلية وألقى عليهم أوامره أن يصلوا الليل بالنهار ليقضوا كل شؤون الناس حتى لا يعود لأحدٍ شكوى يرفعها لمقام الخليفة عند وصوله. وحذّر الجميع في مجلسه:

- إن الخليفة دأب في مراكش أن ينزل الأسواق ويكلّم الناس بنفسه ويسألهم عن حاجاتهم فإن لمس مظلمةً قضى بشأنها من ساعته فاحذروه!

ثم أمر عريف الجامع أن يعيد فرشه ببسط وسجاجيد جديدة ويدهن جدران المنبر ومقصورته بالمسك. وأمر البستانيين بتقليم الأشجار وجلب الأزهار من المزارع وغرسها على جانبي الطرقات التي سيمرّ منها الخليفة.

أما أبي فلم ينم ليلة واحدة في البيت منذ وصول الوالي. أبقاه إلى جواره كل ليلة ليدوّنا معاً جميع أحكام القضاء السابقة التي تمّ تنفيذها وانقضت. ذلك أن الخليفة لما تولّى الخلافة أمر أن لا يحكم في حد من حدود الله إلا وقد دّونت الشروح والحجج وقيد الشهود والعدول. ولم يكن الوالي يتقيّد بذلك لظنه أن أخاه الخليفة لن يبعث من يتأكد من تنفيذ أوامره. ولكن ها هو أخوه بنفسه الآن على أعتاب إشبيلية وقد يطلب منه كتاب الأحكام القضائية في أي ساعة. ولو فعل فسيلاحظ، إن كان دقيق الملاحظة، أن درجة الحبر واحدة عمقاً ولوناً وتشرّباً، وأن الخط نفسه لم يتغير مثلما تتغير الخطوط، وأن الكتاب الذي يتضمن كل قضايا الحدود التي حدثت في إشبيلية طيلة

سنوات قد كُتب في ليلتين بيد رجلٍ واحد هو أبي.

وصل الخليفة ليلاً واتجه من حينه إلى قصره في حين ترك الجيش معسكراً خارج الأسوار. وفي صباح اليوم التالي فوجئ الناس به يمشي وسط السوق يتبعه اثنان من حراسه. وفور شيوع ذلك هرع إليه أمناء السوق وشيوخ الحضر فراح يسألهم أسعارهم وبضائعهم ومؤنهم. ثم توافد الناس يسلّمون عليه ويمسحون بأيديهم على صدره وثيابه فاستوقف منهم رجلين وسألهما:

- كيف وجدتما واليكم؟

فقال أحدهما:

- كريمٌ أخو كريم وابن كريم.

- هل تقاضيتما يوماً؟

فأجابا بالنفي، فرفع الخليفة صوته في الجمع:

- أيها الناس، هل منكم من تقاضى قريباً؟

فأجاب أحد الناس بالإيجاب فقال الخليفة:

- ادنُ مني.

فدنا منه، فسأله:

- ما كانت قضيتك؟

- ضربني أشقياء في السوق.

- فهل أنصفك القاضي؟

- نعم، وقضى أن يكسر سنّ أحدهم ولكنه افتدى سنّه بخمسة دنانير وقبلت.

- وهل رضيت؟

فقال:

- نعم.

قال:

- اعلم أنك مسؤول عن هذه الشهادة يوم القيامة.

- ما قلت إلا الحق يا مولاي.

وفي اليوم الذي يليه أمرني أبي أن استعد للذهاب معه إلى البلاط والسلام على الخليفة. ولما بلغنا القصر وجدنا أنفسنا وسط جماعة من الناس قدموا لمثل ما قدمنا إليه فوقفنا في الانتظار حتى بلغناه فسلّم عليه أبي ثم قدّمني إليه:

- هذا ابني محيي الدين بن عربي.

فمددت يدي للسلام عليه وأنا أستعدّ لتجاوزه فإذا به يبقي يده في يدي ويتفرّس في ملامحي ثم يقول:

- أنت الذي نبّأني عنه ابن رشد.

بقيت صامتاً لا أعرف ماذا أقول والخليفة يمعن النظر في وجهي، ثم قال بعد وهلة:

- ابقَ في المجلس حتى ينصرف الناس.

جلسنا حيث انتهى بنا المجلس وفي قلبي ذهولٌ ودهشة في حين بدا على وجه أبي ترقّبٌ وخوف. لم يظنّ كلانا أن لقائي القصير بابن رشد في قرطبة سيجعله يذكرني عند الخليفة ذِكراً يبقيني في ذاكرته. راقبت الخليفة وهو يكمل سلامه على الناس مبتسماً متواضعاً، يرتدي ثياباً زاهدة من الصوف الذي يرتديه عامة الناس، ورحت أفكّر في ما يمكن أن يحدث بيني وبينه إذا انصرف الناس من المجلس. قبض

أبي على يدي فجأةً وهمس في أذني:

– يا بنيّ. أحسن مقالتك وتأدّب. وإياك أن تجادل. وإن أمرك بشيء فقل سمعاً وطاعة.

مرّت ساعة قبل أن يصرف الحاجب الناس من المجلس، ثم اتجه إلينا وأبلغنا أن الخليفة يستدعينا. أقبلنا عليه وجلسنا إلى جواره فالتفت إليّ قائلاً بلا مقدمات:

– أحقاً أنك قلت لابن رشد إن الفلسفة لا تكشف غيباً؟

– نعم، فإن العالم لا يستمر على ذات الحال.

– وقلت أنْ لا قانون في الكون إلا إرادة الله؟

– أجل، قلت ذلك.

ابتسم الخليفة وحرّك يده في جذل وكأني قلت ما يتّفق مع رأيه تماماً، وقال لي:

– بارك الله فيك. فما جدوى التفلسف إذن؟ أليست مضيعةً للوقت؟

– يا أمير المؤمنين، إن الفلسفة هي محبة الحكمة. وليس كل من أحبّ محبوباً نال وصاله.

– الله الله ما أحسن مقالتك!

– ولكنّا لا نملك أيضاً أن نمنع قلباً من أن يخفق ونفساً من أن تهوى.

– نعم أحسنت.

– أحسن الله إلى الخليفة.

– لا تفارق مجلسي هذا حتى أرحل من إشبيلية.

– سمعاً وطاعة.

٢٦

"إن في المرأة يكتمل ظهور الحقيقة"

ابن عربي

هكذا قضيت ستة وعشرين يوماً في مجلس الخليفة الذي طاب له المقام في إشبيلية. جلس للناس كل يوم منها ونظر في أمورهم ووقف على شؤونهم وأنا حوله أسمع وأرى. يفتتح مجلسه بالقرآن ثم يُقرأ عليه قدرَ صفحةٍ أو صفحتين من الأحاديث النبوية مع شرح بعضها، ثم يشرع في النظر في شؤون الناس. فإذا انصرفوا وأغلقت أبواب القصر ارتاح قليلاً وتسنّى لي أن أخرج من القصر وأعود إلى بيتي. وبعد صلاة العشاء أعود إلى القصر لأجده جالساً مع الوزراء والحجّاب يقرأ البريد ويملي على الكتبة فأستأذن وأجلس. ثم نتناول العشاء على مائدته. ولم يكن الخليفة يطيل السهر بعد العشاء. يشرب نعناعاً مغلياً ثم ينام مبكراً. فأترك مجلسه وأعود إلى البيت لأجد أبي ينتظرني بحبور ويسألني عمّا فعلت مع الخليفة اليوم، فأخبره أنّا تحدثنا عن كذا وجاءنا كذا. فيقول أبي:

- هذا فحسب؟ ففيمَ تقضي طيلة الوقت في مجلسه.

- يبدو دائماً مشغولاً بتجهيز الجيش بالمؤن، والتجار أكثر الناس حضوراً في مجلسه هذه الأيام.

- ما دام لم يأمر بفضّ الجيش بعد فهو عائدٌ إلى الجهاد ولا ريب. ولكن لا أحد يعرف وجهته هذه المرة. فهو في صلح مع البرتغاليين وهدنة مع القشتاليين وقد خمدت ثورات تونس.

- إلى البرتغال يا أبي.

- ربما. ثمة من يقول أن ربما يزحف شرقاً ويبحر إلى ميورقة التي ما زال بنو غانية يسيطرون عليها.

في أثناء ذلك استأذنتْ عليّ في حجرتي ذات ليل أختي أم سعد وأنا أتأهب للنوم وقالت:

- لا أظنك تسمع لي ولكني سأحدثك عن مريم بنت عبدون.

- ومن هي؟

- أديبة خلوقة عالمة أريبة، وأيضاً جميلة.

- ولماذا تحدثينني عنها؟

- لتتزوجها! ما الذي سيجعلني أحدثك عنها إذن!

ضحكت من قولها وصرفتها بلطف:

- اتركيني أنام يا أم سعد، لا زواج لي.

تركتني ونمت. وفي منامي رأيت مريم تقرأ في كتاب وتبتسم. ثم رأيت لي معها أحوالاً أخرى في منامي لا أستطيع أن أحدث بها. وفي الأيام التالية وجدتني لا أنفكّ أفكر فيها، فعلمت أن في ذلك إشارةً ولا ريب أن يختار قلبي امرأةً من اسمها وأراها في منامي دون غيرها.

تكرّر ذلك المنام لياليَ حتى عرفت أنّي لن أحسم أمري بنفسي ولا بدّ لي من مشورة. فقصدت فاطمة بنت المثنّى بعد انتقالها للعيش في إشبيلية. قبّلت يديها وسألتها:

- يا أماه، مريم، ما رأيك بها؟

- مثلها مثل مريم بنت عمران، أحصنت فرجها وتقبّلها ربها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً، واصطفاها وطهّرها واصطفاها على نساء العالمين، فقنتت وسجدت وركعت مع الراكعين.

- أوتعرفينها يا أماه؟

- لا يا بني، ولكني أعرف أنها ستكون زوجتك.

كلّمتُ أبي فأرسل إلى أبيها من فوره فاستقبلنا في بيته بعد أيام وقد أعدّ لنا طعاماً وفيراً وبدت حفاوته بنا بالغة وسروره كبيراً. خرجت أمي إلى السوق وجلبت أمشاطاً وعطوراً وقطعاً من الحرير والكتّان وقباقب للعروس حملتُها جميعاً مع مئة دينارٍ موحّدي صداقاً لها. ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى تزوجتها. واستأجر لنا أبي داراً على أعتاب ضاحية الشرف فيها أربع حجرات جعلت منها حجرةً لدرسي، وحجرةً لزوجتي، وحجرةً لفاطمة بنت المثنى وحجرةً لعبدٍ أهداه أبو مريم لابنته اسمه عدّاد.

أحببت مريم. ذقنها الحاد وعيناها الوثابتان وجسدها المائل للامتلاء وكفّاها السمينتان اللتان كانت تخجل منهما إذا أطلت النظر إليهما فتدسّهما تحتها وتجلس جلسةً مائلة فأضحك. أقبلت عليّ بكل ما في قلبها من شجرٍ يورق للتو. أطعمتني رِضاً وسقتني سلاماً وأفرشتني طمأنينةً وراحة. ما كنت لأطيق إشبيلية لو لم تكن فيها.

أعود إلى البيت وقد أعملت فيّ شوارعها ضيقاً وأنا حبيس أسوارها العالية، فتسند ظهري على جدارٍ ألبسته حشواتٍ من قطنٍ ناعم وقماشٍ جميل، ثم تسند رأسها على ركبتي وتنظر إلى عينيّ مباشرةً ووجهها أدنى من وجهي وتقول: "تحدثني يا حبيبي أو أحدثك؟". فإذا حدثتها كانت مثل بخور الهند، إذا أسمعتها لهباً أسمعتني طيباً. وإذا حدثتني فتحت في سقف الحجرة نوافذ للسماء لا تلبث النجوم والكواكب أن تطلّ منها فضولاً ورغبةً في سماع الحكاية.

بلغ الخليفة أمر زواجي فاستدعاني في مجلسه ليلاً وعانقني مهنّئاً وهو يبتسم بسعادة، ثم نادى حاجبه وقال:

- ائتني بالمستعني.

غاب حاجبه قليلاً ثم جاء بكتابٍ عريض الأوراق ووضعه بين يدي الخليفة فقال:

- هذا كتاب ابن بكلارش، أتعرفه؟

فأجبت:

- نعم، صيدلانيٌّ من يهود ألمريّة.

- حنانيك! أنت تعرف كل شيء.

فابتسمت، وألقيت بصري على الكتاب والخليفة يقلّب أوراقه ولم أكن قد قرأته من قبل. وقف الخليفة أخيراً عند الصفحة التي يبحث عنها وقرأ بصوتٍ عالٍ:

- أدوية تزيد المني وتهيّج شهوة الجماع والباه مثل الحمص والباقلاء والصنوبر والتين والجرجير والهليون وخصى الثعلب والسقنقور وألسنة العصافير والشقاقل والزنجبيل.

اتّسعت عيناي في دهشة وزممت شفتيّ لأخفي ابتسامةً خجلة، في حين قهقه الخليفة بعبث واستمر في القراءة:

– أما الأدوية القطّاعة للمني فهي الخيار والقثاء والبقلة اليمانية والبقلة الحمقاء والسرمق والقرع والبطيخ والتوت والكبر والجمار والمذاب والفلفل والفنجنكشت.

ثم صاح وهو يضحك في جذلٍ شديد:

– يا حاجب! قل للطاهي يجعل في عشائنا من كل ما سمعت ما كان موجوداً، فيأكل ابن عربي ما يزيده وآكل أنا ما ينقصني.

ولاحظت أن الخليفة يتبسّط معي أكثر من أي وقتٍ مضى. فقد خلع عمامته وجبّته وجلس معي مثلما يجلس في بيته. ثم نادى صاحب البريد ليضع بين يديه الرسائل الواردة من المدن والولايات وعامة الناس. ومدّ الخليفة رجله على كرسيٍّ أمامه وراح يقرأ ويُملي على الكاتب ردّاً على كل رسالة. ثم استولت على اهتمامه رسالةٌ ما راح يقرأها بتمعّن. ثم وضعها جانباً وقال:

– يا محيي. ما بال الفقهاء لا يطيقون الفلاسفة؟

– الناس على دين ملوكهم.

– كيف هذا؟ ماذا تعني؟

– انظر إليهم يشكون إليك ابن رشد في كل بريد ولم يكونوا يفعلون ذلك في عهد أبيك.

– سبحان ربي! وما أدراك أن البريد الذي في يدي شكاية ضد ابن رشد؟

– إن الله يكشف لي.

فأزاح الخليفة البريد جانباً واتّكأ بذقنه على يده وراح يطالعني بريبة وقال:

- حقاً؟ يكشف لك الغيب؟

أومأت برأسي بالإيجاب وأنا أتوجّس من ردة فعله المفاجئة، وبقيت صامتاً حتى سألني:

- فهلاّ كشف لك ما يكون من أمر قشتالة؟

- لا علم لي.

- ولماذا لم يكشف لك الله ذلك؟

- يا أمير المؤمنين، إن الله يكشف لي ما يريد لا ما أريد. إنه كشفٌ، لا تنجيم ولا تبصير ولا عرافة ولا كهانة. فلا أنا أسترق السمع ولا أخطف الخطفة، إنما أكون في حالي وعلى منوالي فيكشف الله لي أمراً دون أن أسأله ذلك وهذا شأن الأولياء وطريق المتصوفين.

أسند الخليفة ظهره إلى كرسيه وقال بنبرةٍ فيها استسلام:

- أنا لا أفهم كل كلامك يا محيي. هل الصوفيّ فيلسوفٌ أم فقيه؟

- لا هذا ولا ذاك يا أمير المؤمنين.

- ما الفرق بينهم؟

- الفلاسفة أصحاب فكر واستدلال، أما الفقهاء فأصحاب اتّباعٍ وامتثال.

- والمتصوفة؟

- أما المتصوفة فأصحاب ذوقٍ وأحوال.

- وكيف تفرّق بينهم؟ كلهم يردون مجلسي هذا ويجلسون معي ويكتبون لي رسائل ويرفعون لي شكايات وأنا لا أعرف مشاربهم ولا

ألوانهم. قل لي، يا محيي، كيف تفرّق بينهم؟

- إن الفقيه يقرأ فيقول بما فهمه من مقروئه، والفيلسوف يفكر فيقول بما استنتجه من استدلاله. أما الصوفيّ فيخلو إلى ربه فيقول بما كشفه الله له.

- ولماذا يكشف الله للمتصوفة ولا يكشف لغيرهم؟

- لا يكشف الله إلا لمن يتوكل عليه حق توكله، ويخلو به حق خلوته، ويكون ذا ذوقٍ يُمكّنه من فهم الكشف والتجلي.

- حسناً، لا تدخلني في هذه المتاهات. قل لي بوضوح: أيهم أنفع للخليفة؟

- إنك إذا ركنت للفقهاء عطّلوا عقلك، وإذا ركنت للفلاسفة عطّلوا قلبك، وإذا ركنت للأولياء جعلوا قلبك وعقلك تحت نور الله المبين.

- أنت تتعصّب للمتصوفة لأنك منهم؟

- يا أمير المؤمنين، لقد فقهتُ من الدين فوق فقه الفقهاء ومن الفلسفة فوق فلسفة الفلاسفة. ولو شئت أن أكون فقيهاً كابن حزم لكنت، أو فيلسوفاً مثل ابن طفيل لكنت، أو كلاهما معاً كابن رشد لكنت. ولكن الله اختار لي أن أكون من أهل الطريق فكنتُ لأنه قال لي كن.

- وأنا أقول لك كن في مجلسي هذا لا تبارحه، وارحل معنا إلى مراكش.

خفق قلبي بشدة وأنا أجيبه كأنه بشّرني:

- سمعاً وطاعة.

٢٧

"طريق الحقّ مستقيم الاستدارة"

ابن عربي

صباح الغد أيقظتني أنامل مريم وهي تجسّ وجنتي وجبيني برفق. وعندما فتحت عيني رأيت ثغرها باسماً رغم أن عينيها دامعتان. كان قرب سفري إلى مرّاكش يؤرقها طيلة الأسبوعين الماضيين بعد أن استيقنت أني لا أعتزم اصطحابها معي. ألمحت أكثر من مرة أنها سافرت مراراً إلى بجاية وتلمسان ولها قدرة على تحمل مشقة السفر وأني أحتاج إلى من تهتم بشأني وتعتني بي، ولكن كل محاولاتها لم تجدِ بنفع. أردتها أن تعتني بفاطمة بنت المثنى التي أصبحت عاجزة عن الحركة. وأردت أن أخوض رحلتي الأولى متخففاً من كل عبء ومسؤولية، لاسيما وأنا مقيّد بمجلس الخليفة ولا أعرف ما أنا مقدمٌ عليه.

قرّبتها مني ورحت أقبّل عنقها ونحرها فانكفأت عليّ وذهبنا في حبٍّ عميق. جاست يدها في أنحاء جسدي وكأنما تودّع كل شبرٍ

منه قبل سفري. انهال شعرها الأسود الكثيف على وجهي فكأنما عاد الليل فجأةً ليتقاضى مني ما فرّطت في نيله الليلة الماضية. ما أجمل جسد مريم وما أنعمه وأصفاه. وجهها المستدير استدارةً كاملة، وعيناها المنكسرتان اللتين تجعلان نظراتها دائماً محفوفةً برجاء حتى لو كانت غاضبة أو عاتبة. جسمها ريّانٌ بسمنة خفيفة تعجبني. وإذا أخذها الحب وانفعلت به راحت تتكلم كلاماً لا تجرؤ على قوله في أحوال أخرى، فتذهب بعقلي وتفجّر رغبتي وأحبها حباً لم أكن أحبها إياه بالأمس، وسأحبها أكثر منه غداً.

غفت على صدري وسالت دموعها. ظننتها دموع حزن ثم تبيّن لي أنها خليطٌ من حزنٍ وفرح. كشفت لي أخيراً ما لم يكشفه الله لي من هجران عادتها. مسّت فاطمة بنت المثنى بطنها وأكّدت لها أنها حبلى في شهرها الثالث. ضممتها إلى صدري بعدما بشّرتني بذلك لأكون أقرب ما أكون إلى نفسي التي في بطنها. ثم أخذنا نضحك معاً مثل طفلين وطاب خاطر مريم بهذا الحمل إذ صار بقاؤها في إشبيلية لازماً من لوازمه لا جفاءً من زوجها الذي لم يعد يدري بمَ يفرح أكثر: بالسفر الذي طال انتظاره أم بالطفل الذي يكبر في بطن امرأته؟

كانت حقائب ملابسي وصحائف كتابتي مركونةً في طرف حجرتنا الأخرى منذ أن أعددناها معاً أول مرة عندما نوى الخليفة العودة إلى مراكش. ثم أصابته حمى فأجّل الرحيل مرتين. ولكن يبدو أن الغد سيكون يوم الرحيل بعد أن عدته بالأمس فإذا هو أفضل حالاً وإن لم يبرأ تمام البرء. وكما ظننت جاء رسول القصر مساءً وأخبرني أن الخليفة أمر بالمسير بعد صلاة الفجر فأعطيته أمتعتي ليجعلها في

راحلتي. ذهبت إلى بيت أهلي لأودعهم وقد تجهّم وجه أبي واحتقن وجه أمي وأختَيّ بالبكاء. وقبل أن أخرج قلت لهم لأرفع ما بهم من حزن:

- بشراكم. إن مريم حبلى!

صاحت أم سعد وأم علاء فرحاً، وغطّت أمي فمها بكفها وكأنها تلقت خبراً غير سعيد قبل أن ترفع يدها وتلهج بدعاءٍ لم أسمعه. أما أبي فقد تغيرت ملامحه عدة مرات بعد سماع الخبر، فدهشة ثم فرح ثم قلق ثم تسليم ثم طمأنينة وهناء. وخرجت من بيت أهلي إلى بيت الحريري. اغتبط برحيلي وراح يحدثني عن شيوخ وأولياء في مراكش سمعنا بهم في إشبيلية ولم نرهم قط. ثم عدت أخيراً إلى البيت ودخلت حجرة فاطمة بنت المثنى فإذا هي تصلي. انتظرت حتى فرغت من صلاتها ثم قبّلت يديها وجلست عند قدميها وطلبت منها أن توصيني فقالت:

- أوصيك بفاتحة الكتاب، فإني لم أرجُ خيراً في حياتي إلا قرأتها فكان، ولم أدفع شراً إلا جعلتها في نحره فانصرف.

- تلك وصيتك، وإني موصيكِ أيضاً.

- بمَ توصيني؟

- أن لا أعود من سفري إلا وقد وقفتِ على قدميك واستعدتِ عافيتك وأشرقت مثل الشمس في أرجاء هذا البيت.

لم تكد قافلتنا تبلغ وادي لكة حتى انتكس الخليفة واشتدّ عليه المرض وراح يغشى عليه بين الفينة والأخرى حتى ظنه الأطباء مرض موت. منعه الإعياء من ركوب راحلته فرقد على محفّةٍ بين بغلين حتى

وصلنا إلى البحر لنجد ستة مراكب كبيرة في انتظارنا. وجف قلبي من مرأى البحر فبقيت أؤخر ركوبي حتى حان انطلاق المركب الأخير فصعدت إليه وبقيت أقرأ القرآن حتى رسونا أخيراً عند قصر المجاز بعد يوم ونصف من الرحيل لم أنم خلاله ساعة واحدة. غادر الخليفة مركبه وقد ازداد إعياءً بسبب ارتجاج المركب في البحر. أشار عليه الأطباء أن ينزل في فاس ريثما يستعيد صحته ثم يكمل مسيره إلى مراكش بعد ذلك فوافق. واصلنا السير من فورنا باتجاه فاس وقد ظن الجميع إلا أكثرنا أملاً أنه يموت قبل أن نصل. كتب الكتبة رسائل إلى إخوة الخليفة في الأندلس تنبئهم بتدهور صحته لتعود بها المراكب إلى الأندلس ثم يحملها البريد إلى قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومرسيّة.

سرنا إلى فاس سيراً حثيثاً. لا نتوقف إلا إذا غابت الشمس ثم نحثّ السير بعد بزوغ الفجر مباشرةً. مؤونة القافلة كثيرة فلم نتوقّف للتزود بشيء. على جانبي الطريق أشجارٌ مألوفة لديّ وأخرى لم أرَ مثلها من قبل. رأيت الزيتون والكلبتوس والأرز فعرفتها وسألت رفاق القافلة من المغاربة فأروني المصطكاء والشيبة والحلفة. قطعت من أوراقها لأتأملها في راحتي وفركتها وشممتها وأنا أشعر بدهشة وسعادة.

وبعد أيام تراءت لنا مصانع الفخار ومعاصر الزيتون ومناشر الأخشاب على مشارف فاس يعقبها صفٌّ طويل جداً من الحوانيت الصغيرة تحفّ الداخل إلى المدينة من أولها وحتى ينتهي به إلى وسطها، وفيها يُباع كل ما أعرفه ولا أعرفه في مدينة لا أسوار لها.

بلغ الخليفة قصره وبدأت القافلة في التفرق. أوصلني أحد عمال

القافلة إلى النزل الذي يقيم فيه ضيوف الخليفة وأخبرني أن الأجرة مدفوعة ولكن لا بأس إن أنا أردت حصيراً نظيفاً ووسائد جديدة أن أضع بعض الدراهم في أيدي أصحاب النزل. استيقظت مبكراً وأكلت في باحة النزل بعض الطعام الذي جلبه الخدم للضيوف، ثم خرجت لأمشي على قدميّ وأنا فرحٌ مسرور ومفتونٌ أيضاً. أرى القبيح جميلاً والزهيد ثميناً. فتنتني القنوات المتدفقة بمياه الينابيع والأودية تنتشر في كل ركن من المدينة ولخريرها صوتٌ عذب يروي الأذن كما يروي الماء الجوف. وفتنتني الفسيفساء المنتشرة في كثيرٍ من جدران المدينة في حين تكون في الأندلس داخل القصور والجوامع فحسب. وفتنتني البيوت التي تحيط بها حدائق بلا أسوار فبدا وكأن كل البيوت تشترك في تزيين المدينة. وتضيق الأزقة أحياناً حتى لا تكاد تكفي لمرور الدواب وتنحدر أحياناً أخرى حتى يتعيّن عليّ أن أستند بيدي على الجدران وأخطو برويّة.

كانت أخبار الخليفة تصلني في النزل من عماله الذين يجلبون لي الطعام ويعطونني العطاء الذي أمرّ به لي كل يوم. علمت منهم أنه لا يخرج للناس فلم أزره. فرض عليه الأطباء البقاء في غرفته حتى لا يتعرض للهواء البارد الذي بدأ مع اقتراب الخريف. ترددت إلى القصر أكثر من مرة فلم أجد له مجلساً كما توقعت ولم يُعقد له مجلسٌ طيلة سبعة أشهر قضيتها في فاس. طفت خلالها جوامع فاس وأربطتها وحضرت دروساً ولقيت أولياء وقرأت كتباً. وعلى مثل هذه الحال التي يكون القلب فيها مفتوحاً على مهبّ الجهات الأربع أفاض الله عليّ من علمه اللدنيّ معارجَ عقلية ما صعدتها من قبل، ومقاماتٍ

روحانية ما بلغتها قط، ومراتبَ عليّة أضاءت طريقي مثلما تضيء الشمس أرجاء الكون. وسرعان ما شعر بي الأولياء وأهل الطريق. يفدون إلى النزل ويسألون عني فإذا لقيتهم ابتسموا وابتسمت، وعرفوا شأني وعرفت. خرج بي تسعةٌ منهم إلى بستان ابن حيّون في اجتماع ليس فيه إلا وليٌّ مجتبى قد بلغ في الطريق مقاماً عالياً. خلونا ببعضنا أسابيع لم نحصها. طلعت علينا شمسٌ غير شمس العالمين، وأضاء ليالينا بدرٌ مكتملٌ لا ينقص طيلة الشهر. إذا كشف أيٌّ منا سراً قدسياً شقّ السماء فوقنا شهابٌ ساطع. وإذا تحدث أحدنا باللطائف العلوية نزلت معنا نجمةٌ أو نجمتان. وإذا تلقّى أحدنا نفثاً روحانياً قبضنا على يديه ليسري في أرواحنا ما يسري فيه. ارتدى كلٌّ منا خرقة الآخر والتقت القلوب والأرواح قبل الأجساد والأبدان. وعدنا إلى الناس وكلٌّ منا في مقامٍ جديد لم يقم فيه من قبل.

٢٨

"النوم إذا لم يعط بشرى لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

أزفت ولادة مريم ورأيت في المنام بطنها يُفتح مثل محارة في جوفها لؤلؤةٌ جميلة فعرفت أنها ستنجب أنثى. سألت الوزير أن يستأذن لي الخليفة بالعودة إلى إشبيلية لأرى زوجتي فجاءني إذنه ومعه عطاءٌ وراحلتان. جمعت متاعي وشددت الرحال عائداً إلى إشبيلية. ولم يمضِ على وصولي شهر حتى وضعت مريم فتاةً مباركة الوجه حلوة الطالع سمّيتها زينب. أحملها فتحدّق في عيني وكأنها تغوص فيهما داخلي وتبحث عن المشترك بيني وبينها. وجهها مستديرٌ كوجه أمها تماماً وشعرها فاحم السواد مثل شعرها. تعلّقتُ بها حتى أني أكون في شأنٍ من شؤوني خارج البيت فأتخيّلها ضاحكةً في حجري فأعود من حيني إلى البيت لا غرض لي إلا أن ألاعبها وأمضي معها ساعةً من الوقت. سُرّت مريم بهذا وتسلّت عن الخوف الذي ساورها لمّا وضعتها أنثى.

بدا لي أبي وكأني غبت عنه سنوات لا أشهراً. هرم وبدا صموتاً حزيناً لا يتكلم إلا إذا نودي ولا يخرج من البيت إلا إلى البلاط. قلّ عمله ما دام الخليفة مريضاً فلا يكتب لأحد ولا يكاتبه أحد. انصرف إلى قراءة القرآن والصحاح وكثيرٍ من كتب الفقه التي وجد بعضها عندي وبعضها في مكتبة القصر. وكان سمعه قد ضعف حتى لم يعد يستجيب إلا لمن يحدثه وهو قيد ذراعٍ منه. ولمّا صار في هذه الحال أصبحت أختي أم سعد شديدة القربِ منه، تجالسه في كل حين وتطعمه وتسليه أكثر من درّة. استأنس أبي بها فقرأ عليها بعض الكتب وعلّمها بعض العلوم حتى صارت في ظرف أشهر تحفظ من القرآن والحديث ما لم تحفظه طيلة عمرها. أما أم علاء فكانت قلقةً من تأخر زواجها كما أخبرتني أمي، فلا تكاد تجلس معهم فيتحدثون عن عرسٍ في الحي أو ولادة حتى تطفر عيناها بالدموع وقد أرّقها أن تبلغ سن الزواج فلا تتزوج.

أما فاطمة بنت المثنى فلم تعمل بوصيتي التي أوصيتها بها قبل سفري إلى فاس. وهنت أكثر وأصبحت بالكاد تتحرك من مكانها، وصار نومها يطول وصوتها يخفت وأنفاسها تضيق. وعندما احتُضرت كنت أحفّها أنا وأمي وزوجتي وأكلّمها فلا تجيب. فانكفأتُ على يدها أقبّلها وأبكي فحرّكت رأسها أخيراً والتفتت جهة أمي وقالت لها:

- يا نور، هذا ولدي وهو أبوكِ. فبرّيه ولا تعقّيه.

وماتت أخيراً كما كنت أظن. جمعت متاعها فلم أجدها تملك ما يمكن بيعه بدينارين فتصدقت به جميعاً كما أوصت. ودفنتها

فجراً في القبر الذي جلست فيه أربعة أيام أذكر الله بعد أن أصلحته لها. وأقمنا لها عزاءً فلم يحضر أحدٌ سوى الحريري والخياط.

بعد أسابيع انتقل العزاء إلى بيتهما وكنت أنا المعزّي. ماتت أمهما ودفنتها أنا والحريري، والخياط ينوح على جانب القبر لا يملك أن ينزل معنا ويساعدنا. وعدنا به إلى داره وهو يجرّ قدميه جراً. فصرت أنام معهما في البيت لأتناوب على تسليته أنا والحريري يوماً بعد يوم بلا جدوى. أخيراً قررا بيع البيت الذي يقيمان فيه والحانوت الذي يعمل فيه الخيّاط ورحلا معاً إلى الحج.

تماثل الخليفة للشفاء وعاد لاستقبال الناس فعزمت أن أزوره في فاس حفظاً للعهد الذي بيني وبينه لاسيما وقد قبضت منه عطاءً وصرت مديناً له. زرت الكوميّ لأسلم عليه وأسأله إن كان يوصيني شيئاً من فاس. فلما أخبرته بعزمي قال لي:

- تريّث يا بني. لا أظن الخليفة يأنس لقربك الآن.

- ولماذا؟

- بلغني أنه أمر بسجن ابن رشد.

عدتُ إلى البيت مهموماً من هذا النبأ. شعرت بالندم على كل عطاءً قبضته من الخليفة وكل مجلسٍ جلست معه فيه. لم يكد يشفيه الله حتى راح يودع الناس السجون. شعرت بالاختناق. كانت الأندلس سجناً والآن صار المغرب كذلك. كم أتمنى السفر إلى بلادٍ لا سلطان للموحدين فيها ولا آبه فيها لأمزجتهم المتقلبة وقلوبهم القاسية. ولكن أين أرحل ووالداي كبيران وطفلتي صغيرة. وما دامت هذه الحروب مع الفرنجة قائمة فلا أشك أن

الأفق سيزداد قتامةً خليفةً بعد خليفة. فالخليفة الذي ينتصر تأخذه نشوة النصر فيمعن في إجبار الناس على رأيه، والخليفة الذي يُهزم يريد أن يدفع باللوم عن نفسه فيلوم فساد الرعية وانحرافهم عن الحق.

مرت أيامٌ وأنا أعبر من ضيقٍ إلى ضيق. همٌّ يسلمني لآخر وحزنٌ مقيمٌ في صدري لا أعرف له خلاصاً. شعرت أني لوثت قلبي الذي أمرتني فاطمة بتطهيره. جالست الخليفة واعتدت على طعام القصور. تزوجت مريم واعتدت على لذة الجسد. تسلّمت العطاء واعتدت على امتلاء الجيب. لا عجب إذن أن يحيق بي هذا الضيق والكدر. لا مفرّ لي الآن إلا المقبرة.

عدتُ إليها مرةً أخرى لعلّي أهذّب هذه الروح حتى تكون أهلاً لجذبة الله. كلما غابت الشمس دخلتها مثل ميّتٍ يمشي على قدميه وجلست فيها وحدي حتى يقترب الفجر. وفي كل ليلة منها أسأل الله أن يبارك لي في خلوتي ويمنحني حضرته وأن يطهّر قلبي ويرزقني الصمت والجوع والتوكل. أنس بحضرتي الموتى تدريجياً وتحدثنا عن الموت والبرازخ والمقامات والعالم الآخر. ومرت أشهرٌ ستة كأنها ستة أيامٍ من لذة عزلتي وسكينة خلوتي. لا يطربني إلا أذان المغرب الذي يعلن موعد دخولي إلى المقبرة ولا يحزنني إلا خيوط الفجر التي تطردني منها.

وفي ليلة من تلك الليالي شعرت بحركةٍ من حركات الأحياء في المقبرة. وقفت فإذا بالكوميّ يسعى نحوي وهو متّكئٌ على عصاه. سلّمت عليه مندهشاً وأنا لا أعرف كيف وجدني. أفسحت له مكاناً

فجلس وأطرق صامتاً يستشعر جلال المكان وطمأنينته. ثم قال:

- هنيئاً لك مجالسة الأحياء في المقبرة. أما الناس خارجها فموتى ولكن لا يشعرون. هل تأذن لي بمرافقتك؟

- بل تزيدني بركاتٍ وهدىً إن رافقتني يا شيخي.

ورافقت الكوميّ في المقبرة ستّاً وسبعين ليلةً لم ننقطع فيها عن المقبرة ساعةً واحدة منذ غروب الشمس حتى طلوع الصبح. نُسبّح تارةً ونقرأ تارةً ونتأمل تارة. حتى جاءت ليلة السابع والعشرين من رمضان. جاء الشيخ متأخراً بعد منتصف الليل، وجلس بجانبي وعلى وجهه ملامح جامدة لم أعهدها فيه من قبل، وظل صامتاً لوهلة ثم استقبلني بوجهه وقال:

- أجبني يا محيي: إذا اجتمع عارفان في حضرةٍ شهودية عند الله ما حكمها؟

- هذه مسألة تُفترض ولا تقع.

- ولماذا لا تقع؟

- لأن الحضرة لا تسع اثنين. بل إن العارف لا يرى نفسه في حضرة الله فكيف يرى عارفاً آخر!

- فكيف تُفترض إذن؟

- تُفترض بالتجلّي. فكل عارف يختلف ذوقه عن ذوق الآخر ويُتجلّى له بشكلٍ مختلف. وبالتالي يمكن أن يجتمعا في حضرةٍ شهودية لأنهما مختلفان في الصورة الطبيعية والروحانية والمكانية.

- أجبني يا محيي: من ساكن القبر الثالث عشر من أول السور.

- الشاعر ابن زيدون.

- إذن اسمعني يا ولدي.

- لبيك يا شيخ.

- أنا وتدك الأول. وفي أفريقية وتدٌ ثانٍ فأقبل عليه يثبّت قلبك.

٢٩

المخطوط في دمشق

٦٥٨ هـ/١٢٦٠م

أخيراً تجاوزت درب الريحان في أسوأ حالٍ تجاوزته فيها طيلة حياتي. أنا الذي ما مسّت يدي آنية خمر ولا ذاق فمي طعمه ثمانين عاماً منذ خلقت، تفوح اليوم ثيابي برائحته وتسيل قطراته النجسة من شعري وتتخلّل لحيتي وتبلّل نحري. هذه الفوضى لا تُحتمل. رعاع النصارى يجولون ويصولون في شوارع دمشق منذ الصباح وكأنما خرج من حيّهم الدجّال فحرّضهم على الناس يؤذونهم في الشوارع والطرقات. هرجٌ ومرجٌ. صلبانٌ في الأيدي وصلبانٌ في الأعناق. صياحٌ بالعربية والسريانية. ثلّةٌ من الأشقياء يسدّون باب الدرب ويمنعون الناس من الخروج إلا منحنين تحت صليبٍ خشبيٍّ نصبوه فوق الباب وتحلقوا حوله.

- أنت يا شيبة.

نظرت إلى الصبيّ الذي ناداني وما بدا لي أنه بلغ العشرين بعد. نحيلٌ أصهب في وجهه كل وقاحة الدنيا. من ورائه رجلٌ عَضِلٌ عريض الصدر كثّ

الشارب يبتسم ببلهٍ وتلذّذ وهو يراقب الصبيّ يستوقف المارة ويلوّح بصليبٍ نحاسي أمام وجوههم ويلكز به ضعفاءهم في خواصرهم. كنت ألاحظ ما يفعله مذ وطئت قدماي أول الدرب. وعندما حاول رجلٌ أن يمرّ من الباب دون أن يحني رأسه قفز الصبي مع ثلةٍ أخرى من الصبيان الأكبر سناً وصفعوه على قفاه فانحنى. وعندما هبّ ليدافع عن نفسه قام عصبةٌ من الرجال وتحلّقوا عليه فولّى وتركهم.

– يا شيبة، ألا تسمع! قلت... يا ... شاايبااااة.

وفرّت الضحكات من أفواه صبية آخرين حوله. وقفت ونظرت إليه دون أن أكلّمه، فحمل جرةً صغيرة في يده وقال ضاحكاً:

– أتريد خمراً تُفرح قلبك؟

أشحتُ بوجهي عنه وتابعت المشي فتتابعت الأصوات من ورائي:

– لا تنصرف أيها الشيخ الجليل قبل أن تشرب ما يعيد شبابك...

– ويحرّك فراشك...

وتعالت قهقهات ماجنة من ورائي وأنا أحاول أن أغذّ في سيري قدر المستطاع لأتجاوزهم قبل أن يحاول أحدهم إيذائي حتى بلغت الباب. تذكّرت ما حلّ بالرجل واستكبرت أن يضربني أحدهم مثله وأنا شيخٌ كبير. كنت أمشي منحنياً على أية حال بثقل السنون. عبرت الباب والصليب من فوقي وأنا أردّد في صدري: "لا إله إلا الله... وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم". ولم أكد أتجاوزه حتى نزل على رأسي سيلٌ كثيرٌ من الخمر وضحك الجمع كأنهم في حانة نصبوها على الطريق. سقطت عصاي ورحت أحمي رأسي بكفيّ والسائل النجس يتدفق من زقٍّ يحمله أحدهم ويختبئ في أعلى الباب، ومتى أشاروا إليه سكب منه على رؤوس العابرين.

انحنيت لأحمل عصاي وأبتعد عن تدفق السائل فسكب منه كثيراً على ظهري وأصبح ثوبي مبتلاً كله. ابتعدت عنهم أخيراً وأنا ألهث. فاحت ثيابي برائحة الخمر ففاضت دموعي دون أن أشعر، واجتمع في وجهي ما لم يجتمع فيه من قبل: دمع الذلّ وخمر النصارى. وقد كنت أحسب أني مررت بكل شأنٍ في حياتي فإذا أنا أرى هذا في الثمانين. رحماك يا ربي.

قطعت بقية الطريق إلى مسجد ابن عبدان وأنا أردّد: "يا حيّ يا قيوم... برحمتك أستغيث". ولم ألحظ أن صوتي ارتفع بها حتى دخلت المسجد وأنا أصيح بها صياحاً. وما أن لمحت الركّع السجود في المسجد حتى انهرت تماماً وأجهشت في بكاءٍ لم أعرف مثله من قبل. وتحلّق حولي المصلّون وأوقفوني على قدمَيّ. وما أن أحسّوا بالخمر الذي يبلّل ثيابي حتى عرفوا ما حلّ بي، وتعالت حوقلاتهم الآسفة وتهديداتهم الغاضبة. وأخيراً تمالكتُ نفسي والتفتُّ إلى أقربهم لي:

– هل جاء اليوم يحيى ابن الزكي؟

لم يعرف الرجل جواباً ولكنه أعاد ترديد سؤالي الخافت بصوتٍ أعلى فأجابه صبيٌّ يبدو أنه خادم المسجد:

– في حجرته وراء المسجد.

مشيتُ وراء الصبي حتى حجرة يحيى وتركته يطرق الباب وأنا أفكّر كيف أدخل على قاضي دمشق ورائحة الخمر تفوح من ثيابي. فتح الباب، وأطلّ وجه يحيى صبيحاً منذ عرفته وهو يحبو بين يدَيّ ويتسلّق على كتفَيّ وينام في حضني إذا تعب. هشّ لرؤياي وقال:

– مرحباً مرحباً يا عماه.

وقبل أن أردّ تحيته اندفع الصبيّ قائلاً:

- ضربه النصارى يا شيخ.

صاح يحيى:

- ماذا؟ ضربوك؟ أأنت بخير يا عماه؟

- لا يا سيدي لم يضربني أحد، ولكنهم سكبوا عليّ من خمرهم وبلّلوا ثيابي فلتعذرني على سوء رائحتي ونجاسة ملبسي.

تسلّم يحيى ذراعي من يد الصبي وراح يعضدني لأدخل معه غرفته، والتفت ناحية الصبي قبل أن يذهب وقال:

- جهّز ماءً دافئاً للاستحمام واجلب ثياباً نظيفة من ثيابي.

- لا داعي يا سيدي. سأعود إلى بيتي وأتنظّف.

- هذا بيتك يا عماه. اجلس. قل لي ماذا حصل؟

- البلد منكوسة يا ولدي. جنّ جنون هؤلاء النصارى فجأةً ولا ندري ماذا ينوون.

تنهّد يحيى تنهيدةً طويلةً متحسّرة وقال:

- أعلم ذلك...

- ماذا سيحدث يا ولدي. هل عندك نبأ؟

- لا أحد يملك نبأً يقيناً بعد. الأمير الذي نصّبه التتر على دمشق هو الذي قوّى شوكة النصارى وحرّضهم على فعلهم. ومنذ تولّيه المدينة وقسوسهم وأساقفتهم لا يفارقون مجلسه.

- ولكن لماذا؟ ما الذي يسعى إليه هذا التتري؟

- في الأمر خبيئةٌ لا نعرفها. ولكن ظاهر الأمر أن محاباة النصارى وتقريبهم لن يتوقفا.

- وماذا عنا؟ أليست لنا كلمة عند هؤلاء التتر؟ ألا يعلم ان أغلب أهل

دمشق مسلمون؟

- ذهبنا إليه نحن القضاة جميعاً ولم يتخلّف منّا قاضٍ واحد ومعنا ثمانية من الفقهاء وأئمة المساجد وشيوخ الطريقة ودخلنا عليه في القلعة لنشكوا إليه الحال فلم يلتفت لنا.

- ماذا قال؟

- كلّما شكونا له حالاً التفت إلى من في مجلسه من القساوسة وسألهم: "أحقاً ما يشكون منه؟" فيقولون: "إنهم يبالغون. المسلمون اعتادوا على رؤيتنا أذلّة صاغرين وإلا اشتكوا وتذمّروا"، فيتمعّر وجهه ويقول: "هذا لا يحدث في بلاد منكو خان العظيم. لا عظيم إلا منكو خان. ولا صغير إلا من عادى منكو خان" ثم طردنا جميعاً من مجلسه.

- طرد القضاة والأئمة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

- الأمر لله من قبل ومن بعد. أنت تعلم أن أم الإمبراطور نصرانية.

- لا علم لي.

- وأخوه هولاكو عاد إلى خراسان وترك الجيش تحت قيادة قائد نصرانيّ اسمه كتبغا.

- إنهم يحيطون بنا من كل جانب.

- الله محيطٌ بهم يا عمّاه.

دخل الصبيّ علينا وقال:

- الحمام جاهز يا شيخ.

قام يحيى ليساعدني على الوقوف ومشى بي إلى الحمام وتركني في معيّة الصبيّ ليحمّمني. ودارت بي الأفكار وعصفت بي الهموم. كنت أعتزم زيارة القاضي يحيى ليطمئنني على أن ما يجري ليس إلا حال قصيرة بعد فرار الملك

الناصر من دمشق ودخول التتر فإذا أخباره تزيدني هماً على همّ. استعجلت الصبيّ ليفرغ من تحميمي. وألبسني قميصاً من الكتان وسروالاً من القطن وعمامةً جديدة لم يبدُ أنها لُبست من قبل. خرجت فإذا القاضي يحيى جالس حيث تركته ساهماً لا يفعل شيئاً.

– سيدي. إني استأذنك.

– بماذا يا عماه؟

– لقد خدمت تربتكم ما يربو عن أربعين سنة، ودفنت فيها بيدَيّ هاتين جدّيك وأباك وستةً من أعمامك. ودفنتُ فيها الشيخ الأكبر وولديه. وساكنتهم جميعاً في تربتهم، وعاشرت أرواحهم الطيبة، وتبرّكتُ بأضرحتهم الشريفة، وضمّختُ نفسي بأطيابهم اللطيفة.

– أنت منّا يا عماه ولست خادمنا.

– أردت أن أقول إنّي كبرتُ وما عدت أحتمل الأذى. ولقد رأيت الأشقياء يدلقون الخمر عند أبواب المساجد ويتطاولون على أضرحة الشيوخ. ولئن وصلوا إلى تربتكم فلا طاقة لي على دفعهم ولا قدرة عندي على منعهم.

– الله الحامي يا عمّاه. لن يلومك أحد.

– سأخرج من دمشق.

– تخرج من دمشق؟ وهل تعرف بلاداً غيرها يا عماه؟ وأين ستذهب؟

– إلى الكرك يا ولدي. أبناء عمومتي هناك.

– ويعتنون بك؟

– يعتني بي الله الذي أخرجني من العدم. إنما أستأذنك لآخذ معي ما في التربة من كتب ورسائل لعلي أجد لها حرزاً آمناً في الكرك. فإني لا آمن أن يقتحم الأشقياء التربة ويخرّبوا ما فيها.

- أنت أحفظ لها منّي يا عماه. سأعطيك راحلةً وسائساً، وسأحاول أن أدبّر لك حارسين يصحبانك إلى الكرك فالطريق غير آمنة.

عانقني وفي جسمه رعشةٌ تنبئ عن بكاءٍ حبيس. وغادرت المسجد متجنّباً المرور بدرب الريحان. لم أدرِ ما إذا كانَ الصوت الذي تناهى لي عن بعد صوت ناقوس أو أني توهمت ذلك. ولكني بلا شك سمعت بوضوحٍ هتافاً جماعياً يرتجّ له الدرب بأكمله:

- ظهر الدين الصحيح. ظهر دين المسيح.

السِفْر الرابع

٣٠

"السفر إذا لم يُسفِر لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

ما دمتُ لا أستطيع الذهاب إلى فاس حتى تنكشف غمة ابن رشد ونعرف ما الخليفة فاعلٌ به فلعلي أذهب إلى بجاية. شعورٌ عميق في داخلي يقول إن وتدي الثاني هو الغوث أبو مدين. وأي رجل في أفريقية كلها يستحق أن يكون وتداً أكثر منه؟ وإن كان لي وتدٌ في أفريقية فلا أظنه يكون إلا هو. رأيت أن أركب البحر من ألمريّة باتجاه وهران ثم أرحل شرقاً حتى أمثل بين يديه. ذهبت إلى أمين السوق لأسأله عن قوافل التجار المتجهة إلى ألمرية فأخبرني أن قافلة لطيمة ستخرج من سوق الصاغة في غضون أسبوع وستكون محفوفة ببعضٍ من جند الوالي. ذهبت إلى أمين سوق الصاغة وأبلغته برغبتي في مرافقة القافلة فدلّني على قائدها فأنقدته أجرة المرافقة ووعدني أن يرسل إليّ متى تقرر الرحيل.

شددت الرحال بعد أيام فأثار نصف الطريق ذكريات رحيلي الأول

من مرسيّة إلى إشبيلية وأنا طفل صغير. تذكرت تضاريس الأمكنة ومجاري الوديان ورائحة الغابات ومسارات الأنهار وكأنها كانت البارحة. وصلنا ألمريّة بعد ثمانية أيام وسعيت من فوري إلى المرسى لأبحث عن مركب يقطع البحر إلى وهران. وجدت مركباً على الفور وافق أن يُركبني مع حصاني وأمتعتي لقاء خمسة دنانير. وأبحرنا رحلة أطول من رحلتي الأولى بين الأندلس والمغرب، والريح أشد، والمركب أقل صلابةً وقوة من مراكب الخليفة التي رحلت فيها أول مرة. وكانت المسافة بين ألمرية ووهران تُقطع في يومين ولكنا قضينا على مركبنا هذا ثلاثة أيام ونصف وأنا أشعر بالغثيان والدوار ولا أكاد آكل شيئاً إلا الخبز الجاف وقليلاً من الخضار. بقيت على هذه الحال حتى أصبحت من الإعياء لا أكاد أقف على قدمي إلا ترنّحت. صرت أغلب الوقت مضطجعاً على جنبي ملتحفاً بلحافي أدعو الله أن يقصّر المسافة.

بينما أنا في هذه الحال إذ شعرت بوجع في بطني وظننت أني سأتقيأ. فقمت من مكاني، والناس في المركب قد ناموا، لأتقيأ من حافة المركب. نظرت إلى البحر الممتد أمامي سادراً ومخيفاً فرأيت شخصاً على بعد في ضوء القمر كأنه يمشي على وجه الماء باتجاهي. اختنق صوتي من الخوف ولم أقوَ أن أنادي أحداً من القوم ليروا ما أرى. بلغ حافة المركب ورفع قدمه اليمنى أمامي فنظرت إليها فإذا هي جافة بلا بلل، ثم رفع اليسرى فإذا هي كذلك. ثم سلّم عليّ وأولاني ظهره وانصرف ماشياً على الماء كما جاء وكان يقطع قرابة الميل الواحد في خطوة أو خطوتين. ناديت البحارة وأبلغتهم بما

رأيت فحوقلوا جميعاً ثم عضدني أحدهم وأعادني إلى فراشي.

وصلنا وهران أخيراً. وجدت بعد أيام قافلةً تسير إلى جزائر بني مزغنة فانتظمت فيها وكان جلّها من اليهود يلبسون القمصان الفضفاضة التي لها أكمام طويلة تكاد تصل أقدامهم والقلانس الزرقاء التي أمر الخليفة أن تكون لباس كل يهوديّ في دولته وقد منعهم من لبس العمائم. آثرت القافلة التي حملتني معها أن تسير بمحاذاة الساحل تجنباً للوقوع في أيدي عصابات بني غانية الذين صاروا ينهبون ويسرقون أي قافلة يقعون عليها ليموّنوا بها ثورتهم ضد الموحدين. ثم ابتعدت القافلة عن الساحل بعد أن وردتهم أنباء القوافل الأخرى أن أسطول بني غانية يحوم في البحر ويهدّد المراكب. بلغنا جزائر بني مزغنة بعد سبعة أيام فانتظمت في قافلةٍ أخرى إلى بجاية فبلغناها بعد ثلاثة أيام. استأجرت حجرةً في نزل ملحق بحمام قضيت فيها ليلتي الأولى فقط قبل أن ينبو إلى علمي وجود مقصورة مخصصة للمتصوفة لا تبعد كثيراً عن الجامع الذي يلقي فيه الغوث دروسه. كانت حالمة شديدة الهدوء ليلاً، فُرشت بأثاث الزاهدين العابدين من حصر مفتولة من الوبر ونبات الأسل ووسائد من صوفٍ خشنٍ صلب، إذا نمتُ عليها تعب الجسد وارتاحت الروح.

* * * *

قصدت بيت الغوث أبي مدين بعد يومين. وقفت عند بابه أنتظر إما قدومه أو خروجه ولكني لم أطرق الباب. لا قدرة لي على أن

أجعل الغوث يقف على قدميه ويمشي إلى الباب ليجيب طرق مريدٍ ضعيف مثلي. وبعد ساعات فتح الباب وخرج الغوث مشرق الوجه كأنه قطعةٌ من الصباح لم يدركها الليل، بلحيته البيضاء التي لا تجاوز نحره، وذراعه الواحدة التي فقدت أختها في الجهاد. نظر إليّ مبتسماً ومستفهماً فسلّمت عليه وقبّلت يده اليسرى ثم ما تبقّى من كتفه الأيمن وقلت له وأنا مطرقٌ بين يديه:

- أنا محيي الدين بن عربي، جئتك من الأندلس لتغيثني بغوثك وتمدّني من فضلك وتحلّ عليّ بركتك يا شيخ.

وقضيت في بجاية أسابيع لا أنقطع فيها عن درس أبي مدين. وكلما سأل مسألةً أجبته وكلما عنّت لي مسألةٌ سألته. أرافقه إلى بيته إذا انتهى الدرس. وأقف عند باب داره صباحاً لأرافقه إلى الجامع. وإذا توضأ حملت خفّه وخللت أصابع قدميه ومسحت مرفقه وجبينه بخرقةٍ من قطن أغسلها بيدي كل ليلة قبل أن أنام. وإذا قضى من الصلاة حملت إليه مسبحته ووضعتها في يده اليسرى ليسبّح بها. وإذا قضى من التسبيح حملتها عنه وطوّقت بها عنقي وأبقيتها فيه حتى صلاته التالية.

انتظرته طويلاً أن يكشف عن وتديّته ويدلّني على مكان الوتد الثالث فطال انتظاري. وكلما تأخر عليّ ليلةً تذكّرت قول فاطمة لي وهي تودّعني بمرسيّة: "طهّر قلبك... ثم اتبعه". أترى يكون قد تلطّخ قلبي فحجب عني الوتد الثاني؟ لقد دلّتني فاطمة على وتدي الأول في إشبيلية فقضيت فيها سنواتٍ طوال حتى وجدته وأنا في مدينة واحدة. ولم أجده إلا بعد خلواتٍ وجذبات وحضرات ومقابر. فأين أجد هذا الوتد الثاني في أفريقية كلها؟ وما الذي سيطهّر قلبي إلى هذا الحد؟

طال انتظاري وداخلني اليأس فقررت أخيراً أن أفاتح أبا مدين في الأمر. انتظرته حتى انتهى الدرس ثم أخبرته أن عندي مسألة أحب أن أسأله إياها وحدنا. أطرق الشيخ برأسه ثم قال:

– يا بني. لم يسألني مريدٌ قبلك مسألةً إلا شعر قلبي بها قبل أن ينطق بها فمه. وأنا لا أشعر بهذا الآن. أظنك ستسأل عن شيءٍ لا أعرفه أو لا أقدر عليه، فاحفظ عليّ ماء وجهي أن تسألني عمّا لا أعرف، واحفظ عليك ماء وجهك أن تسألني ما لا أقدر.

فسكتّ ودمعت عيناي واستأذنته في الرحيل فأذن لي. عدت إلى مقصورتي وانفجرت باكياً. ثم كفكفت دموعي ورحت أجمع متاعي استعداداً للرحيل في الصباح سواءً وجدت قافلةً أم لم أجد. وبعد أسبوعين كنت في إشبيلية مرةً أخرى. ما دمت مربوطاً بوتدٍ واحدٍ فقط فيبدو أني سأحوم حولها مثلما تحوم الأقلام حول مركز الدائرة. لا يوجد في أفريقية بأسرها من أظنه وتداً لي بعد الغوث. والآن ليس بوسعي أن أسافر إلى أفريقية أصلاً ما دامت عائلتي بلا عائل والمغرب بلا مأمن. لا بأس، لقد قالت فاطمة: "هو سيجدك". ولكن عليّ أن أطهّر قلبي أولاً. يا الله! لو علمت فاطمة أن البحث عن وتد في أفريقية كلها أسهل من تطهير القلوب!

* * * *

ذهبت إلى بيت أهلي فور وصولي إلى إشبيلية لأجد أبي على فراش المرض. أما أمي نور فقد ماتت في أثناء سفري وهي نائمة في فراشها.

أختاي في حالٍ عصيبة وقد شقّ الحزن فؤاديهما. احتضنتهما معاً وراحتا تبكيان على صدري وكأن لقائي جدد أحزانهما على أمنا وقلقهما على أبينا. بكيتُ لبكائهما وفي داخلي شعورٌ حارقٌ بالندم على سفري الذي لم يكن له من طائلٍ إلا أنه أوجع قلب والدَيّ فتردّيا في المرض حزناً على فراقي.

دخلت على أبي فإذا في هو في حالٍ شديدة من الإعياء. لم يبلغوه بوفاة أمي خوفاً عليه. تمكث درّة إلى جواره طيلة الليل وأم سعد إلى جواره طيلة النهار. وهما لا تدريان أي ساعة من الليل أو النهار يفيق فيها لتطعماه وتسقياه وتُقعداه ليقضي حاجته. قبّلت كتفه ورأسه وهو لا يشعر بي وناديته فلم يجبني. سألت درّة أن تتركنا وحدنا وجلست عند رأسه ووضعت يدي على جبينه ورحت أقرأ سورة يس. بعد مراتٍ عديدة من القراءة أفاق أبي من غشيته ونظر إليّ بعينين فيهما الحقّ المبين. فقلت له:

- يا أبي. سأذهب إلى الجامع حتى يأتيني نعيك.

وذهبت إلى الجامع. فما فرغت من تحية المسجد حتى كان سلّوم يقف ورائي باكياً:

- عظّم الله أجرك يا سيدي. لقد مات الوالد.

٣١

"اليقين إذا أثّر فيه الهوى لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

تأكدت الأنباء التي حذرني منها الكوميّ حين هممت بالسفر إلى فاس. نادى منادٍ في السوق أن من كان عنده مخطوط أو كتاب لابن رشد يتعاطى علوم المنطق والفلسفة فليحرقه وإلا جلده الوالي. يستثنى من ذلك ما كان في الطب والحساب وعلم النجوم. أخرج الورّاقون كل ما لديهم من نسخ ورموها في ساحة السوق حتى صنعوا كومةً هائلة من الكتب تشي بمقدار ما نسخوا من كتبه طيلة السنوات الماضية. ثم أمر الخليفة بإخراج ابن رشد من السجن ونفيه إلى قرية اليهود في أليسانة. راجت الأندلس بالشائعات حول أسباب هذه النقمة التي صيّرت الصديق عدواً. كنت أشعر بالذنب بلا شك. لم يزل بعد شعوري بالذنب تجاه تفويتي جنازة أمي وتسببي في مرض أبي حتى أشعر الآن بذنبي تجاه ابن رشد. شيء في داخلي يقول إنني أسهمت في نقمة الخليفة عليه عندما سألني عن رأيي في الفلاسفة

والمتكلمين. هل يعقل أن يكون هذا فعلي في مجالس الخلفاء والسلاطين؟ الوشاية بالناس وإيرادهم المهالك!

صرّفت أفكاري على أحوال كثيرة محاولاً أن أطرد من قلبي شعوري بالذنب وأخفف عن نفسي لومها وآلامها. الخليفة يكره الفلاسفة منذ تولّيه الخلافة. الفقهاء يشكون إليه ابن رشد كل يومٍ في بريده. لا يمكن أن يكون قد اتخذ قراره بناءً على رأيي أنا فحسب. ولكن لم لا؟ ألم أخبره أن عندي كشفاً من الله؟ ربما آمن بذلك وصدّقني. ربما كان الخليفة في مزاجٍ سيئ بعد شفائه. وردت الأنباء أنه ضرب عنق أخيه أبي يحيى بعد أن شكّ في ولائه. إذا بلغ السيف رقاب الإخوة والأرحام فلن يعجزه أن يبلغ رقاب الفلاسفة والمتصوفة. سيزيد الفقهاء من وشاياتهم بعد أن أثمرت أخيراً عن نفي ابن رشد، ولن تخلو رسائلهم من اسمي يوماً ما.

انقلب شعوري بالذنب خوفاً وذعراً. ماذا أفعل في إشبيلة ووتدي في أفريقية؟ ماذا أفعل بأختَيّ ولم يبقَ لهما عائلٌ سواي؟ ماذا أفعل بزوجتي وطفلتي التي بدأت تمشي وتعثر؟ سوى ذلك كله كان كل شيء في المدينة هادئاً إلا قلبي. تركت بيتي الذي كان مستأجراً يدفع أجرته أبي وانتقلت مع زوجتي وابنتي إلى بيت أبي. أقمت في الحجرتين اللتين كان يشغلهما هو ودّرة وأعتقت الأخيرة بعد أن أخبرتني أم سعد أن أبي أوصى بذلك فشدّت رحالها من فورها إلى حيث لا نعلم. شعرت أني زغت عن القصد وانحرفت عن الطريق فعاقبني الله بما في نفسي من قلقٍ وذعر. ذهبت طمأنينتي التي نسجتها نسجاً من ملازمة الشيوخ ومتابعة الدروس، وانقشعت سكينتي التي

استسقيتها قطرةً قطرة من الخلوة بالله ومجالسة القبور.

فتحت بابي يوماً لرسولٍ من قصر الوالي يطلبني للحضور في مجلسه بعد صلاة الجمعة. خرجت من الجامع بعد الصلاة قاصداً القصر حتى إذا دخلت المجلس وجدت في حضرة الوالي رجلاً لا أعرفه. سلّمتُ فقال الوالي للرجل الذي بجواره:

- هذا محيي الدين، الابن الوحيد لعليٍّ بن عربي رحمه الله.

ثم التفت ناحيتي وقال:

- يا محيي، هذا رسول الخليفة إليك أحمد بن بقيّ.

قام وصافحني ثم قال:

- أمير المؤمنين بعثني إليك بعزائه في وفاة والديك.

- جزاكما الله خيراً.

- وهو يسألك أن تلحق به في مرّاكش وتكون عنده كاتب سر.

أطرقت برأسي غير أني أجبت دون تردد:

- ما لي حاجة بهذا.

ارتبك الرسول وكأنه لم يتوقّع مني الرفض. تدخل الوالي قائلاً:

- يا أبا زينب. إن الخليفة لا يبعث في أثرك إلا وأنت ذا مكانةٍ عنده. وإن أبوك كان خير رجال هذا البلاط. فإن كنت تسمع نصيحتي فأجب طلب الخليفة.

- أيها الوالي. إني لم أرفض هذا تعالياً ولا تجافياً، ولكني أعلم أني لم أُخلق لهذا. وما كان أبي يعرفه فإني لا أعرفه.

- إني أنصح لك أن تفكّر في الأمر بضعة أيام، فإن بقيت عند رأيك فلا تدع الرسول يعود إلى الخليفة برفضك بل اذهب إليه بنفسك فإن

هذا أطيب لنفسه وأحرى برضاه.

- سأفكر في ما قلت وأعود إليك بعد حين.

ثم أشار الوالي إلى أحمد بن بقيّ وقال:

- ابقَ في ضيافتنا حتى يرحل ابن عربيّ كي لا تسبقه. ولا ترسل للخليفة بشأنه حتى يصله بنفسه.

- سمعاً وطاعة.

* * * *

في الطريق إلى البيت شعرت أني ارتكبت خطأ. ها هي الفرصة تسنح لي بالسفر إلى أفريقية مرةً أخرى حيث ينتظرني وتدي الثاني، فلأي سببٍ رفضت؟ لا يمكن أن يرسل الخليفة في طلبي وهو يضمر لي شراً. لو شاء لأمر الوالي أن يرسلني إليه مقيداً في الأصفاد. ولأي شيء أبقى في إشبيلية التي لم يعد لي فيها أهلٌ ولا علمٌ ولا وتد؟ أستطيع أن أحمل أختَيّ معي فلا أضطر للعودة إليها مرةً أخرى. في مرّاكش شيوخٌ لم ألتقِ بهم وكتبٌ لم أقرأها ووتدٌ لا أدري متى سيكشف لي عن سره.

دخلت البيت وأخبرت مريم أننا نشد الرحال إلى مرّاكش قريباً. عجلت هي إلى أختَيّ وأخبرتهما بذلك فألفيتهما بعد قليل واقفتين عند باب غرفتي وعلى ملامحهما خليطٌ من ذهولٍ وقلقٍ وفرح. استفسرتا عن الأمر فقلت لهما ما كان من خبر الخليفة ورسوله الذي جاء في طلبي. راحتا تسألان أسئلةً لا معنى لها من وقع المفاجأة:

نركب خيلاً أم جملاً؟ بالبر أم بالبحر؟ من سيسكن بيتنا؟

خرجت صباح اليوم التالي إلى القصر فلم أجد للوالي مجلساً فسألت الحراس عن رسول الخليفة فأرشدوني إلى محل إقامته. وافيته حيث هو وأخبرته بقراري أن أستجيب لطلب الخليفة وسأرحل بأهلي جميعاً إلى مرّاكش. سرّ بذلك وسألني عن القافلة التي وجدتها في السوق وقرّر أن يرحل معنا فيها. وشددنا الرحال بعد أسبوع من هذا كله فوق رواحلٍ خمس أرسلها لي الوالي بهوادجها. فخرجت بزوجتي وأختَيّ وابنتي ومعنا سلّوم وعدّاد. ووصلنا مراكش صيفاً. استأجرت داراً واسعة فيها خمس حجرات وباحة وحديقة مزهرة سكنت أنا ومريم في أعلاها، وأختاي في الأسفل، وللعبدين حجرة ملحقة بالدار.

قصدت مجلس الخليفة بعد أيام من وصولي إلى مرّاكش. ابتسم لمرآي في مجلسه وربت على كتفي علامة الرضا ولكنه لم يكلّمني. كان مجلسه محتشداً بالمهندسين والبنّائين يحملون إليه أوراقاً واسعة فيها رسومات الأبنية التي أمر بها يتخلّلهم عددٌ أكثر من المعتاد من كتّاب الدست الذين يسجلون أوامر الخليفة. تناهى إلى سمعي كل ما يهمّ الخليفة ببنائه قريباً: سورٌ طويل على مدينة الرباط له أربعة وسبعون برجاً وخمسة أبواب؛ بيمارستان كبير في مراكش فيه مجارٍ للمياه العذبة توصلها إلى كل الحجرات؛ قصبة عظيمة لجامع الكتبيين تشبه تلك التي انتهوا منها في مسجد القصبة بإشبيلية؛ حصنٌ دفاعي على نهر إشبيلية بقبابٍ وقصور؛ جامعٌ جديد في سلا بمدرسةٍ ملحقة به؛ ساقية ماء عريضة تعبر مرّاكش كلها من الشمال إلى الجنوب،

وبضعة قصور جديدة للخليفة وأمراء الموحدين في مراكش وفاس وسبتة وسلا.

اختلى بي أحد كتبة الخليفة في أثناء وجودي في المجلس وطلب مني أن أذهب معه. تبعته إلى دار الكتبة الملحقة بقصر الخليفة. جلس خلف منضدة يكتب عليها وأخرج كتاباً كبيراً مسطّراً وقال لي وهو يفتحه:

- عطاؤك من الخليفة عشرة دنانير كل شهر وأجرة بيتك ودرسك في الجامع.

- جزاك الله والخليفةَ خيراً.

٣٢

"الحجاب الذي عليك.. منك"

ابن عربي

في الوقت الذي كان فيه رسول الخليفة ينتظر ردّي في إشبيلية كان رسولٌ آخر يجلس بين يدي السبتي في جبل جيليز بالمغرب. استجبت أنا لرسول الخليفة في ليلةٍ واحدة وقدمت إلى مراكش في حين تعيّن على رسول الخليفة الآخر أن يقيم مع السبتي ثلاثين ليلة في غاره حتى وافق السبتيّ أخيراً أن يقطع خلوته ويفد إلى مراكش. وقفت مع الواقفين أمام باب أكناو ننتظر دخوله بعد أربعين عاماً من خلوة الغار. ومرتّ ساعات حتى جازت بغلته الباب أخيراً. رمى الناس بسطهم أمام البغلة لتمشي فوقها حتى إذا تجاوزتها حملوها من ورائها وألقوها أمامها مرةً أخرى. لم يمسّ حافرها التراب حتى بلغت النزل الذي أمر الخليفة بإخلائه بالكامل للسبتي وطلابه ودروسه. فترجّل من بغلته وأخرج الصرة الموشّاة بالخيوط الفضية التي يأتي فيها عطاء الخليفة عادةً وراح يوزّع الدنانير التي فيها على الفقراء من

حوله حتى خوت تماماً.

بدا حسن المظهر رغم طول خلوته، طويل الشعر صافي البسمة عظيم اللحية. منكباه عريضان رغم هرمه وعضلاته مفتولة كالجبال التي عاشرها طويلاً. أقبل الناس على نزله حتى ما استطعت أن أعرّفه بنفسي، فاكتفيت بالسلام عليه وتقبيل يده مثلما يفعلون وانصرفت. خصّص لي الخليفة نزلاً أصغر من نزله أقمت فيه دروسي كما أحب. درسٌ للصغار في الفقه والتفسير صباحاً ثم أرفع من وجدت عنده رأياً درجات في العلم فلا ينتهي معي في حلقة التأويل التي نعقدها بعد منتصف الليل إلا أقلّهم. وكان منهم شابان فاسيّان قد أوتيا رجاحةً في العقل وحباً في العلم. لفتا انتباهي منذ أيامهما الأولى في درسي فاستبقيتهما معي يوماً بعد الدرس. ثم صحبتهما إلى البيت يوماً آخر. ثم حدثتهما في شؤون مختلفة واختبرت آراءهما في الدين والدنيا. ثم قررت أن أزوّجهما أختَيّ، فكاد الأربعة يطيرون من الفرح.

مضت أسابيع قبل أن تُتاح لي فرصة لقاء السبتي. كنت أمشي كل يوم إلى درسه فأنتظر أن يفرغ من مسائل الناس وقضاء حاجاتهم فيضيق الوقت فأسلّم عليه وأمضي. وبعد أيام عديدة صرت أقترب من درسه فإن رأيت الجمع كبيراً عرفت أن الوقت لن يتّسع لي فعدت على أعقابي. قررت أن أعود بعد شهر يكون الناس فيه قد انصرفوا عنه ولا يبقى إلا من اصطفاهم من التلاميذ. انشغلت بدروسي وبدأت أكتب كتاباً شغل وقتي كله. وفي منتصف ليلة كنا نقيم فيها درس التأويل طرق الباب. فتحه أحد التلاميذ فإذا بالسبتيّ واقفاً وعلى وجهه ملامح رجاءٍ وخجل:

- أين شيخك؟

هرعت إليه وقبّلت يده فقال بتوسّل:

- لم أنم من شدة البرد.

- ولكنا في صيفٍ يا شيخنا!

- أجل. البرد يعني أن الخرقة التي على جسدي لم تعد لي. ولا يفتأ جسمي يرتجف برداً حتى أخلعها على من يستحقها ويخلع عليّ.

شعرت بخيبة أملٍ تحوم فوق رأسي وتوشك أن تسقط عليّ. حاولت المحاولة الأخيرة لعلّ الله يصرفها عني فقلت:

- ومن هو هذا الذي يستحقها يا شيخنا؟

- أنت. ومن غيرك!

وسقطت خيبة الظن. ما طاف بخيالي يوماً أنّ خلع خرقةٍ من وليٍّ صالح ستورّثني هذه الخيبة والإحباط. ولكني كنت أتمناه وتداً لي. وما دام قد خلع خرقته فليس بوتد. من بقي في أفريقية إذا كان أبو مدين والسبتي ليسا من الأوتاد وأين أذهب في هذه البلاد الشاسعة بحثاً عن وتد؟

وقف أمامي وخلع خرقته وخلعت خرقتي. مضى من حينه وعدت أنا إلى مجلسي ساهماً لا أدري ما أقول. سألت التلاميذ أن يقطعوا الدرس ونكمل من غد. أويت إلى حجرتي وحاولت أن أكمل الكتابة من حيث انتهيت فما فتح الله عليّ حرفاً ولا رقماً. اضطجعت لأنام وفكّرت لو أن فاطمة لم تخبرني بالأوتاد الأربعة لكان خيراً لي. انتظارهم يفتك بي وهذا الترقّب مرٌّ وقاتل. وهذا الشرط الصعب (طهّر قلبك!) كم هو غامضٌ وبلا حدود. كيف أطهّره؟ ممَّ أطهّره؟

وكيف أعرف أنه طُهِّر؟ وكيف أعرف أنه تلوّث؟ ها هو يخفق بين جنبَيّ بالوتيرة نفسها طاهراً كان أو نجساً. والشمس تشرق من الجهة نفسها صالحاً كنت أو فاسقاً. والليل يخيّم على الأولياء والفجّار معاً ولا يفرّق بينهم.

نمتُ بعد لأيٍ وأنا مشوش الذهن ملتحفاً خرقة السبتيّ التي تفوح منها رائحة الحطب المحترق. في الصباح استيقظت شبه غاضب لسببٍ لا أعرفه. ربما كنت عاتباً على هؤلاء الأوتاد الثلاثة. ماذا ينتظرون؟ لماذا أنا بحاجة أن أطهّر قلبي أربع مرات. ألا تكفي طهارةٌ واحدة تأتي بهم جميعاً؟

خرجت من بيتي لأمشي علَّ هذا الغضب يزول ولم أكن أعلم أن في المدينة ما سيجعله يتأجّج وإن لأسبابٍ أخرى. الناس يتهافتون على الساحة الكبرى في السوق ما يعني أن المنادي على وشك إعلان شأنٍ ما من الخليفة. مشيت معهم ووقفت قريباً من الدرجات التي يقفُ عليها عادةً. ظلّ المنادي صامتاً ينتظر اجتماع الناس ثم لوّح بالورقة المطوية في يده وقال بصوته العالي:

– أيها الناس. هذه رسالة ألفونسو لأمير المؤمنين. وقد أمر أن تُذاع بين الناس لتسمعوا ما كتب، ثم تنظروا ما تفعلون.

ثم فتح الرسالة وقرأ:

"... أيها الخليفة. حُكي لي أنك تمطل نفسك عاماً بعد عام، وتقدّم رجلاً وتؤخّر الأخرى، ولا أدري هل الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أُنزل عليك؟ ثم حُكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً إلى الحرب. وأنك لا يخفى

عليك ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وأنا أسومهم الخسف، وأسبي الذراري، وأُمثّل بالكهول، وأقتل الشباب. ولا عذر لك في التخلّف عن نصرتهم، وقد أمكنتك يد القدرة...»

توقّف المنادي عن القراءة فارتفعت أصوات الناس استهجاناً. وارتفعت أصوات التكبير في أنحاء متفرقة من الجمع. تركهم المنادي يعبّرون عن غضبهم قليلاً ثم رفع يده ليسمحوا له بالكلام فخفتت الأصوات وقال لهم:

– أيها الناس، قد سمعتم ما جاء في رسالة العلج ألفونسو إلى أمير المؤمنين. فاسمعوا الآن ردّ أمير المؤمنين عليه.

ساد الصمت وأرهف الناس السمع. وتأخر المنادي في الكلام ليزيد من تلهفهم لسماع الرد، ثم أغمض عينيه وقرأ من سورة النمل:

– ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

هاج الناس وماجوا مثل زيتٍ ساخن في مقلاة. حقنهم ردّ الخليفة بإثارة هائلة فراحوا يهتفون باسمه هتافاً عالياً. اختلط التكبير بالهتاف بدعواتٍ الجهاد باللعنات التي تُصبّ على رؤوس النصارى. لاحت على وجه المنادي ابتسامةٌ يجاهد لإخفائها ثم نزل وانصرف. وبعد أيام طاف المنادون في الأحياء والحارات والمساجد لتجنيد المتطوعين في الجيش. لبس الخليفة لباس الحرب ولم يعد يظهر في مجلسه إلا به. مارست رسالة ألفونسو دوراً كبيراً في بثّ روح الانتقام لدى الناس، فتطوع من لم يتطوع من قبل، وخرج للجهاد

من لا يملك سيفاً ولا رمحاً، واصطفّ المئات من رجال مراكش أمام ديوان الجند استعداداً للانضمام لمعسكرات التدريب الطارئة. امتلأ سوق الحدادين بأمناء السوق ليتأكدوا من بقاء أسعار السيوف في متناول الجميع. ثم أمر الخليفة بشراء كل ما في مخازن التجار منها ووزّعها على المتطوعين. انطلق رسل الخليفة إلى أرجاء المغرب يحرّضون الناس للقتال ويشترون مخازن الأسلحة والخيول المدرّبة والدروع والسرج. وبعد أسابيع قاد الخليفة بنفسه مائتي ألف جنديّ من السودان والبربر والعرب والصقالبة والمولّدين والأغزاز إلى الأندلس.

٣٣

"الظنُّ لا يعوَّل عليه"

ابن عربي

لم يجانبني الصواب بشأن شخص من قبل كما فعل بشأن الحبشيّ الذي انضم إلى درسي مؤخراً. ظننته لا يتجاوز دروس الفقه الأولية فإذا هو يبلغ حلقة التأويل بعد أشهر قلائل، وظننته لا يعي ما ألقيه عليه من إشارات ورموز وتفسير وكشوف فإذا هو يجمعها في كتاب وينظمها ويشرحها، وظننته يريد أن يصحبني لأنه لم يعتد الحياة دون سيّد يأمره فإذا هو حرٌّ في باطنه وإن عاش عبداً في ظاهره، وظننته لا يبقى في صحبتي أياماً فبقي خمساً وعشرين سنة. وكنت أظن البدور لا تكون سوداً فإذا ببدر الحبشي أكمل البدور وأتمّها بالنور وأجلبها للطمأنينة والسرور.

– من أين أنت؟

لم يجب أول الأمر وكأنه لا يدري من أين هو، ثم قال:

– أنا عتيقُ أبي الفتوح الحرّاني. وكنت معه في القاهرة ودمياط

ومكة وبجاية ومراكش وفاس. فلا أدري من أين أنا.

- منها خلقتم وإليها ترجعون.

هزّ رأسه موافقاً وهو يبتسم بارتياح وكأنما حللت له لتوي مشكلةً كبيرة يواجهها بعد العتق. لم يكن يعرف عمره على وجه التحديد ولكنه بدا في بداية الأربعين. كان نابهاً ولطيفاً وخدوماً. أعتقه أبو الفتوح بعد أن كبر خشية أن يموت فيرثه أبناؤه ولا يعتقونه. فوجئ بذلك ولم يدرِ ماذا يفعل وهو لا يملك عملاً ولا مالاً. قصد الجامع وراح يدرس في الحلقات التي يجدها أيّاً كان مذهبها. ثم تناهى إليه أمري ورأى إقبال التلاميذ عليّ فصار يجلس في حلقتي ويستمع إلى كلامي ثم استأذنني أن ينتظم بها فأذنت له وأنا مشفقٌ عليه من صعوبة المسائل وغموض التأويل.

مرت أسابيع وهو منتظمٌ في الحلقة قبل أن يحدثني يوماً بعد الدرس قائلاً:

- أتبعك فأخدمك يا شيخ. إني لا أرى لك تابعاً؟

- وما ترجو من ذلك يا بدر؟

- علمك وبركتك.

فوافقته، فصار يرافقني كظلي: من البيت إلى النزل، ومن النزل إلى الجامع، ومن الجامع إلى السوق، ومن السوق إلى القصر. في الليل ينام في غرف الجامع المخصصة للتلاميذ الغرباء وقبيل الفجر يكون واقفاً أمام باب بيتي ينتظر خروجي. أنست برفقته واعتدت عليها. وثقت به فأوكلت إليه مهمة تنظيم الدروس وتوزيع التلاميذ ونسخ الكتب. وصار بعد أشهر قليلة ساعدي الأيمن الذي أعتمد عليه في

كل شؤوني، فلم يخذلني في أيٍّ منها. لاحظت منذ البداية أنه حامل بشائر. اختصّه الله بهذه الصفة فأصبح لملامحه شكل الفأل الطيب. وهو الذي بشّرني بانتصارٍ كبير لجيش الموحدين في الأندلس كما سمع من القوافل الأندلسية التي حملت تباعاً أخباراً تزيد ولا تنقص. كلما وفد مسافرٌ أخبرنا بعددٍ مختلف لضحايا القشتاليين وغنائم لا تحصى. قالوا إن القتلى عشرون ألفاً. ثم قيل خمسين. وسمعت بنفسي من يقسم أنهم أكثر من مئة ألف قتيل. أما الأسرى فقد امتلأت بهم المدن الأندلسية حتى أصبح عامة الناس يمرّون في الأسواق محمولين على محفّات يسوقها عبدان أو أكثر شقر الرؤوس زرق العيون. وقيل إن كثيراً من الغنائم تُركت في مكانها إذ لم يجدوا دواباً تحملها. وقيل إن ألفونسو الذي فرّ هارباً من المعركة حلق لحيته وشعره وأقسم أن يبقيها محلوقةً حتى ينتقم للهزيمة الكبرى التي حلّت به.

وصلت الغنائم أخيراً إلى مرّاكش فبيع الأسير بدرهم واحد والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهمٍ. واستكثر الناس من شراء العبيد بالجملة حتى يختبروا صنعتهم وقدراتهم فيعودون لبيعهم مرةً أخرى بأسعارٍ أعلى كلٌّ حسب صنعته. سيق أغلب العبيد للعمل في مواقع البناء الجديدة التي أمر بها الخليفة بأجرةٍ تدفع إلى مُلاّكهم. انتعشت الأسواق والتجارة بانخفاض أسعار العبيد والدواب. انتشرت بين الناس مشاعر الطمأنينة والثقة في المستقبل. فلما وصل الخليفة مرّاكش خرجوا لاستقباله أفواجاً فدخلها في موكبٍ بهيج أمطره الناس بالورود وسكبوا على حوافر

جواده المسك وفرشوا أمامه البسط وقبّلوا مواطئ جواده عليها حتى دخل قصره. وفدت إليه وفود مدن المغرب تباعاً تهنّئه بالنصر فكلما دخل وفدٌ تجدّد الهتاف باسمه في الشوارع. اخترع الحكّاؤون حكاياتٍ جديدة عن انتصارات الخليفة وصار دقّ الطبول يهزّ كل حيّ حتى النائية منها عن الساحات الكبرى. أمر الخليفة أن يُجمع له كل الأيتام المنقطعين ليُختنوا قريباً من القصر وأمر لكل صبيٍّ منهم بمثقالٍ وثوبٍ ورغيفٍ ورمانةٍ ودرهمين. أقام التجّار موائد مجانيةً للفقراء في كل سوقٍ احتفالاً بالنصر، وتبرّع شيخ البزازين بمئة عَلَم موحّدي رُفعت جميعاً عند أبواب الأسواق ومداخل الطرقات وجدران الجوامع. أقام القصر حفلاً كبيراً جلس فيه الخليفة على مقصورة تطلّ على ساحة المدينة والناس من تحته. تقدم الشعراء واحداً تلو الآخر مادحين انتصاره بقصائد غثةٍ وسمينة.

أصبح مجلس الخليفة في الأيام التي تلت وصوله يقام كل يوم بعد صلاة الظهر. فكنت أنهي درسي وأصرف طلابي قبيل الأذان ثم أصلّي وأتّجه إلى قصر الخليفة. وكان مجلسه المرّاكشي مختلفاً عن مجلسه في إشبيلية، إذ يحدّد وزراؤه أماكن الناس قبل دخولهم ويشيرون إلى كل شخص بمكان جلوسه بعد أن يسلّم على الخليفة. أما في إشبيلية فقد كان المجلس أصغر والوزراء أقل تحفظاً في قواعد الجلوس. هكذا لم يتح لي أن أجلس قريباً من الخليفة في مرّاكش. إلا أنه ما زال كلما سلّمتُ عليه يرحّب بي باسمي ويومئ لي ويبتسم خلاف ما يفعله مع أغلب الناس الذين لا يكلّمهم ولا يعرف أسماءهم.

انتهت الاحتفالات واقتصر الحضور في مجلس الخليفة على من يدعوهم إليه وكنت منهم إلى جانب العشرات من قادة الجيش وشيوخ القبائل وخطباء الجوامع وقضاة المدينة والأمراء الموحديين. وفيه يعرض الخليفة عليهم ما يجدّ من أمور الخلافة فيسمع آراءهم وأقوالهم. اشتكى الخليفة من بني غانية الذي استغلوا انشغال الجيش في الأندلس كعادتهم ليجددوا ثورتهم في تونس وتوسّعوا فاحتلوا قلاعاً ومدناً لم يبلغوها من قبل. تحدث في مجلسه بامتعاضٍ وسخط:

- قاتلناهم فما ارعووا، ودعوناهم فما استجابوا.

تحدث وزير الخليفة أبو حفص:

- ولكن الخليفة كسر شوكتهم ونقض غزلهم. ولم يبقَ منهم إلا بقيّةٌ من الجهّال الذين يوغرون صدورهم على الخليفة ومرتزقةٌ يشترون سيوفهم بالمال.

ردّ الخليفة على وزيره بحنقٍ ظاهر:

- لقد سمعت هذا من قبل يا أبا حفص. كلكم يقول إنهم قلةٌ لا قوة لهم. فلما خرجت لقتالهم إذا هم أكثر عدةً وعدداً مما ظننا.

- نصر الله الخليفة. ما زال الجيش في عدته وعتاده لم نصرفه بعد. إن شئت خرجنا إليهم وخلعنا شجرتهم من جذورها.

صمت الخليفة وراح يعبث بلحيته ويفكّر. وقبل أن يردّ استأذن رجلٌ آخر لا أعرفه وإن كان يبدو على هيئته أنه من قادة الجيش:

- إن أذن لي الخليفة أشرت عليه أن لا يحرّك الجيش. الجند متعبون والبيمارستان ممتلئ بالجريح منهم والعليل. ليس من الفطنة أن نسوقهم من معركة إلى معركة أخرى وهم في هذه الحال.

حدّق الخليفة في وجه الرجل طويلاً وكأنما عكست كلماته مسار تفكيره ولكنه ظلّ صامتاً ولم يعقّب. وجّه أبو حفص كلامه إلى الرجل قائلاً:

- نعم، صدقت. ولكنّ لا حاجة لنا أن نخرج لهم كامل الجيش. فعددهم أقل من جنود قشتالة.

أطرق الرجل ولم يجب، وبدا كأنه لا يريد أن يدخل في خلاف مع وزير الخليفة وساعده الأيمن. قام من مكانٍ غير بعيدٍ من مكاني رجلٌ طويل اللحية يبدو على سمته أنه فقيهٌ واقترب من مقام الخليفة وهو يتكئ على عصا. فلما وقف بين يديه قال:

- أعزّ الله الخليفة الذي اجتمع الناس تحت رايته وائتلف الناس في دولته. إلا أنه لم يزل فيها من ينقض الغزل ويفرق الجمع. فإن أذن لي الخليفة قلت بأمره، فإني لا أقبل أن أكون واشياً.

أومأ الخليفة إليه إيماءً نافذ الصبر وقد ازداد حاجباه انعقاداً وملامحه جموداً فتحدث المسنّ:

- شعيب بن الحسن. له في كل بلدٍ تابع وفي كل جامعٍ مريد. يقول بغير منهجنا الظاهريّ ويسير على غير طريقتنا المحمودة.

خفق قلبي لمّا سمعت اسم الغوث أبي مدين يوشى به في مجلس الخليفة، وأرهفت السمع من مكاني لئلا تفوتني كلمةٌ تندّ من فم الخليفة الذي أشاح بيده وقد بدا غير مقتنع بما يقوله الرجل المسنّ ومتململاً من الوشايات. فاستبق المسنّ الكلام قبل أن يصرف الخليفة انتباهه عنه فقال:

- وقد شاع بين الناس في بجاية أن له شبهاً بالمهديّ.

حدّق الخليفة في وجهه وقال:
- هل قال بأنه هو المهدي؟
- ليس بعد، ولكن لا يلبث أن يفعل.
- وما أدراك أن يفعل؟ رجماً بالغيب؟
- لا دخان بدون نار يا مولاي.
- إذا رأيت النار بأم عينيك فلتخبرنا. أما الوشايات فلا أقبلها. اتّقِ الله!

٣٤

"الحر من ملك الأمور ولم تملكه"

ابن عربي

مرّ أسبوع ودخلت مجلس الخليفة كعادتي بعد الظهر وسلّمت وانصرفت إلى حيث قدّر لي أن أجلس. راقبت وفداً من صنهاجة تأخروا في تهنئة الخليفة بانتصاره معتذرين بمرض كبيرهم فأحسن الخليفة استقبالهم ثم أمر لكلٍّ منهم بكساء. دخل بعد ذلك أمناء أسواق مرّاكش فسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وأوصى بخفض أسعار الشعير ببيع الغلال التي في مخازنه. دخل بعد ذلك سفراء بلاد السودان يشكون إليه تجاراً مراكشيين اشتروا بيض نعام فتكسّر في الطريق فلم يدفعوا ثمنه فأمر بإحالتهم إلى القاضي. ثم استقبل قادة الجند الذين وقفوا بين يديه فسألهم عن الجند فقالوا:

- إن قادة الجند يرفعون إلى الخليفة أعزّه الله شكواهم.

اعتدل الخليفة وأبدى اهتماماً وهو يقول:

- وما هي شكواهم؟

- يشتكون أن جامكيتهم توزَّع أربع مرات في السنة، وجامكية الأغزاز كل شهر.

أشار الخليفة لوزيره فدنا منه وتهامسا ثم قال الخليفة:

- غفر الله لكم. هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية. أبلغهم بذلك وقل لهم إن الجند بأعيننا ولا ننساهم.

انصرف القادة بعد ذلك فخلا المجلس. بدأت أستعد للخروج كذلك قبل أن يناديني حاجبه لأقترب منه فاقتربت. فدنا مني الخليفة وهمس لي قائلاً:

- هل تعرف شعيباً بن الحسن؟

- ذلك الغوث أبو مدين. ومن لا يعرفه.

عاد الخليفة واستند بظهره على كرسيّه وأشار لي بالجلوس إلى جواره. فقام أحد الناس وأفرغ لي مكانه. جلستُ وقد عاد قلبي إلى الخفقان مرةً أخرى بشدة. استعادت ذاكرتي وشايتي السابقة بابن رشد وما حلّ به بعد ذلك. لئن استزاد الخليفة مني حول أبي مدين فلربما كانت منجاته أو مهلكته بيدي.

صرّف الخليفة بعض الأمور ثم أشار لحاجبه أن يتوقف عن إدخال الناس عليه. ثم قام من مجلسه وقال لي:

- تعال معي.

تبعته فدخلنا القصر يتبعنا الحاجب. جلسنا في مجلسٍ صغير لا يكفي ستة رجال. قال الخليفة للحاجب:

- نادِ أبا حفص والجنفيسي وابن بقيّ.

لم يحدثني الخليفة حتى وصل الرجال الثلاثة. ابن بقيّ الذي بعثه الخليفة رسولاً إلي في إشبيلية قد عُيّن قاضياً منذ أسابيع قليلة فقط. والجنفيسي والي الخليفة على بجاية وأعمالها. سلّمت عليهم جميعاً ثم جلس أربعتنا ينتظر الخليفة أن يفصح عمّا خلا بنا بشأنه. وسرعان ما أشار إلى الجنفيسي وقال:

- قل ما ذكرته لي هذا الصباح.

تنحنح الجنفيسي وتحرك بؤبؤاه يمنةً ويسرة في خجل ثم قال:

- سألني أمير المؤمنين أدام الله ظله عن شعيب بن الحسن... وقد قلت ما أعلمه عنه. له مسجد يؤمّه بشرٌ كثيرون، وفيه يُحدّث بعلومٍ كثيرة...

قاطعه الخليفة مستعجلاً إياه:

- بأي المذاهب؟

- عدة مذاهب. منها الحنفيّ والمالكيّ.

التفت الخليفة إلى أبي حفص وقال:

- ماذا كان أمرنا بشأن المالكيّة يا أبا حفص؟ هاه؟

أجاب أبو حفص سريعاً دون ارتباك:

- أوامرك مطاعة يا أمير المؤمنين. ولقد بلغت جميع الولاة في كل الأمصار أن لا مالكيّة في أي مجلسٍ أو مسجد. ومن خالف ذلك فهو عاصٍ يستحق العقوبة.

التفت الخليفة إلى الجنفيسي وقال:

- هل بلغك أمرنا هذا؟

- بلى يا أمير المؤمنين. وأنفذته من حين.

– فما بال شعيب هذا؟

– أبلغه بذلك كتّابنا وقد سمعه ووعاه.

– فلمَ لم تأخذ على يده يوم أعرض عن أمرنا؟

صمت الجنفيسي وهلةً يرتّب أفكاره وبدا على ملامحه ارتباكٌ وحذر، ثم قال:

– يا أمير المؤمنين، إن شعيباً هذا له من الأتباع ما لا يُحصى في بجاية وتلمسان وقفصة. وبعض طلابه يؤمّونه من مصر والسودان والشام والأندلس. وقد جاهد الصليبيين وقُطعت ذراعه في ذلك الجهاد فأكسبه ذلك محبةً كبيرة من الناس. وإني خشيت إن أغلظت عليه أن تحدث فوضى و...

قاطعه الخليفة صائحاً بهياج:

– إذن تخبرني! إذا خفت من الفوضى تخبرني لأنظر في شأنه بدلاً من أن تجعله يستمر في مخالفة أمرنا على رؤوس الناس.

راح الجنفيسي يومئ برأسه إيماءً شديداً وهو مطرقٌ لا يتكلم والخليفة يقرّعه بصوتٍ عالٍ لا يبدو أنه أخاف أبا حفصٍ ولا أربكه. استمر الخليفة في صياحه:

– ألآن وقد ذاع صيته وكثر أتباعه جئت تشكوه إليّ؟ غفلت عنه حتى استفحل أمره وجاءني خبره من غيرك أيها الوالي التعس.

في أثناء ذلك كله كان عقلي يفكّر بسرعة ظبيٍ مطارد. كنت أنتظر أن يسألني الخليفة عن رأيي في الغوث حتى أسبغ عليه المديح والفضائل. ولكن اتّضح الآن أن ذلك يغيظ الخليفة ويثيره. ولئن سمع ذلك مني ازداد توجّسه من أين يكون في مجلسه وبلاطه أتباعٌ

للغوث. ولم أزل في أفكاري هذه حتى التفت إليّ الخليفة وقال لي بنبرةٍ منزعجة:

- قل لي ما تعرفه عن هذا الذي تعرفه كل رعيتي إلا أنا!

- ما أعرفه عنه مثل الذي قال الوالي. ولكني يا أمير المؤمنين أريد أن أقول إن بعض العلماء والشيوخ مثل أبي مدين إنما يأخذون قولاً من هذا المذهب وقولاً من ذاك المذهب على وجه المقارنة والتقريب والاستدلال. فإن كان أحدٌ سمعه يذكر كلاماً عن مالك أو أبي حنيفة فهذا لا يعني أنه متّبعٌ لمذهبهما أو منصرفٌ عن المذهب الظاهري. ولو سمعت منه بنفسك لتأكد لك ذلك.

هدأ الخليفة وبدا وكأنه يفكر في كلامي بعمق، وأسند ظهره على كرسيه وظلّ محدقاً في وجهي وكأني ما زلت أتكلم. وبينما هو كذلك انتهز أبو حفص الفرصة وقال:

- لقد صدق أبو زينب. لو سمعت منه بنفسك لتأكد لك ذلك. فماذا يرى أمير المؤمنين في أن ندعو هذا الرجل للمجيء إلى مراكش فيسمع منه بنفسه؟

استحسن الخليفة رأيه وقال بصوتٍ خفيض وهو لا يزال يفكّر:

- نعم نعم، هذا حسن.

تنحنح الجنفيسي وقال بصوتٍ مختنق:

- الرأي ما رأيت يا أمير المؤمنين. ولكن الرجل طاعنٌ في السنّ وقد يشقّ عليه السفر.

نظر الخليفة إلى الجنفيسي ثم أجاب بنبرةٍ هازئة:

- أخفيته عن سمعي وتريد الآن أن تخفيه عن نظري يا جنفيسي!

هاه.

- أعوذ بالله من ذلك يا مولاي. ولكني أحببت أن أطلعك على حاله والأمر لك من قبل ومن بعد.

- الأمر لله وحده. أرسلوا إليه يأتيني في مرّاكش...

وقام مولياً إيانا ظهره وإن تناهى إلينا صوته وهو يبتعد:

- ولا يتأخر!

٣٥

"إنني مما يأمن القلبُ خائف!"

ابن عربي

مرّت ليالٍ لم أنم فيها كما يجب. مريم تنام وتصحو وتراقبني في أسى. تقبض على يدي وتضمّها إليها لعلّي أرتاح وأسكن. لو مسّ الغوث أذىً من الخليفة فسأكون شرَّ مريدٍ في الأرض، ولن يمنحني الله لا ولايةً ولا نجابةً ولا قطابة، وسيفرّ مني أوتادي فرار الظباء من الوحوش. أنا عدو أولياء الله الصالحين الذي يزجّ بهم في السجون ويُطوّح بهم في المنافي. ولا تلبث العدالة الإلهية أن تقتصّ من الشرّ المتمثّل فيّ فتهيئ لي سجناً ضيقاً أو منفىً بعيداً. يا إلهيّ، إن لم يحلّ بالغوث أذىً فلا أبالي ولكنّ عافيتك أوسع لي وله.

مرّ أسبوعٌ تلاه آخر. وانتهى الشهر ولم يصل الغوث. لم أسأل عنه في القصر ولم يتناهَ إلى سمعي عنه خبر ولم يكشف الله لي كشفاً. وأي كشف؟ أنا لا أستحقّ كشفاً ولا رؤيا. فليذهب الكشف لمن يستحقه من الأولياء الطيبين الذين يحسنون إلى شيوخهم فيحسن

الله إليهم. لقد قالت فاطمة لي ما لم أدركه حتى الآن "طهّر قلبك واتبعه". فلم أطهّره ولم أتبعه. هأنذا أشي بالأولياء وأجالس الخلفاء. آكل وأشرب وأتنعّم كالعامة والدهماء. فأي طهارةٍ هذه!

لم أعد أحتمل. الغوث لم يصل بعد. إما أنه رفض دعوة الخليفة فتأكّد ظنون الخليفة بمسؤوليته عن العصيان المتكرر والثورات المتلاحقة، وإما أنه هرب إلى مكانٍ بعيد خارج سلطان الموحّدين. دعوت الله أن يكشف لي فلم يفعل. صلّيت كل ليلة وانقطعت عن مريم وتصدّقت بنصف عطائي الشهري وزرت ثلاثة أضرحة وقرأت ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ في كل ركعة من فروضي ونوافلي، ونمت ليلتين في مقبرة المدينة. وانقضى الشهر الثاني ولم يكشف الله لي شيئاً. صعدتُ إلى سطح بيتي لأبكي دون أن أفزع طفلتي، وانتحبت.

صباح اليوم التالي ذهبت إلى القصر وقصدت أبا حفص. لم أكن قد التقيته منذ مدة. راح يتمعّن في وجهي قليلاً وقد انتبه للهالات المحيطة بجفوني والحزن المقيم في عينَيّ. أمسك بيدي وسألني بحنو:

– أمريضٌ أنت يا أبا زينب؟

نظرت إلى وجهه وقد أوجعني حنوّه عليّ وأجبته:

– مريضٌ بذنوبي، عليلٌ بغفلتي وغروري.

ضحك بعصبية وراح يربت على ظهري ويقول:

– إن كنت أنت مريضاً بذنوبك فنحن موتى إذن يا أبا زينب. تعال اجلس هنا.

جلست أمامه وراجعت نفسي للمرة الأخيرة إن كان يجدر بي سؤاله عن الغوث أم لا. قررت أن أمضي في ذلك. إذا مرّ شهران ولم يصل الغوث فلا بدّ أن الخليفة قد اتّخذ قراره وقضى في الأمر أياً كان. فلم يعد سؤالي عن الغوث يضرّ ولا ينفع.

– لماذا تأخر الغوث؟

أجاب الوزير سريعاً دون اهتمام وهو يطالع بعض أوراقه:

– ألم تعلم؟ مريضٌ هو.

غمرني ارتياح. سكبت إجابة الوزير دلواً من الماء البارد على صدري الذي تحوّل إلى مجمرةٍ ساخنة طيلة شهرين. كيف لم أفكّر في هذا؟ نعم، لا شيء يمنعه من الحضور إلا المرض. وأنا الذي ظننت بشيخي الظنون وجعلته عاصياً أو هارباً لم أحسن به الظن فأظنه مريضاً. ما أتعسني. سألت الوزير:

– حقاً؟ وهل يعلم الخليفة ذلك؟

– بالتأكيد يعلم. لقد أرسل بعد رسوله الأول رسولين آخرين ليستعجلاه لمّا تأخر. وقد عاد الرسول الأخير قبل أيام وأخبرنا أنه قد خرج من بجاية فعلاً قاصداً مراكش ولكن المرض حبسه في تلمسان.

– وهل أبلغ رسول الخليفة متى ينوي مواصلة السفر؟

– إنه لا يتكلم. ونظن مرضه لا يمهله.

تبخّر دلو الماء البارد في صدري وعادت النار تلتهم أضلاعي. الغوث يحتضر. أرهقه السفر. سلّمت وانصرفت. وعدت إلى البيت لا ألوي على شيء. فزعت مريم لعودتي مبكراً وراحت تتمعن في ملامحي بحثاً عن سبب. أخبرتها بأمر الغوث. رأيت عدّادَ يطعم

الفرس فقررت في اللحظة تلك أن أسافر إلى تلمسان لأرى الشيخ قبل أن تصعد روحه. أمرت عدّادَ أن يهيّئ الفرس ومريمَ أن تعدّ لي عدة رحيلي.

هتفت مريم:

- تذهب وحدك؟ هل تعلم قافلةً ترحل معها؟

- لن أنتظر القوافل. أخشى أن يدركه الموت وبعد لم أره.

- ولكن السفر وحيداً خطر. خذ معك عدّاد. أرجوك.

- لا توجد فرسٌ تحمله وسيؤخرني إن مشى.

- يركب البغل.

- البغل بطيء.

انصرفت مريم متبرّمةً بعنادي وراحت تعدّ عدة الرحيل. سمعتها تحدّث سلّوماً بحديثٍ لم أسمعه ثم خرج سلّوم من البيت ثم عاد. وبعد هنيهةٍ من الزمن طُرق الباب. فتحت فإذا بدر الحبشي واقفٌ وفي يده لجام حصان. هتف أول ما رآني:

- أرحل معك يا سيدي. معي حصان.

نظرت خلفي فإذا سلّوم واقفاً ومن ورائه ظهرت مريم تحاول أن ترى. عرفت أنها أرسلت سلّوماً إلى بدر الحبشي ليرافقني. لا وقت للجدال. ما دام مع بدر حصان فلا بأس.

* * * *

ركبنا وخرجنا من المدينة معاً وبدأ بدر يشرح لي الطريق التي سلكها

من قبل عدة مرات. مشينا طيلة النهار وأغلب الليل. وصلنا بعد خمسة أيام. وأدركنا الشيخ في بيت لصيقٍ بالمسجد يُمرّضه أحد طلابه. فقد النطق ولم يعد يُحدّث أحداً. قبّلت يديه ولحيته وجبينه وجلست عند رأسه. سألت من كان عنده من طلابه عمّا حلّ به، فأخبروني كيف سقط مغشياً عليه وهو في طريقه إلى مراكش. دمعت عيناي شفقةً على هذا الشيخ الكبير الذي حمّله الخليفة مشقة سفرٍ لا يطيقه فإذا هو يكاد يقضي عليه. استأذنت الرجل الذي هو في بيته أن ألازم فراشه فأذن لي. أرسلت الحبشي إلى السوق فجلب طعاماً كثيراً لئلا أكلف على أهل البيت الذي بدا فقيراً. اتّخذت فراشاً عند قدمي الشيخ وصرت أنام إن نمت وقدماه تكادان تلتصقان بجبيني. وإذا أفقت انتقلت عند رأسه أقرأ سورة يس مراراً وتكراراً.

مرت أيام وحال الشيخ لا تتغير. أحضر الرجل حنوطاً وكفناً وجعله في طرف الحجرة. قلت له:

- ماذا تفعل؟ أواثقٌ أنت أنه يموت حتى جلبت كفناً؟

أجابني بعينين دامعتين وصوتٍ يكسره البكاء:

- لم أجلبه بل جلبه الشيخ معه من بجاية.

اختنقت بعبرةٍ آلمت حلقي وسألته:

- أكان يشعر بدنوِّ أجله؟

- لم يكن يشعر بذلك بل كان مستيقناً به. لمّا وصل رسول الخليفة وهو ببجاية يأمره بالمثول بين يديه أشفق عليه الناس من طول السفر ورجوه أن يكتب إلى الخليفة معتذراً عن الحضور بسبب مرضه، فضحك من كلامهم وقال "إن منيّتي قُدِّرت في غير هذا المكان ولا

بدّ من الوصول إلى مكان المنيّة".

بكى الرجل ودمعت عيناي واستمر في كلامه:

- وطيلة الطريق من بجاية وهو يردّد "الحمد لله الذي قيّض لي من يحملني إلى مكان منيّتي". وما زال يردّدها حتى غشي عليه.

انقطع أملي بشفاء الشيخ بعد ما سمعت هذا الكلام. ورحت أنتظر أن يكمل الله كرامته لوليّه ويقبض روحه ففعل. مات بعد ساعات وانتشر الخبر في تلمسان بأسرها. فلما خرجنا لدفنه خرجوا عن بكرة أبيهم فلم تتّسع لهم المقبرة. صلى عليه الناس جماعةً تلو جماعة حتى غربت الشمس وما زال حول قبره من يبكي ويتمسّح.

عدت إلى مرّاكش مهموماً ومعي بدر. شعرت أن حنقي يزداد على هذا الخليفة الذي آذى أولياء الله وأهل العلم على حدٍّ سواء. فها هو ابن رشد في منفاه وأبو مدين في قبره ولا أظن الدائرة تدور إلا عليّ من بعدهما. الفقهاء النمّامون أصبحوا جلساء الخليفة، يوغرون صدره على الناس وهو منتشٍ بسكرة النصر لا يعلم أيَّ موردٍ سيرد ما داموا هم أدلته وشهوده.

٣٦

"ما حار أهل الحيرة سدى"

ابن عربي

وقع خبر وفاة الشيخ أبي مدين على الخليفة وقعاً مؤلماً. وبّخ أبا حفص الذي أشار عليه بالقدوم إليه أمامنا فقلت في نفسي: "ألم يخبره الجنفيسي أنه مريض؟ ما بال الخليفة يرمي باللوم على أبي حفص". مرت أيامٌ ظنّ الخليفة فيها أن الأمر مضى وطواه النسيان حتى وصل أهل بجاية. أوجعهم فقد شيخهم العظيم حياً عندما أمره الخليفة بالمجيء وميتاً عندما دُفن في تلمسان. فوفدوا إلى مرّاكش واستأذنوا على الخليفة. ظنّ أبو حفص أنهم هنا لتقديم العزاء فأدخلهم عليه. فلما وصلوا إلى حيث يجلس لا سلّموا ولا عزّوا، بل تناوبوا على الكلام معه واحداً تلو آخر:

- أيها الخليفة، اعلم أنك آذيت ولياً من أولياء الله، فأخرجته من مسكنه، وشققت عليه بسفرٍ لا يطيقه، فتنعّم ما شئت في مجلسك فإنك منقلبٌ إلى ربك وخصمك ليس لأي خصم بل قطب الوقت

وسلطان الوارثين وإمام الصدّيقين.

ثم قام آخر وقال:

- يعلم الله أنه الغوث قد لبث في مسجده ضعف ما لبثت في قصرك، وقدم إلى ربه وليس في بيته قوت يومين وستقدم إلى ربك وقد ظلمته وأرهقته.

كل هذا والخليفة مطرقٌ يحاول أن يمتصّ غضبهم بادّعاء الحزن والتألّم. فاسترسلوا في كلامهم وقد بدا غضبهم هادراً وحزنهم عميقاً. أقف في طرف المجلس وأسمع ما يقولون وأتمنى لو كان بوسعي أن أقول للخليفة مثل ما قالوا وزيادة. ظل الكلام مستمراً. اقترب أحدهم من كرسيِّ الخليفة وأشار إليه بسبابته حتى كاد يمسّ طرف ثوبه وقال:

- أنزعَ الله الرحمة من قلبك؟ تأمر شيخاً في الثمانين أن يأتيك على بغلة وأنت تجلس على فنطاسك في مراكش؟

وصاح آخر:

- اعلم يا ظالم أنّا تلاميذه ومريدوه وأتباعه وقد فجعتنا في معلّمنا وشيخنا وإمامنا فوالله لنرفعنّ الشكاية لمن لا تضيع عنده الحقوق ضد من ضيّع الحقوق.

أخيراً غضب الخليفة بعد أن أكثروا من لومهم ونفد صبره. راح يجادلهم ويأمرهم بالتأدّب فلم يستجيبوا. نادوه باسمه منفرداً بلا ألقاب وراحوا يدعون عليه بزوال ملكه وقرب هلاكه. أمر الحراس بحبس من رفعوا أصواتهم وأثاروا حفيظته وهم أكثر من عشرين رجلاً. تجمّع الحراس حول الثائرين وطوّقوهم وساقوهم خارج مجلس الخليفة. ارتفعت أصواتهم وهو يتدافعون إلى الخارج وراح

أحدهم يدعو على الخليفة والبقية يؤمّنون على دعائه بصوتٍ عالٍ. ثم لم يكادوا يدخلون السجن حتى أرسل من يأمر الحراس بتخلية سبيلهم.

غاب الخليفة عن مجلسه بضعة أيام بعد تلك الحادثة يكره أن يخرج. امتنع عن النظر في مظالم الناس التي تُرفع إليه وأمر أن تُعاد جميعاً إلى بيوت القضاء. استدعى أبناء أخيه أبي يحيى الذي ضرب عنقه وأمر لهم بعطاءٍ وبيوت. أمر بإخراج الغلال التي في المخازن لينخفض سعر الخبز رغم أن ثمنه لم يرتفع. أفرج عن كل سجينٍ لم يُحبس في حدٍّ من حدود الله. امتنع عن الصلاة بالناس بنفسه وأمر أن يؤمّهم إمامٌ من عامة الناس.

رأيته منذ تلك الحادثة مرتين بشكلٍ عارض في القصر فكان يتجنّب إطالة النظر إليّ، وإن فعل لمحتُ في قرارة عينيه ندماً شديداً وحزناً عميقاً. ثم فوجئنا ذات صباح بالخليفة يعفو عن ابن رشد. أرسل جماعةً من حراسه إلى أليسانة حيث منفاه وأمرهم أن يحسنوا إليه ويحملوه في محملٍ كريم حتى يعودوا به إلى مراكش. استبشرت بذلك الخبر وشعرت أن همّاً ثقيلاً قد بدأ يتزحزح عن صدري. يريد الخليفة أن يكفّر عن تسبّبه بوفاة الغوث بالعفو عن ابن رشد. لا ريب أن هذا ما يشعر به. ولو عفا عن ابن رشد سبعين مرةً ما كفّر ذلك عن ذنبه ولكن يفعل الله ما يشاء.

وصل ابن رشد إلى مرّاكش بعد أسبوعين من العفو. هرم وكأنه قضى في أليسانة ثلاثين سنةً وليس ثلاث سنين. شابت لحيته وتجعّد جبينه وارتخت جفونه وانحنى ظهره. رأيته على هذه الهيئة عن بعد

وهو يدخل مجلس الخليفة. تجنّبت أن أسلّم عليه لشعورٍ طاغٍ في نفسي يمنعني عن ذلك. كنت أخشى نظرةً منه تعيدني إلى حالة الندم التي بدأت تغادرني ببطء ولا أريد أن أنتكس مرةً أخرى. وقفت مع أهل المجلس أراقبه وهو يخطو ببطء والخليفة يقوم من مجلسه ليسلّم عليه. بدا أنه تأثر لمرآه على تلك الهيئة ولم يكن يتصور أن تتغير حاله إلى هذا الحد. وقفا معاً في منتصف المجلس والخليفة يحاول أن ينظر في وجه ابن رشد والأخير يشيح بوجه ويطرق معلّقاً بصره بالأرض. راح يسأله عن صحته وابن رشد يومئ برأسه ويردّد:

- الحمد لله على كل حال. الحمد لله على كل حال.

قاده الخليفة بنفسه ليجلسه إلى جواره ثم قال له:

- يا أبا الوليد، إنا قد عفونا عنك وأعدناك إلى مجلسنا. عفا الله عما سلف.

صمت ابن رشد قليلاً حتى ظننا أنه لا يجيب أو لم يسمع، ثم تكلم فجأة:

- إن تعفُ عني في الدنيا فلا أعفو عنك في الآخرة.

عبس وجه الخليفة من ردّه وهزّ رأسه في أسفٍ وامتعاض، ثم قال:

- لقد علمت أني ما ظلمتك. ولو تركت الأمر للناس لأرادوا قتلك. اخترت لك المنفى لتكون آمناً وقد أخفيت نيّتي بالعفو عنك بعد حين عندما تهدأ نفوس الناس.

رفع ابن رشد رأسه ونظر إلى وجه الخليفة مباشرةً وابتسم ابتسامةً طفيفة ثم قال:

- إن المنفى لم يضرّني. إن الدنيا بأسرها منفى المؤمن. ولكن

أتعلم أشدّ ما كان وطأةً عليّ في أليسانة؟

فأشار الخليفة برأسه مستفهماً، فقال ابن رشد:

- قصدت المسجد الوحيد مع ابني عبد الله لنصلي، فقام سفلة الدهماء الذين سلطّتهم عليّ فأخرجوني منه ومنعوني من الصلاة فيه.

هزّ الخليفة رأسه مستاءً من ذلك الفعل، فأردف ابن رشد بصوتٍ أعلى:

- لقد بقيت في أليسانة ثلاث سنوات لم أدخل فيها بيتاً من بيوت الله. هل تعلم هذا؟ هل تعلم؟

- والله ما علمت بهذا. وما كنت لأمنع مسلماً من مساجد الله.

- الآن لا يجدي أعلمت أم لم تعلم. عندما يتبع الحاكم رعاع الناس تقع المظالم وتفسد الأرض.

فانفعل الخليفة وضرب برجله الأرض وهو يلوّح بيديه ويصيح بابن رشد:

- خفّف ملامك يا بن رشد! ما أنا بتابع الرعاع ولا أنت بمعاتبي على حكم الله ورسوله. أتشكّ في حكمهما؟

- سيحكم الله بيننا يوم القيامة يا يعقوب.

ثم قام ابن رشد وتوكأ على عصاه وهمّ بالمغادرة وهو يقول:

- ... وذلك سيكون حكم الله بلا شك.

أولى ابن رشد ظهره للخليفة ومشى بخطواته البطيئة جهة الباب والخليفة مبهوتٌ صامتٌ لا يعرف كيف يتصرف. أطرق ساكتاً وهمهم بعض من حوله وكأنهم ينوبون عنه في إبداء الاستياء. راح

الحاجب ينظر جهة الخليفة متحيّناً أن يأمر بأمر ولكنه لم يفعل. مرّ ابن رشد من أمامي مباشرةً حتى كادت عصاه تمسّ طرف ثوبي ولو رفع رأسه لرآني أخفي ابتسامة رضا عن كل ما قاله للخليفة وشفى به صدري.

ولما قرر ابن رشد أن الحكم سيكون بين يدي الله يوم القيامة غادر باتجاه هذه المحكمة التي اختارها، فصعدت روحه إلى بارئها بعد لقائه هذا مع الخليفة بأسابيع. وقع نبأ وفاته على الخليفة كالصاعقة وهو بعد لم يفق من خبر وفاة الغوث. فضاقت به الأرض، وقرر أن يذهب إلى قصره في مدينة سلا ليسلي عن نفسه قريباً من البحر.

٣٧

"هذا الإمام وهذه أعماله
ياليت شعري هل أتت آماله؟"

ابن عربي

أوصى ابن رشد أن يُدفن في قرطبة. قررت أن أشيّعه لعلي أشيّع معه شعوري بالذنب وأدفن إلى جواره مقراض الندم الذي يأكل من قلبي فلا يشبع. مشيتُ إلى بيته ومعي بدر فلم نكد ننعطف عنده حتى ألفينا حشداً من عشرين رجلاً على الأقل يقفون عند الباب وعلى وجوههم حزنٌ لا يخفى ولوعةٌ لا تزول. جلب بعضهم راحلةً وتأبّط بعضهم صراراً وجاء بعضهم الآخر بلا زاد ولا راحلة. أرسلت بدراً يشتري من السوق ما يكفي عشرة أشخاص منهم لمن لا يملك زاداً للسفر، ووقفت مع الواقفين عند الباب ننتظر خروج الجثمان. ناح شابٌّ يافعٌ منهم وسقط على الأرض ممزِّقاً ثوبه عندما رأى التابوت يخرج من البيت محمولاً على أكتاف ابنيه وخادم كظيم الوجه غزير الدموع.

تحركت القافلة الصغيرة الحزينة صباحاً. ناقة ابن رشد تتهادى عن

يميني وأنا أنظر إليها من حين إلى آخر وهي تحمل كل ما تركه الرجل من أثر على وجه الأرض: جسده وكتبه. بلغنا البحر بعد أيام وركبناه وهو هادئ مستقر كأنه يشيّع ابن رشد معنا. وصلنا قرطبةً في اليوم الحادي عشر من رحيلنا وقد سبقتنا إليها أنباء الجنازة القادمة فخرج لاستقبالنا نفرٌ كثير من أهلها. راحوا يعانقون من يعرفون منا ومن لا يعرفون وقد سالت الدموع وعلا النحيب وتهدجت الأصوات. مسحوا على التابوت بأيدٍ مرتجفة وأسندوا عليه جباهاً حزينة مكتئبة.

جازت القافلة شوارع قرطبة تحفّها حوقلات الرجال في الأزقة ونواح النساء في الشرفات. ازداد عدد المشيعين كلما قطعنا حياً أو اجتزنا سوقاً فلم نبلغ المقبرة إلا وقد تجاوز عددنا المئات. استقبلتنا المقبرة بذراعين مفتوحين فاستودعناه أحد قبورها ودفناه أخيراً والشمس توشك على الغروب. انفضّ الجمع، وأويت مع بدر إلى خانٍ يعصمنا من الحزن. ونمت ليلتي الأولى في فراشي وابن رشد في قبره وأنا أفكّر أينا أهنأ مقاماً وأريح بالاً يا ترى؟ وجافاني النوم حتى انتصف الليل. فاستخرجت أوراقي لعلّي أكتب قليلاً فتأبّت عليّ الكتابة. ثم وجدتني أخطّ على ورقةٍ خالية اسم ابن رشدٍ بأحسن ما أستطيع وأتأمله بصمت.

مكثت في قرطبة بضعة أيام أجمع بعض الكتب التي كانت تنقصني في مرّاكش. طفت سوق الورّاقين من أول حوانيته فلم أجد إلا قليلاً منها يخلو من كتب ابن رشد. عجبت لهم كيف يبيعونها ولم يُرفع الحظر عليها بعد. سألت أحدهم إن كان أمناء السوق قد رأوا هذه الكتب فلم يجبني بل رفع صوته عالياً ينادي المارة: "تآليف ابن

رشد. **بداية المجتهد. تهافت التهافت. شرح الأرجوزة**". بدا واضحاً أنهم يفعلون ذلك تحدياً وقد ساءتهم خاتمة الرجل الذي كان قاضيَ القضاة وجليسَ الخلفاء؛ الطبيب الفيلسوف الفقيه الذي عاش آخر أيامه مطروداً من المساجد؛ فأخرجوا ما لديهم من نسخ خبّؤها يوم كانت التنانير تنصب في ساحات المدن لحرق كتبه.

إلا أن أكثر من أبدى حزنه على ابن رشد كان نهر شقورة في مرسيّة. بلغنا ونحن في قرطبة أنه فاض حتى أغرق شطر المدينة الأدنى. هدّمت دورٌ ومساجد وأسواق ودكاكين، وضاعت أموال وبضائع وكتبٌ وأملاك، وهلك أناسٌ ودوابٌ. غرقت أرباض المدينة فخربت الزروع والثمار وقلّت المؤن. وظل الماء مرتفعاً حتى اضطر الناس للانتقال بالمراكب من ناحية إلى أخرى في المدينة. تذكّرت بيتنا الذي خلفناه فيها مهجوراً منذ رحيلنا عنها. قررت أن أسافر لأنظر ما حلّ به بعد الفيضان مدفوعاً بحنين الطفل الذي تركت مرسيّة وأنا هو.

* * * *

يوم بلغت مرسيّة أنا وبدر كان الماء قد انحسر عن أغلبها. ظلت الطرقات مبتلة والحفر مليئة بالمستنقعات الصغيرة. جيف أسماك الشبوط تفترش الطرقات مع الضفادع الحمراء الذي ما زال بعضها يقفز بحثاً عن مفر. مشيت في الشوارع التي مشيت فيها آخر مرة وأنا ابن ثماني سنوات ووصلت بيتنا دون دليل وكأني فارقته بالأمس.

اكتسح الماء سور الحديقة وكسر الباب فدخلها نفرٌ من الأشقياء وصاروا مقيمين فيه حتى بلغتها. فلما رأوني مقبلاً على حصانٍ وعليّ زيٍّ مغربيّ هابوني ولملموا أمتعتهم وانصرفوا معتذرين.

جلت في أنحاء البيت فوجدت إصلاحه سيكلّف مالاً. وكان من المستحيل أن أفكر في العودة إلى الأندلس بأسرها بعد أن صارت كبشاً ينهشه الفرنجة من الشمال والبرتغاليون من الغرب والموحدون من الجنوب والموريقيون من الشرق. لا يطيب فيها عيش ولا تستقرّ فيها حال. أختاي متزوجتان من مغربيين ولا أظن لهما حاجة في هذا البيت. عزمت على بيعه وقصدت السوق من حيني. طفت على تجار المنازل لأعرضه عليهم. ولم يمضِ أسبوعان إلا وقد تم البيع وقبضت المال وقطعت أول جذوري الأندلسية بيدي.

مشيت في شوارع مرسية مع بدر الحبشي وأنا منقبض الصدر لا أعرف إلى أين أتجه ولا على ماذا ألوي. يحاول بدر أن يصلح مزاجي فيسألني عن كل ما يرى وأنا أجيب بما أتذكر. قصدت البيت الذي كانت تقيم فيه فاطمة بنت المثنى فوجدته قد أُلحق بالبيت الذي بجواره ليتسع. جلست عند عتبته لعل بقية من روحها الطاهرة تلملم شتاتي وتعيد إلى قلبي طمأنينته وسكونه. هبت نسمة هواء باردة ثم تغبشت الرؤية من أمامي وانخرطت في بكاءٍ غزير.

لم يعرف بدر ماذا يفعل فراح يبكي مثلي. وجدتني أضطجع عند عتبة الباب وأنكمش على نفسي مثل رضيع وقد صار لبكائي صدى ونحيب. أدنيت على وجهي عمامتي وأغمضت عيني وكأني أريد أن أهرب من هذا العالم. وضع الحبشي فخذه تحت رأسي وغطاني

بعباءته فأخذتني غفوة ونمت. وفي منامي رأيت العرش الإلهي أمامي محمولاً على لهب. وبينما أنا أحدق فيه إذ رأيت طائراً جميل الصفة والشكل لم أرَ مثله في الدنيا. ذيله أطول منه. شديد الزرقة حتى كأنه ياقوتة تطير. تبعته ببصري وهو يطير حول العرش ثم حط قريباً مني. ولما اقتربت منه تكلم وقال: عد إلى مراكش تجد رجلاً يرحل معك إلى مكة.

استيقظت من نومي ولم أتحرك. بقيت على ضجعتي إياها آملاً أن أعود إلى النوم فأستكمل الرؤيا ولكني لم أستطع. جلست أخيراً فانتبه إليّ بدر الذي كان غافياً هو الآخر. وقفت فوقف. ثم عدت للجلوس وأنا لا أدري لماذا وقفت في البدء.

– أبخير أنت يا سيدي؟

– أظنني كذلك يا بدر.

– أنعود إلى الخان؟

– بل نذهب إلى السوق.

– سيؤذن المغرب بعد قليل وينصرف الناس وتغلق الأسواق.

– ولكن يبقى الفقراء.

هرعنا إلى السوق. وفي الطريق أخرجت صرة الدنانير التي هي ثمن البيت. قسمته نصفين، وأعطيت بدر نصفه وقلت له:

– هذا نصيب أختيّ من البيت. احفظه معك.

أحكم بدر ربط الصرة، ثم ربطها مرة أخرى في خيط يتدلّى من جيبه وظل قابضاً على المال بيده قريباً من صدره. وصلنا السوق وأخرجت صرتي ومنحت كل فقيرٍ صادفته ديناراً حتى فرغت

الصرة. تركنا السوق ومن ورائنا فقراء لا تسعهم الأرض من الفرح. وعدنا إلى الخان وبدر لا يتكلم وإن لاحت على وجهه ابتسامة صافية كأنها الصباح. قلت له:

- غداً صباحاً نرحل يا بدر.

- إلى أين؟

- إلى مراكش. فإني مشتاقٌ جداً.

- لمن؟

- رجلٌ ينتظرني... ولا أعرفه!

٣٨

المخطوط في الكرك

٧٠٨ هـ/١٣٠٩م

هدأت العاصفة أخيراً وكنت أظنها لا تهدأ حتى تخلع ملوكاً وتقطف رؤوساً. من حقي الآن أن أخلو بنفسي قليلاً في مكتبة القلعة بعد يومين لم أنم فيهما إلا لماماً. منذ أن وصلت من حماة وأنا أطفئ الحريق تلو الحريق. حريقٌ في قلب الملك الناصر الذي يعيش في هذه القلعة منذ أن خلع نفسه من سلطنة مصر واعتزل وحيداً. وحريقٌ في رسالة الظاهر بيبرس التي أمر بها الملك الناصر أن يبعث إليه بكل أموال الكرك ولا يُبقي لنفسه شيئاً. وحريقٌ في عقل اللعين مغلطاي، رسول بيبرس، الذي تطاول على الملك وراح يأمر وينهى في الكرك وكأنه نسي نفسه. وحريقٌ آخر في قلبي، أنا الذي عزّ عليه أن يرى الملك الناصر في هذه الحالة من الصغار، يتحكم فيه من كانوا مماليكاً لأبيه!

أحضروا لي عسلاً وخبزاً وفاكهة لأفطر عليها فأكلت وحدي في المكتبة الصغيرة التي لا يبدو أن أحداً دخلها منذ سنوات سوى الخدم. رحت آكل واقفاً وأنا أتجول بين الأرفف التي تراكمت عليها الكتب لا تصنيف ولا

ترتيب. تناولت ما شدّ انتباهي منها ووضعته قريباً مني، ورحت أقلب صفحاتها وأنا أقضم الكمثرى. صفا ذهني شيئاً فشيئاً وأنا أقرأ وآكل وأتنفس النسيم الهادئ الذي ينساب من النافذة حتى فرغت من طعامي ونبّهت الخادم فحمل البقايا وانصرف. ووقفت أتأمل الحقول المحيطة بالقلعة من النافذة. تذكرت فور أن رأيت غرائر الشعير مكوّمةً في بعض النواحي أني عزمت على التحدث مع الاستدّار بشأن استعجالهم في الحصاد ولكني لم أجد وقتاً لهذا. ناديت الخادم وطلبت منه أن يستدعي الاستدّار إلى المكتبة.

جاء الاستدّار بعد حين واستأذن للدخول:

– أمرك يا أبا الفداء.

– تعال هنا. لماذا حصدتم الشعير الآن ولم تصفرّ النبتة بعد وما زالت السنابل صلبة؟

فرّج يديه ورفع كتفيه إلى أعلى علامة من لا يملك جواباً. حنقت من عدم إجابته عن سؤالي فاقتربت منه ووضعت يدي على كتفه ونظرت إليه مباشرةً وقلت:

– أنت استدّار الملك ومسؤول عن زراعته ومحصوله، وتعلم أن التعجيل بحصاد الشعير يتلف الحبوب. هل يعلم الملك بهذا؟

حدّق الاستدّار فيّ بعينيه الزرقاوين ولم يبدُ أن تهديدي المبطن أخافه وقال:

– الأمير مغلطاي قال لنا اعملوا هذا.

– مغلطاي؟ متى أمر بذلك؟

– أمر بذلك في يوم وصوله. وقال إنه سيحمل معه نصف المحصول إلى القاهرة.

- وهل أبلغتم الملك بذلك؟

- نعم أبلغناه ولم يأمرنا بشيء.

واحزني على هذا الملك المسكين! كان سلطاناً بلا سلطنة، والآن هو ملك بلا مملكة. حتى حصاد الشعير ليس من شأنه. صرفت الاستدّار وجلست أفكّر في ما قاله. إن مغلطاي لا يتصرف بهذه الغلظة إلاّ وقد استمدّها من بيبرس، وبيبرس لا يغلظ في القول إلا إذا نوى سوءاً. عاودني الشك في الرسائل التي سهرنا على كتابتها بالأمس وما إذا كانت ستنقذ هذا الملك من الخطر الذي يحيق به. فكّرت أن أعيد مراجعتها بعد الظهر قبل إرسالها. فإنها إذا تجاوزت أسوار هذه القلعة لم يعد هناك مجال للتراجع.

لم تكد نيّة مراجعة الرسائل تختمر في ذهني حتى فتحت أبواب المكتبة فجأةً ودخل الملك ووراءه الخادم يحمل صندوق الرسائل. فزعت واقفاً للقائه فأشار لي بالجلوس وبدا على ملامحه أنه لم ينم البارحة قط. شاخ في أيامٍ قليلة حتى لا يظن من رآه أنه في الرابعة والعشرين من عمره. تساقط الشعر من مقدمة رأسه حتى لم يعد يخفي صلعته إلا شعيرات قليلة. جلس إلى جواري ووضع الخادم الصندوق بين يدينا ثم هرع ليجلب طاولة الكتابة ويضعها أمامنا. قال الملك:

- أمرتهم أن يخرجوا مغلطاي من الحبس وسأطرده من القلعة اليوم ولا بد أن يأخذ معه الرسالة إلى بيبرس. ولا بد أن نراجعها معاً مراجعة أخيرة.

- أمرك يا مولاي.

فتحت الصندوق وأخرجت الرسالة التي كتبتها بيدي في الأمس على الورق الأحمر المخصص للسلطنة وقلت للملك:

- دعني أقرأها عليك وأخبرني بما ترى أن نغيّره فيها.

شبك الملك كفيه وأسند رأسه عليهما واستند بمرفقيه على ركبتيه وأشار لي بالموافقة. فقرأت:

الحمد لله حمداً ينصلح به المزاج، ويذهب به الانزعاج. والصلاة والسلام على نبيه الذي سنّ الرأفة وأمر بالرحمة. وبعد، فالمملوك الناصر محمد بن قلاوون يقبّل يد الجناب الملكيّ المظفّري، ويبلغكم بورود مرسومكم الكريم إليه، وقد وقف المملوك له قائماً ووضعه على رأسه وعينيه، وقبّل الأرض وكأنَّ مولانا حاضرٌ والمملوك بين يديه. أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان أرشد المملوك إلى كريم فضلكم وعظيم شأنكم ففوّض إليكم سلطنة الممالك الإسلامية براً وبحراً، شاماً ومصراً، قرباً وبعداً، غوراً ونجداً. ثم اعتزل المملوك في الكرك، وإنه ما قصد الإقامة إلا طلباً للسلامة، وإن مولانا السلطان الظاهر بيبرس هو الذي ربّاني وما أعرف لي والداً غيره، وكل ما أنا فيه فمنه وعلى يديه، وقد جاءتني رسالته تأمرني بإرسال أموال الكرك إليه. وهو يعلم أن الأموال التي أخذتها من الكرك هي من أجل تغطية النفقات والكلفة. وقد امتثلت للمرسوم الشريف وأرسلت نصف المبلغ الذي تأخر عندي امتثالاً لأمر مولانا السلطان، وأما الخيل فقد مات بعضها، ولم يبقَ إلا ما أركبه؛ وأما المماليك فلم أترك عندي إلا من اختار أن يقيم معي ممن هو مقطوع العلائق من الأهل والولد، فكيف يحلّ لي أن أخرجهم. والله تعالى يحرس مولانا الذي

لم يبقَ لي إلا إحسانه، ويصون نفاسة نفسه وإن تغير على أحبابه وأعرض عن غلمانه.

كنت أقرأ الرسالة التي كتبتها بيدي وقلبي يعتصر ألماً على الملك الحزين الذي كان قبل سنتين فقط سلطاناً والظاهر بيبرس نائباً له، ثم انقلبت الآية فأصبح الظاهر بيبرس سلطاناً وهو ملكٌ صغير على الكرك. ولكن الملك بدا متمالكاً نفسه، راضياً عن الرسالة. ظل صامتاً يفكّر لوهلة ثم قال:

– ماذا ترى يا أبا الفداء؟

– أرى ما أشرتُ به عليك البارحة يا مولاي. نرسل له نصف الأموال التي طلبها وتبقي نصفها. وترسل بالردّ مع مغلطاي فوراً وتنتظر رحيله. ثم ترسل رسائلك إلى أمراء الشام.

– وماذا لو علم بيبرس بمراسلتي لهم؟

– لن يعلم بذلك إذا اتّبعنا الحيطة والحذر.

– وماذا لو أبلغوه هم بذلك؟

– لا أظنهم يفعلون. كل نواب الشام وأمراءها كانوا مماليك أبيك ويكنّون له ولاءً كبيراً.

رفع رأسه إليّ وحدّق في عينيّ مباشرةً وقال:

– إذن أنت من يحمل رسائلي إليهم، فأنا لا أثق إلا بك.

لم يفاجئني طلبه. كنت على شبه يقين أنه سيجعلني رسولاً إليهم. فأنا أعرف الناس بالشام وأمرائها من المماليك، وأقدرهم على إقناعهم بنصرته في حال انقلب عليه الظاهر بيبرس وأراد له السوء. أجبت الملك بطمأنينة وثقة:

– سمعاً وطاعة يا مولاي.

– تنتظر بعد مغادرة مغلطاي يوماً واحداً لنتأكد من ابتعاده عن الكرك ثم

تخرج خفيةً إلى دمشق.

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

وقف الملك وتأهب للخروج وهو مستمر في الكلام:

- وقل للاستدّار يعطيك خيلاً من خيول الصيد لتصل أسرع ما يمكن.

ثم أولاني ظهره وهمّ بالخروج فناديته قبل أن يخرج:

- مولاي الملك...

التفت جهتي مستفسراً دون أن يتكلم فأشرت إلى الكتاب الذي كان بين يدي قبل دخوله وقلت له:

- إن لم يكن لكم حاجة بهذا الكتاب فإني أود أن آخذه معي إلى حماة، وإن كانت...

قاطعني بعصبية ونفاد صبر ولوّح بيده خارجاً من المكان وهو يقول:

- هل هذا وقته يا أبو الفداء! خذه... خذ ما شئت...

السِفْر الخامس

٣٩

"الممكن برزخٌ بين الوجود والعدم"

ابن عربي

اختفى الخليفة!

دخل عليه خادمه صباحاً في مقصورة نومه في سلا فوجدها خالية. استدعى بقية الخدم وسألهم عنه فلم يحر أيُّهم جواباً. بحثوا في أروقة القصر وغرف الجواري ومصلاه ومكتبته فلم يجدوا له أثراً. نشروا الحراس في حدائق القصر وجنباته ليروا إن كان مختلياً بنفسه، بلا جدوى. خرجوا إلى البحر ليروا إن كان يتريّض على الشاطئ فوجدوه خالياً إلا من الغربان والنوارس. أرسلوا الرسل إلى بيوت الوزراء والجلساء لعله ذهب لزيارة أحدهم فلم يكن منهم من رآه. بعثوا فرقةً من الحرس إلى الأسواق لعله خرج يطوف فيها كعادته فبدت الأسواق عادية لا أثر فيها لخليفة. نشروا العيون والجند في المدينة والميناء والأحياء والأرباض فلم يعودوا بخبر. كأنما تبخّر. وأخيراً أرسلوا رسولاً مستعجلاً إلى مراكش ليحمل الخبر إلى ابنه

محمد، ولي العهد.

ذُهل الشاب عندما أخبروه أن أباه غائبٌ لا يعرف مكانه أحد. هرع إلى سلا في ثلة من الفرسان ينهبون الأرض نهباً. أمر فور وصوله بتفتيش البيوت التي داخل السور والخيام التي خارجه بلا استثناء. اقتحم الجند كل بيت وخيمة وحجرة وكوخ في مدينة سلا وما حولها فلم يجدوا شيئاً. استُدعي كل خادم من خدام القصر للتحقيق أمام ولي العهد فبكى بعضهم من الهلع وهم ينفون علمهم بمكانه. جمع ولي العهد الوزراء والجلساء والخصيان والخاصة وهددهم إن كان منهم من اختطف الخليفة أنه لن يرحمه. أمرهم أن لا يبوحوا بالأمر لأحد خارج القصر وإلا ضرب عنقه. وسحب سيفه في غمرة غضبه وضرب به وجه أحد عبيد القصر الذي كان يقدّم له الماء ليشعرهم بصدق وعيده وتهديده فسقط المسكين مضرجاً بدمه.

عقد ولي العهد مجلساً مستعجلاً من مستشاري أبيه ووزرائه. أغلقوا عليهم الأبواب وأخرجوا حتى الخدم. حام ولي العهد في مجلس أبيه مثل ذئبٍ جريح لا يملك أن يهدأ ولا يجلس. نظر إلى كرسيّه الخالي وراح يضرب كفاً بكف وكأن الأمر لا يُصدَّق ولا يعقل. لو كان الخليفة في الأندلس لربما اختطفه القشتاليون، ولو كان في تونس لربما اختطفه بنو غانية، ولكن أن يختفي في المغرب، قاعدة ملكه وحاميته الكبرى؟ كيف يختفي في سلا منقطع التراب الذي يحيط ببرّها الجيش ويحوم في بحرها الأسطول؟

تبادل الرأي مع المجتمعين واتخذوا قرارات عاجلة. استنفار الجيش في طرقات السفر وتفتيش كل قافلة تسير في الأراضي

الموحدية. تشكيل فرق من الهجّانة لتخوض في البادية وتفتش في ديار البدو الرحل وأخبيتهم وأمرها ألا تترك واحةً يعيش فيها أكثر من اثنين إلا اقتحمتها وفتشتها تفتيشاً دقيقاً. إرسال فرق سرية إلى المساجد والجوامع الصغير منها والكبير عسى أن يكون الخليفة قد اعتكف في أحدها وأصابه سوء. التحقيق مع حفّاري القبور وأصحاب المراكب وقادة القوافل وأئمة المساجد إن كان منهم من رأى ما يثير الشك ويحتمل التأويل.

حدث كل هذا والناس يتناقلون بينهم الشائعات بشأن هذا الاستنفار المفاجئ والتفتيش الدقيق والحضور المكثف للجنود في الطرقات والساحات والأحياء حتى بلغوا مرّاكش. فتشوا بيتي منذ الأيام الأولى مثل بقية بيوت الناس. دخل الجند إلى حجرة نومي ولم يدعوا زاويةً إلا نظروا فيها ولا متاعاً إلا نفشوه. صعدوا إلى سطح الدار وتجولوا في الفناء والحديقة. ثم خرجوا من بيتي إلى بيت جاري. وعلى امتداد الحيّ كنا نسمع قعقعة الأواني وصراخ الأطفال وحوقلة الشيوخ، والجند لا يبدون آبهين لهم وقد أُمروا أن لا يبقى بيتٌ في مراكش إلا دخلوه قبل غروب الشمس.

مرّ أسبوع ولم يظهر للخليفة أثر. عاد وليّ العهد إلى مرّاكش وهو في حيرةٍ من أمره. انطفأ غضبه واستحال حزناً وخوفاً. تجرأ أكثر من وزير على أن يشير عليه بإعلان الأمر عسى أن يتقدّم شاهدٌ ما بخبرٍ أو تفسير ولكنه أبى بشدة. صفع وزيراً ألحّ عليه بذلك حتى ألقاه أرضاً وهو يصيح فيه:

- لا يقول الناس أني أضعت أبي!

تراجع الوزراء عن نصائحهم وتركوا الفتى غارقا في حيرته وقلقه. كان وقع الأمر عليه شديداً وكلّما فكّر وجد نفسه أول متّهم بإخفاء أبيه ليستولي على العرش. فكّر ثم نظر. ثم قرر في آخرٍ المطاف أن يبقي الأمر سراً ويدير شؤون الدولة وكأن الخليفة أنابه عليها وهو باقٍ في سلا. وأمر أن يجهزوا خيلاً ورجالاً ويرسلوا بهم إلى الصحراء ليوهموا الناس أن الخليفة خرج للصيد. وظل الأمر على ذلك أياماً قبل أن يستأذن عليه في يوم وزيره المقرب صحبة قاضي قضاة مرّاكش، فسلّما عليه ثم تكلّم قاضي القضاة فقال:

- يا أميرنا. لا يلبث الناس أن ينتبهوا لغياب الخليفة ردّه الله سالماً. وإنا نخشى أن ينتهز بعضهم فرصة غيابه فيحرضون الناس ويثبون على العرش...

استكمل الوزير كلام قاضي القضاة قائلاً:

- ولقد شهدت بنفسك مطامع الطامعين الذين حاولوا الاستيلاء على الحكم والخليفة بينهم، فكيف وهو غائبٌ عنهم؟

صاح وليّ العهد بعصبيةٍ ظاهرة:

- وماذا تريدانني أن أقول إن سألوا عن الخليفة؟

تنحنح الوزير في ارتباكٍ ظاهر ثم تمالك نفسه وقال ما بدا واضحاً أنه قد فكر فيه مراراً من قبل:

- نقول مات محموماً في فراشه وأوصى ألاّ تقام له جنازة ولا يُبنى فوقه ضريح.

- وإن قالوا قتله ابنه ليجلس على عرشه؟

- من كان هذا ظنه فما الذي سيمنعهم من هذا الظن لو أن الخليفة مات بالفعل؟

أرهف ولي العهد السمع وكأن ردّ الوزير جاء مطمئناً لمخاوفه، ثم قال بصوتٍ خفيض وهو يحدّق في الفراغ مفكّراً:

- وإن كان حياً وظهر؟

- الأمر حينئذٍ له هو، وسيعذرنا في ما فعلنا حفظاً لدماء المسلمين ومكانة الدولة.

اقتنع أخيراً. أرسل الرسل باسم الخليفة ليجمع أمراء الموحدين وأعيان الدولة قضاة وعلماء ووزراء وولاة. وأرسل إلى شيوخ القبائل المصمودية والصنهاجية والزناتية وكل من كان له شأن فيهم. فلما اجتمعوا كلهم في مراكش بعد أيام انتظر حتى كان يوم الجمعة فخرج إليهم وسط فرقة منيعة من الحرس متمنطقين بسيوفهم. صعد المنبر وخطب في الناس خطبةً قصيرة عن اجتماع الكلمة ووحدة الأمة. ثم نزل وصلّى بالناس ثم قام وصعد إلى المنبر مرةً أخرى وأعلن موت الخليفة يعقوب بن يوسف في مدينة سلا بعد أن أقعده المرض أسابيع طويلة. وقد أوصى أن يُدفن في قبرٍ مجهول من مقابر المسلمين تواضعاً منه وزهداً.

وفور أن نطق بآخر كلمة من نعيه المقتضب حدث كل شيء كما أعدّ له مسبقاً بكل دقة وتدبير. صاح حاجبه الذي كان يقف وراءه بصوتٍ عالٍ تردّد صداه في أروقة الجامع الذي عمّه ذهول الناس: "البيعة لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين محمد بن يعقوب أدام الله عزّه". اصطف الحرس فوراً صفين أمام الخليفة لينتظم الناس بينهما

للبيعة. هرع الوزراء الذين كانوا جلوساً في الصف الأول لمبايعته فوراً حتى يقطعوا الطريق على كل طامع قبل أن يفيق من الصدمة. فزّ الناس من مجلسهم وهرعوا إلى الصف الطويل الذي خرج آخره من الجامع. نظر الخليفة ناحية أعمامه نظرةً ذات مغزى فقاموا تباعاً ليكونوا أول من يبايعه قبل الناس. وقفتُ بعد ذلك معهم وبايعت.

٤٠

"من صحبك لذاتك.. فعوِّل عليه"

ابن عربي

لم يفارقني خيال هذا الرجل الغريب الذي ارتبط مصيري به قط. تخيلته في كل هيئة ممكنة: تلميذاً في درسي؛ شحاذاً في المسجد؛ جندياً في الطريق؛ تاجراً في السوق؛ يهودياً في رداء أزرق؛ ولياً في جبلٍ بعيد. ورحت أبتهل إلى الله أن يعجل بلقائنا. فور وصولنا إلى مراكش أرسلت في طلب أختيّ وأعطيت كلاً منهما نصيبها من ثمن بيت أبي ففرحتا به فرحاً كبيراً. ولما خرجتا من المنزل كانت مريم تقلب نظرها في وجهي وكأنها تنتظر أن أعطيها كما أعطيتهما. ولما لم أبح لها بما يشفي فضولها راحت تتحدث عن ما يحتاج إليه البيت من فرش وسجاد لعل ذلك يدفعني للكلام فقلت لها:

- يا مريم، إن مقامنا في مراكش لن يطول.

- وأين نذهب؟

- إلى المشرق.

- ومتى؟
- عندما يأذن الله لنا.

علمت أن الترقّب والانتظار سيشقياني فآثرت أن أنشغل. قررت أن أبدأ درساً جديداً وأكتب كتاباً فأملأ نهاري وليلي بالعمل حتى يقضي الله في أمري. ذهبت إلى الجامع واخترت لنفسي زاويةً وضعت فيها كرسيّي وطلبت من بدر الحبشي أن يعلن ذلك في الجامع. وفي الصباح التالي وجدت عشرات الطلاب في انتظاري غير أني لم أجد كرسيّي الذي نصّبته بالأمس. أخبرني بدر أن رجلاً أخذه بعد صلاة الفجر وعندما اعترضه خادم المسجد قال له إنه من قصر الخليفة. أوجست نفسي خيفةً من هذه القصة ولكني تربّعت على الأرض وتحلّق حولي الطلاب وبدأت الدرس.

بعد صلاة الظهر جاءني خادم المسجد يقول لي إن كل من يجلس للتدريس في الجامع يجب أن يُبلغ قصر الخليفة بذلك سلفاً. حاولت أن أستزيد منه معلومات أكثر فهزّ رأسه ولم يحر جواباً، ورفع إليّ عينين متوسلتين ألاّ أزجّ به في شأنٍ كهذا. أرسلت بدراً إلى قصر الخليفة ليستفسر لي من موظفيه عن صحة هذا النبأ. مشيت إلى بيتي وفي صدري شعوران متناقضان: ضيقٌ بسبب هذا التدخل من قِبل الخليفة الجديد في شؤون الجامع، وارتياحٌ لتحقق سببٍ آخر يدفعني للرحيل إن استلزم الأمر. في المساء عاد بدر إلى البيت ووجهه ممتقع وعيناه ذاويتان. قلت له قبل أن يكلّمني:

- نبأ صحيح إذن.
- بل أكثر من ذلك يا سيدنا.

– ماذا؟

– أنت وأربعة آخرون يمنعكم الخليفة من الجلوس للتدريس في أي مسجد في مراكش.

– ولماذا؟

– لا يخبرني أيُّهم بأكثر من هذا.

استيقظت من الغد لا أعرف ماذا أفعل. أرسلت بدراً ليطوف على تلاميذي ويخبرهم بانقطاع الدروس حتى حين. جلست في باحة الدار وأنا مشغول الذهن أتأمل الحديقة ولا أستطيع أن أركّز ذهني في شيء. سألتني مريم إن كنت سأخرج فأجبتها بالنفي، فجلست إلى جواري وراحت تجوس بيدها على ظهري لتخفف عني وتقول:

– يا حبيبي. مذ عدت من الأندلس وذهنك غير حاضر وأنت غير الرجل. هل رأيت فيها ما أحزنك؟

– بل رأيت في مرسيّة ما سرّني يا مريم.

– وما هو؟

– رؤيا.

– وماذا رأيت فيها؟

– طائرٌ يخرج من عرش الله يأمرني بالذهاب إلى مكة صحبة رجلٍ من أهل مراكش.

– ومن هو؟

– لا أعرفه. أنتظر أن يأتي إليّ بأمر الله.

صمتت مريم قليلاً وتشاغلت أنا بتأمل سقف الحجرة. مالت مريم

برأسها فجأةً ونظرت مباشرةً إلى عيني وهي تبتسم ابتسامةً مطمئنة وقالت:

- أنا أعرفه يا حبيبي.

اعتدلت في جلستي وقد صعقني كلامها. حدقت فيها بعينين فيهما رجاءٌ ولومٌ معاً وقلت:

- من هو؟

- رجل اسمه الحصّار.

- الحصّار؟ تقصدين أبابكرٍ الحصّار عالم الحساب؟

- أجل.

- وكيف تعرفين؟

- عندما وصلنا إلى مراكش قبل سنوات طرق بابنا صبي وأنت في المسجد وسألني: "يا خالة، هل أنتم من الأندلس؟"، قلت: "أجل". قال: "أرأيتم في المنام أنكم تحجّون إلى بيت الله الحرام". قلت: "لا". قال: "شكراً يا خالة". فناديته: "لم تسأل؟". قال: "استأجرني أبو بكر الحصّار أنا وصبية آخرين نطوف على بيوت الأندلسيين الذي يفدون إلى مراكش ونسألهم هذا السؤال".

لبست ملابسي على عجل وخرجت أقصد بيت الحصّار وأنا لا أعرفه. رحت أستدلّ عليه من المارة واحداً تلو آخر حتى اهتديت إليه أخيراً. وقفت أمام بابه حائراً لا أعرف ماذا أفعل. لا كشف لديّ يهديني ولا أعرف ماذا تخبّئ لي الأقدار خلف هذه الباب. تنحيّت عنه قليلاً ثم استقبلت القبلة وسجدت وسألت الله باسمه العظيم أن يجعل وراء هذا الباب ما تقرّ به عيني وتصفو به نفسي المعذّبة منذ

سنوات. طرقت الباب. أجابتني امرأة دون أن تفتح الباب. قالت إنه خرج ولم يخبرها متى يعود. سرت بضع خطوات بعيداً عن الباب ثم جلست على الأرض وقررت أن أنتظره. صليت العصر عند بابه مع بعض المارة وعدت إلى جلستي.

قاربت الشمس على الغروب وظهر الحصّار في أول الدرب بقامته الطويلة ولحيته المدببة وعينيه الثاقبتين. لمحني جالساً قرب باب بيته فتوقف. وقفت. تبادلنا النظرات دون سلام. اقترب منيّ ووضع يديه على منكبَيّ وهو يحدق في وجهي بتمعّن. امتلأ وجهه بالرجاء وارتجفت شفتاه. سالت من عيني دمعة، ففرت الدموع من عينيه. عانقني وراح يبكي ويقول:

– آه يا أندلسيّ! آه. أربع سنوات... أربع سنوات في انتظارك!

٤١

"كل معرفة لا تتنوع لا يُعوَّل عليها"

ابن عربي

بعتُ سلّوماً وعدّادَ في السوق. قسّمت ثمن سلّوم بين أختَيّ واشتريت بثمن عدّاد راحلتان ومتاعاً وزاد سفر وبقي معي أكثر من النصف. خرجنا من مراكش في قافلة تقصد بجاية ومعي مريم وزينب وبدر. أما الحصّار فقد خرج وحيداً على حصانٍ أصهب ومتاعه وزاده على بغلة مربوطة بها. يتقدّمنا دائماً ليتيح لمريم أن تخرج من هودجها متى شاءت. فيبدو وهو مولٍ إيانا ظهره محفوفاً بهالةٍ من ضوء لا يراها إلا أنا. لا تعدل فرحتي بلقائه فرحةٌ أخرى. كيفً لا وهو مبعوث العرش الإلهي إليّ. أما هو فقد كانت فرحته مضاعفة بقدر السنوات الأربع التي انتظر مجيئي فيها منذ أن رأى الرؤيا نفسها. سردها لي فإذا به يصف العرش نفسه والطائر الياقوتيّ ذا الذيل الطويل. وبقينا طيلة السفر نتحدث عن كل شيء وكأننا خليلان انقطعا عن بعضهما زمناً وليس غريبين يلتقيان للمرة الأولى. لا أدري لِمَ راح

كلٌّ منا يحكي قصة حياته للآخر منذ ولد. أخبرته عن مرسيّة وأبي وابن مردنيش وفاطمة بنت المثنى وإشبيلية والكوميّ وابن رشد وفريدريك. وأخبرني هو عن أرقامه وحسابه وكتبه وتآليفه وهندسته وجبره. يحدثني عنها ويرسم بيديه أشكالاً في الهواء لمربعاتٍ ودوائر ويجعلها تلتقي وتتداخل ثم يكسر الأرقام ويريني كيف يصير النصف نصفاً والثلث ثلثاً والربع ربعاً.

بلغنا بجاية وكأنما لم نرحل سوى بضع ساعات لا بضعة أيام. عمّنا السرور جميعاً، أنا بصحبة الحصّار ومريم بقرب وصولها إلى ديار أهلها. سمعت لها غناءً وقد أخذها الحنين. نزلتْ عند أهلها ومعها زينب، في حين أقمنا نحن الرجال في نزلٍ قريبٍ من البحر ريثما نجد مركباً يحملنا إلى الإسكندرية. نبا إلى علمنا بعد أيام أن النيل في مصر منحسر والبلاد قد أصابتها مجاعةٌ شديدة وغلاءٌ كبير. وفد إلى بجاية مصريون كثر في القوافل يحدثنا كلٌّ منهم بأخبار أسوأ ممن سبقهم. قيل إن الناس أكلت الميتة، والأحرار باعوا أنفسهم، ولا صلاة تقام إلا يتلوها جنازة. تمسّك الحصّار بزيارة القاهرة قبل الحج تمسكاً شديداً فقررنا أن نمكث في بجاية حتى يصبح السفر إلى مصر آمناً. ظلت القوافل المصرية مستمرة لا تنقطع وكلها يحمل أنباءً وأخباراً. وجدت معهم إشبيليين منقطعين عن الطريق سافرا هرباً من مصر ووبائها. استغاثا بنا فاستضفناهما في النزل حتى يجدا من يحملهما إلى الأندلس. قاسمانا الطعام والمنام ثم أخبراني بمن في القاهرة من أهل الأندلس. فوجئت بهما يذكران الحريري والخياط.

– هؤلاء صديقاي. كنت أظنهما في مكة.

- كانا في طريقهما إليها حتى مرض الكبير منهما وحبسه المرض في القاهرة.

- إلهي! هل مرضه شديد؟

- كأنه مصاب بالفالج. يأكل ويشرب ولكنه لا يتحرك.

- رحماك يا ربي.

صار عندي سببٌ آخر لزيارة القاهرة بالإضافة إلى رغبة الحصّار. تعكّر صفو مقامي في بجاية رغم جمالها وصرت أنتظر الفرصة للسفر بأسرع وقتٍ ممكن. ولكن الأخبار التي تأتينا من مصر ظلت تزداد سوءاً فلم نجرؤ على السفر. قضيت أغلب وقتي مع الحصّار، أقرأ له من كتبي ويقرأ لي من كتبه. علّمني حساب الأرقام المجزوءة على اللوح وكيف يكسرها فيجعل الجزء فوق الكل، فإذا أراد أن يكتب سدسين كتب اثنين ثم رسم تحتها خطاً وكتب تحته ستة. وعلّمني كيف أجمع ربعاً بثلث، أو سدساً بخمس، وأنقصهما من بعضهما. فلما أتقنته قال لي:

- الآن، ائتني أجري.

- أجر ماذا؟

- أجر تعليمك الحساب والكسور.

- وأي أجرٍ تريد.

- علماً من علمك. واختصر لي فيه فنحن أهل الحساب نميل للاختصار.

فكرت قليلاً في ما يمكن أن أقول له. اكتشفت طيلة حواري معه أنه لا يميل للعلوم الصوفية ولا الفلسفية. وإن حدثته فيها سمعها مني

مجاملةً وأدباً ثم لا يسألني عنها ولا يستزيد منها. تنحنحت ثم قلت:

- اعلم يا رفيق دربي أنه توجد في الطبيعة ثلاث قوى غيبية: الوحي والعقل والقلب.

هزّ رأسه وقد بدا عليه الاهتمام وأنصت فتابعت كلامي مختصراً إياه قدر المستطاع:

- فإن مال المرء جهة الوحي وحده صار ظاهرياً. وإن مال جهة العقل وحده صار فيلسوفاً. وإن مال جهة القلب وحده صار صوفياً.

- ألا يمكن أن يميل إليها كلها؟

- إن أرادها كلها فلا بدّ له أن يبني جسوراً بينها.

- وكيف يبني هذه الجسور؟

- بين الوحي والعقل لا بدّ من جسر التفسير. وبين الوحي والقلب لا بدّ من جسر التأويل.

- وماذا بين العقل والقلب؟

- بين العقل والقلب لا بدّ من جسر الحب.

بدا الاهتمام على وجهه وأطرق مفكّراً. ثم أخرج لوحه الذي اشتراه من تجارٍ هنود. يرشّه بالسواد ثم يكتب عليه بالجير الأبيض ويمحو. فرسم ثلاث دوائر للوحي والعقل والقلب، وراح يرسم الجسور التي ذكرتها له ويتأملها بتفكيرٍ عميق. ثم نظر جهتي وابتسم ابتسامةً واسعة ازدادت بها لحيته المدببة انفراجاً وصار وجهه مثل وجه حصانٍ جميل، وقال:

- لقد أعطيتي أجراً يفوق ما طلبته منك.

- خذ ما شئت وأعد لي الباقي من علمك النافع.

هكذا تعلمت علوم الحساب والهندسة. يعيد عليّ المسألة مراراً حتى أتقنها. فلم نترك بجاية إلا وقد أتقنت منها أغلبها. إذا استعصى عليّ النوم أكتب على اللوح أرباعاً وأثلاثاً وأستذكر كيف يجمعها الحصّار ويطرحها فلا أنسى. ولما انتهينا من علوم الحساب أخذ يعلّمني ما يعرفه من علوم الأدوية. فنخرج معاً إلى جبل مسيون الذي يحدّ بجاية شمالاً ونبحث عن أعشابٍ سمع بها. صنع من بعضها نقيعاً مذاباً في ماءٍ دافئ سألني أن أسقي منه زينب التي أصبحت الحمّى تغيب عنها أسبوعاً وتعاودها أسبوعاً آخر.

طال مكثنا في بجاية أشهراً. انتقلنا من النزل إلى بيتٍ ذي حجرة واحدة ولكنها واسعة ولها فناء. نمت فيها أنا والحصار وبدر وبقيت مريم في ضيافة بنات عمها اللواتي أحببن زينب كثيراً. يلبسنها لباس الكبيرات ويعلّمنها الرقص والغناء ويرعينها رعاية الأمهات. قررنا أن نقطع وقتنا بالكتابة. يجلب لنا بدر أوراقاً من السوق فنجلس أنا والحصّار متقابلين. يكتب كلٌّ منا في علومه ومعارفه وكلّما سوّدنا بضع أوراقٍ جلب بدر خيوطاً وراح ينظمها على هيئة كتاب. وبعد أشهرٍ فتح الله على الحصّار بكتابٍ طلب مني أن أطلق عليه اسماً فسمّيته **البيان والتذكار في علم مسائل الغبار**، وفتح عليّ بكتابٍ فطلبت من الحصّار أن يسميه فأسماه **إنشاء الدوائر والجداول**. ولم يعجبني مسمّاه ولكني لن أغيّر اسماً ارتضاه مبعوث العرش الإلهي إليّ أبداً.

٤٢

"الخوف إذا لم يكن سببه الذات لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

أخيراً صارت الأخبار التي تردنا من مصر أقل تهويلاً. بدأنا نتحيّن الفرصة للرحيل القريب. وما أن بدأت أعدّ العدة لذلك حتى فاجأتني مريم برغبتها في البقاء في بجاية. لم أتوقع منها تلك الرغبة وكنت أظنها لا تحتمل فراقي. ساقت لي أعذاراً كثيرة. لا طاقة لها بالسفر. تخاف على زينب من وباء مصر. طاب لها المقام مع بنات أعمامها. ستلحق بي متى توطنت في مكانٍ ما. ضقت بالأمر في البداية ثم بعد أيام وافقت رغبتها هوىً في نفسي أن أرحل متخففاً من قلقي عليها وعلى الطفلة. فرضيت لها بالبقاء.

اخترنا مركباً جنوياً حسن الهيئة متين الصنعة وركبنا فيه. مرت الساعات الأولى هادئة والمركب يشقّ طريقه نحو المشرق بثبات وسكينة. ثم هاج البحر وماج وكدت أفقد عقلي. ولثلاثة أيام لم تهدأ السفينة ولم تستقر وكل يوم يمر أظنه النهاية. رأيت الموج

عظيماً كالجبال حتى خاف صاحب المركب على الشراع الكبير فأمر بإنزاله ونصب الشُرُع الصغيرة. أخذ المركب يدور حول نفسه كلما نصبوا شراعاً ويرتدّ إذا نصبوا آخر. اختلفت علينا الجهات وما عدنا نعرف الشرق الذي نبغي وراح البحارة الجنويّون يتحدثون بلغتهم حديثاً يبين فيه اختلاف آرائهم. دفعنا بأحد التونسيين الذين يتحدثون بلسانهم إليهم ليسمع فعاد يقول لنا:

- إنهم عائدون إلى بجاية.

دفعنا به مرة أخرى إليهم ليستزيد بعد أن تناهت إلينا أصوات وهم على وشك شجار فعاد قائلاً:

- ولكن الإسكندرية صارت أقرب من بجاية. ربما نكمل إلى الاسكندرية أو نتوقف في تونس.

وبلغ بي القلق مبلغه فدفعت به مرةً ثالثة ليسمع ما يقولون فعاد يقول:

- إنهم يفكرون بالإبحار شمالاً إلى جنوا لعل البحر يكون أهدأ.

وكلما عاد الرجل أسمعنا أنباءً أسوأ من ذي قبل حتى أقسمت على من حولي أن لا يدفعوا به مرةً أخرى. ولنبتهل إلى الله أن يرينا اليابسة ويغيض الماء ونستوي على أي حالٍ كان. ولكن البحر لم يهدأ لا ليلاً ولا نهاراً. لم أهنأ بساعة نومٍ واحدة ولا بقي في جوفي طعامٌ ولا شراب. اختلف فهمي وتشوش عقلي من فرط الجوع والغثيان وقلة النوم. اضطجعت في زاوية بين صندوقين من المتاع لعلهما يثبتانني فانقلب أحدهما عليّ واعتصر إصبعين من إصابعي

حتى كاد يترهما. قفزت وقد أخذني الغضب ومشيت إلى حافة المركب ورحت أصرخ في البحر:

- اهدأ يا بحراً من ماء، فإن عليك بحراً من علم!

وارتجّ المركب فكدت أسقط. وترنّحت ثم انزلقت قدمي فسقطت على قفاي ورحت أصرخ بصوتٍ أوهنه التعب. أشفق عليّ البحارة الجنويّون وصاروا يدسّون الزنجبيل في فمي عنوةً ليذهب عني دوار البحر. وعضدني منهم اثنان فأخذاني إلى مؤخرة المركب وأدخلاني حجرتهما. أجلساني على الأرض وأسنداني على كومة قش مغطاة بلحاف بال وهما يتبادلان مع بعضهما كلاماً رومياً لا أفهمه. ثم أشعلا ناراً في موقدهما الصغير وغليا لي نقيعاً من عشبة لم أميزها تشبه البقدونس وأشرباني إياه. حاولت أن أضطجع فمنعاني من ذلك وراح أحدهما يشير إليّ بأن أعتدل جالساً وأبقي عنقي منتصبة. فعلت ذلك بصعوبة، وبدأت أشعر بالراحة شيئاً فشيئاً.

أخيراً دخل بدر إلى الحجرة وقد بدا أنه بحث عني طويلاً وبصحبته التونسيّ الذي يتحدث الرومية. اصطحباني معهما إلى مكاننا في المركب وقد استعدت عافيتي بعض الشيء. وضع أحدهم في يدي خرقةً منقوعة في سائل عطريّ وطلب مني أن أشمّها من حينٍ لآخر ففعلت. وما أن بلغت مكاننا حتى نمتُ للمرة الأولى منذ تحرك هذا المركب.

صباح اليوم الخامس أشرقت شمسٌ في سماءٍ صافية. هدأ البحر واستكنّ المركب وصرنا نسمع بوضوح قرقعة الخشب

الذي تكسّر من الريح. رفع البحارة الشراع الكبير مرةً أخرى وهم ينشدون بالروميّة نشيداً حماسياً. ورفع المسلمون أيديهم حمداً وثناءً ومسحوا بها وجوههم التي تيبّس فوقها الملح. وأخيراً وصلنا إلى الإسكندرية وقد شارفتُ الجنون والهلاك. لعنت البحر وأقسمت ألاّ أركبه مرةً أخرى إلا مضطراً وبررت بقسمي، فكانت تلك الرحلة آخر عهدي بالبحر في حياتي.

جاء الدليل الذي يتحدث الروميّة يقول إن البحارة يطلبون منا أن نجهز مكوساً إن كنا نحمل بضاعةً تستوفى عند المرسى. ضحك الحصّار وأشار إلى رأسه وقال:

- بضاعتي ها هنا.

فالتفت إليّ الدليل مستفهماً فأشرت بدوري إلى قلبي وقلت:

- وهنا بضاعتي أنا.

فأقفل الدليل عائداً إليهم وهو يظننا نهزأ به. ولما اقترب المركب من المرسى راح رجالٌ من المرسى ينادون البحارة ويشيرون لهم بالأيدي أن امكثوا ولا تنزلوا. حتى إذا رسونا صعد أربعة منهم وتفرقوا في المركب. راح أحدهم يحصي المسافرين. ونزل آخر إلى مكان الدواب. وانهمك آخر في تقييد البضائع وهو يستجوب البحارة عن مصدرها ومحتواها. وظل الرابع يراقبهم جميعاً وهو قابض على سيفه. أشار إلى صناديق صفّها أصحابها فوق بعضها استعداداً للنزول وقال:

- لمن هذه؟

فخرج إليه تاجرٌ جنويّ يتحدث عربيّةً ركيكة وقال:

- لي أنا.

- ما تريد بهذه الصناديق؟

- إنها تجارة.

- إذن ادفع زكاتها.

فأشار الجنويّ إلى بضعة صناديق عزلها عن أخرى وقال للأمين:

- سأفعل. أما هذه فلم يحل عليها الحول بعد.

هزّ الأمين رأسه بدون اهتمام. ناوله التاجر زكيبةً فيها أقمشة وصرة مال. فتّشها الأمين ثم ناولها أحد تابعيه. التفت إليّ الحصّار وابتسم متعجباً فابتسمت مثله. ولما فارقوا المرسى قال لي ضاحكاً:

- عجباً لهذا الأمين يجبي الزكاة من غير مسلم!

- وعجباً لهذا الجنويّ الذي يعرف أحكام الزكاة!

نزل الأمين ورجاله من المركب وصعد بدلاً منهم الحمالون وعريفهم. راح العريف يفاوض التجار حول أجرة الحمل واتفقوا سريعاً فراح يلقي أوامره على رجاله ويوزع بينهم المهام. بدأت أذناي تلتقطان مخارج اللهجة المصرية من كلام عريف الحمالين وصيحاته على رجاله فوق المركب. ولم يلبثوا أن أفرغوا المركب مما في جوفه: شباكٌ مليئة بالمرجان التونسي الجاف، جرار مليئة بسوائل الدباغة والزيوت والنبيذ من البندقية، صناديق مليئة بالحرير والعنبر والبسط من الأندلس، الفراء والصوف والجلود الملبوسة من جنوا، وقضبان الحديد والقصدير من بلاد الغال. اصطف العبيد الذين كانوا يعملون فوق المركب في صفوف وقيّدت أيديهم في حبل واحد وسيقوا إلى المرسى. وأخيراً فرغ المركب فأُذن لنا

بالنزول منه بعد أن تأكد كل تاجر من سلامة بضائعه واكتمالها.

كان شعور اليابسة على قدميّ مريحاً وعذباً. جلست على الأرض ورحت أطرق تارةً وأرفع رأسي إلى السماء تارةً أخرى متنفساً بعمق ومستعيداً توازني بعد أيام طويلة من الوقوف والنوم والجلوس على مركب يميد بنا يميناً وشمالاً. ضحكوا مني ولم آبه. قال الحصّار:

- حسبك! إن كتب الله عوداً إلى المغرب نعود براً.

قصدنا صارف عملاتٍ يجلس خلف طاولة واسعة عليها مكاييل وأوزان وصرر صغيرة فارغة. اصطف بعض الناس أمامه يستبدلون ما معهم من عملات. وضعنا بين يديه دنانيرنا ودراهمنا الموحدية فراح يزنها ويشمّها ويتذوقها ويطرقها ويستمع لرنينها قبل أن يبدلها لنا بدنانير ودراهم عادلية. كان الاستبدال مرضياً لنا فلم نفاوضه. حملت دنانيري الجديدة في صرة وحمل الحصّار صرته أيضاً. ثم وجدنا صبية يوزعون تمراً وفاكهة على فقراء الميناء. سألنا أحدهم عن النزل والخانات فنظر إلى ثيابي المغربية وهيئتي وقال لي:

- إن كنت مغربياً فاذهب إلى دار المغاربة.

وأشار بيده للجهة التي يعني. وصلنا دار المغاربة فوجدنا منهم عدداً كبيراً. دخلنا حجرةً واسعة فيها سرر متقابلة. أربعة منها يشغلها آخرون وعليها ثياب ومتاع وخمسة أخرى خالية ليس عليها إلا الفرش النظيفة. اختار كل واحدٍ منا سريراً منها ووضع عليه ما يحمله. اغتسلنا وصلينا ونمنا. وفي صباح اليوم التالي سمعنا صبياً يصيح أمام الدار:

- الخبز يا مغاربيّ. الخبز...

فخرج إليه خادم الدار يحمل قفةً من خوص وقال له:

- سبعة.

أحصى له الصبيّ أربعة عشر رغيفاً ورماها في القفة. ولما دخل الخادم سلّم كلَّ واحدٍ منا خبزتين في يده. سألته:

- هل هي صدقة؟ إني لا آكل الصدقة.

- إنه خبز المغاربة.

- وما خبز المغاربة؟

هزّ الخادم كتفيه كمن لا علم له فانبرى مسافرٌ آخر سمع حوارنا للإجابة فقال:

- إنه أمرٌ قائمٌ من أيام الملك صلاح الدين، خبزتان لكل مغاربيّ بالغاً ما بلغوا.

- ولماذا المغاربيّون دون غيرهم؟

فضحك الرجل وانصرف عني وهو يتمتم:

- أنزل الله حبنا في قلبه، فكل واشبع.

عدت لأجلس بجوار الحصّار الذي كان يتابع حديثنا صامتاً وقلت له:

- أتفهم هذا؟

- لا أفهمه، ولكنني آكل الصدقة.

تدخّل بدر قائلاً:

- كان أبو الغنائم يقول إن صلاح الدين يأنس بالمغاربة في مصر لأنهم سنّة ومتصوّفة يمحو الله بهم أثر الفاطميين.

- إذن فخبزنا هذا قرىً للضيف وليس صدقة لعابر السبيل؟

فقال الحصّار:

- أجل، هو ذاك.

فقضمت خبزتي.

٤٣

"لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقّر جميع الخلائق"

ابن عربي

وجدنا قافلةً تخرج إلى القاهرة بعد يومين. استيقظ الحصّار مبكراً واقترح أن نطوف بالإسكندرية قبل فراقها. خرجنا من دار المغاربة قبل شروق الشمس ورحنا نسير في طرقات الإسكندرية الواسعة التي أدهشت الحصّار. ألمح إلى ذلك بكلامه الذي لا يخلو من حساب:

- في الطريق الإسكندريّ الواحد يمكن أن نبني بيتاً فاسياً يحفّه مسلكان تمرّ بكلٍّ منهما بقرتان فلا تمسّ إحداهما الأخرى.

توقف في منتصف أحد الطرق وراح يقيس عرضه بجسده. يفتح ذراعيه ثم يدور على عقبه مرةً ومرتين حتى يبلغ الطرف الآخر. سجّل ذلك في لوحه وعدنا للمشي في أرضٍ مستوية لا تصعد ولا تنزل عكس فاس. ولذلك رأينا الكثير من العربات التي تجرها الحمير في الشوارع بسهولة. وصلنا إلى الميناء الذي رسا فيه مركبنا فرأيته لأول مرة وأنا في ذهنٍ صافٍ مقسوماً إلى نصفين. الغربيّ مخصص

لمراكب الناس والمسافرين والتجارة والشرقيّ تصطفّ فيه شواني أسطول الأيوبيين ويعسكر حولها الجند في حجراتٍ مبنية على شكل خطوط متوازية. كل خط من الحجرات يقطنه طاقمُ الشونة الأقرب إليها حتى إذا نادى المنادي تمكّنت من الإبحار في أسرع وقت. وبعد بيوت الجند كانت ساحة كبيرة جُعلت لتعمير السفن وإصلاحها فيها حدادون ونسّاجون ونجارون. ومن ورائه كله دارٌ كبيرة مبنية على عمدٍ ضخمة تغوص في الأرض مثل أغلب دور المدينة هي ديوان الأسطول.

أشرقت الشمس وعمّ ضوءُها الأرجاء فبدأت الحوانيت تفتح والطرقات تضجّ بالمارة. تركنا الميناء وراءنا وسرنا باتجاه وسط المدينة. مررنا بسوق الفرنجة فوجدنا لكل مدينة إفرنجية نزلاً يقيم فيه أهلها ويخدمهم فيها من يتحدث بلسانهم ويطهو طعامهم. نزل البندقية، ونزل تسكانة، ونزل دنمركة، ونزل سكسونيا، ونزل روسية، ونزل جنوة، ونزل نورماندية. قال الحصّار:

– ألا تعجب من ذلك؟

– فيم العجب؟

– يقيم الملك العادل للفرنجة سوقاً كاملاً، ثم يأخذ منهم مكوساً يجهّز بها جيوشاً يحاربهم بها...

لم يكد يتمّ عبارته حتى سقط على الأرض فجأةً. انكببت عليه مفجوعاً دون أن أعرف ماهية الشيء الذي أصاب رأسه وأسقطه فإذا صدغه ينزّ دماً. اقترب منا فتى يافع يركض وانكبّ على الحصّار مثلي وهو يقول:

- آسف آسف! سامحني... لم أقصد.

جلس الحصّار على الأرض وراح يمسح دمه بيده وهو يذكر الله. فلما اطمأن قلبي إلى وعيه نظرت للذي أصابه فإذا هو قطعة خشب معقوفة لم أرَ مثلها من قبل. حملتها في يدي ولوّحت بها في وجه الصبي وأنا أقول معنّفاً إياه:

- ما هذه يا ولد؟

ضمّ الفتى يديه إلى جانبيه وقد بدا متوجّساً من أن أضربه بعصاه المعقوفة وأجاب على وجل:

- هذه عصا فرعون.

- عصا فرعون؟!

- نعم. عصا فرعون التي تعود لراميها. ألا تعرفها؟

تربّع الحصّار على الأرض وراح ينظر إلينا وهو يمسك صدغه بيده وبدا عليه الاهتمام. وسأل بصوتٍ ضعيف:

- وكيف تعود إلى راميها؟

تناول الفتى العصا من يدي ورماها فراحت تدور في السماء مبتعدةً وتصغر حتى لم نعد نميّز شكلها ثم عادت مرةً أخرى تكبر شيئاً فشيئاً فإذا هي تعود إلينا بعد أن كانت تبتعد عنا حتى أصبحت فوق رؤوسنا فقفز الفتى والتقطها بيده. ثم ناولني إياها لأجرب بنفسي فنظرت إلى الحصار فإذا هو يبتسم. رميتها كما رماها الفتى فطارت في الهواء ولكنها لم تعد إليّ بل وقعت حيث رميتها. فركض والتقطها وعاد ليناولها الحصّار هذه المرة الذي جلس يتأملها ويقلبها بين يديه، ثم فرج بين إصبعيه في الزاوية التي تنحني في العصا وكأنه يقيسها ثم هزّ

رأسه متعجّباً وقال للفتى:

- كم تريد ثمناً لها؟

- خمسٌ منها بدرهم في السوق يا عمّاه.

- حقاً. فكم ثمن الواحدة منها إذن؟

- قلت خمسٌ منها بدرهم.

- نعم يا بنيّ. إذا كانت خمسٌ بدرهم فالواحدة بخُمْسِ الدرهم. هل عرفت؟

هزّ الفتى رأسه بلا اهتمام ومدّ يده ليستعيد العصا إلا أن الحصّار ناوله درهماً وقال:

- دع لي هذه، واشترِ لك خمساً غيرها وشجّ بها رؤوس المغاربة.

ابتسم الفتى وطأطأ رأسه بخجل. ووقف الحصّار بصعوبة وهو يهزّ رأسه متألماً ويبتسم. ومشينا معاً وهو يقبض على العصا بيده حتى بلغنا دار المغاربة. أمرت بدراً الحبشي أن يأتي للحصّار بثوبٍ نظيف من متاعه وأخذت الثوب الذي لوثه الدم وأعطيته صبيَّ الدار ليغسله. وكان جرحه صغيراً لم نكد نصل حتى جفّ الدم حوله والتأم. نام الحصّار قليلاً ثم قام بعد العصر وراح يتدرّب على رمي العصا حتى غربت الشمس. وكتب عنها كلاماً وأرقاماً ورسمها بمهارة بالغة في ورقةٍ واسعة.

٤٤

"كل بلاءٍ لا يكون ابتلاءً لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

سافرنا أخيراً وبي شوقٌ إلى لقاء الخياط والحريري لا أملك وصفه. كانت الطريق بين المدينتين قد عبدتها القوافل تقريباً حتى كنا نسير ليلاً ولا نخاف. وما بينهما من قرى أصبح أهلوها يتحرّون القوافل فيبيعونها الزاد ويحملون إليها الماء حتى كان بعض المسافرين لا يحمل زاداً بل يشتريه في الطريق. بلغنا دُمنهور بعد سيرٍ قليل وتريّضنا فيها قليلاً وتزودنا بفاكهة وماء وحطب ثم تابعنا المسير حثيثاً حتى بلغنا القاهرة في نهاية اليوم الثالث وقصدنا الخان الذي اختاره لنا بدر وتعشينا فيه ونمنا. خرجنا صباح اليوم التالي من الخان قاصدين بيت الخياط والحريري. وكان بدر قد تقصّى عنه في الخان فعرف في أيّ حيّ هو. وما أن بلغناه حتى دلّنا على دارهم أهل الحيّ. ولم تكن داراً بل حجرة صغيرة ملحقة بخانقاه صوفيّ دخلناها أنا والحصّار مطأطأي الرأسين من انخفاض بابها. وتلقّانا

الحريري فعانقني عناقاً طويلاً ثم عانق الحصّار والحبشيّ وهو لا يعرفهما ولكن من فرط سعادته برؤياي. أما الخيّاط فلم يعانقني ولم أعانقه، فقد كان نائماً في ركن الحجرة وعليه أغطية كثيرة وعلى جبينه خرقة مبتلة.

- ما به يا أحمد؟

- سيفيق بعد قليل. هذه حاله منذ الوباء.

- أهي حمّى؟

- هكذا بدأت. ثم شُلّ فلا جلس ولا قام.

اقتربت منه وقلبي منفطر على رؤيته في هذه الحال. قبّلت جبينه فلم يشعر بي. فأخذت كفّه وجعلتها في كفّي، وتربّعت إلى جواره وكذلك فعل الحصّار. جلس الحريري إلى جوارنا ورحنا نتحدث. مرّت ساعة من الحديث سألني فيها الحريري عن الأندلس فأخبرته بأمر الفيضان الكبير وما رأيته من الهدم والغرق فاستعبر ودمعت عيناه. فما كادت يدي تنزل على كتفه لتربت عليه حتى انخرط في بكاءٍ مرير.

- هوّن عليك يا أحمد. هوّن عليك.

- ضاقت بي الدنيا يا محيي.

- لماذا؟

- أما تراني وأخي على هذه الحال؟ فلا نحن بقينا في إشبيلية ولا نحن بلغنا مكة. مذ وصلنا القاهرة حلّ بأخي ما حلّ به. وليس لنا أحدٌ في هذه البلاد. وأخي لا يستطيع السفر لأعود به إلى الأندلس ولا أذهب به إلى مكة.

وعلى صوت نشيج الحريري استيقظ الخياط. سرت من فمه همهمة غير مفهومة فقام الحريري من مكانه وأجلسه وهو يقول له بصوتٍ عالٍ وكأنه أصمّ:

- هذا محيي الدين بن عربي ورفقته.

فلما أقعده نظر إلينا الخيّاط بعينين زائغتين وكأنه لا يعي. كرّر عليه الحريري ما قاله فتكلّم فإذا شقّ وجهه الأيسر لا يتحرك، وشفته منسحبة إلى الأسفل والكلام يخرج من فمه غامضاً ثقيلاً:

- أهلاً أهلاً... أهلاً أهلاً.

ضممت كفّه إلى صدري وقبّلت خدّه وكتفه وهو لا يزال يردّد "أهلاً أهلاً... أهلاً أهلاً". ثم أطرق صامتاً وكأنما يستجمع أفكاره ثم سألني:

- متى... وصلت...؟

- البارحة يا أخي.

ثم قال شيئاً لم أفهمه فسأله الحريري:

- ماذا تقول؟

فكرّر قوله بصوتٍ منهك، فاتضح للحريري ففسّر لي كلامه:

- يقول لك: كيف حال زينب؟

- بخير حال. تركتها وأمها في بجاية.

وبدا لي أن شفتيه حاولتا أن ترسما ابتسامةً فلم يقدر. نظر جهة الحصّار ولم تقع عيناه عليه فبادرت بتعريفه به:

- هذا أخي ورفيقي محمد الحصّار من علماء المغرب وكرام الناس. رأيت في رؤيا أن الله يأمرني بصحبته إلى مكة.

رفع الخيّاط رأسه بصعوبة ليتمعن في وجه الحصّار ثم عاد فأطرق وهو يردد:

- يفعل الله ما يشاء... يفعل الله ما يشاء.

سكتنا لوهلة. وراح الحريري يتحدث عن حيّهم والصوفيين الذين يعتزلون في الخانقاه المجاور، وأنا أقلب نظري بينه وبين الخيّاط الذي كانت نظراته ذاهلة لا تركيز ولا انتباه، يحدق في الفراغ ويسيل من فمه خيطٌ من اللعاب بين حين وآخر لا يشعر به، فيمسحه له الحريري ويكمل كلامه. قاطعه الخيّاط فجأةً وقال بصوتٍ عالٍ:

- أنا سقيم يا محيي... أنا سقيم.

- شفاك الله وعافاك.

وفجأةً راح يبكي وهو يردد:

- أنا سقيم... أنا سقيم.

فقمت إليه وعانقته وتركت رأسه يستند على صدري وهو يبكي ويسيل الماء من أنفه وفمه على ثيابي وهو لا يشعر به. وتأثر الحصار من مرآه فراح يحوقل في حين أطرق الحريري صامتاً وراح الحبشيّ يحدق فينا بذهول وحسرة. قلت لهم:

- هلاّ تركتموني معه وحدنا؟

قاموا جميعاً وخرجوا من الحجرة وجلسوا عند عتبتها من الخارج. اضطجعت جوار الخياط وأنا أعانقه وتركت رأسه على صدري حيث كان. وضعت يدي على جبينه ضاغطاً على صدغيه برفق ورحت أقرأ: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

٤٥

"الحزن إذا فُقد من القلب خرب"

ابن عربي

لا أنام في القاهرة كما ينام الخلق مذ رأيت الخياط في هذه الحال. عليل مشلول لا يقوى أن يحرك شدقيه بالكلام ولا أن يحمل إليهما الطعام. ولم يطب لي أن أسيح في المدينة الكبيرة وهو طريح الفراش. استأذنت الحريري أن أقيم معهما في غرفتهما فأذن لي. وبعثت بدراً إلى السوق ليشتري مطارح جديدة وآنية وسجادة وطعاماً، وأوصيته أن يسأل في كل مكان عن طبيب حذق يداوي لنا مريضاً فجاء منهم اثنان سقيا الخيّاط ما سقياه من أدوية وأعشاب ودهناه بما دهناه من أخلاط ومساحيق ودلّكا ظهره وعجزه وفخذيه فذهبت عنه الحمّى بعد أيام ولكنه ظل عاجزاً عن الحركة. لم يتوقع أيُّ الطبيبين أن يعود إلى المشي مرةً أخرى. وكنت أقرأ عليه "يس" بكرةً وعشيّا، وهو يسكن إذا قرأتها وتهدأ نفسه وينام أحياناً على تلاوتي. أطعمه بيدي أفضل الطعام وأجوده. أسقيه ماءً كثيراً فيه

نعناع وليمون وزهر. وأقلبه في فراشه إذا أراد أن ينقلب، وأسليه إذا تململ، وأقرأ عليه من الكتب التي معي إذا صفا ذهنه، وأحدثه عن البشارات والكرامات وأحاديث الأولياء الصالحين فتطيب نفسه. حتى إذا مرت أسابيع فإذا هو واضح الكلام إذا تكلم، صافي الذهن إذا كلمناه، يبتسم كثيراً ويضحك أحياناً، يتحرك من مكانه تقلباً وحبواً حتى يبلغ مراده، وفارقه بعض السقم ولكنه ظل عاجزاً عن الوقوف والجلوس.

وفي وسط فرحتي بشفائه وتعافيه مات الحصّار. السقيم الذي نجا من وباء أزهق أرواح نصف سكان القاهرة تعافى وشفي. والصحيح الذي قطع الطريق معي براً وبحراً من فاس إلى القاهرة يموت في يوم واحد. أصابته الحمى صباحاً، وأفرغ ما في جوفه مساءً، ثم لما جنَّ الليل أسلم الروح لبارئها. ذُهلت! رفيقي الإلهي يموت قبل أن أكمل رحلتي إلى مكة. يا ربي ماذا تريد أن تكشف لي؟ هل أنت تنذرني إذ تأخرت في الوصول إلى بيتك الحرام؟ هل أنت تعلمني كيف تحيي الموتى وتميت الأحياء؟ هل أنت تذكّرني أن الرسل تموت والرسالة تبقى؟ رحماك يا ربي رحماك.

دفنت الحصّار أنا وبدر والحريري وعمّال في المقبرة وعدنا نجرّ أقدامنا في ذهول ووقع المصاب واضح في وجوهنا. بدر لا يكاد ينطق بكلمة وقد أذهله أن يموت الحصّار بهذه السرعة. وكان يتوجّس من وباء القاهرة ويخشى أن يصيبه ما أصابه. شعر بدر بالصخرة الصماء التي سحقت قلبي فظلّ يربت على كتفي طول الطريق ويقودني زقاقاً في زقاق دون أن أدري إلى أين يذهب بي. حتى انتهينا أخيراً عند

مسجد يزدحم عند بابه الناس فوقفنا معهم ننتظر دورنا. حينها فقط أفقت من سهومي وقطعت وجومي والتفت على بدر أسأله:

- أين نذهب؟

- نسلّم على فقيدٍ خيرٍ من فقيدك.

فدخلنا فإذا به ضريح الحسين بن عليّ وقد بني عليه بناءٌ مكسوٌّ بالديباج تحيط به أعمدةٌ واحدٌ من ذهب وآخر من فضة وعلقت فوقه قناديل تشعّ ليلاً ونهاراً فتعكس على الضريح أنواراً مختلفة الألوان. يستلم الناس طرف الضريح بأيديهم ثم يمسّون تربته ويتمسّحون ويتضرعون. فلما وقفنا أمامه وجدتني أردّد دون أن أُعدّ هذا الكلام أو أذكر أني قلته عند ضريح قبله: "السلام عليك يا حفيد حبيبي وربيبه، السلام على أخيكً، وأمك وأبيك". وهبّت نسمة هواء حركت القناديل المعلقة فانعكس ضوءٌ أصفر على جبيني حتى شعرت بحرارته. وخرجنا وأنا أسأل بدراً:

- هل رأيت كيف أومأ لي القنديل؟ هل رأيت؟

وكان بدر يجيب دون أن ينظر إليّ:

- نعم نعم رأيت. لنسرع قبل أن تغرب الشمس، فأنت لم تأكل منذ الصباح.

مسّ الحسين جبيني بالنور المعلّق فوق ضريحه فكأنما عزّاني في صاحبي فأحسن العزاء. فنمت تلك الليلة وقد هدأت نفسي وسلت روحي. فلما أصبحت عزمت أن أزور أضرحة أهل حبيبي رسول الله كلهم. فأيقظت بدراً من نومه وقلت له:

- قم لتدلّني على القرافة.

غسل وجهه على عجل وتوضأ، وخرج معي وقد أعجبه صفاء وجهي وانقطاع دمعي بعد ما كان بالأمس. وصلنا إلى القرافة التي تزدحم بها المساجد الصغيرة والأضرحة المختلفة الأحجام. يتزاحم الناس في مسالكها الضيقة وبعضهم جلوسٌ قد انقطعت بهم الطريق، أو مرضى آثروا أن يموتوا بين المقامات المقدسة، فيتخطاهم الناس ويقفزون من فوقهم أحياناً. يحفظ بدر المكان حجراً حجراً مذ كان يقيم في القاهرة. أخذ بيدي يقودني من ضريح إلى ضريح، ولم ينقضِ النهار إلا وقد ألقيت السلام على مريم بنت عليّ، ومحمد بن الحسين، وزين العابدين، وزينب بنت يحيى، وأم كلثوم بنت محمد، وعبد الله القاسم، وعيسى بن عبد الله، وجعفر بن محمد. ولما زرنا كل أضرحة آل البيت أخذني بدر إلى زاوية أخرى من القرافة فإذا نحن بين يدي ضريح الشافعيّ، وقد تضاءلت إزاء بنائه كل الأضرحة الأخرى.

عدنا إلى البيت فوجدنا الخيّاط جالساً يسبح ويحوقل. فما أن رآني قال لي:

– يا أخي... عظّم الله أجرك.

– وأعظم لك الأجر.

– اسمع ما أقول.

فاقتربت منه أكثر وأرهفت السمع فقال لي:

– لقد قبض الله رفيقك ولم يقبض طريقك. فأكمل سفرك ولا تتأخر. فلقد حبسني الله عن مكة بالمرض، وحبس الحصّار بالموت، وعافاك وأبقاك، فاخرج إلى ربك شاكراً ذاكراً ولا تتأخر.

– الحمد لله على قضائه وقدره.

- لا تتأخر يا أخي. لا تتأخر.

وهممت بالوقوف فتشبّث بي وجذب رأسي قريباً من فمه وألصق شفتيه بأذني وقال لي:

- إني أعلم أنك تنتظر وتداً في أفريقية وهذا ما أبطأ بك السير إلى مكة.

دمعت عيناي وكأنه مسّ جرحاً مكشوفاً. أسندت جبيني على كتفه ورحت أبكي وكأن حرقة سنواتٍ من انتظار الوتد الثاني بلغت ترقوتي واندلعت فجأةً بكاءً وخوفاً. ضمّني الخياط بيده الوحيدة التي تتحرك وظلّ ملصقاً شفتيه في أذني وقال:

- لقد مات وتدك.

شعرت أن أركاني شلّت فجأة. اندفع من أعماق صدري إعصارٌ هائل من البكاء. دفنت فمي في جانب صدر الخياط حتى شعرت بأضلاعه النحيلة تضغط على فمي وصرخت صرخةً عظيمة. بكيت بكاءً لم أبكِ مثله في حياتي والخيّاط يقبض يديه من فرط توجّعه لبكائي وتحسّره لحسرتي. يا ويل الوليّ الذي تأخر حتى مات وتده، يا ويل الشقيّ الذي لم يطهّر قلبه فجفاه وتده. تحول بكائي إلى شهقات والخياط لا يكفّ يضمني لئلا أنفصل عن جسده حتى هدأ صوتي وظلت دموعي تجري والدنيا تميد بي. ثم قال:

- هوّن عليك يا أبا زينب. هوّن عليك.

وكيف السبيل إلى ذلك؟ كيف أعيش بوتدٍ واحد؟ ستعصف بي الرياح وتطير بفؤادي الصروف. رباه ماذا فعلت حتى يهجرني وتدي؟

كان الخياط مستمراً في همسه:

- هّون عليك. لا يموت وتدٌ إلا ويرثه وتدٌ من بعده.

لم أحفل بعزائه. كنت في حالة من الذهول. انفتح أمام بصري طريقٌ طويل مظلم. بدا كل شيء صعباً وكل أمل مستحيلاً وكل غاية مشكلة. تحول بكائي إلى أنينٍ خافت وأنا أحتضن الخياط. ثم رفعت إليه عينين دامعتين وأنا أسأله برجاء:

- ولمّا كان وتدي، كيف لم يجدني طيلة سنوات؟

- لا يكتم الوتد أمره إلا إذا رأى في صاحبه ما يكره أو ظنّ أنه ليس أهلاً بعد.

غاص وجهي بين جانب صدره وفراشه، وابتلعت في حلقي غصةً هائلة من الحسرة والمهانة. ظلّ الخيّاط يهمس في أذني بكلماتٍ وأنا أسمع كثيراً وأعي قليلاً حتى قال:

- أنا الوريث يا أبا زينب.

هببت واقفاً وكأنما نكزني نصلٌ حادٌّ في خاصرتي وصحت به:

- ماذا؟!

ابتسم الخيّاط ملء فمه وقال:

- أنا وتدك الثاني.

٤٦

المخطوط في سمرقند

٨٠٤هـ/١٤٠١م

لم نبع هذا القدر من الورق منذ فتحنا معملنا. ولولا رخص أسعار العبيد لما استطعنا صناعة ما يطلبه النساخون منا في مدارس سمرقند ومساجدها كافة. اشتريت العبد الثالث منذ أيام وهو عربيّ من حماة انتقيته من بين سبعين آخرين اصطفوا في السوق ونخاسهم يريد بيعهم بأي سعر كان متوقعاً دفعة جديدة منهم في القافلة القادمة. أخذت معي الترجمان وسألت كلاً منهم عن صنعته. كلهم جنودٌ وفلاحون. ليس منهم صاحب صنعة إلا قد اصطفاه موظفو القان الأعظم من قبل أن يبعثوا بهم إلى السوق. لا أدري كيف أفلت هذا من أيديهم. لا بدّ أنه كذب بشأن صنعته أو ملّ من طعام النخاس البارد الذي لا يُقدَّم لهم إلا مرة واحدة في اليوم. قلت له:

– أنت صانع ورق؟ ومن حماة؟

– أجل.

– عندكم أجود أنواع الورق.

ابتسم بخجل ولمعت في عينيه بارقة فخر لا تلمع كثيراً في عهد الرقّ. لم أسأله أكثر من ذلك فهو بطبيعة الحال أفضل الموجودين. نقدت نخاسه ثمنه ففكّ السلسلة التي في قدمه وأطلقه لي وهو يقول:

- سأرسل لك صكّه في معملك مساء الغد.

ومشى الرجل ورائي حتى المعمل وهو يقلّب بصره في أبنية المدينة وأضرحتها. مررنا بالسوق واشتريت له ثوباً ونعلاً. ثم أدخلته حمام العبيد ليغسلوه وينظفوه ويفلوا شعره من القمل والحشرات وانتظرت حتى فرغوا منه. خرج مرتدياً ثوبه الجديد وقد أشرقت ملامحه بعد الاغتسال. مشينا إلى المعمل الذي كاد بابه يختفي خلف زكائب القنب ولفائف الكتان وعربات القطن المندوف المنتفخة جلبها الموردون حسب طلبي قبل أن أخرج إلى السوق. كان العبدان الآخران ينقلانها تباعاً إلى داخل المعمل وأخي كلاباذ يشرف عليهم. أحدهم يتحدث الأوزبكية لغةً ثانية بعد التركية. أما الآخر فكان رومياً لا يعرف لا العربية ولا الأوزبكية. ولكنه كان عضلاً قوي الجسم. فعلّمه كلاباذ دقّ القنب والكتان والقطن بعد نقعه بماء الجير حتى تذهب عقده، وأوكل للآخر صبّ النقيع في القوالب وتقطيعها بالمقاريض ولصقها على الحيطان. إن صدق ظني في هذا العبد الحمويّ الجديد فسأوكل إليه المهمة الأصعب وهي طلي الورق بالدقيق والنشاء وصقله. أتمنى أن تكون يداه بارعتين ودقيقتين بما يفي بهذا الغرض.

قفز كلاباذ من فوق كومة الكتان التي كان يقف عليها مشرفاً على العمل وأقبل عليّ ضاحكاً وهو ينظر في وجه العبد:

- ما شاء الله! مبارك.

- لا عذر لك بعد اليوم يا كلاباذ. كل الطلبات يجب أن تصل إلى

أصحابها في موعدها.

وضع كلاباذ يده على كتف العبد وهو يقول:

- كما تحب وترضى يا أخي.

ثم غابا معاً داخل المعمل واتّجهت أنا إلى داخل الحانوت الذي أسجّل فيه أعمالي وأستقبل ضيوفي. لم أستغرب عندما وجدت قائمة الطلبات التي تركتها صباحاً قد ازدادت طلبين في ذيل القائمة بخط كلاباذ: سبعون لفافة كاغدية صقيلة للمصاحف والكتب الشريفة. الشاري: ناظر مدرسة سمرقند الصوفية. ثلاثون لفافة مفتوحة الخيطان للرسائل. الشاري: ديوان البريد. تناولت قلمي وغمسته في الحبر وطمست طلب المدرسة الصوفية ثم أعدت نسخه من جديد في أعلى القائمة. وناديت كلاباذ فهرع إليّ مبتسماً ابتسامته التي لم تنقطع منذ أن توقفت عن صرف راتبه وجعلته شريكاً لي بعشر المعمل:

- متى جاء ناظر المدرسة الصوفية؟

- لم يأتِ بنفسه. بعث أحد موظفيه وترك الطلب.

- ابدأ في تجهيز طلبه قبل أي طلب.

- ولكن يا أخي طقتنش لدينا طلبات أخرى قد تتأخر.

- كل الطلبات تتأخر إلا طلب المدرسة الصوفية.

ابتسم كلاباذ بخبث ومرح:

- حتى طلبات قصر القان الأعظم تيمور؟

- كلها في المرتبة نفسها. فالمدرسة تملكها الخوندات الشريفات أخواته.

ضحك كلاباذ دون أن يكون هناك داعٍ للضحك وانصرف من المكان وهو يقول:

– كلها ستصل في موعدها يا أخي. وسأوصلها بنفسي.

– جهزها أنت وحمّلها في العربات وسأوصلها أنا.

كم أنا سعيدٌ بانهماك أخي في الشغل بعد حياة الدعة والشراب والحشيش التي سقط فيها. ما زال عقله مشوشاً حتى الآن ولا أعتمد عليه بالكلية إلا في ما علّمته إياه من أمور الصناعة. أما التجارة والبيع ومقابلة الزبائن فهذا ما لا أظنه يحسنه. يكفيني أنه أزاح عن كاهلي مراقبة العمال والعبيد ومتابعة الصناعة. تسعة عشر عاماً وأنا أقوم بهذا بنفسي منذ أن بدأت مهنتي. تعرف أصابعي جيداً مذاق الجير وملمس الهاون وقصبة التجفيف. أعرف جيداً كيف سيكون حال الورقة من رائحة نقيعها وهو يغلي. أعرف كيف سيكون ثخنها من كثافته. وعمرها من طعمه. ولونها من لونه. يكفي هذا. عليّ الآن أن أسخّر قدراتي للبيع والشراء وليس للغلي والطلاء، لاسيما في هذا الموسم العظيم. سمرقند تزدهر وتتسع وتكبر على يد القان الأعظم تيمور. سور المدينة يقطع أنفاس الخيل قبل أن تطوف حوله. قنوات المياه تجريها بين أيدينا ونحن في بيوتنا. قباب المساجد تضاهي قبة السماء الزرقاء. كل شيء يُبنى ويرتفع وعليه سمات الدنيا بأسرها: الأحجار من السند؛ الحرير من الصين؛ اليشب من الأناضول. كل هذه الأشياء تُعمل بأيدينا وأيدي من جلبهم الأمير من فتوحاته من شيراز وأصفهان والشام.

دخل كلاباذ مرةً أخرى دون استئذان كعادته الرعناء وقال:

– عندي خمسون لفافة كاغدية جاهزة الآن وبوسعي أن أنجز العشرين الأخرى بعد يومين.

– عظيم. ضعها في العربة وسآخذها الآن إلى المدرسة.

– إنها في العربة فعلاً يا أخي النشيط.

جلست في العربة ونكز العبد الروميّ خاصرة البغلة فتحركت. مررنا بالقصر الأزرق مقر القان الأعظم فنزلت من العربة ومعي العبد وقبّلنا الأرض عند عتبتها ثم استأنفنا مسيرنا. وبعد قليل كنت واقفاً أمام باب المدرسة أطرقه ففتحه أحد التلاميذ وأشار ناحية البهو المغطى. وجدت الناظر جالساً ومعه ثلاثة من كبار التلاميذ تحيط بهم أكوام من المخطوطات والمؤلفات تكدّس بعضها فوق بعض حتى بلغت سقف البهو. تلميذان منهمكان في الكتابة وأمام كلٍّ منهما ورقة طويلة. الثالث يجلب الكتب من الأكداس واحداً تلو الآخر ويضعها بين يدي الناظر فينظر في عنوانه وصفحاته الأولى ثم يوجّه التلميذ المعنيّ بتسجيلها في قائمته حسب نوع الكتاب ولغته.

- السلام عليك يا أستاذنا الكبير ترغاي.

رفع الناظر إليّ عينين مرهقتين وقال:

- وعليك السلام يا طقتنش. تفضّل.

ثم بدا أنه تذكّر فجأةً طلبية الورق فقال باهتمام:

- أرسلت اليوم بطلب لفائف ورق كاغد و...

- جلبتها معي يا أستاذنا.

- عظيم عظيم. اجلس. اشرب شيئاً.

جلست غير بعيد من مجلسه ورحت أتأمل أكداس الكتب الهائلة وسألته:

- ما شاء الله! مدرستكم عامرة بالكتب والتواليف يا أستاذ.

- هذه ليست كتبنا، بل جاءت بها قوافل القان الأعظم.

- ما شاء الله! وفي أي العلوم هي؟

- هذا ما أعكف على تصنيفه الآن. جلال هنا يسجّل كتب الدين والشريعة والمذاهب. ميرزا يسجّل كتب العلوم والطب والطبيعة. وتغلوق يسجّل كتب

التاريخ والأقاليم.

- وماذا تفعلون بالورق الذي طلبتموه؟

- ننسخ يا طقشتين. كل هذه الكتب رديئة الورق باستثناء البغدادية منها. بعضها مكتوب على جلود حيوانات وبعضها على لحاء أشجار. لن تلبث كلها أن تنطمس في غضون سنوات قليلة.

أشرت بيدي إلى أكوام الكتبٍ وأنا أقول:

- إذن أظنكم ستحتاجون إلى أكثر من سبعين لفافة يا أستاذ.

- بالطبع بالطبع.

- أنا جاهز لتزويدكم بما تريدون من أجود أنواع الورق بأرخص أسعار السوق يا أستاذ.

ابتسم ابتسامةً ضعيفة وهو يقول:

- نعم نعم. لا شك في ذلك يا طقشتين. لا تخف. لن نشتري من غيرك.

- لا أجلّ ولا أعظم عندي من خدمة العلم والعلماء يا أستاذ. والآن اسمح لي بالانصراف.

وخلفتهم ورائي وقد بدأ ذهني بالفعل يحسب الأرباح المتوقعة من هذه المدرسة فقط. سيموت كلاباذ من السعادة! وقبل أن أغادر المكان تناهى لسمعي الأستاذ يأمر تلميذه:

- هذا الكتاب سجّله في قائمتك أنت يا جلال لمؤلفه محيي الدين محمد بن عربي الحاتميّ الأندلسيّ. ورد إلينا من فتوحات القان الأعظم لمدينة حماة عام ٨٠٣ للهجرة النبوية الشريفة.

السِفْر السادس

٤٧

"السفر قنطرة إلى ذواتنا"

ابن عربي

انخرطت مع بدر في قافلة تقطع سيناء في طريقنا إلى مكة. جلّ من معنا جنود يحركهم الملك العادل بين مصر والشام ليثبت أركان الدولة في قطبيها الأهم. اعترفت بفضل بدر في اختيار قافلة جند لعبور هذه الصحراء الشاقة. رأيت أخفاف الجمال تسوخ في رمالها الناعمة فتبطئ سيرها. أما البغال فكان بعضها يموت في الطريق فيتركونه كما هو غائصاً حتى بطنه في الرمال. ويشحّ الماء حتى لا نسقي إلا من موضعين طيلة الطريق التي استغرقتنا ستة عشر يوماً كاملة، اهتدينا فيها بأنصابٍ من حجر مبنية على الطريق منذ العهد الفاطمي ليهتدي بها المسافرون وحامياتٍ صغيرة بثّها الأيوبيون في الواحات القليلة التي صادفناها.

افترقنا عن القافلة عند "إيلة" حيث تلتقي قوافل الحجيج المصرية والشامية. دخلنا في صباحٍ بارد فقصدنا المسجد ذا السقف المغطّى

بالعريش وصلينا فيه ثم وجدنا مطعماً يؤمّه الناس فيه طباخ وخباز وخادمان يقدمون حساءً من العدس وبعض الفاكهة وزيت الزيتون للناس بلا مقابل. أكلنا فيه حتى شبعنا مع حجيج ومسافرين من كل فجٍّ. عرف بدر منهم الطريق إلى خانات إيلة فطفْنا بها جميعاً لنجد جميع الحجرات مشغولة والاسطبلات مليئة بالدواب. نصبنا خباءنا عند سور المدينة وقضينا الليلة فيها. فلما استيقظنا للفجر وصلينا تركني بدر وامتطى الفرس وراح يفتش عن خان وعاد بعد ساعة وعلى وجهه ملامح الاعتذار. خففت عليه من شعوره المفرط بالتقصير بأن ربتُّ على كتفه وقلت له:

- يريدنا الله أن نعجّل إليه ليرضى. ابحث لنا عن قافلة نخرج معها إلى مكة في أقرب فرصة.

- ولكن قافلة الحج تبلغ مكة في شهر وسنصل قبل الحج بشهر.

- لا أظننا نبلغها في شهر واحد يا بدر.

- بلى بلى. لقد حججت من قبل مع مولاي أبي الفتوح و...

راح بدر يعدّد المواضع التي مروا بها وعدد المراحل بين موضع وآخر. تركته يسرد معارفه بثِقة وسعادة وحمدت الله في سرّي أنْ يكون برفقتي هذا الأمين ذو العينين الطيبتين والوجه الأسمر الذي يفيض رضاً وإخلاصاً. تأملته حتى ختم كلامه قائلاً:

- ... ثم أخيراً نبلغ مكة في أقل من شهر.

طوّقت عنقه بذراعي وقلت له:

- ولكني سأحجّ على قدمَيّ ولن أركب.

سبّح بدر وكبّر كعادته كلما بدرت مني حالة تقوى، ثم انصرف

ليجهز الدواب وخرجنا معاً باتجاه السوق. وما أن بلغناه حتى نظر إليّ نظرةً ذات مغزى لأنقده مالاً يشتري به زاد السفر. فارقني وقصدت أنا خرّازاً بديناً قرب المسجد الذي صلينا فيه أول ما بلغنا إيلة. ما زال ينادي أمام دكانه نداءه الملحون الذي ألهمني أن أحجّ على قدميّ:

أخفافٌ للحجيج.

تجهزوا لحرّ مزدلفة وصعود عرفة

وطواف ثم سعيّ.

أخفافٌ للحجيج.

أتمّوا مشاعركم...

تعينكم على حرّ مكة...

وعلى لأواء المدينة.

أخفافٌ للحجيج.

تفحّصت الأخفاف التي يصنعها فوجدتها غليظة ومحشوة بقطنٍ وقطع قماش بين قطعتين من جلد الماعز. قلّبتها في يدي ثم سألته إنْ كان بوسعه أن يصنع خفين أغلظ وأمنع. أخذ مني الخف الذي كنت أقلّبه وحكّ رأسه وفمه مفتوحٌ وأنفاسه ثقيلة. نظر إلى وجهي نظرةً وكأنه يفكّر في سعر، ثم قال:

– إن شئت جعلتُ في حشوته لوحاً من خشب. صنعتُ مثله لتاجرٍ مصريّ قبل أسابيع.

– بكم؟

– سبعة دراهم.

وخرجنا من إيلة وقد ربطت قدميّ بخرق من القطن والكتان وجعلت من فوقها الخف الغليظ وقد حشاه الخرّاز بلوح الخشب الملفوف بقدر ذراعين من القماش. وفي راحلتي يقبع خفان آخران اشتريتهما خشية أن ينقطع خفٌّ منهما فتميل نفسي إلى الركوب. مشيت في ظل راحلة بدر وهو فوقها والراحلة الأخرى مربوطة في راحلته وتسير وراءنا. سرنا سيراً بطيئاً ووقفنا كثيراً للراحة. فكانت القافلة تتجاوزنا ثم لا تلبث أن تدركنا قافلة أخرى. لم نخشَ الضياع في الطريق لكثرة ثكنات الجند الأيوبيين المنتشرة طوال الطريق. نشأت حولها أسواق صغيرة يبيع فيها البدو وأهل القرى القريبة بضائعهم للحجاج، فاحتموا بالجنود واستأنس الجنود بهم بدلاً من انقطاعهم في الصحراء، وانتفع الحجيج بذلك كله. فلا جعنا ولا جاعت رواحلنا طيلة الطريق حتى لاح لنا ميقات الجحفة.

أنخنا مطايانا في سهلٍ منبسطٍ من نواحي الميقات وحولنا بضع قوافل وصلت قبلنا. انقشعت العمائم عن الرؤوس واللُثم عن الوجوه وتخفف الناس من ملابسهم وانتفخت بها صررهم المربوطة في رواحلهم. ارتدى كل رجلٍ وصبيٍّ إحراماً وراح يتناهى إلى سمعنا تلبيةٌ من هنا وهناك. التقينا بحجاج وصلوا من نواحٍ مختلفة من الميقات ونصبوا خيامهم حوله حتى صار الميقاتُ عامراً كأنه مدينة طارئة. لبست إحرامي وكذلك فعل بدر، ونصبنا الخيمة وأطعمنا الدوابّ وجلسنا نتأمل الشمس الغاربة ومن حولنا تتردد أصوات مختلفة. قعقعة أوانٍ وحنين إبل

وأناس ينادون بعضهم بعضاً بعد أن أخفاهم الظلام. وجد بدر طهاةً يبيعون طيوراً مشوية وخبزاً فجلب لنا منها وجلست آكل معه أمام خيمتنا ونسيم الليل هادئ ورطيب.

٤٨

"الجليل ما يُوصف ولا يُعرف"

ابن عربي

أصبحنا على خبرٍ ينتشر بين الناس بسرعة. تهامس به بعضهم وجهر آخرون. يتعجب أحدهم ويصدقه وينكره آخرون ويكذّبونه. ولبثنا على هذه الحال صباحنا كله دون أي تأكيد. زالت الشمس وسمعنا طائفاً يطوف بأخبية القوافل وينادي بهم: "أيها الناس، الملك لقتادة بن إدريس... الملك لقتادة بن إدريس". كبّر بعضهم وتجاهل بعضهم الآخر النداء وكأنه لم يسمعه. تعجّب بدر كثيراً مما سمع وقال لي:

- رأيت ابن موسى في حجيّ الأول مع مولاي أبي الفتوح ودخلنا بيته. وما كنت أظن أحداً ينزع ملكه عنه إلا الله.

- وقد نزعه الله يا بدر.

لم تعرف مكة حكماً لغير بني موسى منذ قرنين من الزمان ثم تبدّل ذلك بوصولنا إلى مكة. كلها أيامٌ يداولها الله بين الناس. لم أعبأ بهذا التغيير بل بقدمَيّ اللتين كانتا في حالٍ يرثى لها. الباطن لا

أشعر به والظاهر قد تسلّخ جلده. تفاقمت آلام ظهري وحوضي طيلة الطريق. ضاقت خطاي بسبب آلام ركبتي وأصبح مشيي في الأيام الأخيرة من السفر بطيئاً. سمعني بدر أهذي ذات ظهيرة فرجاني أن أركب ورفضت. فأناخ الناقتين ومدّ فوق سناميهما لحافاً لأستظلّ تحته. أفرغ على رأسي قربة ماء كاملة. ونمت بين يديه نوماً قال بدر إني كلمته فيه كثيراً ولم أشعر. استأنفنا المسير ساعةً ثم سقطتُ مرةً أخرى. أخبرني بدر وأنا بين صحوٍ وغياب أننا قد دخلنا حدود الحرم وأوفيت بعهدي، فركبت الراحلةَ وانكفأت عليها وشدّ بدر وثاقي فوقها كي لا أسقط. ولا أدري كم من الوقت مرّ بي على هذه الحال.

فتحت عينَيّ على رجالٍ كثر يتحركون أمامي. رأسي على فخذ بدر وهو يضع على جبيني خرق القماش المبتلة بماء زمزم واحدة تلو أخرى. جماعات الناس تمر من أمامي وتغيب وتجيء جماعات أخرى. أخيراً لمحت من بينهم ما لمحت: كعبة الله الخضراء. جلست. ابتسم بدر فابتسمت بصعوبة. وقفت فأسندني. مشيت باتجاه الكعبة وألصقت خدي بها. رحت أتكلم كلاماً لا أسمعه. فمي يتحرك والكلمات تخرج منه تباعاً ولكني لا أسمع شيئاً. نظرت إلى بدر فإذا هو ينصت. استيقنت أني أتكلم. فمي مفتوح. لساني يتحرك. حنجرتي تخفق. ولكني لا أسمع ما أقول ولا أعيه.

على عتبات المسعى جلسنا وأكلنا وشربنا ورحت أستردّ عافيتي شيئاً فشيئاً. أخبرني بدر أني نمت نصف يومٍ وشيئاً من الليل. استندت عليه وطفنا معاً حول الكعبة ثم انصرفنا إلى خان الحجيج. استأجر بدر حجرة وأنا في نومي لا تبعد سوى خطوات قليلة عن المسجد

الحرام حتى كنت أسمع الأذان في الليالي التي لا أنام فيها. أعدّ لي فراشي وأضجعني فيه واضطجع قريباً مني. نمت مرةً أخرى نوماً طويلاً. استيقظ بدر قبلي واليوم جمعة. أخذني إلى حمام الخان وغسلني من الوعثاء ودهن جسمي بالزيت وألبسني إحراماً جديداً، ثم جلب لي خبزاً وعسلاً وحليباً دافئاً فأكلت. وذهب هو ليغتسل.

خرجنا إلى المسجد الحرام لنؤدي الصلاة. جلستُ قريباً من المقام حيث أسندوا المنبر في انتظار الخطيب الذي ما لبث أن دخل في ثوبٍ أسود ومن خلفه رجلان يحملان رايتين سوداوين. اتجه ناحية الحجر الأسود فقبّله ثم اعتلى المنبر وخطب ودعا للنبي وآله جميعاً وخلفائه الأربعة وأزواجه ثم للخليفة العباسيّ الناصر، ثم لأمير مكة الجديد قتادة بن إدريس، ثم للملك العادل الأيوبي، ثم صلّى بنا وانصرف فأزالوا المنبر من بعده. جلست حيث أنا أتأمل حمائم الحرم التي تملأ سماء المكان وأرسلت قلبي معها يحطّ على سطح الكعبة ويطير. وبقيت على هذه الصفة ساعات حتى ارتفع أذان العصر. فقمتُ من مكاني ومشيت إلى مقام الإمام المالكي لأصلي خلفه.

بقيت أيام معدودة على بدء الحج ومكة تزداد ازدحاماً يوماً بعد يوم. نشطت الأسواق الممتدة بمحاذاة المسعى وعلت أصوات الباعة والمشترين فيها ببضائع جديدة يجلبها الحجاج من كل مكان. صار البيع يمتد إلى الليل فلا تغلق الخوانيت إطلاقاً. يتعاقب على الحانوت بائعان وثلاثة وبعضهم ينام في حانوته ولا يغادر إلى بيته قط طيلة الحج. تبلغنا أصواتهم ونحن نيامٌ في حجراتنا داخل الخان

بلغاتٍ نفهمها وأخرى لا نفهمها. أرسل بدراً لشراء الطعام بنقود عادليةٍ فيعود بدراهم يمنية وناصرية وأرتقية وخوارزمية. أرهقني حساب النقود فأعطيت كل ما معي لبدر ينفق كما يشاء ولم يبقَ معي دينار ولا درهم.

انقضت الأيام وأنا أخرج إلى الحرم فجراً فلا أعود منه إلا بعد صلاة العشاء متعبّداً ذاكراً أصلي حتى توجعني قدماي وأبكي حتى تجف عيناي وأتعلق بستار الكعبة حتى يكلّ ساعداي. فإذا اشتدت حرارة الشمس أويت إلى ظل سور أو عمود ورحت أقرأ القرآن وبدر يأتي لي بطعام وشراب من حين لآخر. حتى بدأ الحج أخيراً، فأدينا شعائره. ولما انقضى هدأت الأسواق وانصرف الحجيج وذهب الزحام وساد الهدوء. وفعلت ما كنت أنوي فعله منذ أمد. بعت الراحلتين اللتين أرهقهما السفر بسعرٍ جيد للحجاج العائدين إلى ديارهم ثم استأجرت لبدر راحلةً مع قافلةٍ مغربية ليعود إلى بجاية ويجلب مريم وزينب إلى مكة. ودّعته وأوصيته:

- اشترِ عبداً قوياً وراحلةً من بجاية واحملهما في هودج. وتجنّب البحر فإني أشفق على صغيرتي منه.

٤٩

"المحبة إذا لم تكن جامعة لا يُعوَّل عليها"

ابن عربي

ما أن غادرني بدر حتى شرعت أبحث عن بيتٍ أقيم فيه ووجدته. لا يبعد عن الحرم كثيراً ولكن لا فناء له ولاً حديقة. أفتح باب حجرتي فإذا أنا في الشارع. وإذا أويت لفراشي أسمع طرق نعال المارة خارجه. انتظمت في دروس الحنابلة التي لم أجد مثلها في الأندلس. وفي المساء كنت أجلس مع المتصوفة الذين حولي عشراتٌ منهم. وجوهٌ من المشرق والمغرب والشام واليمن. بعضهم مريد، وبعضهم نصف مريد، وبعضهم أيقنت أن ليس له من العلم حظٌّ ولا من النور نصيب. اقترب مني من اقترب، وابتعد عني من ظننته سيبتعد.

بقيت على هذه الحال أسابيع حتى لمحته يوماً يجلس بين طلابي. واسع الجبين كأنه كتابٌ مفتوح. أبيض اللحية كأنه قنديلٌ منصوب. دائم البسمة كأنه مولد فجر. استشعرت في قلبي هيبته دون أن أكلّمه.

وعانقته عناق محبٍّ وأنا لا أعرف من يكون. واختلفنا من يجلس بين يدي الآخر بعد انتهاء الدرس. فانتهينا آخر المطاف جالسين على عتبة متكئين على جدار. هل يكون وتدي؟ يا رب اجعله وتدي. إني أرى نورك في وجه هذا الرجل، ورحمتك في جبينه وبركتك في بسمته ولطفك في عينيه. اللهم اجعله لي وتداً تثبت به قلبي وتشرح به صدري وتصدق به وعدك إذ وعدتني. قال أخيراً:

- تأتيني أم آتيك؟

- بل آتيك.

- غداً عند مقام إبراهيم.

هكذا التقيت زاهراً الأصفهاني إمام المقام الإبراهيمي ومكثت في درسه طيلة عام لم أضيّع فيها يوماً واحداً ولا ليلة. علّمني كل ما يعلم واختبرت معه كل ما أعلم. كلما أقبلت عليه صباحاً وضع يده على قلبي جهة صدري وعوّذني، ثم قرأنا ما نحن بصدد قراءته. فإذا استأذنته لأنصرف ليلاً وضع يده على قلبي جهة ظهري وعوّذني، فأعود إلى البيت مستظلاً بغمامةٍ من بركةٍ ورضا. لم يترك هذه العادة قط. حتى إذا انصرفت يوماً دونً أن أبلغه لحق بي إلى بيتي وأنا أستعدّ للنوم، وطرق الباب طرقاً شديداً، فهرعت لأفتحه، فعوّذني عند عتبة بابي وانصرف.

تصرف بي زاهر مثل وتد ولكن مقامي معه صرف عني ذلك الأمل. شيء لا أعرفه ولا أستطيع أن أشرحه. ولكن ربما أن وتدين في جعبتي حتى الآن أكسباني القدرة على شمّ الوتدين الباقيين! ولكن فيه ما يبعث على حيرتي. يبدو لي وكأنه نصف بشر ونصف ملاك. النور

يضيء نصف قلبه ونصفه الآخر دمٌ ولحم. يعرف ولا يعرف. يقدر ولا يقدر. يكاد يأتي بالكرامة ولا يأتي بها. يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً أخرى. ولكن مقامه في مكة كان رفيعاً. يجلّه حاكم مكة ولا يجرؤ على سحب إمامة المقام الإبراهيمي منه. وإذا جاء حجاج فارس في رجبٍ أو ذي الحجة تبرّكوا بكل خيطٍ في ملابسه، وكل موطئٍ من خطواته، وتحلقوا حوله عند المسجد، وجلسوا عند عتبة بيته طيلة الليل. وإذا حلّ موسمهم تحدث بكلامهم وصار درسه بالفارسية.

وفي هذا العام الذي ضمّني فيه تحت جناحه وصلت زوجتي مريم في هودجٍ مغربيٍّ جميل ومعها ابنتي زينب في تابوتٍ خشبيٍّ مغلق. تلقّاني بدر وقد نحل وكأنه لم يأكل طيلة الطريق وازداد شيباً حتى صار وجهه الأسود نقيض شعره الأبيض. هوى على ركبتيه وضمّ ساقيّ إليه وراح يبكي مثل طفلٍ صغير. ولم تصعقني المفاجأة. فقد كشف الله لي موتها في منامي وقد تجاوزوا ينبع بيومين. فجهزت حنوطها وكفنها وجلست أنتظر وصولهم. حتى إذا أقبلوا حملنا التابوت إلى مقبرة المعلاة فغسلناها. وانتظرنا صلاة الظهر فصلينا عليها بعدها. ثم دفنتها بيدي وأودعت معها في قبرها الصغير دمعات دافئة أعلم أنها ستطفو مثل ورقة ياسمين صغيرة فوق نهرٍ أبديٍّ من حزن أبيها.

جاءني زاهر معزياً فتجرأت أن أقول له وحده إن قلبي مثقوبٌ ثقباً واسعاً بحجم حبي لزينب. وأني هجرتها يوم ولدت، ويوم كبرت، ويوم ماتت. فأي أبٍ أنا؟ استقبل لوعتي بوجهه المبتسم، وضمني إلى صدره الواسع، وخلع عليّ موجةً من حنانٍ لم يشعرني بها من

قبل أمٌّ ولا أب. وقال لي:

– يا أبا زينب. إن مكيال الله يزيد ولا ينقص. وما نقصك الله من كفة زادك في أخرى حتى ترجح أخيراً. ألا تريد أن ترجح؟

– بلى والله؟

– فاسمع كلام ربك إذن...

ثم أغمض عينيه كعادته عندما يتلو القرآن، فأطرقت وأغمضت عيني بدوري لأسمع فتلا عليّ: ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

انصرف زاهر بعد عزاءٍ قصير وقال لي وهو ينصرف:

– ائذن لأختي فخر النساء أن تعزّي أم زينب.

– إن شئت بعثت مريم إليها لتستقبل عزاءها ولا تكلّف نفسها عناء المجيء.

– بل تأتي إليكم عصر اليوم.

ودخلت فخر النساء وسلّمت علينا ونحن جلوس. رأيتها لأول مرة رغم أني طالما سمعت عن دروسها التي تقيمها في بيتها ويؤمّها خلقٌ كثير حتى تقدّمت في السن وأوقفت درسها. تكبر أخاها زاهراً بسنوات وهو يجلّها كأمه. وقفت في منتصف الحجرة وقالت بصوتٍ متحشرج:

– أيُّكم ابن عربي؟

فوقفت من بينهم فوجّهت كلامها إليّ قائلةً:

– أعظم الله أجرك وشرح صدرك يا بنيّ.

– جزاك الله خيراً يا خالة.

ودخلت بعد ذلك إلى حجرة النساء لتعزّي مريم. وجلست وحدي مطرقاً والجميع سكوتٌ إلا من همهماتٍ عابرة وتسبيحٍ هامس. انتهى العزاء وأوصدنا أنا ومريم بابنا على وجعنا المضمر في جوانحنا. خلوت بها أخيراً فإذا بها قد تغيّرت علي. زادت شحومها وكأنها لم تسافر ولم تثكل. جهزتْ فراشي وجعلتْ فراشها منفصلاً عنه. اضطجعتْ جهة الحائط وأولتني ظهرها. سألتها عن أهلها في بجاية فأجابت كما يجيب الغرباء. سألتها عن حالها فلم تجب وسمعت رجع بكائها. قررت أن أتركها حتى تهدأ ونمت وما أظنها نامت. وفي صباح اليوم التالي جلبت لي طعاماً وجلست وملامحها تشي بحديثٍ طويل أعدته لي طيلة الليل وتوشك أن تقوله. تحدثت أخيراً:

- أريد أن أعود إلى بجاية.

نظرت إليها فألقت بنظراتها بعيداً عني. قلت لها:

- أنتِ في خير بقاع الأرض وتريدين العودة إلى بجاية؟

سكتت ولم تجب. زمّت شفتيها وظلت تتجنّب النظر إلى وجهي. قلت لها:

- اسمعي يا مريم. لقد أوجعنا معاً فقد زينب. فلا تظني أن ثكلها يقع عليك وحدك. ابتهلي إلى الله وتعلقي بأستار الكعبة يذهب عنك الحزن ويسلوها قلبكِ.

- اتركني أذهب يا أبا زينب. ولا تسل عن شأني. إن لم يكشفه الله لك فخيرٌ لك ألاّ تعرفه.

سالت على وجهها دمعة. ثم استعبرت وقامت من حولي وسمعتها

تبكي. تعجبت من شأنها. ظننتها في شوقٍ للقائي ولكن الشكل أنساها الاشتياق. أكملت طعامي وأنا أفكر في ما يجب أن أفعله بشأنها فلم أجد جواباً. أغمضت عيني فلم أجد كشفاً. ذهبت إلى حيث وجدتها جالسة في ركن الحجرة تبكي فقلت:

- ابقي حتى تحجّي فريضتك ثم ارحلي إذا شئتِ.

٥٠

"الحبّ سرٌّ إلهيّ"

ابن عربي

أقبل رمضان فاستقبله أهل مكة بالطبول والدبادب. جُدِّدت حُصر المسجد الحرام واتّخذ كل إمام زاويةً من المسجد لصلاة التراويح. امتلأ المسجد بالشموع والمشاعل حتى أصبحت بعض ساحاته متلألئةً كالنهار. جُعل في كل مئذنة قنديلٌ يوقد بعد الإفطار ويظلّ مشتعلاً حتى يحين موعد الإمساك فيُطفأ ويمتنع الناس عن الأكل. تغيّر وقت درسي إلى ما بعد صلاة الفجر وازداد عدد الطلاب فيه حتى قاربوا المئة. وكان زاهر يجلس بينهم حيناً فيأخذ مني علم المغرب، وكنت أجلس في درسه بعد صلاة العصر فآخذ منه علم المشرق. كلما أشكلت عليه مسألة وعدنا أن يأتي بالجواب غداً بعد أن يسأل أخته فخر النساء. فانشغل ذهني بها حتى استأذنته أن أجلس عندها للدرس.

- لم يعد عندها درس. لقد كبرت.

- أجلس عندها وحدي إذن.
- غداً أستأذنها لك.

وأذنت لي أخيراً. فصرت آتيها بعد زوال الشمس إذا قضت شؤون بيتها فتجلسني على عتبة الباب وتقرأ عليّ علماً سلساً نافعاً له حلاوةٌ وقبول لم أطعم مثلهما في علوم الرجال. فقرأت معها الكتاب تلو الآخر، والسيرة تلو الأخرى. وكلما انتهينا من مبحثٍ اشتغلنا بآخر. لا أملّ من كلامها حتى إذا انشغلت بأمرٍ قمتُ لأقضيه عنها كي لا ينقطع حديثها. فمن دخل بيتها وجدني أقشّ الفناء وهي تتكلم. وأنقع الثياب وهي تتكلم. وأوقد النار وهي تتكلم. وأطعم الدواب وهي تتكلم. حتى تغرب الشمس فيحين وقت انصرافي.

كل يوم أقضيه عند عتبة فخر النساء لعقلي حتى قضى الله أن يكون يوماً من الأيام لقلبي. ذلك أني كنت جالساً عند عتبتها فجاءت امرأةٌ لم ترَ عيناي أجمل منها تحاول أن تدخل. فتنحيّت جانباً وسمعتها تقول:

- السلام عليك يا عمتي.

فتقول فخر النساء: "ادخلي" ويقول قلبي: "ادخلي" فدخلت البيت وقلبي في آنٍ واحد. تلك نظام، عين الشمس والبهاء، ابنة الشيخ زاهر. تقرأ على عمتها وأبيها كتباً لم أقرأها وكتباً قرأتها واشتهيت أن أعيد قراءتها. درسها مع عمتها بعد درسي. فإذا انصرفت تناهى إلى سمعي قول عمتها: "سمّي الله وابدأي يا ابنتيّ"، فأسترق السمع متظاهراً بإعادة لفّ عمامتي لأطيل وقوفي فأسمع صوتها العذب الرقراق يسيل على قلبي كما تسيل قطرة المطر الوحيدة.

– يا شيخة فخر النساء. ماذا تقرأ عليك هذه الفتاة؟

وقبل أن تجيب استطردت قائلاً:

– إني أرغب في قراءته فهلاّ قرأته معكما من مكاني هذا عند عتبة الباب؟

– نفعل ذلك من غدٍ إن شاء الله.

وصار ذلك درس العقل والقلب، منارة البصر والبصيرة، شعلة الجسد والروح. أسأل أنا فتطلب فخر النساء من نظام أن تجيب، وتسأل نظام فتطلب فخر النساء مني أن أجيب. وطيلة الدروس لا تكلّمني نظام مباشرةً ولا أكلّمها إلا عن طريق عمتها. كنت أظن مكة مفتاح الروح الذي سعيت إليه من أقصى الأندلس، فإذا هي تطرق باب قلبي كما لم يُطرق من قبل. أشعلت نظام في صدري مصباحاً رأيت على ضوئه زوايا في هذا القلب لم أرها من قبل؛ أركاناً موحشة، غرفاً موصدة، سراديب تراكمت فيها مشاعر لم يتسنَّ لها أن تخرج إلى الحياة التي أعيشها. سكنت خيالي كل لحظة من يومي وليلتي. إذا كتبت تراءى لي وجهها الصبيح مع كل حرف. يا لعينيها مثل حرف الحاء الذي ينفق فيه الخطاط نصف يومه! يا لأنفها مثل دقة الدال إذا انتهى به السطر! يا لشفتيها مثل وقار الثاء إذا سكتت والياء إذا ضحكت! يا لهذا الخدش في صدغها مثل همزةٍ أفلتت من ألفها! يا لوجهها مثل كتابٍ من نورٍ سطرته أيدي الملائكة!

ويا لذكائها! إشاراتها الغامضة التي لا تكشفها العمة الجليلة. تسألها عمتها عن مسألة فتجيب إجابةً مطولة تنتهي بها إلى مطلع قصيدةٍ تستهلّ بها. فإذا رجعت إلى هذه القصيدة وجدت بقيتها غزلاً

جميلاً. فإذا سألتني فخر النساء عن مسألة أجبت إجابةً أطول ثم استشهدت ببيتٍ من الشعر تعرف نظام أن في باقي القصيدة رسائل موجهة إليها من قلبي الذي تعلّق بها. ومنذ الأسابيع الأولى صارت نظام تجلس قبال الباب، وعمتها وراءه وأنا عند عتبته. فأراها طيلة الدرس وعمتها لا ترى أني أراها. فتُدني خمارها عن وجهها عينين فوجنتين فشفتين فنحراً كأنه بركةٌ من لؤلؤ.

مرّت الأيام وحفظت من دروس فخر النساء ضعفي ما حفظته من دروس زاهر. وانشغلت بي العجوز المسكينة فأصبحت أقرأ عليها كتباً قد قرأتها عليها من قبل فلا تدري لأنها نسيت. وأغمز لنظام وتغمزني. فنبدأ كتاباً جديداً نعلم أنه سيستغرقنا أسبوعاً من الزمان؛ أسبوعاً من التحليق في جبين نظام الوضاء مثل طائرٍ ضائع؛ أسبوعاً من التأمل في حسنها الأصفهانيّ الأصيل مثل شاعرٍ مبتدئ؛ أسبوعاً من القبلات التي تتهادى في الفضاء حتى تحطّ على فمها مثل ورقة خريفٍ متعبة؛ أسبوعاً من التعجّب من حركات يديها اللطيفتين، وعينيها الواسعتين، وشفتيها الورديتين، ومن خصلة شعرها إذا غطّت خدش صدغها فاختفى، فأحزن. فأشير إليها لترفعها عنه فتفعل ضاحكةً. خدشٌ يزداد عمقاً إذا ضحكت ويتحرك مع فمها إذا تكلمت. خدشٌ له حياة.

أشرت إليها بصمت أكثر من مرة إلى ذقني حيث يختفي خلف لحيتي خدش طفولتي القديم الذي أحدثته شجرة اللوز في مرسيّة. تعبس نظام مستفهمةً، فأحاول أن أفسح بين شعرات لحيتي لتراه. تظل عاجزةً عن رؤيته، فأقترب مجازفاً أن يظهر وجهي من وراء الباب

فترى فخر النساء أني اقتربت أكثر مما يجب. أقترب وتقترب نظام. تعلق عينيها بعمتها ثم على حين غفلة منها تمدّ يدها وتلمس وجهي. غمرتني رجفةٌ كطفلٍ يغطس في الماء لأول مرة في حياته. تركتها تمسح بيدها على لحيتي وهي لا ترفع نظراتها عن عمتها. فأخطأت يدها الطريق أكثر من مرة. مسّت أنفي وجبيني وحاجبي. اقتربت من فمي فلم أتمالك نفسي. لثمتها فأوقفت حركة يدها وألصقتها بفمي فلثمتها مرتين وثلاثاً وأنا أنظر إلى وجهها الذي احتقن فجأةً وغشيته رعشةٌ طفيفة وتسارعت أنفاسها لوهلة قبل أن تضغط بيدها على شفتي بقوة ثم تستعيدها إلى جنبها.

شغلت نظام كل وقتي. صرت أستبق الوصول إلى الدرس لأقف في أول الطريق وأنظر إليها وهي تمشي بين بيت أبيها وعمتها مشية احتشام واعتدال. تدني عليها جلباباً من خزّ وتخفي بطرفه شيئاً من وجهها. فإذا كانت تحمل معها كتاباً أو آنيةً أو طعاماً تلثّمت به وصار مشيها أبطأ ومتعتي أكبر. وإذا انصرفت وقفت في المكان نفسه وانتظرت حتى يحين وقت انصرافها فأتبعها وهي تشعر بي حتماً حتى أواريها دارها وأعود إلى داري. فأنصب طيفها المتخيل أمامي وأظل أحدثه طيلة الليلة بأشواقي ليلةً بعد ليلة حتى وجدتني أخيراً أشتري رزمة أوراق من تاجرٍ عراقي جلبها من الموصل يقول إنها تحفظ المداد فوقها فلا يتسرّب الخط وكتبت ما ضجّ في النفس وما ضاقت به غرف القلب من شعر أسميته **ترجمان الأشواق**.

٥١

"كل حبٍّ يُعرفُ سببه فيكون من الأسباب التي تنقطع لا يُعوّل عليه"

ابن عربي

ودّعت مريم بلا قبلات. صرفتْ خدَّها عني واكتفت بمصافحتي وتقبيل يدي. استقلت هودجها الذي استأجرته لها مع قافلةٍ من الحجيج المغاربة العائدين إلى ديارهم راكبين البحر من جدةً إلى عيذاب. أعطيتها من المال ما يكفي للطريق وزيادة والعبدَ الذي اشتراه بدر يوم جلبها من بجاية. ولم أوصِها بشيء. خرجت من قلبي وخرجت من قلبها دون وداع. هكذا شاء الله. وهكذا أرادت لنا مكة. بعض الحب لا ينمو إلا في بلادٍ بعينها. ولا يعيش في بلادٍ أخرى. وحبنا كان نافورةً لا يجري ماؤها إلا في الأندلس. حتى إذاً فارقناها انحسر ماؤها حتى جفّ تماماً في قيظ مكة.

هذه مريم التي أحببت. يحملها هذا الهودج فوق تلك الناقة باتجاه الغرب. توقفت بعد خطواتٍ قليلة فظننت أن مريم تنزل من الهودج وتعود لكنها لم تفعل. استأنفت الناقة سيرها بعد قليل وغابت في

الأفق. ولم أرَ مريم بعد ذلك إلا في المنام. عادت إلى بجاية وأقامت مع أهلها ست عشر سنة ثم ماتت وجاءني من يعزيني بها بعد أشهر طويلة وأنا في ملطيّة رغم أن الله كشف لي موتها في حينه قبل وصول الناعي. شعرت بألم في ضلعي وأنا نائمٌ دون جهد فعرفت أنها ماتت. فقمت وتوضأت وصليت صلاةً طويلة دعوت لها فيها بمقام كريم في الجنة وعدت إلى النوم. فذهب ألم ضلعي فعرفت أنها في رعاية الله الذي يعرف كيف يجزي الثكلى ويواسي المحرومة.

عندما عدت إلى البيت ولم أجدها فيه شعرت بنارٍ حارقة توقد في جوفي. قبل أشهر كنت زوجاً وأباً والآن أنا عودٌ وحيدٌ لا زوجة لي ولا ذرية. كيف ودّعتها عند هذا الباب دون أحزن ثم عدت لأجد الأحزان مكدّسةً في انتظاري؟ هرعت إلى الكعبة ورحت أطوف دون أن أعدّ. شعرت أن في قلبي أشيباً يحتضر وطفلاً يولد. سكراتٌ وصرخات. لحدٌ ومهد. شمسٌ تشرق وأخرى تغرب. مريمُ تستردّ حبها وترحل بعيداً ونظام تختال مشاعري دون أن تقدم. وبين المرأتين من أنا؟ أين شيوخي ودروسي وبقية أوتادي؟ ماذا سأفعل؟ وماذا سأكون؟ في داخلي عواصف لم تهدأ بعد حتى أعرف أين أتجه. عاصفة في روحي، وأخرى في عقلي، وهذه الثالثة الآن في قلبي. صوفيٌّ أنا أم عاشق؟ أم كلاهما معاً؟ عالمٌ أم عارف؟ شيخٌ أم مريد؟ وليٌّ أم شقيّ؟ يا ربّ لا أقطع طوافي هذا حتى أرسو على بر.

ورحت أطوف وأطوف. سبعاً. عشراً. مئةً ومائتين. ألفاً وألفين. لا أقف إلا لأداء الصلاة المكتوبة ثم أكمل الطواف. انتصف الليل. طلع الفجر. بان الصباح. فتحت الحوانيت. ازدحم المكان. اشتدت

الحرارة. انكسر الضوء. زال النهار. غربت الشمس. انصرف الباعة. سكن المسجد. تهالكت وصار مشيي وئيداً. شعرت بالدوار. اتكأت على جدار الكعبة ورحت أجرّ قدمَيّ جراً. لم أعد أرى ما أمامي ولا أسمع من بجانبي. سقطت وأظنني نمت على شاذروان الكعبة. واستيقظت على أذان الفجر. يومان وأنا أطوف... صليت وجلست أتأمل الكعبة وأهمّ بإكمال الطواف وقدماي تصرخان من الألم والتعب.

استجمعت قواي وقمت من مكاني وطفت شوطاً وشوطين وأنا شبه غائبٍ عن الوعي. فإذا بي أردّد بصوتٍ خفيض: ليت شعري هل دروا... أي قلبٍ ملكوا. ليت شعري هل دروا... أي قلبٍ ملكوا. ليت شعري هل دروا... أي قلبٍ ملكوا. وبقيت على هذه الحال أشواطاً لا أحصيها. أمشي بلا هدى. أطوف بلا توقف. أهذي بلا علم. حتى شعرت بنقرةٍ على كتفي. فزعت. التفتّ. فإذا بها ورائي:

– نظام!

كانت تخفي فمها بخمارها وبدت عيناها تضحكان. خجلت من حالتي وتعبي. من جفاف فمي ورثاثة ثيابي. بدا ارتباكي واضحاً ولساني معقوداً لا يملك كلاماً. فتكلمت هي:

– ماذا تفعل هنا يا رجل؟

– أطوف!

– تطوف؟ في هذا اليوم؟

– وما لي لا أطوف في أي يوم؟

صمتت نظام وراحت تحملق في وجهي بدهشة. بدا أنها أدركت للتو أني لست في حالٍ عادية. راحت تنظر في وجه الرجل الذي

طاف آلاف الأشواط في يومين ولم يتوقف إلا للصلاة. وجهي المعفّر. ملامحي المتعبة. وقفتي المائلة. صوتي الحبيس. وأخيراً قالت بنبرة خفيضة خائفة:

– هل نظرت حولك؟

أدرت رأسي ببطء لأنظر إلى ما تقول فصُدمت. نساءٌ كثر. نساءٌ فحسب. عن يميني وشمالي. يطفن بالكعبة ويصلين في الساحة. حشدٌ هائل من النساء لا رجل بينهن إلا أنا. أصابتني نظراتهن المستغربة والمستهجنة والعاتبة والغاضبة نظرةً تلو أخرى. صحت بصوتي المخنوق الذي بالكاد يفارق حنجرتي:

– يا إلهي! ماذا يحدث؟

أجابتني نظام بقلق:

– اليوم هو التاسع والعشرين من رجب.

– وماذا يعني هذا؟

– يوم طواف النساء! هل ترى رجلاً غيرك في المسجد؟ اخرج الآن!

ابتعدت فوراً وكأني طفلٌ نهرته أمه. ترنّحتُ في مشيي جهة باب المسجد وبدوت مثل تائهٍ لا يدري أين هو. أحاول تجنّب أفواج النساء التي تتدفق فاصطدمت بإحداهن ووطأت قدم طفلٍ تجرّه أمه فبكى. سمعت بوضوح شتائم بحقي فلم ألتفت. حثثت السير وجاهدت عند الباب حتى وجدتني أخيراً خارج المسجد. لمحت وجوه رجالٍ مثلي يسيرون في الطريق فشعرت بالألفة. اكتشفت أن إحدى قدميّ بلا خف. فنزعت الخف الآخر وتأبطته ومشيت إلى بيتي.

٥٢

"كاللبلابة التي تلتفُّ على شجرة العنب، هو العشق"

ابن عربي

التقينا في اليوم التالي عند فخر النساء. كنت أشعر بالخجل فلم أتبادل مع نظام نظرةً واحدة. قرأنا ما قرأنا حتى إذا انتهينا وهممت بالانصراف مدّت نظام يدها وقبضت على معصمي وأشارت لي بالمكث بعض الوقت. ثم أغلقت الباب. جلست عند العتبة أتحسّس بيدي موضع لمسة يدها من معصمي وأشمّه وأنا أفكّر في ما تريد أن تقوله لي.

وأخيراً فتحت الباب مرةً أخرى وأطلّت نظام، بلا خمار. شعرها منسدل على كتفيها كأنه شلالٌ من اللوز. رأيت وجهها لأول مرة كاملاً دون أن يغطّي خمارها جزءاً منه. فكأن عينيها اتّسعتا أكثر، وشفتيها امتلأتا أكثر، وخدش صدغها تحول إلى عشٍّ يطلّ منه عصفورٌ لا يطير.

- عمتي نامت. ادخل.

دخلت وأوصدت الباب. جلست عندِ عتبته من الداخل. هبط الليل ولم يعد يمرّ من أمام الباب أحد. أشارت إليّ لأقترب ففعلت. أصبحت قدر ذراع منها حتى شممت منها عطر الورد والبنفسج. افترّ ثغرها عن ابتسامة أظهرت أسناناً منتظمة إلا واحداً منها مال عن البقية في فكّها السفلي وإن ظلّ جميلاً لافتاً للنظر. قالت لي:

- حسناً، ما قصتك يا بن عربي!

- قصتي؟

- نعم. أخبرني ما لا يعرفه عنك إلاي.

حيّرني مرادها ورحت أفكّر وأنا أردّد كلامها نفسه بصوتٍ خفيض. قلت لها وأنا أحاول أن أكسب وقتاً أطول للتفكير:

- ما لا يعلمه أحد هو ما ستره الله فلماذا أفضحه؟

لم تجبني. نظرت إليّ نظرةً مستحثّة وكأنها لا تأبه بجوابي. أعملتُ ذهني قليلاً ثم قلت:

- ما لا يعلمه أحد حتى الآن يا نظام هو أني أحبك.

قلتها وأطرقت. انتظرت أن أسمع منها شهقةً ولكنها لم تصدر منها. عندما رفعت عيني إلى وجهها مرةً أخرى كانت تبتسم بهدوء ابتسامةً واسعة. وأدنت رأسها قليلاً ورفعت عينيها لتظلّ تنظر إليّ فبدا عليها خفرٌ لو نزل على جبلٍ من الجليد لأشعله ناراً. تهدّج صوتي وأنا أردف مرةً أخرى:

- أحبك جداً يا نظام... حباً يصحبني أينما سرت، ويوقظني كلما نمت. هو ظلي في النهار وفراشي في الليل.

ندت من فمها آهة طفيفة جداً ووضعت يدها على قلبها. صغرت

ابتسامتها ثم زمّت شفتيها وكأنهما تستعدان لاستقبال قبلة. أطرقت فسقطت خصلةٌ من شعرها لتعترض وجهها. حركت يدها لتزيحها عن وجهها فانحسر ثوبها عن ذراعها بأكمله فرأيته من اليد حتى باطن العضد. شعرت ببرودة تجتاحني من الداخل كأنما تدفّق في صدري شلالٌ صغير. اعترتنا معاً رجفةٌ وسكتنا. وسادت لحظة صمت أطرقنا فيها معاً. هي تنظر في فراغ الأرض وأنا أنظر في يدها المسندة على ركبتها. ثم حركت يدها وأسندت بها ذقنها واستعادت ابتسامتها الواسعة وراحت تنظر في عينَيّ مباشرةً ثم قالت:

– ماذا كنت تقول في طوافك أمس؟

– لا أذكر!

– لم تكن تسبّح ولا تستغفر. كنت تقول شعراً!

– أقول شعراً في المطاف؟

– يا رجل. لم تبقَ امرأةٌ في المطاف لم تسمعه وأنت تُنشد بأعلى صوتك كأنك مؤذن!

– حقاً؟

ضحكت نظام وأخفت فمها بيدها وهي تحاول أن تخفض من صوتها. التفتت إلى الداخل لتتأكد أن عمتها النائمة لم تسمعها. ضحكت معها بلا صوت. ورحت أحاول تذكر الشعر الذي تزعم أني رددته في الطواف دون جدوى. أخيراً قالت هي:

– كنت تقول: ليت شعري هل دروا... أي قلبٍ ملكوا.

– بلى بلى. هذا صحيح.

– عجباً! أنت عارف زمانك وتقول هذا؟

– وماذا فيه؟

– تتساءل إن كانوا دروا بما صاروا يملكون. وأنت تعرف أن كل مملوكٍ معروف. والملكية لا تتحقق إلا بمعرفة المملوك. فلا أحد يملك ما لا يعرف.

– صدقتِ!

– أله تكمَلة؟

– نعم.

– أنشدني إذن.

– وفؤادي لو درى... أي شِعْبٍ سلكوا.

– عجباً! أنت عارف زمانك وتَقول هذا؟

– وماذا فيه أيضاً؟

– فيه أنك تتمنى معرفة أي شعبٍ سلكوا وأنت تعرف أن هذا الشعب الذي يفصل بين شغافك وقلبك ويسلكه المحبوب إلى داخلك هو الذي يمنعك من المعرفة. فإن عرفت الشعب فقدت المعرفة. وإن بلغت المعرفة عرفت الشعب. فكيف تتمنى هذه قبل تلك؟

– صدقتِ!

– أله تكمَلة؟

– نعم.

– أنشدني إذن.

– أتراهم سلموا؟... أم تراهم هلكوا؟

– لا عليك منهم، عليك من نفسك. هل سلمت أم هلكت؟

- صدقتِ!

- أله تكملة؟

- نعم. البيت الأخير.

- أنشدني إياه.

- حار أرباب الهوى... في الهوى وارتبكوا

هزت نظام رأسها تعجباً ثم أمالت رأسها قليلاً ونظرت إليّ وبادرتني بسؤال:

- عجباً! أنت عارف زمانك وتقول هذا؟

- وماذا فيه؟

- فيه أنك تشكو من الحيرة بعد الهوى، والهوى يُخدِّر الحواس ويُذهب العقول. فبعد حصول ذلك كله، ماذا تبقّى لتحتار بشأنه؟

- صدقتِ والله، صدقتِ!

ثم أخفضت صوتها قليلاً حتى صار أقرب للهمس. ودنت مني حتى شعرت بأنفاسها وهي تتكلم وقالت:

- ثم ألا تعلم أن المحبّ يفنى في محبوبه فيصبح لسانه لسانه وقلبه قلبه؟

- بلى.

- كيف يحتار قلبك وقد صار هو قلب محبوبك؟

نظرت إليها وعلى فمي ابتسامة مستسلم. فابتسمت لي ابتسامةً تُهوّن عليّ هزيمتي الصغيرة. مدت يدها فمددت يدي والتقت اليدان في عناقٍ لذيذ. ثم قالت وقد التقى حاجباها في انعقادٍ لم أفهمه:

- لا بدّ أنك تشتاق لأم زينب حتى فعل بك الشوق كل هذا.

نظرت إليها وابتسمت أكثر ابتساماتي ثقةً منذ عرفت نظام لأول مرة. وبقيت صامتاً لوهلة وهي صامتة. ثم ضغطت على يدها وكأني أعاقبها على غيرتها وقلت:

- وتزعمين أن قلب المرء قلب محبوبه ولسانه هو لسانه؟

- أجل.

- فكيف لم تعلمي أنكِ وحدكِ المقصودة بهذه الأبيات؟

سحبت نظام يدها وقد انتابها خجلٌ طارئ. وضعت خمارها على رأسها وقالت:

- عليّ أن أذهب قبل أن يقلق أبي.

- أبوك نائمٌ يا نظام منذ ساعة، ولن يقوم إلا سَحَرَاً.

- وكيف تعرف؟

- يكشف الله لي.

- وعمتي؟

- نائمة عيناها مستيقظ قلبها. تشعر بنا وراضية علينا.

- حقاً؟

- حقاً من الحق تعالى، ولا يأتي كشفه إلا حقاً.

- ولم يكشف لك غير هذا؟

- يكشف الله ما يشاء لا ما أشاء.

تأملتني نظام بعينين فيهما وجلٌ وشوق. ثم رفعت يدي إلى فمها وألصقتها بشفتيها وأغمضت عينيها وهي تقبّل يدي ببطء قبلةً تلو أخرى. ثم ألقت عليّ نظراتٍ كأنها تستعطفني من شوقٍ جارفٍ

يجول في أنحائها. لم أعرف ما يجدر بي أن أفعله فقلّدتها. قربت يدها من فمي ورحت أقبّلها إصبعاً إصبعاً. ثم طبعت قبلةً دافئةً طويلة في منتصف راحة يدها تماماً. سمعتها تتنهد وكأنها ستبكي فتوقفت. سحبت يدها من يدي ونهضت فنهضت. غطت شعرها بخمارها فاختبأ العصفور في عشه، وخفق قلبي كأنما شارف العمر نهايته. قالت:

- ما دام الله كشف لك أن أبي لن يستيقظ إلا سحراً فسأنام عند عمتي.

- نوماً هنيئاً يا قرة العين.

أخفت نصف وجهها خلف الباب الذي توشك أن توصده وقالت مبتسمةً:

- وأنت كذلك يا... عارف زمانك!

٥٣

"كل باطنٍ لا يُشهدك ظاهره لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

أيقظني صوتٌ أجشّ تسرّب إليّ عبر الحائط لمنادي الأمير ينادي في الناس: "يا بنّاء... يا نجّار... يا حدّاد... يا صانع... أقبلوا على قصر الأمير"، وتباعد صوته تدريجياً حتى اختفى. قعدت على فراشي وتحسّست الجرح الناتئ في مؤخرة رأسي الذي أحدثه الحجّام قبل ليلتين وسحب من دمي ما ظنّ أنه حريٌّ بإيقاف هذه السلسلة من الليالي التي انتهبني فيها الصداع. كانت البارحة ليلة صداع أخرى لم أنم فيها إلا لماماً فنمتُ قليلاً بعد الفجر. وجدت خبزاً وأقطاً في طرف الحجرة وضعهما بدر لأجدهما حين أستيقظ. أكلت وجلست أنظر إلى آخر ما كتبته بالأمس. بدا واضحاً من تشوه خطي في الأسطر الأخيرة أن الصداع بلغ مني مبلغه. نظرت إلى حزمة الأوراق المركومة فوق بعضها في طرف الحجرة الآخر وتساءلت إن كان هذا الصداع سيمكّنني من تسويدها جميعاً قبل أن أترك مكة.

مرت سنتان وأنا في هذا البلد الأمين ولا أدري إذا ما كان يجدر بي أن أمكث أطول. لقد ورث الخيّاط الوتادة في اللحظة الأخيرة لينقذني من الضياع ولكن ضيق الوقت الذي مات فيه الوتد السابق وورثه الوتد اللاحق لم يكفِ ليبلغه أين أجد وتدي الثالث. كل الأماكن ممكنة. قد يكون في الهند أو في الصين. في فارس أو الأناضول. في بلاد الروم أو بلاد السودان. بل ربما ينتظرني من حيث جئت في الأندلس.

طرق الباب فقمت. فتحته دون أن أسأل من وراءه فإذا بالشيخ زاهر يقف مبتسماً كدأبه. رحّبت به وأستأذن في الدخول فأذنت له:

- جئتك من غير موعد لأني أعرف أن ليس في دارك امرأة ولا ولد...

ثم أكمل عبارته وهو يضحك ضحكةً خفيفة:

- ... فلا غضاضة أن أجيء متى شئت.

- البيت بيتك يا شيخي. فلتحلّ علينا بركتك دائماً.

- بارك الله فيك. علمت أنك أوقفت درسك في المسجد الحرام من أيام. ولم أنتبه لغيابك إلا هذا الصباح. لعل المانع خيراً؟

أشرت بيدي إلى الكتاب المفتوح الذي كنت أتأمله قبل دخوله البيت وقلت:

- إنه التأليف يا شيخي.

أضاء وجهه بملامح سرور وقال وهو يتسم بحنو:

- شاباش شاباش... هذا والله حسن. وماذا تؤلف؟

- عن جميع ما فتحه الله عليّ من فنون المعارف في مكة. أسمّيه **الفتح المكيّ**.

قلت عبارتي الأخيرة وأنا أقرّب من الشيخ الخبز الذي تركه لي بدر والأقط وقارورة العسل. فأخذ الشيخ قطعةً صغيرة من الخبز غمسها في قارورة العسل واكتفى. مسح كفيه وقال وهو يكمل مضغه:

- ومتى تراك تفرغ منه؟

تنهدت تنهداً طويلاً وأنا أستعدّ للبوح بشكواي لشيخي وقلت:

- كنت قد عزمت أن أفرغ منه في بضعة شهور. لولا هذا الصداع الذي ابتليت به. كلما جلست للكتابة وقطعت فيها شوطاً انتهب رأسي فأفقد قدرتي على التفكير والتمييز. ولا يزال بي حتى يجبرني على التوقف.

ضاقت عينا الشيخ وبدا على ملامحه تعاطفٌ أبويّ وقال:

- شفاك الله يا ولدي. منذ متى؟

- منذ بدأت في كتابته.

- وهل سبق أن عانيت الصداع قبل ذلك؟

- ليس بهذه الحدة والعناد. لا.

صمت الشيخ قليلاً وراح يهمس بدعاءٍ لا أسمعه، ثم أشار بيده إلى أعلى عينيه ومقدمة جبينه وقال:

- أتجده هنا؟

- أجل يا شيخ. يؤلمني محجراي وصدغي أحياناً. ولكن أشدّ الألم فوق العينين.

ابتسم وقال:

- لقد عانيت مثل هذا. عمرك الآن أربعون يا بنيّ. بصرك يضعف.

هززت رأسي بتحسّر وقد علقت بفمي ابتسامةٌ تسخر من عمري. فربت الشيخ على ظهري ثم قام واتجه ناحية الكتاب وقال:

- لا تكتب على مثل هذا الورق. ستجد في سوق الورّاقين رقعاً أكبر من هذه. اكتب عليها بحروف كبيرة واستخدم حبراً داكناً.

أومأت بالإيجاب، فاستطرد:

- ولا تكتب ليلاً، فإن كان لا بد فاجعل سراجك من خلفك لا من أمامك. وإن شئت أن تتخذ مصباحين تعلقهما في السقف فهذا أحرى ألا ترهق عينيك بضعف النور.

- جزاك الله خيراً يا شيخ.

دخل بدر في هذه اللحظة وقبّل رأس الشيخ وراح يجول ببصره ليتأكد من نظافة المكان. جمع بيديه فتات الخبز من الأرض ووقف يقول للشيخ:

- أمهلني أسقيك شيئاً يا مولانا.

فأشار الشيخ بيده رافضاً وقال:

- سأذهب الآن، جئت لأطمئن على محيي فألفيته يهرم مثلما هرمنا قبله.

وأتبع عبارته بضحكة عالية. واتّخذ طريقه نحو الباب وقبل أن يخرج التفت ناحيتي وقد تذكّر شيئاً. قال:

- لقد وصلت بعثة الحج القونويّة أبكر من موعدها هذا العام وسنعقد معهم دروساً فإن شئت تكون معنا بإذن الله بعد صلاة العصر من يوم غد.

– سأكون في حضرتك يا شيخنا بكل سرور.

وقبل أن ينصرف الشيخ مرّ المنادي مرةً أخرى بصوته الأجش وقد انخفض قليلاً بسبب التعب: "يا بنّاء... يا نجّار... يا حدّاد... يا صانع...". نظرت إلى زاهر مستفسراً فقال لي:

– الأمير سيبني سوراً على مكة.

– سور على مكة؟ يحميها الذي حماها من أبرهة. لمَ السور؟

– لا أعلم يا بني ولكني أتوجس من حربٍ قريبة. فأمير المدينة لم يسلّم لقتادة بعد بإمارة مكة. وكلاهما يطمع في ملك الآخر ويتربّص به الدوائر.

٥٤

"الحب موتٌ صغير"

ابن عربي

لا يفارقني طيف نظام داخل البيت أو خارجه. إذا كتبت رأيتها في كتبي وأوراقي وقرارة محبرتي. وإذا خرجت رأيتها في طريقي وطوافي وسائر شؤوني. ينزل عليّ الشعر فيها كما ينزل الماء من سحابة الصيف بلا سابق ظن. فإذا كنت في البيت انتقيت له أجود ورقة وغمست القلم غمسةً في ركوة الصمغ ثم غمستها طويلاً في الدواة حتى يشبع من الحبر فيكتب بلا انقطاع. وإذا كنت خارج البيت اضطربت ورحت أردد الشعر حتى لا أنساه فيضيع. أخيراً اتخذت لنفسي دفتراً أحمله معي. فمتى اشتهيت أن أقول فيها شعراً تنحيت من الطريق جانباً وأخرجت دواتي وقلمي وكتبت ما عنّ لي كتابته فيه. فإذا سألوني ما هذا الدفتر الذي أكتب فيه خشيت أن أخبرهم بشأنه فأقول: "إني أدوّن ما يحدث في يومي، حتى إذا هجعت إلى فراشي حاسبت نفسي على ما بدر مني، فإن كان يستحق استغفاراً استغفرت، وان استحق شكراً

شكرت، وإن استحق توبةً تبت حتى أفرغ منه كله فأنام". والحق أني لم أكذب في قولي هذا البتة. فكل ما يحدث في يومي هو من فيض حبي لنظام وشغفي بها، وأنا أدوّنه شعراً، فإذا جاء الليل قرأته لنفسي ولها، فإن وجدت أني كتبت فيها ما تستحقه شكرت الله أن مكنني من ذلك وألهمني ما أكتب بحق هذه الحسناء الفاتنة، وإن وجدت أني قصّرت في وصفها وعجزت عن الإتيان بما يليق بها استغفرت الله على تقصيري وسوء صنيعي.

لم يعد لدى فخر النساء ما تعلمني إياه. كل علمها حفظته واستظهرته وكذلك نظام. كنا نستغل ذاكرتها الضعيفة ليظل الدرس قائماً وأجد فرصةً لقضاء ساعتين من النهار معها. كلما أنهينا كتاباً طلبنا منها أن نقرأ عليها كتاباً آخر. فتقول:

- أولم نقرأه؟

فتقول نظام:

- بلى يا عمتي، ولكن المتن صعب والشروح كثيرة.

- إذن نتوكل على الله. اقرأي يا بنتي.

وصرت أجلس في داخل مجلسها لا على عتبة بابها بشفاعةٍ من زاهر. مرّ بنا ذات درس ووجدني جالساً عند عتبة الباب فقال:

- هذا لا يليق. ادخل يا بنيّ فإنك من أولياء الله.

ثم يلتفت إلى نظام ويقول:

- ادني عليك جلبابك واجلسي في طرف الحجرة وهو في طرفها ولا جناح عليكما فإنكما في مجلس علم تحفّه الملائكة.

وهكذا صرت أجلس في طرف الحجرة متكئاً على حشية مريحة

بعد أشهر طويلة كنت أجلس فيها على العتبة الترابية متكئاً على جدار. وهما إلى جوار بعضهما في طرفها الآخر حيث موقد النار وزير الماء. ولربما قامت فخر النساء إلى شأنٍ من شؤونها فأكملت أنا ونظام قراءة الكتاب وتناقشنا فيه وتحاورنا معاً. ولربما نسيت فخر النساء أن تعود إلينا وأوت إلى فراشها لتنام فنقضي الوقت في كل حديثٍ عذب. ولربما استعصت علي قراءة كلمة في كتاب فتقترب نظام لتقرأها وتنال أجرها على ذلك قبلةً دافئةً من فم مشتاق.

حكيت لنظام كل ما مرّ بي في حياتّي منذ ولدت وحكت لي ما مرّ في حياتها منذ ولدت. حدثتها عن الأندلس وأنهارها وقناطرها وأشجارها. وحدثتني هي عن بغداد ودجلتها ورصافتها وكرخها. انتشى كلٌّ منّا وهو يحدث بذكريات طفولته في طرفين متباعدين من بلاد الله. من أقصى مغرب المسلمين جئت وهي من أقصى مشرقهم لنلتقي في مكة ونقع في الحب. قرأت عليها كل قصيدة بتّ في ليلتي السابقة أنظمها لها. فقرأت عليّ كلاماً بالفارسية قالت إنه في حبي. سألتها أن تترجمه فقالت:

- تطفئه الترجمة.
- فلم لم تنظميه بالعربية؟
- الحب باللغة الأولى يا محيي.
- ولكنك تتقنين اللغتين!
- في الفارسيةِ كلامٌ ليس بينه وبين قلبي حجاب.
- وكيف سأفهمه؟
- اسمعه بقلبك لا بأذنك.

- اقرأي إذن... اقرأي يا حبيبتي.

لاحظت مع مرور الأيام أنها تزداد جمالاً. ولم أعلم إن كنت أنا الذي أزداد كلفاً بها أم أنها أصبحت تتزين في حضرتي، لاسيما بعدما ضعف نظر فخر النساء وأصبحت بالكاد ترى موطئ خطواتها. لها مفرق من نور يجعل ليل شعرها ليلين، وحاجبان لم أرَ مثلهما في دقة التقوس وشدة السواد تحت جبينٍ وضّاء لا تشوب ضوءه شائبة. وكانت إذا ضحكت غطّت فمها بيدها حياءً فلا أدري أأفرح لمرأى أصابعها الجميلة أم أحزن لغياب شفتيها الفاتنتين وأسنانها البارقة. والحقيقة أن أغلب دروسنا الأخيرة كانت ضحكاً في ضحك. نحاول أن نكتم صوته لئلا تسمعه فخر النساء، فإن أفلتت منا الضحكة قالت:

- ماذا يضحككما؟

فتجيب نظام:

- سقطت عمامة محيي.

أو أجيب أنا:

- أخطأت في سند الحديث.

تمكّن حبها في قلبي حتى لم أعد أفكر في مستقبل أيامي إلا وهي فيه. ولولا أن مريم كانت زوجتي وعلى ذمتي لأقسمت أن نظام هي أول عهدي بالنساء وأول امرأة أشعر معها باكتمال الحب وانسياق العاطفة وخضوع الروح وطمأنينة الجوارح. ما رأيت في حياتي أجمل من هذه الفتاة ولا أكمل. مازحتني ذات درس ونحن نقرأ تراجم لسير بعض المحدثين وفخر النساء غائبة في غرفتها، فأغلقت الكتاب وقالت لي:

– يا محيي، هب أنك ترجمتني يوماً. ماذا ستكتب في سيرتي؟

فصمتّ هنيهة واستغرقت في التفكير ثم قلت ببطء:

– سأقول إنك نظام قرة العين بنت المحدث أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني. ولدت وعاشت في قلب محيي الدين بن عربي ولا تموت فيه قط. عذراء هيفاء تقيّد النواظر وتزيّن المحاضر. عالمة عابدة سائحة. ساحرة الطرف. إن أسهبت أتعبت وإن أوجزت أعجزت وإن أفصحت أوضحت.

ضحكت وأسندت ذقنها على يدها وكأنها تنتظر المزيد. تأملت حسنها لأستزيد منه كلاماً يليق بها وقلت:

– إذا اشتهيت العلم حدثتني وحدثتها فلم أجد لعلمها نظيراً إلا علمي ولا لعلمي شبيهاً إلا علمها. كيف لا وهي ربيبة الحرمين وتربية البلد الأمين. قرأت كل كتاب وحذقت كل علم. لا شاغل لها إلا القراءة ولا تسلية لها إلا المعرفة. فإذا هي شمسٌ بين العلماء وبستانٌ بين الأدباء. وهبها الله حسناً لم يهبه امرأةً قبلها. امرأة قُدَّت من رحيق الأزهار. نظراتها تسقط الحذر ومنطوقها يلين الحجر.

رفعت عيني بعد أن انتهيت من كلامي فإذا عيني نظام مغرورقتان بالدموع وعلى وجهها ابتسامة واسعة محشوة حباً. مدت يدها مفتوحةً فاقتربت منها وتماست يدانا. ضغطت على يدي وراحت تفرك أصابعها في راحتي وكأنها تريد أن تبقي في يدها شيئاً من جلدي. ثم رفعت يدي إلى وجهها وشمّتها بعمق وأبقت أنفاسها في صدرها لوهلة. ثم أغمضت عينيها وزفرت زفرةً طويلة. ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقامت فعرفت أن وقت خروجي قد حان.

٥٥

المخطوط في أماسيا

٨١١هـ/١٤٠٩م

صاح الحاجب:

- مولاي السلطان الأعظم والخاقان الأفخم محمد بايزيد بك.

هبّ الجميع واقفين بما فيهم أنا وإخوتي. طأطأت الرؤوس وانحنت الظهور فلم يتسنّ لأحدٍ من الحاضرين أن يرى السلطان في دخوله إلا نحن الذين أبقينا ظهورنا مستقيمة ورؤوسنا عالية كما يليق بأبناء القان الأعظم تيمور. مرّ السلطان العثماني بين الصفين المتقابلين اللذين يحفّان طريقه إلى كرسيّه يتبعه ابنه ذو السنوات الأربع أو الخمس بالكاد يقيم خطاه ثابتة تحت ثقل عمامته السلطانية الثقيلة. لاحظ السلطان الوجوه الأربعة التي لم تُطرق بل ظلت تنظر إلى لحيته السوداء المقلّمة بعناية شديدة لتحيط بوجهه إحاطة الليل بالقمر، وشاربيه اللذين ينبثقان من تحت أنفه بزاويةٍ حادة، وحاجبيه الدقيقين وعينيه اللوزيتين اللتين تبدو إحداهما قاسية جامدة النظرات في حين تشعّ الأخرى شعاعاً هادئاً من الرحمة والنبل. بلغ كرسيه أخيراً واستدار وكفّ ثوبه

من الخلف وجلس. كاد أخي آق أن يجلس بجلوس السلطان ولكنه لاحظ أن كل من في الخيمة ظلوا واقفين فاعتدل واقفاً مرةً أخرى. ساد الصمت المهيب لدقيقة قبل أن يشير السلطان بيده فيصيح الحاجب:

- أعزّ الله السلطان.

جلس الناس جميعاً ورفعوا رؤوسهم أخيراً والتفتت الأعناق بتتابع لتنظر في وجه السلطان الذي بدا وهو ينظر إلى الجمع أنه لا يخصّ أياً منهم بنظراته. عيناه محلقتان في أفق المجلس. يرى ولا ينظر. يتأمل ولا يحدق. تقدم نحوه الحاجب بقائمة الاستقبالات التي سيبدأ بها يومه فلم ينظر إليها وإنما همس في أذن الحاجب. وبعد دقائق انتبهنا إلى انتقال الحاجب من وراء السلطان إلى وراء ظهورنا أنا وإخوتي، وهمس لنا بصوتٍ خفيض:

- من أكبركم؟

أجبته بصوتٍ خفيض كصوته:

- أنا. باشي.

- هل معكم هدايا؟

- أجل.

- سأناديك أولاً إلى حضرة السلطان ثم تقوم بتقديم إخوتك بعد أن تقبّل يديه.

انصرف الحاجب وهمس لي أخي الأصغر آلب قائلاً:

- نقبّل يديه؟ أنا لن أقبّل يديه.

أجابه آق قائلاً:

- دعنا من الحماقات الآن!

غمغم آلب قائلاً:

- دعنا من المذلات الآن!

توترت من كلام أخي آلب وخشيت أن يبدر منه ما يفسد مزاج السلطان علينا. نحن أبناء القان الأعظم في بلادنا ولكنّا الآن في المنفى ومصيرنا بين يدي هذا السلطان. إن أعادنا إلى سمرقند شنقنا أخونا الأكبر شاه رخ في ساحة المدينة، وإن أهملنا بقينا مطاردين في الأرض لا نأمن على أنفسنا من قاتلٍ طامعٍ في الفدية الضخمة التي أقرّت على رؤوسنا.

همس آلب في أذني:

- أنا لن أقبّل يده. لا تنسَ أنّ أبانا هو الذي نصّبه سلطاناً.

ضغطت على أسناني من الغيظ وأنا أقول له:

- ولا تنسَ أنّ أبانا مات. وستلحق به بالتأكيد إذا أبديت كبرياءك في غير محله!

همّ آلب بقول شيء ما فقاطعه صوت الحاجب الذي ارتفع منادياً:

- باشي بن تيمورلنك بن آيتمش بن كلنغ.

قمت من مكاني واجتزت الصفوف وسط الأعناق المشرئبة التي تحاول أن ترى ملامحي. كم يبدو المقام غريباً! أتقدم نحو السلطان العثماني وأكاد أقف بين يديه بعد خطوات قليلة فقط ولم أحسم بعد أمر تقبيلي ليديه. هل أفعلها؟ أنا باشي بن تيمور العظيم؟ ولكن ماذا يعني هذا وأنا طريد مع إخوتي لاجئون في جناب السلطان الذي كان أبوه بالأمس أسيراً عندنا.

خطوت الخطوة الأخيرة قبل المكان المخصص للوقوف بين يدي السلطان. على الأرض وسادة صغيرة مطرزة بخيوط ذهبية يضع عليها الماثل بين يديه ركبته عندما ينحني ويقبّل يديه. قررت في تلك اللحظة أن أقبّلهما. الحال غير الحال والسياسة لا تعرف الكبرياء. وضعت ركبتي على الوسادة

ورفعت يدي لأتناول كفّه البضّة المزينة بثلاث خواتم ضخمة مختلفة الألوان. ولكنه بدلاً من أن يضع يده في كفي وضعها على كتفي.

وقفت وأنا أشعر بحنقٍ صغير. إن كان عازماً أن يعفيني من تقبيل يده فلمَ لم يفعل ذلك إلا بعد أن حاولت تقبيلها. إنه لم يكرمني بل جعل الجميع يرون أنه قرر أن يعزّني بعد ذل.

- مولاي السلطان. اسمح لي أن أقدم لكم بعض الهدايا وأتمنى أن تتكرم علينا بقبولها.

أومأ السلطان بيديه فوقفت ونظرت جهة إخوتي الذين نظروا بدورهم جهة عبيدنا الواقفين عند الباب. دخل عبدي أولاً حاملاً صندوق هديتي. وفور أن وطأ البساط انحنى وراح يمشي على انحناء وهو يحمل الصندوق الصغير حتى وصل إلى مكاني ووضع الصندوق بين يدي السلطان. فتحته لتظهر النعل القديمة التي في جوفه المبطن بالمخمل. قلت:

- نعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

غمغم السلطان بالصلاة والتسليم وهو يرفع حاجبيه الملتصقين إعجاباً. بدت على ملامحه علاماتُ تواضعٍ وخشوع أعقبت ملامح كبريائه وفخامته. تناولت النعل الشريفة من قاع الصندوق ورفعتها إلى مقام السلطان ففتح كفيه وجمعهما إزاء بعضهما حتى وضعت النعل فوقها. تأمل النعل قليلاً ثم قبّلها ومسّ بها جبينه. وفي أثناء ذلك حمل الخدم الصندوق وقرّباه من السلطان فأعاد النعل إلى مكانها ثم همس في أذن الحاجب بأمره. عاد ينظر جهتي فقلت له:

- أقدّم لكم يا مولاي السلطان أخي جان بن تيمور بن آيتمش بن كلنغ.

تقدم جان بمشيٍ حثيث واقترب من السلطان ووضع ركبته على الوسادة

ففعل السلطان مثلما فعل معي. وقف وأشار إلى عبده فحمل صندوقه إلى حضرة السلطان وفتح ليظهر في جوفه مصحفٌ ضخم من الرقاق القديمة. وقال جان أخيراً بصوته المبحوح دائماً:

– مصحف سيدنا عثمان.

تناول السلطان المصحف وقبّله ومسّ به جبينه ثم قلّب صفحاته بحرص شديد. قرأ بعض السور المكتوبة عليه ثم رفع المصحف بين يديه وقبّله مرةً أخرى وأعاده بنفسه إلى الصندوق. وأشار إلى الحاجب إشارةً تعني أن يفعل به مثل ما أمره أن يفعل بنعل النبي.

تقدّم أخي آق ثالثاً ولم يكن معه صندوق بل ثلاثة صناديق أكبر من صناديقنا. وضعها العبيد متجاورةً تحت قدمي السلطان مباشرةً وفتحوها دفعةً واحدة فاختفت ملامح الخشوع من وجه السلطان وعادت إليه ملامح العظمة والكبرياء وهو يرى ما بجوف الصناديق الثلاثة من العقيق والزبرجد واليواقيت. قال آق متلعثماً:

– العقيق من اليمن. الزبرجد من مرو. الياقوت من الهند.

أومأ السلطان برأسه راضياً وابتسم. ونظر جهة أخي الأخير وكأنه يستعجل قدومه ليغادر مجلسه. فقدمته سريعاً فاقترب يتبعه أربعة عبيد يحملون صندوقاً ضخماً حتى وضعوه بين يدي السلطان. فقال:

– تواليف الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين بن عربي الأندلسي يا مولاي السلطان.

السفْر السابع

٥٦

"أنت أيها الإنسان.

أنت المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة"

ابن عربي

فور أن نظرت إلى وجه قائد حملة حجيج قونية وقر في قلبي له حبٌّ عاجل. صافحني وهو يهزّ رأسه باحترام كبير وابتسامةٍ متلطفة ويبقي يدي في يده ويميل برأسه ميلاً يجعله يطلّ على وجهي من أدنى. غيّرت بصعوبة من ملامحي التي ما زالت مأخوذة من فيض هذا الحب الإلهي الذي جمع بيننا في اللحظات الأولى. لم يمهلني حتى أستجمع أفكاري وأرتّب أفعالي. صافحته بالحفاوة ذاتها وأنا مرتبكٌ في كلامي حتى أني حاولت دون أن أشعر أن أجاري لكنته التركمانية في الكلام العربي. أجلسته إلى جواري وأبقيت كفّه في كفّي وناولته بلحةً بيدي من العذق الذي وضعه بدر أمامنا.

تمعنت في ملامحه لأطبعها في ذاكرتي فانطبعت في قلبي. جبهته العريضة ورأسه المربعة. عيناه ضيقتان وتميلان إلى أدنى قليلاً وقامته

قصيرة. له منكبان عريضان وذراعان قويان. فوداه أشيبان بالكامل وبقية شعره خليطٌ بين سوادٍ وبياض. إذا ابتسم ظهرت على وجنتيه خطوطٌ متوازية ومثلها على جبينه إذا قطّب حاجبيه وفكّر. لا أدري لماذا تخيّلته مثل شجرة ذات جذع غليظ وأغصان قليلة وأوراق مدببة. شجرة من تلك التي لا تتأثر بالفصول وتظلّ على حالها صيفاً وشتاءً. تبعث في المكان طمأنينةً وشعوراً بالثقة والاستقرار. نعم. هذا ما كنت أفتش عنه في ملامحه وأحاول تحديده. إسحاق يبثّ من حوله هذه الطمأنينة مثلما تبثّ الشمس دفئها في الكون.

يوماً بعد يوم اتضح لي كم هو صديقٌ نافعٌ ومفيدٌ لروحٍ قلقة مثل روحي. أحببته وجعلت له في قلبي مقام الأولياء. ولم نخرج من بيت زاهر الذي كنا ضيوفاً عنده إلا وقد اتفقت معه على درسٍ ثنائي في الحطيم. أسدي إليه فيها المعارف النورانية التي جمعتها من المغرب ويسدي إلي فيها معارف الشمال البعيد الذي أقبل منه. جلب بضعة كتب في قفةٍ صغيرة ولم أجلب شيئاً. قرأت وقرأ. ومكثنا على هذه الحال ساعاتٍ. وكررنا ذلك أياماً. ثم أخيراً وقفنا قبال بعضنا وخلعت عليه البردة الخفيفة التي كنت أرتدي وخلع عليّ بدوره بردةً من جلد مبطنة بقطن وعلى أطرافها فرو ثعلب. وتعانقنا روحاً لروح. وتآخينا في الحب الإلهي الذي يجمع أولياءه من مشرق الأرض ومغربها. ثم عرضت عليه أن يقيم في بيتي ما دام وحيداً بلا زوجة ولا ولد، فوافق. ونجحت بذلك في أن أخرجه من بيت زاهر الذي كان ضيفاً عليه. وفيه نظام. من قال إن الأولياء لا يشعرون بالغيرة.

انتهى الحج وخلع القونويون إحراماتهم واعتمروا قبعاتهم

الأسطوانية الطويلة، وانتشروا في أرجاء مكة يشترون ويبيعون ويحضرون الدروس ويلاحقون الشيوخ ويمارسون صناعات خفيفة طارئة في الأسواق. تتأخر بعثتهم كل عامٍ في المغادرة ليعبّ أفرادها من فيوض مكة ما يرويهم في عزلتهم الشمالية البعيدة. يرافقهم تراجمة ونسّاخون ينشغلون فور انتهائهم من الحج في ترجمة ونسخ كتب الحديث والفقه والتفاسير بلغتهم. ينظم إسحاق كل ما يفعلونه ويحدد مهامهم ويفض نزاعاتهم والجميع يأتمرون بأمره ويطيعونه طاعة عمياء.

في بيتي، حدثني عن بلادٍ لم أزرها وطرقٍ لم أسلكها من قبل. إذا جنّ الليل سرى به الحنين إلى الأناضول. يحدثني عن حديقةٍ صغيرة تعهدها بالرعاية. كانت أرضاً يابسة في وسطها شجرة صنوبر عتيقة مرّ بها ذات يوم فألفاها تكاد تكلمه. فاشترى الأرض وبنى حولها سوراً قصيراً وآلى على نفسه أن يزرع فيها كل ما يجعل شجرة الصنوبر أقل وحدة. فأحاطها بالزنابق والخزامى والزعفران وزهرة الثلج وكل نبتة يجلب بذورها من سفره المتواصل في أرجاء الشام والعراق وأرمينية وخراسان سفيراً لسلطان السلاجقة كيخسرو. قال لي:

- استغربوا فعلي. فلا الحديقة في بيتي ليكون اعتنائي بها مبرراً ولا هي تنتج لي ثمراً لتكون من التجارة. ولكنهم لا يعلمون أنها كانت بيتاً لروحي. أما ذاك البيت الذي أقيم تحت سقفه فليس إلا بيت الجسد. يقيني حرارة الشمس وبرودة الليل وهبوب الريح. ولكن متى أويت إليه بعد يومٍ طويل من العمل في بلاط السلطان في قونية كانت روحي تنام في العراء. هذه الحديقة كانت تؤوي روحي وتدفئها

وتبثّ فيها طمأنينة البيوت وسكينتها. إذا ذهبت إليها وجلست في وسطها أوت إليّ كل وردة ودنا مني كل غصن. تحدثني عما جرى وأنا غائب عنها: عن رائحة الريح، طعم اللقاح، أسرار الليل، حفيف الأوراق، قرض السناجب، طرقات النعال...

- ومن يعتني بها في سفرك؟

التفت إليّ مبتسماً، وحدق في عيني بيقين وقال:

- أنا.

- كيف؟

- اليوم كنست أوراق الخريف المتساقطة حتى لا تحجب الضوء عن أزهار اللحلاح الصغيرة التي تولد في هذا الموسم. وكذلك دفعت لصاً حاول أن يقطف أزهار الخزامى ليبيعها لعطّارٍ سيئ السمعة. وفي الأيام التي ينقطع فيها المطر أجلب لحديقتي غيمةً من الشمال.

جلست وقد كنت مضطجعاً وقلت:

- أفهم كيف تكنس ورقاً وتدفع لصاً، ولكن كيف تجري الغيوم وذلك من أمر الله وحده؟

- هي من أمر الله وحده كما تقول، ومعاذ الله أن أنازعه في أمره.

- فكيف تفعل؟

- كل ما أفعله هو أني أقسم عليه فيبرّني.

- ويبرّك في كل مرة تقسم عليه فيها؟

- نعم، ولكني لا أقسم عليه إلا إذا علمت أنه يبرّني.

- وكيف تعلم؟

رفع عينيه إلى السقف وحدق فيه حتى كأنه سيثقبه بنظراته وقال بصوتٍ حالم:

- لا أدري، أشعر بذلك. إن لرضا الله عليك شعوراً لا يمكن أن يوصف. دثارٌ دافئ يحيط بقلبك في ليلة برد، أو وميضٌ من الضوء يسافر في عروقك، أو ملاكٌ من ملائكته يتسلل إلى روحك ويحضنها مثل صديقٍ قديم. شيءٌ لا يوصف يا محيي. لا يوصف على الإطلاق. رضا الله هذا.

انسلّت من عيني دمعة وأنا أصغي إليه واستمر هو في كلامه:

- تخيل أن لا ينعم الله عليك برضاه فحسب بل يُشعرك بهذا الرضا أيضاً. أحياناً أكون في شأنٍ عابر من شؤوني اليومية، جالساً أقرأ رسائل للبلاط أو ماضياً لأشتري طعاماً من السوق، أو سادراً في حديث مع شخصٍ في مجلس، وفجأةً أشعر وكأني عبرت شلالاً من نور، مشيت تحته لثوانٍ ثم خرجت منه. وأشعر وكأني أرى أمامي دهاليز النفس لامعة نظيفة وكأني خُلقتُ للتوّ. وأشعر كأن كل حلم من أحلامي وأمنية من أمنياتي قد خرجت من نفسي وصعدت إلى السماء، فشُذبت ورُتبت وعُدلت وصيغت في حالٍ أطهر ثم أُعيدت إلى صدري مرةً أخرى. لأن الأحلام يا أخي إذا تأخرت في صدرك تفسد، وإذا باتت في نفسك سنة بعد سنة تشوبها الشوائب وتتراكم فوقها أتربة من الأنانية والحسد والملل واليأس. رضا الله يخلقك مرةً أخرى بقلبٍ جديد وأحلامٍ نظيفة.

٥٧

"كل محبة لا يُؤْثِرُ صاحبها إرادة محبوبه على إرادته لا يُعوَّل عليها"

ابن عربي

شعرت أن زاهراً وفخر النساء كانا يرغبانني لنظام ويرغبانها لي. فقررت أن أحسم الأمر وأتقدم لخطبتها. لبست أجمل ثيابي وخرجت إلى إسحاق وهو يساعد بدراً في إصلاح ضبة الباب التي لم نحفل بها منذ سكنّا البيت لولا توجّس بدر من غارات الثقفيين. ابتسم إسحاق وهو يراني في لباسٍ حسن وسأل:

– إلى أين تذهب بهذه الهيئة الحسنة؟

– أزور الشيخ زاهر.

تأمل في وجهي بفم نصف مفتوح وكأنه يستدعي في ذهنه أفكاراً سريعة ثم ضحك وقال:

– يبدو أن وقت خروجي من هذا البيت قد اقترب!

ضحكت من قوله وحاول بدر أن يفهم مغزى كلامه فلم يفلح، فعاد إلى عمله. خرجت إلى المسجد الحرام وطفت طوافاً استخرت

الله فيه أن يجمعني بنظام إن كان في اجتماعنا خير. أما إن كان فيه شرّ فليجمعنا أيضاً بعد أن يصرف هذا الشر. رشفت رشفةً من ماء زمزم وأبقيتها في فمي طيلة الطريق إلى بيت زاهر ولم أبلعها حتى طرقت بابه. كان ينتظرني إذ أبلغته بالأمس أني سأزوره في الوقت الذي أعلم أن نظام ستكون في بيت عمتها. استقبلني بترحابه المعتاد وبشاشته الودودة، وأجلسني إلى جواره وأبقى كفي في كفه وقتاً طويلاً.

فاتحته في الأمر أخيراً. وأخبرته دون أن يسألني أن مريم ستظل في بجاية ولا نية لي بجلبها إلى مكة. ورحت أعدد له الأسباب التي دعتني لطلب الزواج من نظام. أثنيت كثيراً على علمها المكين وخلقها الرفيع. ظل يسمع كلامي وعلى وجهه ابتسامة هادئة لم تزد ولم تنقص طيلة الوقت. حتى إذا فرغت اتسعت ابتسامته وقال لي معاتباً:

– ما كان أخرّك كل هذا الوقت يا محيي! لولا أني أعلم من أنت لقلت إنك ساذج لا تفهم إشارةً ولا تلميحاً.

أطرقت في خجلٍ ممزوجٍ بفرح وقلت دون أن أنظر إليه:

– ما أخرّني إلا هيبة مقامك يا شيخي.

ربت بيده على كتفي وقال:

– لا نجد لنظام خيراً منك يا ولدي، ولكني لا ألزمها إلا ما ترى لنفسها. فاصبر حتى أبلغها ونسمع رأيها.

خرجت من بيته محلقاً فوق رؤوس البشر فرحاً. عدت إلى المسجد الحرام وطفت سبعاً شكراً لله، ثم اتجهت إلى السوق واشتريت حلوى وفاكهة كثيرة، وعدت أخيراً إلى البيت وأنا أتوجس

من شدة فرحي واكتمال بهجتي. تخيلت موضع فراشنا من الحجرة. ثم تخيلت لنا بيتاً آخر. ثم تخيلت طفلاً يسعى بيننا في عثار المشي الأول. ثم تخيلت أن أنام وأصحو ونظام بين ذراعي. وأحلّ وأرتحل وهي زوجتي. وأنا أكتب وأؤلف وهي تقرأ وتراجع. ونناقش هذه المسألة وتلك. ونختلف في هذا الرأي أو ذاك. ويختلط الحب بالعلم، والعرفان بالأشواق، ما أطيب هذه الحياة!

مضى أسبوعان وأنا أمشي على غيمة الأمل هذه ولم يبلغني ردٌّ. ألتقي بأبيها عند المقام الإبراهيمي فلا يكاد يكلمني في غير الدروس والمسائل. وألتقي بنظام عند عمتها فلا تنبس شفتاها بكلامٍ إلا ما تقرأ من الكتب التي بين أيدينا. اختفت الإشارات والغمزات والتلميحات ففسرت ذلك على حالين من التفاؤل أنها صارت تتصرف كزوجةٍ تحفظ لزوجها هيبته ومقامه والتشاؤم بأنها منصرفة عن حبي معرضةً عن الزواج مني. تغلق الباب فور انتهاء الدرس فلا وداع ولا سلام. فأنصرف إلى بيتي وأنا في حيرةٍ من أمري. أيعقل أن تكون نظام مترددة في قرارها؟ ماذا يمكن أن يصرفها عن الزواج بي؟ هل غفلت عن أمر ما قبل أن أخطبها بهذا القدر من الثقة؟

انتهى الدرس ذات ظهيرة فوقفت غير بعيدٍ من الباب أنتظر خروجها. تبعتها في طريقها إلى بيتها وهي تشعر بي ولا تلتفت جهتي. دخلت في الزقاق الأخير الذي ينتهي ببيتها وقد خلا من الناس فحاذيتها وقلت:

- طال انتظاري يا نظام.

لم تلتفت ناحيتي. أجابت بهدوء وسكينة وكأنها قد استعدت لسؤالي مسبقاً:

- وماذا لو طال؟

- يغلي قلبي بالأشواق وتضطرب روحي فلا أسكن ولا أنام.

- صبابةٌ تطهّر الروح خيرٌ من نكاح يقضي الوطر.

- لا حبك وطرٌ فيُقضى، ولا حبي نارٌ فتُطفأ.

- إن كان حبك لي قد بلغ تمامه فما حاجتك لنكاحي إن لم يكن ثمة متّسع لزيادة؟

ثم التفتت جهتي وقالت وهي تحدق في عيني بحدة:

- ... وإن كان لم يبلغ تمامه فلا حاجة لي بنكاحٍ ذي حبٍّ منقوص.

أخافتني نظرتها الحادة فتهدج صوتي حتى صار أقرب للبكاء وأنا أقول:

- يا نظام. حبي لكِ أقدم مني ومنكِ. قدرٌ كتبُ قبلنا وسيبقى بعدنا. لم يبدأ صغيراً فكبر، ولا هو ينقص بعد تمام. خلق تاماً وحلّ في قلبي مثل الفطرة.

وقفت أمام بابها والتفتت جهتي فخفق قلبي للقاء أعيننا. وتحركت شفتاها الناعمتان وقد همّت أن تقول شيئاً ولكنها لم تقله. أطبقتهما مرةً أخرى ثم دفعت باب البيت بيسراها فانفتح وجذبت قميصي بيمناها فدخلت معها. وفي وهلة توقّف فيها الزمن التقت شفاهنا بسكون مثلما يلتقي ليلٌ بسَحَر وفجرٌ بصباح. وعانقتني مثلما تعانق الغيوم بعضها. وأطلقت يدها في لحيتي حتى بلغت أذني فجعلتها

بين أصبعيها. فأطلقت يدي في عنقها حتى صارت بين ظهرها وضفائرها. وشعرتُ أني أشرب من لماها شعراً وبياناً ولغاتٍ لم أنطق بها من قبل، وتركت على لسانها كتاباً من العشق لم أكتبه بعد. وتفجرت من النقطة التي تماست فيها شفتانا عينٌ سماوية وراحت تنسكب علينا وتبللنا فنلتصق ببعضنا أكثر حتى كدنا نفقد توازننا أكثر من مرة. ثم أفلتت نفسها من أحضاني برفق ودفعتني خارج البيت ثم أوصدت الباب.

عدت إلى البيت مذهولاً لا أعرف ماذا أشعر. هل أحزن أم أفرح؟ أتلذذ بقبلاتها أم أتحسر على فواتها؟ ماذا يعني قولها نكاح يقضي الوطر وصبابة تطهر القلب؟ هل كانت ترغب في أن يطول حبنا حتى تستيقن منه؟ أم كرهت أن تكون زوجةً ثانية؟ أم جفلت مني يوم سعيت لأحول الهزل إلى جد والحب إلى زواج؟

خلعت ملابسي وجلست في طرف الحجرة أتأمل في فراغها مثل مجذوب. اضطجعت ورحت أتقلب في الفراش مثل مريض. ثم قمت ورحت أتجول في البيت مثل ملدوغ. جاء إسحاق. نظر إلى وجهي نظرةً تشبه نظرة إبراهيم في النجوم. فعرف أني سقيم. فضمني إلى صدره بحنان وربت على ظهري ثم قال:

- ما بك يا أخي؟

فاضت عيناي بالدموع وأخبرته بشأني مع نظام دون أن أخفي عليه منها سر. أخبرته بالهمسات واللمسات. كم غمزتني وغمزتها. غازلتني وغازلتها. وما دار بيني وبين زاهر. وما حدث قبل سويعات أمام باب بيتها. وما أشعر به الآن من حيرة وحرقة. استمع إليّ بإنصاتٍ

مرهف حتى انتهيت ودفنت وجهي بين يدي وأنا لا أسيطر على دموعي، فشدّ بيده القوية على كتفي وقال بحنوٍّ حازم:

- يبدلك الله خيراً منها يا محيي.

- ماذا تقول يا إسحاق. لم يأتني ردّها الحاسم بعد.

صمت إسحاق ولم يجب. انتفضت فجأةً وقد طرأ عليّ طارئٌ مجنون. أمسكته من كتفيه وهززته بشدة وأنا أصيح فيه:

- اصدقني يا إسحاق، هل رأيت نظاماً وأردتها لنفسك؟

- لا يا أخي.

- بلى، وأقسمت على الله لترفض خطبتي فبرّك.

- لا والله يا أخي لا أستغل كرامتي في إيذاء وليٍّ من أولياء الله.

- أتقسم على هذا؟

- أقسم لك.

تهاويت على الأرض وسقطت على ركبتي ورحت أبكي بكاء أطفال. انكفأ عليّ يخفف من حزني ومصابي، وأخذني إلى فراشي وهو يقول:

- نم قليلاً يا محيي. أنت بحاجة إلا الراحة.

- أنام؟ أي نوم هذا الذي سيغشاني يا إسحاق وأنا في هذه الحال.

نظر في عيني مباشرةً وقال بصوت هادئ:

- بل ستنام. أقسمت على الله أنْ تنامَ.

٥٨

"مقدار كل امرئٍ حديث قلبه"

ابن عربي

دبّت الأربعون في عروقي مثل قافلةٍ طويلة أولها في مرسيّة وآخرها في أفقٍ غامضٍ لا أعرف منتهاه. شعرت بها اليوم وكأنها طبالٌ كان يتناهى إلى سمعي قرعه المقترب حتى وصل أخيراً وصار حذو جبيني. أفقت من النوم فلم أتحرك ولم أفتح جفنيّ. كنت مسكوناً بهذه الصورة التي تخيلت فيها عمري في الدقائق الأخيرة وأنا أفيق. قافلة! كل راحلة تتبع أخرى وخطام الزمن يربط بينها. راحلة هزيلة وأخرى قوية. راحلة تباع وراحلة تشترى. راحلة مركوبة وراحلة متروكة. راحلة سوف تكمل الطريق إلى منتهاه وأخرى تسقط ميتة وتُنسى. قافلة منهوبة لم يبقَ فيها سوى الضعيف من الدوابّ والرخيص من البضاعة. توشك أن تنحلّ فتصبح كل سنة من عمري حكاية قصيرة لا بداية لها ولا نهاية. ولا عبرة فيها ولا عظة. ولا حكمة فيها ولا رجاء. أين ضيّعت عمرك يا بن عربي؟ إذا بلغت الأربعين وأنت لا تعرف

موضع قدميك من الأرض ولا موضع طريقك في السماء صارت حسرتك مضاعفة: حسرة على العمر الذي مضى بلا فائدة والعمر السائر بلا هدى.

جلست على فراشي وراح عقلي يدور مثل طائفٍ تائب، وقلبي يدقّ مثل ساعٍ بين العلمين. قرأت أورادي وفركت عيني ورحت أتأمل أرض الحجرة. القافلة ما زالت تمشي. الرحال تزيد ولكن الطريق يقصر. غداً عندما تصير الرحال أكثر مما يحتاج إليه الطريق أموت. تصبح قافلتي محض حكاية. تمسح الريح آثارها وتمحو مسارها. يحكى أن قافلةً ما مرّت من هنا. يحكى أنها دخلت مدينةً فأجلب الناس وانشغلوا بها. ويحكى أنها غادرت فعاد الناس إلى بيوتهم. يحكى أنها ضاعت في الطريق فتحسّر الذين تاجروا فيها قليلاً ثم بحثوا عن قافلةٍ أخرى. ويحكى أنها وصلت إلى حيث تريد فغنمت غنائمها ثم اندثر العمر والطريق والغنيمة.

تعرّفت رفيقاً ذميماً اسمه القلق. لم أسأله مرافقتي ولم يستأذني في ذلك. قفز فوق كتفيّ مثل قردٍ مجنون ولم يفارقني بعدها قط. كلما طردته من كتف قفز إلى الآخر. وكلما طردته منهما معاً تعلّق بجذع شجرة بعض الوقت ثم لا يلبث أن ينقضّ على رقبتي مرةً أخرى. لم يتركني أهجع ليلةً حتى يجعل صباحها قاتماً مثل قرارة بئر. ولم أتنفس طمأنينة الصباح حتى يجعل الغروب يأتي مثل وحشٍ سيتغذى عليّ طيلة الليل. ضاقت في عيني الدنيا حتى لم أعد أرى شيئاً في حجمه الحقيقي. كل شر يبدو هائلاً ومخيفاً وكل خير يبدو طارئاً وضئيلاً. أرتجف في هدأة الليل أحياناً من فرط القلق مثل محمومٍ بدون حمّى.

ويأتي الصباح وقد أنهكني التعب وكأن عينيّ لم تغمضا طيلة الليل.

صغرت في عينيّ كل شؤون الحياة حتى صار ينقضي يومٌ بأكمله لا أقوم فيه بشيءٍ إلا صلواتي. أسابيع تليها أسابيع والقلق هو محرك كل ساكن ومسكن كل متحرك في حياتي التي أضحت قاتمةً وشائكة. أهمّ بالشيء فأقلق منه فأتركه، وأكون بلا شغل فأقلق فأهمّ بأشياء. توقفت عن كتابة **الفتح المكيّ** لما صرت لا أجد ما أكتبه فيه إلا العتيق المكرور من المسائل. أتململ في درسي من التلاميذ حتى أتمنى انتهاءه في أسرع وقت. يخطئون فلا أصحّح لهم. ويسألون فلا أطيل في إجابتي. لم أعد أرى الشيخ زاهر إلا لماماً بين الدروس أو صدفاً في المسجد الحرام. أبلغت فخر النساء أني علمت علمها وفقهت فقهها ولن أحضر. دعت لي دعاءً طويلاً وأجازت لي أن أروي عنها.

بلا كتابة أستحثُّها ولا دروس تستحثّني صارت الأيام خاوية مثل القِرَب الجافة. أخرج من البيت وأعود. أصلي في المسجد وأنام. أمشي في الأسواق وأشتري. أدرّس في الحلقة وأسرح. أفعل أشياء لا صلة لها ببعضها. أكتب في الليل كلاماً لا أفهمه صباح اليوم التالي. أمشي في أزقة لا أدري ما هدفي منها. شيء في المكان الذي أنا فيه أصبح غير متفق مع الحال التي أنا فيها. ولكن إلى أين أرحل؟ لا أعرف لي جهةً ولا وتداً. وإنّ أحرى مكانٍ يمكن أن يكون وتدي فيه هو مكة لأن الخيّاط استحثني للذهاب إليها وإن لم يفصح. ثمة لغز! وتدي في مكة وليس في مكة أيضاً.

تحرّك إسحاق في نومه وسعل. ثم استيقظ. رآني جالساً فابتسم وقال بلكنته التركمانية:

- أسعد الله صباحك يا سيدنا.

- وصباحك يا إسحاق. هل أزعجتك؟

أجاب وهو يقف ويطوي فراشه:

- لا يا مولانا. ولكن يبدو أنك أنت المنزعج.

- ربما يا إسحاق. لا أخفيك ذلك.

اتجه إسحاق جهة الماء وغرف غرفةً جلبها لي وانتظر حتى غسلت وجهي ثم ملأ الإناء مرةً أخرى وغسل وجهه. سمع بدر جلبتنا فأطلّ علينا وألقى التحية وراح يعدّ طعاماً. جلس إسحاق فوق فراشه المطويّ ونظر في عينيّ مباشرةً وقال:

- ما الذي يزعجك يا محيي؟

دهمني سؤاله. فسكتّ. رحت أفكر في أمر يزعجني يمكن أن أشكوه إليه فاكتشفت أني لم أُعدّ قائمة بهذا المزعجات بعد. يبدو أني أعاني قلقاً لا سبب له. أو أني حتى الآن لم أواجه ما يزعجني مواجهةً كاملة. لم يقاطع تفكيري رغم أني استغرقت فيه دقائق قبل أن أرفع رأسي إليه وأقول:

- الطريق.

- ما بها؟

- تداخلت جهاتها وما عدت أعرف أين أتجه.

- وبماذا يحدّثك قلبك؟

- لا يحدثني.

- بلى، إنه يحدثك. أولم تستيقظ منزعجاً؟ لا شك أن قلبك يحدثك إذن. ولكنك لا تفسّر حديثه.

- ومن يفسر حديثه؟

- أنت. لا أحد غيرك.

- فلماذا لا أعرف تفسيره الآن؟

- لأن على قلبك غشاوة. أرأيت إن كممت فمي وأردت أن أحدثك، هل تفهم حديثي؟ كذلك قلبك. يريد أن يحدثك ولكن عليه غشاوة تمنعه.

- وكيف أزيل غشاوتي هذه؟

- لقد أزلتها مرتين من قبل يا محيي! هل نسيت؟

نظرت إليه مستغرباً وقلت:

- متى؟

ابتسم بلطف وقام من مكانه وجلس إلى جواري ووضع يده على كتفي وقال:

- إني أرى أمامي ولياً ثبته الله بوتدين. ولا يبعث الله إليك وتداً حتى تطهّر قلبك.

غشاني خليطٌ من ذهولٍ وخشوع. أسندت رأسي على كتفه وأنا أقول:

- صدقت. يا الله ما أغفلني!

ضحك إسحاق وقال:

- في الغفلة بعض الخير. لو لم نغفل أحياناً لفقدنا نشوة الانتباه.

جلب بدر الطعام وأكلنا جميعاً من خبزٍ ساخن ورطب ثم شربنا بالتناوب من وطبٍ مليء بالحليب. ثم توضأنا جميعاً وخرجنا لصلاة الفجر. طرأ لي طارئ وأنا في منتصف الصلاة فلما فرغنا منها نظرت

إلى إسحاق وقلت له:

- أصدقني يا إسحاق ونحن في هذا المسجد الحرام. هل أنت من أوتادي؟

- لا سيدنا، أين أنا من الأوتاد الكرام!

- ولكن الأوتاد لا يعرفهم إلا أوتادٌ مثلهم.

- صدقت. وأنا لا أعرف وتداً، ولكن أعرف أنك موتود. فقط.

تربّعت وقد اتّسع الصف مع انصراف المصلين وقلت له:

- لقد مات وتدي الثاني قبل أن ألقاه فلقيت وريثه...

بدا الاهتمام واضحاً على ملامح إسحاق وهو يصغي إليّ فأكملت:

- ولكن لم يبلغني أين أجد وتدي الثالث.

- ويقلقك هذا؟

- إن لم يقلقني مثل هذا فما الذي يقلقني يا إسحاق؟

- يا محيي. أنت لا تجد الوتد، هو الذي يجدك.

- كيف؟

- لأن تثبيتك هي مهمته. إن وتدك يجدّ في البحث عنك أكثر مما تجدّ في البحث عنه. ولن يستدلّ عليك حتى يكون قلبك أطهر ما يكون.

يضيء إسحاق طريقي مثلما تضيء القناديل مسالك الغرباء.

٥٩

"كل شوقٍ يسكن باللقاء لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

أقبل موسم الحج فحججنا أنا وبدر حجاً لم أسأل الله فيه إلا طهارة القلب وصفاء الروح. في نهايته أخبرني إسحاق أنه راحل. عانقته عناقاً طويلاً أمام خيام بعثة الحجّ القونية وعدت إلى البيت وفي عيني دمعة هي نفسها التي بكيت بها الكوميّ وأنا أودعه، والحصّار وأنا أدفنه، وسأبكي بها كل كبريتٍ أحمر يحيل القلوب الصدئة ذهباً لامعاً. آنسني إسحاق قرابة سنة ونصف كان يقرأني فيها مثل كتابٍ مفتوح. إذا حزنتُ عزاني وإذا مللت سلاّني. لم يفته وهو راحلٌ أن يعرض عليّ الذهاب معه إلى قونية. وعدني بمقامٍ حسن وضيافةٍ كريمة فابتسمت له وقلت:

– من يدري يا إسحاق أين يُلقي بي وتدي القادم.

– سأدعو الله أن يكون بين ظهرانينا لنأنس بقربك يا محيي.

شدت القافلة القونوية رحالها وغادرت مكة. ويوماً بعد يوم

غادرها بقية الحجيج فخوت خواءً مخيفاً. جلست أتغدى مع بدر ونحن صامتان فانتبهت فجأةً كيف صرت مثل غصنٍ تساقطت أوراقه ولم تنبت مرةً أخرى. قبل أشهرٍ قليلة كان مقامي في مكة يبدو عامراً ومؤنساً. عندي شيخٌ ورفيقٌ وحبيبةٌ. كانت نظام تملأ قلبي حباً، وإسحاق يملأ روحي أملاً، وزاهر يملأ عقلي علماً. ها هم الآن قد انفضّوا عني انفضاضاً. غابت نظام في قطيعتها المؤلمة فلم أعد أعرف عن شأنها أي شيء. وغادرني إسحاق إلى بلاد بعيدة جداً لا تتحدث بلساني ولا أعرف لسانها. وأصبح زاهر غريباً في تعامله معي لا يزورني ولا يعوّذني ولا يدعوني لحضور درسه.

طفقت أمشي في شعاب مكة. كل ما في أزقتها وأنحائها وأرجائها من سهلٍ وجبلٍ ووادٍ وصحراء ونباتٍ وحيوانٍ وسماء وبردٍ وحرٍّ يذكّرني بنظام، فأكتب لها ما ينطق به القلب عن الهوى، وأطويه في دفتري حتى إذا أصبحت وجدت الله قد نفخ فيها روحاً وصارت خلقاً جديداً يشاركني الحلّ والترحال، والعيّ والإدراك، وحب نظام. ومع مرور الأيام كوّنت أنا وقصائدي جيشاً من الأشواق لا يجاهد إلا في حبها ولا ينتمي إلا إليها. وإزاء هذا الجيش الذي في قلبي كان قتادة يحشد جيشاً آخر. اكتمل جيشي فأذنت لبدر أن ينسخه ويودعه سوق الوراقين. واكتمل جيش قتادة فسار به نحو المدينة ليحاصرها. جيشي مليء بالأشواق والقصائد واللهفات واللوعات وجيشه مليء بالأعراب الذين اشترى قتادة ولاءهم ومرتزقة من الحجيج الذين تخلفوا بعد الحج وبعض الجند الأيوبيين الذين خرجوا من جيش العادل لما وعدهم قتادة برواتب أعلى ومناصب أرفع. قرعت طبول

الجيشين فانتشر **ترجمان الأشواق** في سوق الوراقين انتشار نارٍ في هشيم، وتحرك جيش قتادة خارجاً من مكة فخيّم عليها هدوءٌ مشوبٌ برائحة الحرب.

استيقظت ذات فجر وجلست في حجرتي ساهماً لا أستطيع أن أستحضر ذهني لأستولد فكرةً ولا أتأمل شأناً. بدا لي كل أمر يمكن أن أفعله هذا اليوم سيكون ثقيلاً على النفس ولا طعم له إلا صلواتي وذكري طبعاً. تمنيت لو أني أنام طويلاً. أنام مثل أهل الكهف وأستيقظ لأجد نفسي في عالم آخر وزمنٍ جديد. هل أنا أشعر بالغربة يا ترى؟ كيف وأنا لا أشتاق إلى الأندلس ولا أفكر في العودة إليها. هل هي الأربعون أثقلت أنفاسي وأذهبت همتي؟ كيف وهي عمر النبي حينما أوتي الرسالة وبلغ أشده. هل هو قلبي غير قابل للطهارة؟ كيف وقد لقيت وتدين حتى الآن بما يشهد على قدرتي على تطهير قلبي مرة ومرتين وثلاثاً. ترى ما الذي حلّ بك يا بن عربي؟ لماذا أنت مهمومٌ بدون هم؟ حزين بلا حزن؟ تفكر وليس في جبينك مشكلة؟ وتتألم وكل ما فيك سليمٌ معافى؟

ماذا لو سافرت قليلاً لأروّح عن نفسي؟ ولكن أليس ذلك من الترف أن أضرب في الأرض بلا هدف؟ ماذا لو أن سفري لوّث قلبي وباعد بيني وبين وتدي؟ ولكن ماذا لو بقيت في مكة على هذه الحال أطول من ذلك؟ ماذا لو استبدّ بي حبّ نظام وقتلني؟ ماذا لو تضاءل كشفي وذهبت كرامتي؟ استبدت بي الفكرة ونقيضها وأنا بعد في فراشي متدثر بلحافي. قلت لنفسي: إن ناديت بدراً الآن واستجاب لي رحلنا وإن لم يستجب فتلك علامة من الله أن أبقى. تنحنحت

لأستعد لندائه فإذا به يطرق الباب قبل أن أناديه. ضحكت فتعجّب من ضحكي:

- ما يضحكك يا سيدنا؟

لم أجب سؤاله ولم أكن أعرف كيف أجيبه. جلست ورحت أتأمل ملامحه التي ما زالت معلّقة على حالة الاستفهام التي أعقبت سؤاله. قلت له أخيراً:

- أضحكني أنك صرت جزءاً من قلبي. أنت نيّتي يا بدر.

- نيّتك؟

- أجل: وقد نويت لي أن نرحل. فما رأيك؟

- إلى أين؟

- اختر أنت وجهتنا.

فكّر بدر قليلاً ثم قال:

- دمشق.

٦٠

"كل حب يكون معه طلب لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

قررنا الخروج في قافلة شامية بعد أسبوع. زرت زاهر في بيته بعد صلاة جمعة لأودعه فألفيته مطرقاً جلّ الوقت لا يكاد يتحدث. غابت ابتسامته الواسعة وملامحه البشوشة واستبدل بهما جبيناً متغضناً وجفنين متهدلين وغمامة من حزن تغشى وجهه الجميل. أحزنني ذلك فانتظرت حتى غادر بقية من زاره واقتربت منه وجلست قريباً من قدميه وقلت:

- ممَّ تشكو يا شيخي؟

تنهّد وصمت حتى ظننت أنه لن يجيب. ثم أجاب دون أن ينظر جهتي:

- دنا الأجل يا بنيّ.

ثم أردف بصوتٍ خافت وكأنه لا يريد لمن في البيت أن يسمع:

- وأخاف على نظام من بعدي وليس لها إلاي.

هززت رأسي أسفاً ولم أحر جواباً. لوهلة وددت لو قلت له أني كنت سأكون لها أهلاً وسكناً وزوجاً ولكنها رفضت. فإذا به يبادرني بالكلام وقد تهدج صوته وكأنه سيبكي:

- كنت سأموت مطمئناً لو أودعتها بيتك وجعلتها زوجتك. ولكنها أبت. ولقد قطعت على نفسي عهداً منذ ماتت أمها وخلفتها طفلةً يتيمة ألا أجبرها على ما تكره. حسب الطفلة أن تكبر يتيمةً حتى أزيد على يتمها أباً غليظاً جافاً.

- ستتزوج نظام بمن هو أهلٌ لها وخيرٌ مني بإذن الله!

ضرب بكفيه على فخذيه وعلا صوته وكأن عبارتي مسّت في داخله عصباً وهو يقول:

- ومتى؟ أتظن أنك أول من تقدم لخطبتها؟ أنت عاشرهم يا ولدي! لا أدري ما الذي تفكر به هذه البنت.

فجأةً جاءنا صوت نظام من داخل البيت وهي تخاطب أباها:

- يا أبي، لقد حمّلت الرجل ما لا يحتمل، وأثقلت عليه بما ليس من شأنه...

فصاح بها أبوها:

- بل هو شأنه. أولم يتقدم لخطبتك؟

شعرت بالحرج وأنا في هذا الموقف. فوقفت استعداداً للخروج. راحت نظام تخاطب أباها بالفارسية التي لا أفهمها وأبوها مطرقٌ لا يتكلم. قبّلت رأسه ورفعت صوتي بالسلام حتى تعرف نظام أني على وشك الخروج. ثم سألت الشيخ إن كان يوصيني قبل سفري لتعلم نظام أني مسافر. تركت بيتهم وأنا أشعر بسلوانٍ طارئ في داخلي.

نظام عازفة عن الزواج بالكلية ولم ترفضني أنا فحسب. لا ريب أنها منصرفة لطلب العلم فقط. ولكن لماذا أعلنت حبها لي إذن وملأتني أملاً ورجاءً؟ يا إلهي كم هو صعبٌ أحياناً فهم النساء، لا سيما من كانت قطعة نادرة منهن، مثل نظام!

شددنا الرحال إلى دمشق في القافلة الشامية. بلغتنا الأخبار ونحن في ينبع عن هزيمة قتادة واندحاره عن المدينة بعد أن كسره أميرها عند حدودها وكرّ عليه حتى حاصر مكة نفسها ثم تقهقر. لم أكن أميل لأيٍّ منهما غير أني حزنت على اقتتال المدينتين المقدستين وكأن لا حرمة لهما ولا قداسة حتى تُسفك الدماء عند أسوارها وتحاصر فيجوع أهلها ويصدّ عنها حجيجها وزوارها. حمدت الله أني رحلت فلم أشهد ذلك بنفسي. ظلت صورة مكة التي عشت فيها سنواتي الأربع السابقة صافية لا تشوبها شائبة. سلم وسلام. مدينة الله التي ملأت عقلي نوراً وقلبي حباً وروحي سكينةً وعرفاناً. ثم أرسلتني في الأرض من بعد ذلك لأبثّ فيها معارفي وهمومي، فنوني وشجوني. كان لا بد من مكة. ولا بد لمكة منيّ. وكل شيء يمرّ به الإنسان في حياته لا بد منه. كل شأن هو ضرورة. كل حدث هو حاجة ملحة. كل أمرٍ نمر به من فرح أو حزن، من سلم أو حرب، من حب أو كره، هو نفسٌ من أنفاسنا لو لم نمرّ به لاختنقنا وعدنا إلى العدم.

٦١

"يزول الألم بزوال السبب.. أو ببقائه!"

ابن عربي

حملت الرياح إلينا نسمات غوطة دمشق محمّلةً بروائح الدرّاق والخوخ والجوز ونحن مقبلون عليها مع القافلة الجنوبية. استعاد عرفاء القافلة راحلتينا قبل الدخول إلى المدينة فدخلناها مشياً على الأقدام ومعنا متاعنا القليل، حقيبة الكتب وزكيبتا ملابس. تردد إلينا الحمالون وخدم الخانات يعرضون خدماتهم. اخترنا أحدهم فحمل متاعنا كله في صرة كبيرة على ظهره ومشى راكعاً. أما أنا فكنت أمشي كمريضٍ تدبُّ في بدنه العافية شيئاً فشيئاً. اختلطت روائح المدينة وأصواتها وصورها وأناسها بعضها ببعض فصارت أشبه بيدٍ حانية تمسح عن جبيني التعب وتمس قلبي فيهدأ. كل شيء مررنا به مذ تجاوزنا الباب سوقاً كان أو داراً أو بستاناً أو خاناً كان يشبه العهد الذي تقطعه دمشق على نفسها أن تكون خير مقامٍ للمتعبين والغرباء الذين خدش الحب قلوبهم مرةً أو مرتين.

أوصلنا الحمّال إلى خانٍ بهيّ المدخل، حجراته مفروشة بطنافس من صوف استنكفت أن أطأ عليها بقدميّ بادئ الأمر. وضعنا متاعنا وخرجنا نسأل عن حمامٍ فأشار كل من سألناه إلى جهةٍ مختلفة. انتهينا أخيراً إلى واحدٍ من حماماتها المئة وبالغت في اغتسالي كمن يخشى أن لا يكون أهلاً لدمشق. سألت الغسّال أن يقصّ لي شعري ويهذّب لحيتي ويدرّم أظفاري وانتظرت في حجرات الضيوف الملحقة بالحمام حتى غسلوا لي ثيابي وبسطوا عمامتي. خرجنا نمشي وقد نفضت المدينة عنا تعب السفر وكنست أوجاع ظهورنا وأرجلنا. طفنا بضواحيها الأقرب إلى السور حيث البيوت أوسع ولكلٍّ منها حديقة أو بستان. وفي وسط أغلبها فساقٍ يصبّ الماء فيها من شلالات صغيرة يغذيها النهر. وفي الحيطان رواشين متقنة النحت. والمآذن منقوشةٌ بعناية. وأبواب الجوامع الخشبية مزخرفة من الخارج والداخل وعتباتها من الرخام ومقابضها من المعدن المصقول.

انتهينا بعد تجوالٍ قصير في الجامع الكبير. صلينا العصر ثم أخذنا نطوف على حلقاته. نقف قريباً منها لنسمع أصوات التلاميذ فنعرف أي كتابٍ يقرأون وأي مذهبٍ يدرسون. انفضّت بعض الحلقات فتفرق التلاميذ. تحدث بدر مع بعضهم وأخبروه عن جوامع أخرى وزوايا تقام فيها الحلقات الصوفية. تجمع من حولنا بعد قليل تلاميذ الزاوية المغربية وراح بعضهم يمسح على أكمام ثوبي ويسألون إذا ما كنت أعتزم افتتاح درسٍ في دمشق. داهمنا التعب مع غروب الشمس فجأةً فعدنا إلى الخان لنجد أصحابه قد بسطوا مفارشنا وغطوها

بلحفٍ من القطن وصفوا فوقها وسائد مكسوة بالدمقس. مسح بدر بكفه على الوسادة متعجباً وقال:

- لم أنم على وسادة بهذه النعومة من قبل!

- ستفسدك دمشق عليّ يا بدر.

أصبحنا بعد أيام وعند باب الخان رسولٌ من قاضي القضاة. خرجت إليه فقال:

- أأنت الشيخ محيي الدين بن عربي؟

- أجل.

- يستأذنك قاضي القضاة زكي بن الزكي أن يزوركم بعد العصر.

- أهلاً به.

عدت إلى بدر أتعجب معه كيف عرف ابن الزكيّ بوجودنا. قال بدر:

- لا شك أنه حديثي مع التلاميذ في الجامع الكبير.

- هل يعرفونني؟

- يعرفونك؟ بل إن **ترجمان الأشواق** منسوخٌ في سوق الورّاقين يا سيدنا.

جاء في موعده. عمره مثل عمري وكلامه فصيحٌ جميل. نزل من حصانه فور رؤيتي وقبّل رأسي وأخذنا جميعاً إلى بيته. نادى أبناءه الصغار واصطفّهم للسلام عليّ ومنهم طفلة في عمر ابنتي زينب لو أنها عاشت. شعرت بوخزٍ في قلبي وأنا أفكّر كيف بلغت الأربعين ولا نسل لي. حملتها بين يدي وأجلستها في حجري ورحت أمرّ بيدي على شعرها الأصهب الناعم وهي متكفكفة صامتة من الخجل

والخوف. تنظر إلى أبيها بحيرة ولا تتحرك. وسرعان ما وقفت وغابت داخل الدار التي ذكرتني بإشبيلية. الفناء الواسع ذو الفسقية والكراسي الخشبية اللامعة والأشجار الصغيرة التي تساكنهم حتى صارت من أهل الدار.

سأل القاضي وهو يُقرّب منا صحاف الطعام:

- أي مدرسة تريد أن تنيرها بعلمك وعرفانك يا سيدنا؟

- لم أقرر بشأن ذلك بعد حتى أطوف ببعضها.

- أظن المدرسة التقوية أوسع وأقرب. سنجعل لك من أوقافها سكنى وعطاءً.

- سأزورها من غد. وإذا اخترتها فسنقيم في الخانقاه. ولا تجعل لنا سكناً فإنا لا ندري متى نرحل. ولا نريد عطاءً إلا ما يسدّ رمقنا.

وبالفعل كانت التقوية أنسب مكاناً. صحنها واسعٌ يتّسع لكل التلاميذ وفيها حجرات واسعة تصلح للتدريس في الأيام الباردة. بدأ الدرس بعددٍ كبير من التلاميذ واستعدت رغبتي في التدريس وعدت إلى الكتابة. هدأت نفسي شيئاً فشيئاً وصرت في محروسة دمشق كما كنت في فاس أول مرة. مدينتان ينزعان عنك غربتك عند أبوابهما فلا يدخلهما أحدٌ إلا صارتا له وطناً. مضت أيامي على قدر من السكينة والرضا كنت في أشد الحاجة إليهما. وأشرقت الشمس يوماً بعد آخر وأنا على أمل وسعادة. وجدت في الخانقاه رفقةً طيبة أنست بقربهم. نقضي الليل في ذكرٍ وسهر. والصباح في دروسٍ وعلوم. وانتقلت الكتب من حجرةٍ إلى حجرة. والخرق

من ظهرٍ إلى ظهر. وعمّت الخانقاه بأسره فيوضٌ من الحب الإلهي تنغمس فيه الروح فلا ترجو بعد غمستها تلك شيئاً.

٦٢

" تأمن من كل شيء إذا أمن منك كل شيء"

ابن عربي

على مثل هذه الحال مرّ عامٌ سريعاً. عادت قافلة الحج الشامية من مكة ودخلت دمشق. انفصل منها أحد المسافرين وراح يبحث عني في الخوانق والمدارس. وقف بين يديّ أخيراً وسلمني رسالةً مطوية بين ورقتين خاويتين. فتحتها فإذا هي من زاهر.

"اعلم أني سامحتك قبل لومك، وغفرت لك قبل عتابك. ولكن كان لا بد من تبصيرك بأحوالنا من بعدك، وما خلفته وراءك من هشيم اشتعل ناراً، وأورثنا ضرراً وضراراً. فلا كلام للناس فيّ مكة إلا عن **ترجمان الأشواق**. ردّد الناس كلاماً لو نطقت به لمجحته، ولو سمعته لما صدقته. وقد نالوا مني همزاً، ونالوا من ابنتي لمزاً. فما عاد مقامنا في مكة يطيب، ولا يطيب مقامٌ بعد الغزل والتشبيب، فوجب الرحيل إلى أرضٍ

لا يؤذينا فيها أحد، ولا يعرفنا فيها إلا الواحد الأحد.
ولا أظنك يا بنيّ وأنت الحصيف الذكيّ كنت جاهلاً بأثر ما تكتب، لاسيما وقد ذكرت اسمها ذكراً واضحاً. ثم زدت على ذلك بأن تركت نسخاً منها في سوق الوراقين قبل رحيلك. فالله أسأل أن يسامحك على فعلك، ويجيرنا في مصيبتنا.“

طويت الرسالة وتحسّست موضع صدري بلا شعور. وكنت أظن يدي لا تعود من صدري إلا مخضبةً بدمٍ من هذه الطعنة القدرية التي لم أحتسبها أو محترقة الأطراف من هذه النار التي لا أعرف من أشعلها. نظر بدر إلى اصفرار وجهي وارتجاف شفتيّ فراح يسأل ولا أجيب. يتكلم ولا أسمع. يلوّح بيده أمام عينيّ ولا أرى. أخيراً أخذ على عاتقه صرف التلاميذ وأعلن انتهاء الدرس. وأوقفني فوقفت. ومشيت معه إلى حجرتي وأنا مبهوتٌ جافّ الحلق. مضطرب البطن. مرتعش الأطراف. غائر الأحداق. أجلسني على فراشي، وخلع نعلَيّ وعمامتي، ودثّرني بدثاري، ومدّ يده وقبض على كفيّ. وتوقف الزمان وهلةً وساد الصمت.

– ماذا كان في الرسالة يا سيدنا؟

– اقرأها.

قرأ بدر مرتين. ثم هبّ واقفاً وطوّح بالرسالة فارتطمت بالجدار وسقطت على الأرض وصرخ بصوتٍ عالٍ:

– عليهم لعنة الله والملائكة أجمعين! عليهم غضبه ومقته وسخطه.

استمر بدر في الصراخ وأنا أرتجف تحت الدثار. نزل على ركبتيه

أخيراً واقترب من وجهي وقال بصوتٍ هادر:

- لا تأبه لهم يا سيدنا فإنهم لا يعلمون.

- لقد شبّبت بنظامٍ يا بدر!

- لا والله ما خطتْ يدك إلا كلَّ عفيفٍ ونزيهٍ من الشعر يا سيدنا.

- الناس يلمزونها في الطرقات يا بدر!

- الناس رعاعٌ جهلة. أنّى لهم أن يعوا ما قرأوا ويفهموا ما رددوا.

- سيرحلان من مكة هرباً من العار، وبسببي أنا يا بدر.

- ألم تقل لنا إن الله هو مسبّب الأسباب يا سيدنا؟

نزلت من عينيّ أول دمعة فسارع بدر إلى مسحها بأصابعه الغليطة الجافة وكأنه يمنعني من البكاء. راح يصيح بصوتٍ عالٍ قريباً من أذني:

- لا تلم نفسك يا سيدنا. لست أول من كتب شعراً ولن تكون آخر من كتبه. أرجوك يا سيدنا أرجوك. كل ذي عقلٍ يفهم ما كتبت ويعي ما قصدت. لا يلومك إلا الرعاع والجهلة. وهم لم يكفوا عن لومك يوماً فعلامَ تأبه بشأنهم الآن.

- ابقَ جواري يا بدر. هاتِ يدك.

٦٣

المخطوط في استانبول

١٠٢٦هـ/١٦١٧م

عليّ أن أقطع الطريق من بيتي إلى السراي راكباً بأسرع مما سيقطع السلطان الطريق من ديوانه إلى المكتبة ماشياً. هذا مستحيل. ولكن الاستحالة لا تعدّ عذراً وجيهاً في عرف عقلاء السلاطين، فكيف بمجانينهم. أتجنب الاصطدام بالمارة في شوارع اسطنبول المزدحمة وأنا أركض قابضاً على قاووقي فوق رأسي لئلا تطير به الريح وأفكر أنه من المحتمل أن تكون هذه آخر مرة أسلك فيها هذا الطريق من بيتي إلى السراي. وسيكون مصيري شبيهاً بمصير أصدقائي. شهران مرّا على اعتلائه العرش والرجل يرى في كل زلةٍ تصدر من موظفيه إهانةً شخصيةً له واستخفافاً كبيراً بسلطنته. ولذلك فالعقوبات صارمة ومبالغ فيها ومجنونة مثل صاحبها. تساقط موظفو السراي مثل أوراق خريف هبّت عليها رياح عاتية. زادة أفندي مسؤول المائدة السلطانية تلقّى صفعةً هائلة لأن الحساء كان أقل مما اشتهى. يونس أفندي مسؤول تواقيع السلطان فقد عمله لأن التوقيع الذي ابتكره للسلطان بدا أقلّ فخامةً من توقيع السلطان

أحمد رحمه الله. وأوغلو أفندي، آه كم أشفقت عليك يا صديقي أوغلو، لم تشفع له اثنتان وثلاثون سنة في خدمة السراي، أن يلقي به الأغوات خارجه. ليس لأنه قصّر في عمله، فأوغلو لا يعرف أصلاً معنى كلمة التقصير، ولكن لأن السلطان تذكر أنه استثناه من حضور مائدة الإفطار السلطانية. كيف يظنّ هذا السلطان أن أوغلو يملك صلاحية إخراجه من حبسه وإجلاسه على مائدة السلطان الذي حبسه؟

إذا لم أبلغ السراي خلال الدقائق القليلة القادمة فسأنضم إلى قائمة أوراق الخريف هذه حتماً. والحقيقة أنه حتى وصولي قبل وصول السلطان لا يعني أني سأكون في مأمن. فأنا لا أعرف ما الذي يجلب مثله إلى المكتبة. أراهن أنه لا يستطيع تلاوة آية واحدة من القرآن بلا أخطاء. أراهن أنه لا يعرف كتابة اسمه حتى جده أرطغرل الكبير. ماذا يريد إذن؟ هل سيتظاهر بقضاء وقت طويل فيها كما كان يفعل سلفه السلطان أحمد؟ أين ذاك الشاعر العالم البارع عن هذا المختلّ الذي لا يستطيع المشي في خطٍّ مستقيم دون أن يترنح وتنفعل يداه بتلك الحركات العصبية المفاجئة التي تفزع الناس؟

أخيراً وصلت. اندفعت من الفرجة الضيقة للبوابة دون أن أنتظر القابجي ليكمل فتحها. ركضت باتجاه المكتبة ودخلت فوجدت المكان هادئاً وخالياً والموظفون يمارسون عملهم كالمعتاد. حمدت الله أن السلطان لم يصل بعد. إذا تمكّن أصدقائي في الدواوين التي يمرّ بها أن يؤخروه فسأظل مديناً لهم أياماً طويلة. جبت أروقة المكتبة لأتأكد أن شيئاً لن يثير حفيظته أو يزعجه فبدا كل شيء في مكانه. الكتب التركية والعربية والفارسية في القسم الغربي. والكتب اليونانية والرومية والأرمنية والعبرانية والسريانية في القسم الشرقي. جناح الأمانات المقدسة في مدخل المكتبة يحيط به الحراس. كل شيء على

ما يرام. حتى الآن على أقل تقدير.

جلست على الكرسي ألتقط أنفاسي. مسحت حبات العرق عن جبيني. أعدت تثبيت قاووقي على رأسي ولففت حوله عمامتي بإحكام. ورحت أفرقع أصابعي بعصبية وكأني أستعد لمعركة. أخيراً بدأت الجلبة تتناهى إلى سمعي. نظرت من النافذة فوجدت الحشد يقترب فعلمت أنه لا يلبث أن يكون هنا. ناديت موظفي المكتبة واحداً تلو الآخر فوجدت كلاً منهم في مكانه، فرحت ألتقط النفس العميق تلو الآخر لتهدأ نفسي. أطلّ من الباب أحد موظفي التشريفات وأشار لي بإيماءة تعني قرب دخول السلطان. فوقفت في مكاني لحظاتٍ كأنها دهر حتى أطل بوجهه الشاحب النحيل يتبعه الآغوات والحرس. هرعت لأقبّل يده ذات الأصابع النحيلة والأظافر الطويلة فبدت لي جافة باردة. راح يمشي في أروقة المكتبة يتبعه الصدر الأعظم والدفتردار والشاويش باشا. وبعد ثلاث دقائق فقط، غادر!

عدت إلى كرسي وجلست وأنا أتنفس الهواء المختلط برائحة زيت الورد الذي فاح من عباءته. لمت نفسي قليلاً على مبالغتي في تصور ردة فعله. لقد بدا هادئاً صامتاً رغم أن عينيه تدوران في محجريه بشكلٍ مستمر ولا تستقران على شيء. لم يتكلم طيلة جولته القصيرة في المكتبة في الوقت الذي كان فيه الصدر الأعظم يحدثه في أمور لا علاقة لها بالمكتبة وهو لا يلتفت إليه ولا أحد يعلم إذا ما كان يستمع حقاً أو أنه غارق في هواجسه الخاصة. فلم يكن يومئ لا اتفاقاً ولا اختلافاً. ولا يهمهم ولا يغمغم. صامتٌ كأنه تمثال يسير على قدمين.

أكملت يومي في الأعمال المعتادة. تصنيف الكتب الجديدة. متابعة ترميم المخطوطات ونسخها. تنظيم أوقات المترجمين. ترتيب دخول الأولياء إلى جناح الأمانات المقدسة. ومرّ الوقت سريعاً حتى حان موعد انصرافي.

مولانا جلال الدين قدس الله سره في قونية.

غرقت في شؤون المكتبة حتى صرت أنام فيها طيلة الأيام الأخيرة. انقطعت عن كل ما يدور خارجها وأصبحت لا أسعى لشيء إلا إفراغها كاملةً قبل انتهاء المدة المحددة لأحافظ على عملي. خلت المكتبة أخيراً من الكتب وأصبحت فضاءً واسعاً وفسيحاً في انتظار الأثاث الجديد. أصبح للصوت فيها صدى حاد لخوائها. قطع ممزقة من الأوراق والخيوط ملقاة على الأرض تحركها الرياح التي تتسرب من النوافذ. تأملت المكان الذي قضيت فيه تسع سنوات كاملة حفظت فيها موضع كل كتابٍ منها وقد صار على هذه الصفة فدمعتْ عيناي. أقفلت الأبواب وغادرت المكان لأول مرة منذ ستة أيام فوجدت أخبار السراي تنتظرني في استراحة الأفنديات:

- ماذا تقول يا بيرم باشا؟!

- عجيب. ألم تسمع؟ أين كنت.

- دعك مني الآن. هل هذا الخبر صحيح؟

- يا عثمان أفندي الخبر مذاع في الشوارع: شيخ الإسلام زكريا زاده يفتي بعزل السلطان مصطفى.

- ومن سلطاننا الآن؟!

السِفْر الثامن

٦٤

"سفر التيه لا غاية له"

ابن عربي

وضع بدر رزمةً الأوراق بين يديّ وراح يحلّ خيوطها. حملت القصبات الخمس التي جلبها لي بالأمس وصففتها بشكلٍ متوازٍ ورحت أقيس ميل كلٍّ منها لأختار منها ما يصلح للمتن وما يصلح للحواشي. غمست كلاًّ منها في الدواة ورحت أختبرها على ورقة قديمة. اصطفيت منها ثلاثاً وأعدت اثنتين إلى بدر سائلاً إياه أن يصلح ميلها. سأل بدر:

- هل ستكمل كتابة **الفتح المكيّ** أخيراً؟

- لا. هذا كتابٌ جديد.

- فتح الله عليك يا سيدنا. عن أي شيء ستكتب؟

- ترجمان الأشواق.

- ماذا!

- نعم يا بدر. سأشرح ترجمان الأشواق. لقد ظن الناس أن

القصائد التي كتبتها محض غزلٍ وتشبيبٍ في نظام. ولم يعلموا أن كل ما فيه إنما كان إيماءً ورمزاً من الواردات الإلهية، والتنزلات الروحانية، والمناسبات العلوية.

- أتظنّ هذا يطفئ النار أو يذكيها؟

- بل يوضح الغاية ويبرئ الذمة.

- كان الله في عونك يا سيدنا. وماذا تسميه؟

- **ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق.**

انتهيت من كتابة الكتاب في تسعة أيام لم أخرج فيها من حجرتي قط. قطعت الدروس وعكفت على الكتابة. ولما انتهيت أوصيت بدراً أن يؤجر جماعة من النسّاخين بالخط المكيّ والمغربيّ والمصريّ والشاميّ فجاء بالأربعة إلى الخانقاه فأفرغت لهم حجرةً واسعة ووضعت بين أيديهم رزماً من الأوراق الجيدة والأحبار الثمينة وأوعزت إلى كلٍّ منهم أن ينسخ من الكتاب خمس نسخ. وفور انتهائهم منها حمل بدر النسخ كلها على خرجين ثقيلين وخرج ببغلته إلى منطلق القوافل، واختار من تلاميذي من يحمل نسخةً إلى كلٍّ من مكة وحلب وبغداد والقاهرة. ومن سافر منهم إلى الإسكندرية حملته نسختين يوصي بمن يحملهما إلى فاس وقرطبة. وجعلت في كل نسخة إجازة إلى كل من تبلغه النسخة أن ينسخها إن شاء بلا مقابل بأي خطٍّ أو لسانٍ يريد.

لا أعلم إذا كان هذا كافياً للتكفير عن ذنبي. ولكني لم أتوقف عن الارتجاف مثل قطٍّ أعمى حتى اتخذت هذا القرار. الآن وقد سافرت النسخ إلى أصقاع الأرض لا أدري هل ستصل منها نسخة

إلى يدي زاهر أو نظام. ولا أعلم إلى أين رحلا. كلما أغمضت عيني لأنام تراءى لي هذا الشيخ الكبير وابنته يخرجان من مكة في حالٍ سيئة ويضربان في الأرض بحثاً عن مأوى آمن لا يؤذيهما فيه الناس. لا أعرف رأي نظام حتى الآن ولكنها سمعت مني بعض قصائد الديوان وكانت تعلم أني أدوّنها في كتاب ولم تعترض. أما زاهر فقد أصابته الطعنة من مأمن. أكرمني فأذللته. وأحسن إليّ فأسأت إليه. وفتح لي بيته وبيت أخته فشببت بابنته وفضحتها بين الناس.

ضاق بي المكان وقررت أن أرحل. لا شيء يصرف عني همومي ويخفف عني شجوني إلا السفر. لم أعلم أن قراري العشوائي بالرحيل فتح عليّ تيهاً استمر ثلاث سنوات. حمنا في بلاد الله أنا وبدر بلا هدف. خرجنا من دمشق إلى حلب وحماة والموصل والرها وماردين وعدنا إلى دمشق مرةً أخرى وخرجنا منها. أحكم على المدينة من أسابيعي الأولى فيها، فإما أن تمدّ إليّ يداً تسكّن قلبي وتهدئ من روعي فأمكث فيها أشهراً أو تقذف في قلبي الرعب وتملأ نفسي بالخوف فأهجرها فور أن نرتاح من تعب السفر. وكلما حللت بأرض هرعت إلى أولياء الله فيها فإن عرفوني وإلا عرّفتهم بنفسي. وإن أخذت منهم وإلا أخذوا مني. وكلما أطال أحدهم النظر في وجهي خفق قلبي التوّاق لعله يكون وتدي. ولا يكون. فيحزنون لحزني دون أن يعرفوا ما بي. أحزان الأولياء مشاعٌ بينهم، تنتقل بين قلوبهم كما ينتقل الماء بين النهر وسواقيه.

هجم عليّ القلق الذي كانت دمشق قد طردته من قلبي وصرفته عني. يعضدني بدر في كل أمر حتى كأنه بعضٌ مني. إذا تألمت شعر

بي دون شكوى، وإذا فرحت فرح معي قبل أن أظهر له سبباً. لا أكتب كتاباً حتى يلقفه مني لقفاً وكأنه قطر السماء على أديم الارض، فيسألني عمّا فيه منبهاً إياي إلى ما قد يستغلق على الفهم، فأزيد من شروحي كما يختار. ثم إذا أنهيته تناوله مني كما يتناول رضيعاً من يد قابلة، ويهرع به إلى الورّاقين فينسخه ثلاثاً. يجلب لي نسخة، وله نسخة، وثالثة يتركها عند الورّاق ليستنسخ منها لمن أراد. قضى الله بيني وبينه قضاءً عجيباً. يتقرّب إلى الله بحبي وأتنعّم أنا بحبه. بدر الحبشي قربة ونعمة. لم يشكُ من كثرة سفرنا ولم يتذمر يوماً رغم تقدمه في السن.

لم أحصِ الأيام التي قضيتها في أي مدينة، ولا أظن ذلك تسنّى لبدر. صرنا نتذكر ذلك بأشهر رمضان. فقد صمنا رمضاناً في حلب، وآخر بين القدس والخليل، ورمضاناً ثالثاً في الموصل. نسكن في خوانق المتصوفة إذا وجدناها كما فعلنا في ميفارقين والموصل، أو أوقاف المساجد التي توقف على الطلبة والشيوخ إذا وجدنا فيها متسعاً كما فعلنا في حمص وحماة. وفي أحيان أخرى كان خبر حلولنا في المدينة لا يلبث أن يصل إلى ولاتها وأمرائها، فمن كان منهم يحب أولياء الله أفرغ لنا داراً نسكنها وأرسل لنا عطاءً نتبلّغ به كما حدث في حلب وماردين.

أكملت مع بدر ثلاث دوائر في مدن الشام والعراق. وكنت لأكمل الدوران حتى يقبض الله روحي أو أجد وتدي ولكن الله أشار إليّ بإشارة وأنا في حلب. خرجت إلى المسجد فإذا عصبة من الناس تسدّ بابه. حاولت أن ألتف من ورائهم فإذا هم يحجزونني عن الدخول

ويدفعونني بصدورهم دفعاً ولا يتكلمون. سألتهم عن سبب فعلهم هذا فلم يجب أيٌّ منهم وظلوا على وقفتهم تلك يسمحون لمن شاء أن يدخل المسجد إلا أنا. فجلست على الأرض أنظر إليهم وينظرون إليّ، ثم تذكرت ابن رشد يوم قال للخليفة الموحديّ في مرّاكش ما جرى من أمر الدهماء الذين منعوه من دخول المسجد في منفاه بأليسانة. فانتابني ذعر. أيكون هذا مصيري؟

عدت إلى البيت لأجد بدر متعجباً من سرعة إيابي. أخبرته بما جرى وطلبت منه أن يذهب إلى الجامع ليستقصي عن السبب. عاد بعد ساعة وعلى وجهه غضبٌ وراح يتمتم بشتائم لم أسمعها:

- ما الأمر يا بدر؟

- إنه **ترجمان الأشواق** يا سيدنا!

- ما به؟

- يقولون بئس الشيخ يشبّب بالغواني.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

- نذهب من غدٍ إلى الوالي ونشكوهم إليه.

- بل تذهب من غدٍ إلى السوق وتجلب لنا زاداً لنرحل.

- نرحل من أجل هؤلاء الحمقى؟!

- إنهم إشارة الرحيل يا بدر.

- وإلى أين هذه المرة يا سيدنا؟

- لقد اشتقت إلى الحريري والخيّاط. نرحل إلى القاهرة.

٦٥

"وما عليّ إذا ما قلتُ معتقدي
دع الجهول يظنُّ الحقَّ عدوانا"
ابن عربي

وكنت أظن أني لما خرجت من حلب متعالياً عن الخوض مع سفهاء الأحلام أني خلفتهم ورائي فإذا بهم في انتظاري. وكنت أظنني سأقضي وقتاً روحانياً مع الخيّاط والحريري في خانقاه القناديل، نعبّ مع بعضنا من النعم الإلهية والمعارف العلوية والأسرار القدسية، فإذا بي أقاتل من لا أعرف له سيفاً ولا راية. هذا ما حدث، وفي الأزهر الذي دعاني طلابي إليه لأدرّس وقعت الواقعة التي ليست لوقعتها كاذبة. تحلّق الطلاب حولي أسبوعاً بعد أسبوع حتى ضاقت بهم الزاوية التي أجلس فيها فانتقلت معهم إلى زاوية أرحب، ثم اضطررنا للانتقال مرة أخرى، ثم أخيراً جلسنا في ظل المنبر حيث تقام أكبر الدروس.

وفي اليوم الذي قضى الله أمره فيه كنت أجلس في درسي فصاح

رجل من آخر الصفوف بعمامة صفراء متهدلة وعباءة رثّة، ويحمل تحت إبطه قفة تمر:

- يا أندلسيّ، تزعم أن الله يكشف لك ما لا يكشف لنا، ونحن نصلي ونصوم مثلما تصلي وتصوم!

التفتت نحوه أعناق طلابي في حين واحد ثم لم تلبث الأعناق كلها أن التفتت إلى جهة أخرى حيث وقف رجلٌ آخر أسمر البشر في لسانه لكنةٌ نوبية وصاح:

- وما بالك ورثت النبيّ وحدك ولم يرثه غيرك من أمته؟ فلا قرشيٌّ أنت ولا من أهل البيت؟

ساد صمتٌ ثم هرج. فصاح الرجل الأول مرةً أخرى وقد وضع قفة التمر على الأرض وأشار إليّ بسبابته:

- وهل حقاً قولك إن الأولياء خيرٌ من الأنبياء؟

عادت أعناق الطلاب ناحيتي وقد أُخذوا بما سمعوا. وبدأ بعضهم يحدث بعضاً وعلت الأصوات. بدا لي أن الرجلين متفقان على ما سيقولانه من قبل وإن جلسا بعيداً عن بعضهما. نظر بدر إليّ وكأنه يستحثني أن أتكلم فأوضح ما أشكل على الناس قبل أن تزداد جلبتهم. شعرتُ بدوارٍ طفيف. تنحنحت فهدأت الجلبة بعض الشيء ورفعت يدي أدعو الرجل ذا القفّة أن يقترب فأفسح له الطلاب وأشرت إليه بالجلوس في أول صف عن يميني. ثم أشرت للرجل ذي البشرة السمراء فجلس مكانه وكأنه لا يريد أن يقترب. وقبل أن أتكلم، وقف فجأةً شابٌّ ذو لحية قليلة وحاجبين متصلين وأولاني ظهره وراح يوجّه حديثه للحاضرين مباشرة:

- إخواني، لقد منّ الله علينا في القاهرة بأن جعلها مرتع العلماء وقبلة الفضلاء، منذ أن أنارها الله بنور الإسلام الساطع حتى يومنا هذا وليس من مذهب من مذاهب الله الصحيحة إلا ولها شيخٌ بين ظهرانينا...

ثم التفت ناحيتي بشقّه وأشار بسبابته قائلاً:

- ولكن الله ابتلانا أيضاً بالأخسرين أعمالاً. هل تعلمون من هم؟ القرآن يجيبكم يا إخوتي ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

همهم بعض طلابي اعتراضاً على إهانته الموجّهة فرفع صوته ليطغى على صوتهم وصار أقرب إلى الصياح:

- من أين جاءنا الصحابة والعلماء وأهل البيت الذين تزيّن قبورهم الشريفة القرافة؟ من الشرق حيث الحرمين الشريفين. من أين جاءنا الفاطميون سبّابو الصحابة ومدّعو المهدوية؟ من الغرب.

تعالت أصوات بعض الطلاب اعتراضاً، ثم تعالت أصوات أخرى بتكبيرٍ لا مناسبة له. طفت ببصري في وجوه الحاضرين وانتبهت لأول مرة أن فيهم وجوهاً لم أرها من قبل قط. شعرت أن ما يدور أمامي أمرٌ مدبّر. وكان بدر قد بدأ يعضدني من ساعدي وقد زادته الجلبة والصخب توتراً.

صاح صوتٌ من الخلف:

- هذا ليس قاعدة. العلماء والزنادقة في كل جهات الأرض.

- بل صدق. كنّا وكان أبناؤنا بخير قبل أن يرد علينا هؤلاء المغاربة.

أخيراً قرر بدر الحبشي أن يمسك بزمام الموقف، فوقف وصاح فيهم:

- أيها الناس، اسمعوا إجابة أسئلتكم من الشيخ. اسمعوا...

وقام إثر ندائه بعض الطلاب يرددون مثلما قال. وتحرك بعضهم حتى صاروا يُسكتون كل من يتحدث واحداً واحداً حتى ساد الصمت سريعاً. والتفتت إليّ جميع الأعناق التي أعرفها ولا أعرفها.

قلت بصوتٍ خفيض:

- أخونا الجالس هنا ناداني بالأندلسيّ، والأندلس مسقط رأسي ومنشأي. ولكني كما يعلم الجمع حاتميٌّ طائيّ. وطيء من الشرق كما يعلم أخونا الذي هناك.

أشرت بيدي ناحية الشاب فأشاح بوجهه كي لا تلتقي أعيننا. فاسترسلت في كلامي:

- وأنا يا أهل الخير عبدٌ محض لله لا أطلب التفوق على عباده، بل إني أتمنى أن يكون العالم كله على قدمٍ واحدة في أعلى المراتب، فلا ضيق في مراتب المعرفة والكمال...

قاطعني ذو القفّة قائلاً:

- ولكنك تقول إنك خاتم الأولياء ووريث الأنبياء؟ أي تفوقٍ تنشده فوق ذلك؟

وضعت يدي على يده لأستلطفه وأجبت:

- هذا عطاء الله الذي لا أنكره، وقد أعطانيه لسعيي في مصالح الناس.

عقد الرجل حاجبيه ومدّ شفته بامتعاض فوجّهت كلامي إلى العموم:

- كيف صار موسى نبياً يا إخواني؟ من يجيبني؟

أجابني أحد الفتية في الصف الأول قائلاً:

- لما آنس ناراً بجانب الطور.

- أحسن الله إليك. وماذا قال بعد ذلك؟

- قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس.

- إذن سعى في مصلحة أهله فعاد بالنبوة. وماذا عن الخضر، من يخبرني بأمره؟

ساد الصمت ولم ينبرِ أحد للإجابة، فالتفتُّ ناحية بدر وقد علّمته ذلك من قبل ففهم إشارتي وأجاب:

- سعى بحثاً عن الماء لقومه فوقع على "ماء الحياة" فشرب منه فخلّده الله.

- أحسنت، وأنا يا إخواني جئتكم من حلب ولي كلمة مسموعة عند ملكها الظاهر غازي. وأشهد الله أني رفعت إليه في مجلسٍ واحد مئة وثماني عشرة حاجة من حوائج الناس فقضاها كلها.

فشلت محاولتي في تغيير محور النقاش عندما وقف الشاب ذو الحاجبين المتصلين مرةً أخرى ووجّه كلامه لي هذه المرة:

- يا مؤمن! ذلك موسى والخضر، أنبياء الله وجلساء الملائكة. وأنت فقيهٌ مالكيّ من الأندلس تجالس السلاطين. جعلت شأنك من شأنهم وقدرك من قدرهم. اتّقِ الله!

ثم قام من وسط الناس رجلٌ لم يتحدث من قبل وجذب الشاب ذا الحاجبين من كمّ قميصه ليلفت انتباهه وقال له:

- بل إنه جاء بما هو أفظع، فيقول إن الله ومخلوقاته شيءٌ واحد.

استمع إليه ثم رفع يديه إلى الأعلى وكأنه ظفر بثمينٍ وقال بصوتٍ عالٍ:

- أسمعتم؟ تعالى الله عما يصفون. أين الله المتجلي فوق العرش العظيم منا خلقه الفقراء إليه.

ثم رقّت نبرته وانخفض صوته وهو يكلّم الطلاب الجالسين:

- قوموا يا أحبابي من عند هذا الرجل قبل أن يفسد دينكم. وإذا أردتم أن تصيبوا علماً نافعاً فعليكم بالمدارس لا الخوانق. تؤتون فيها أرزاقاً ومساكن وعلوماً نافعة. قوموا...

قامت جماعة من الطلاب فعلاً وراحوا يجرّون أقدامهم بتثاقل والأعين تتابعهم. وحمل ذو القفّة قفّته ورمقني بنظرةٍ شزرة ثم مضى.

٦٦

"لمّا لزمتُ البحث والتحقيقا

لم يتركا لي في الأنام صديقا"

ابن عربي

مرّ يومان استؤنف فيهما الدرس دون جلبة ولا ضوضاء. ثم جاء اليوم الثالث الذي كنت خارجاً فيه من الخانقاه متجهاً إلى الجامع فإذا برجال يلبسون زيّ الشرطة ينتظرون عند باب الجامع. اقتربت منهم فطلبوا مني أن أذهب معهم إلى حيث لم يفصحوا. أخبرتهم أن درسي يوشك أن يبدأ فاقتادوني اقتياداً، وكان أحدهم يجذبني من كتفي والآخر يدفعني من أعلى ظهري. تعثرت من أثر دفعه وكدت أسقط. انفعل بدر وراح يركض وراءنا ويصيح فيهم: "هذا الشيخ الأكبر... هذا الكبريت الأحمر"، أما الحريري فكان أكثر هدوءاً ويحاول أن يكلّم الشرطة بتهذيب وتوسّل أن يشرحوا له سبب اقتيادهم لي، ويتساءل إن كانوا متأكدين مما يفعلون، ولكن أحداً منهم لم يمنحه إجابةً شافية. انقدت لهما باستسلام حتى وجدت نفسي أخيراً في

زنزانةٍ حجرية ضيقة في سجن القاهرة.

صاحبني في الزنزانة ستة آخرون أحدهم ظلّ ينتقل من سجين إلى الآخر ليسأله عن كل شيء. يفرّج عن ضيقه بالتفتيش في حكايات الآخرين. فور أن دخلت وجلست في البقعة الخالية تقدم نحوي وبيده وسادة قذرة ناولني إياها لأجعلها تحتي. ثم جلس بجواري وهو يتأمل ثيابي النظيفة وعمامتي الكبيرة وقال:

- والله ما أنت من أهل السجون. من أنت؟

- ها أنا صرت من أهلها، فما الفرق؟

- ولا كلامك مصريّ، فمن أين أنت؟

- من الأندلس.

أثار ذكر الأندلس اهتمام سجينٍ آخر كان يلعب بالحصى فقال بصوت أجش:

- أهلاً أهلاً بابن العم.

التفتُّ إليه فلم يرفع رأسه واستمر في اللعب بالحصى. سألته:

- هل أنت من الأندلس؟

- من ميورقة.

- وماذا جاء بك إلى القاهرة؟

أجاب السجين الأول نيابةً عنه وهو يضحك:

- فرّ من سيوف الموحدين!

رماه السجين الثاني بحصاة صغيرة أصابت ذراعه وقال:

- ستسكت عن مثل هذا أوٍ أُخرج لك سيفي.

ضحك اثنان من السجناء الآخرين. وأطرقت أنا حياءً من كلامه.

وجّه حديثه إليّ:

- من أي مدن الأندلس أنت؟

- إشبيلية. ولكني تركتها منذ سنوات فلا تسألني عنها.

- لم أزرها من قبل. كنت أعمل في مركبٍ يبحر إلى بلنسية للتجارة.

- وما الذي أغرى بك الموحدين؟

- إنهم يأخذون كل الميورقيين بالشبهة ظناً أنهم تابعون لبني غانية.

- هذا ليس صحيحاً. كنت في مراكش في حرب الموحدين مع بني غانية وجالست فيها نفراً من ميورقة آمنين مطمئنين ما داموا لم يرفعوا السلاح.

ضحك الرجل باستخفاف وقال:

- ولكني حملته! عشرة دراهم كل يوم وإردب طحين في الشهر لكل من ينضم إلى بني غانية.

ثم عاد ليتشاغل بالحصى وكأنه لا يريد أن يستمر في الكلام. انتهز السجين الأول الفرصة وراح يعرفني على الآخرين:

- هذا من الصعيد. وهذان من القاهرة. والذي هناك يوناني لا يتكلم العربية.

لوّح الصعيديّ بيده بالتحية وابتسم. ونظر إليّ القاهريّان بلا تعابير على وجهيهما. سألني السجين الأول:

- لماذا أنت في السجن؟

- لا أعلم!

ضحك ضحكةً مبالغاً فيها وكأنه لم يضحك منذ زمنٍ طويل وقال:

- لا تعلم؟ من يعلم إذن.

- الله يعلم. أظنها وشاية.

- من وشى بك؟

- من لا يعي ما أقول ولا يفهم ما أكتب.

ربت على ظهري وهو يقول:

- لا تخف. القاضي الذي ينظر في أمر هذا السجن حليمٌ وطيب القلب.

مكثت في السجن بضعة أيامٍ قبل أن أقف أمام هذا القاضي الحليم طيب القلب. لم يسمحوا لأحدٍ بزيارتي قط وليس بين يديّ قلم ولا ورقة. دخلت في سلسلة من الحضرات الغيبية. كلما أظلم الليل أرسلت قلبي إلى من شاء أن يكون في حضرته تلك الليلة حياً كان أم ميتاً. التقيت بكل شيوخي الذين أحب لقاءهم. السهروردي في بغداد. والكوميّ في سلا. والسبتي في مراكش. والغوث في تلمسان. بل إني حضرت مع الخياط والحريري في الخانقاه وجلست معهم بقلبي وجسدي في السجن. ولقيت شيوخي الذين ماتوا في حياتي والذين ماتوا قبل أن ألد. سمعت وأنست وناقشت وأخذت وتعلمت وكأني في الأيام القليلة التي مكثتها في سجن القاهرة قد زرت مشرق الأرض ومغربها ولقيت عشرات الشيوخ وقرأت عشرات الكتب وصعدت إلى السماء ونزلت إلى الأرض.

أخيراً استُدعيت لحضرة القاضي. مثلت بين يديه وقد تغيّر حالي واتّسخت ثيابي وتعفّر وجهي ويداي. أوقفني الحراس بين يديه وظل صامتاً لوهلة ثم رفع رأسه وقال:

- ما درسك؟

- كتاب لي اسمه روح **القدس في محاسبة النفس**.

- وفيمَ اعترض عليك الناس فيه؟

- هذه حال الناس يا سيدي القاضي. يخوضون في ما لا يعلمون.

- أكلّ الناس على خطأ وأنت على حق؟

- كل الناس لم يشكوني إليك يا سيدي القاضي، ولكن بعضهم فعل.

- أحقاً قولك إن الله متّحدٌ مع مخلوقاته؟

- لا يقول بالاتحاد إلا أهل الإلحاد.

- وقولك أن الله يحلّ حلولاً في خلقه؟

- من قال بالحلول ففهمه معلول.

- لديّ صحائف فيها تهمٌ موجّهةٌ إليك بأقوال باطلة متزندقة. أتنكر هذه الأقوال؟

- أقول اصرف خاطرك عن ظاهرها، وانظر في باطنها يتبين لك ما هي.

- ما لنا إلا الظاهر.

- هذا قول العوام لا قول القضاة.

- تأدّب وإلا أمرتهم أن يعودوا بك إلى السجن.

- السجن أحبُّ إليّ مما تدعونني إليه.

- عد إلى السجن حتى أنظر في أمرك وأحكم عليك.

- الله الذي يحكم، وأنا وأنت وكل شيء خلقه مؤدون لحكمه محكومون بأمره.

٦٧

"ما يرد عليك وأنت تجهل أصله لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

عدت إلى السجن حزيناً. ظننت أن محاكمتي ستطول حتى أدافع عن نفسي وأرى فيها خصمي. ولكن بدا أن القاضي بلا رأي. وخصمي بلا وجه. وبالتالي فإن مصيري بلا يقين. تلقفتني أسئلة السجناء فلم أحر جواباً. كان أحد القاهريين قد خرج لمحاكمته ولم يعد بعدها فلا ندري هل منحوه حريته أم علقوا مشنقته. ولكن غموض مصيره رغم ضعف علاقته بنا ترك على الزنزانة ظلاً من اليأس والكآبة. رفعت حضرتي الغيبية تلك الليلة إلى ابن رشد وحدثته عما أشعر فاختفى في الضباب. حاولت أن أطرق باب الغوث أبي مدين فلم يفتح لي. بحثت عن الكوميّ في المنازل السماويةّ فوجدته يصلي ثم أشار إلى فمه وقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

مرت أيامٌ قبل أن أدعى للمحاكمة مرةً أخرى. خرجت من الزنزانة وأنا أنوي أن أترافع عن نفسي وقتاً أطول وأصرُّ على القاضي أن

يسرد عليّ التهم المرفوعة ضدي تباعاً حتى أفنّدها واحدة تلو أخرى. دخلت عليه بهذه النيّة فوجدت عنده رجلاً مسناً تبدو ملامحه مألوفةً لديّ غير أني لم أعرف من يكون. حدقت فيه طويلاً دون جدوى. راح القاضي يكلمني وأنا أحاول أن أركّز في كلامه وملامح الرجل معاً فتشوش تفكيري. قلت للقاضي:

- أهذا خصمي؟

تبسّم القاضي بسخرية وقال:

- هذا؟ هذا ليس خصمك. هذا شفيعك.

دهشت من شفيعي الذي لا أعرفه. سألته مباشرةً من يكون فأجاب القاضي بدلاً منه في معرض كلامه:

- قف جوار مشفوعك يا أبا الحسن.

استند أبو الحسن على عصاه ومشى خطوات سريعة حتى وقف قريباً مني وتجنّب النظر إلى وجهي. تحدث القاضي مخاطباً أبا الحسن:

- إنك بحظوتك لدى الملك وتزكيتك من قبل العلماء تتعهد أن لا يأتي مشفوعك ما يثير حفيظة الناس ويخرج عن مقاصد الفقه والتشريع في مذهب أهل السنة...

تكلم أبو الحسن لأول مرة منذ دخلت:

- أتعهد بذلك.

لزمت الصمت وأنا أسمع من يتعهّد بسلوكي وكأني لست حاضراً ولكني آثرت أن أثق بألفتي مع ملامحه وارتياحي القلبيّ له حتى قبل أن أتذكر من يكون. استمر القاضي في كلامه:

- وتتعهد أن لا يلقي مشفوعك دروساً في الجامع الأزهر بعد اليوم، الذي هو صنيعة الفاطميين وبقايا الإسماعيلية في القاهرة.

- أتعهد بذلك.

- وتتعهد إن أتى مشفوعك بما يخالف ذلك أن يُنفى من الديار المصرية أو يُسجن.

- لا داعي لذلك. سيغادر الديار المصرية فور تفضلكم بإطلاق سراحه.

نظرت إليه باندهاش فلم ينظر إليّ وظل معلقاً بصره في وجه القاضي وعلى وجهه ذات الابتسامة الهادئة التي لم تغادر وجهه. أخيراً قال القاضي بصوتٍ أعلى من ذي قبل:

- ترافقه السلامة!

ثم التفت إلى كاتبه الجالس عن يمينه وقال:

- يطلق سراحه بشفاعة أبي الحسن البجائي والشروط المنصوص عليها في الحكم.

غادرت قاعة دار القضاء إلى الخارج غير مصحوبٍ بالحراس هذه المرة وأبو الحسن يمشي أمامي متّكئاً على عكازه الذي لا أدري لم هو في حاجة إليه مع خطواته السريعة. نظرت إلى قدميه فدهشت. دققت النظر لأتأكد أني لست خارجاً من حلم مليء بالأضغاث. لا يبدو أنه يمشي. كأن بساطاً رقيقاً غير مرئيٍ من الهواء يحمله من الأرض وهو يحرك رجليه ليبدو وكأنه يمشي. أخيراً وقفنا وحيدين خارج دار القضاء. نظر إليّ للمرة الأولى منذ التقينا. صار وجهي دوامة متشابكة من الأسئلة. استند بكلتا يديه على عصاه وظل ينظر

إليّ بصمت وعلى وجهه ابتسامةٌ شاحبة. فبادرته بسؤال:

- كيف قبلوا شفاعتك بهذه السهولة؟

- تشفّعت لدى الملك العادل وهو الذي أرسل إلى القاضي.

- وماذا نقم عليّ الملك؟

- ما نقم عليك ولا يعرف من أنت. إنما شكاك إليه نفرٌ من الناس أنك مبتدعٌ ومتزندق فأمر بسجنك.

- وكيف جعلته يطلق سراحي؟

ضحك وقال بين قهقهاته:

- قلت له إنك صوفيّ، والصوفيّ في خلوته أخطر منه وهو بين الناس. فأمر بإطلاق سراحك على الفور.

أطرقت صامتاً لا أدري أأسأله من يكون فيبدو جهلي به إهانةً له، أم أشكر له وأودّعه. تركت مسار الحديث له وقد أخذ بزمامه فوراً وقال:

- ترحل إلى بغداد يا ولدي.

- ولماذا بغداد؟

- لأن وتدك الثالث ينتظرك هناك.

- وتدي؟ وكيف تعرف وتدي؟

- أعرفه حق المعرفة.

- ومن تكون أنت؟

ابتسم ابتسامةً واسعة وأطال النظر في وجهي قبل أن يجيب:

- أنا كنت وتدك الثاني يا بنيّ.

- وتدي الثاني؟ ماذا تقول! الخيّاط هو وتدي الثاني!

- ما صار وتدك إلا بعد موتي. الآن تعيّن على أحدنا أن يخرجك من سجنك ويرسلك باتجاه وتدك الثالث. ولما كان الخياط مشلولاً طريح الفراش اضطررت أن أقوم أنا بهذه المهمة.

ثم همّ بالمضي وكأنه لم يقذف في قلبي عاصفةً من الحيرة والذهول لتوه وهو يقول:

- اسمح لي أن أذهب الآن.

- إلى أين؟!

- أعود إلى قبري...

ومشى خطواتٍ فوق بساط الهواء قبل أن يتلفت جهتي للمرة الأخيرة ويقول لي وهو يشير إلى صدره:

- لا تنسَ يا ولدي. طهّر هذا... ثم اتبعه.

٦٨

"طوبى لمن حار"

ابن عربي

مشيت إلى الخانقاه مبهوتاً وكأني لتوي انفكّ عني سحرٌ ثقيل. فكّرت في كل ما حدث فهداني تفكيري إلى البكاء. جلست على قارعة الطريق وانتبذت زاويةً لا يمشي حولها الناس وانخرطت في بكاءٍ حار أفرغت فيه كل الخوف الذي تراكم في صدري من أن أتعفنَ في السجن سنيناً. تأخر عليّ وتدي سنوات فكدت أهلك من اليأس فإذا به سبحانه وتعالى يخرجه من قبره ليخرجني من سجني. فأي منّة يمنّها ربٌّ على عبد أكبر من هذه؟

دخلتُ على أصحابي وهم جلوسٌ حول طعام فانكبوا علي عناقاً وبكاءً. تركت دموعهم تبلل كتفيّ وصدري ثم اندفع بدر ومعه شابٌّ لا أعرفه مثل ملدوغين يهيئان لي المكان، ينفضان المطارف من الغبار، ويشرعان النوافذ للهواء، ويقربان لي ما كانا يأكلان منه قبل أن أطرق الباب. أكلت معهم جرجيراً وجبنة ماعز وخبزاً. وجعلت

أمازحهم لأخفف من وقع المفاجأة فلم يجدِ ذلك شيئاً. ظلت عينا الخيّاط مغرورقتين بدموع حزينة في حين سرد بدر عليّ كل الأنباء التي مرّت بالخانقاه والجامع منذ رحيلي.

عاد الحريري الذي لم يكن معهم ففرح لمرآي فرحاً عظيماً وسجد لله شكراً قبل أن يعانقني. راح يحدق في وجهي وكأنه يريد أن يعرف ما مرّ بي قبل أن أتحدث به. ثم نزع عني عمامتي وراح يسحب قدمي ليجبرني على مدّها لأستريح. حدثتهم عن كل ليلة قضيتها في السجن وحضراتي الغيبية التي مارستها فيه. لم أخبرهم عن شفيعي بالتأكيد لأن فيهم من لا يُكشف له سرّ الأوتاد.

سكن الليل بعد ساعات من الكلام ووضع بدر المطارف التي ننام عليها وجعل لي منها اثنتين فوق بعضهما. غادر الشاب الذي لم أتبينه الحجرة فقال بدر:

– جاء في اليوم الذي سجنوك فيه يبحث عنك وظلّ معنا منذها.

– هل لقيناه من قبل؟

– رأيته أنا في درسك مرات ولكن ينتحي جانباً ولا يسأل.

– ما اسمه؟

– سودكين.

اضطجعت على فراشي ومددت جسدي كاملاً لأول مرة منذ دخلت الزنزانة الضيقة التي لم يكن ذلك ممكناً فيها ومعي بقية السجناء. تأوهت من آلام عظامي ففزع بدر دون أن أسأله يدلك قدميّ وساقيّ. ارتفع صوت الخيّاط من فراشه يقول بضعف:

– متى ترحل يا أخي؟

رفع الحريري رأسه في فضول وتوقّف بدر عن تدليك ساقي وانتظر إجابتي. كنت أودّ أن أنقل الخبر للخيّاط لاحقاً ونحن وحدنا خشية أن يؤلمه فراقي ولكن يبدو أنه علم بذلك علماً غيبياً. زحفت قريباً منه وضممت كفه في كفي وقلت:

- غداً أو بعد غد.

- تصحبك السلامة يا أخي.

ثم لم يزد على ذلك. أغلق عينيه ونام، فعدت إلى فراشي وهمست لبدر والحريري اللذين كانا لا يزالان ينتظران بفضول خبر السفر:

- لا مقام لي في مصر. الوجهة بغداد.

بدا بدر مرتاحاً لهذا القرار بعد أن أخافه حبسي حتى فقد وزنه وشحب لونه. أما الحريري فقد أطرق قليلاً ثم قال مازحاً:

- لا تعد مرةً أخرى. إن وجع وداعك أمضى من تحمّل فراقك!

في اليوم التالي غادر بدر فجراً ليشتري الزاد ويسأل عن القوافل. دخل سودكين وراح ينظف المكان ويجلب الطعام في صحافٍ صغيرة لكلٍّ منا كما يوزعونها في الخانقاه. تحدثت مع الحريري عن الطرق والقوافل فتناهى الأمر إلى سمع الشاب فجلس حولي متقرفصاً وقال بعينين حزينتين:

- ترحل يا سيدنا؟

- أجل يا بنيّ. غداً أو بعد غد.

ارتسم على ملامحه شبه ذعر وخيبة فربتُّ على كتفه وضممته قريباً من صدري. اعتدت على أحزان المريدين كلما حان رحيل. ولقد ذقت مثلها وأشدّ منها وأنا أودع شيوخي في إشبيلية وفاس

ومراكش وبجاية ومكة وفي كل مكان صادفت فيه شيخاً وأردته. انحنيت على الخيّاط وعانقته طويلاً واختلطت دموعنا ثم عانقت الحريري عناقاً مثله شدّ فيه على ظهري كأنه يريد أن يولجني في صدره. وخرجت من الباب فوجدت سودكين واقفاً وبيده نعالي. انحنى من فوره ليلبسني إياهما ثم حمل متاعي ومشينا معاً حيث ينتظرنا بدر في منطلق القوافل.

في الطريق بدا سودكين خائفاً وفي مشيه ارتباك وفي ملامحه سهوم. رحت أسأله عن أهله وناسه لأخفف عنه. علمت أن أباه من سكّان الخوانق الصوفية منذ أنشأها صلاح الدين في القاهرة. وقد مات على تصوّفٍ جميل. دعوت له. وساد صمتٌ قصير وتراءى لنا منطلق القوافل في آخر الدرب. فقال سودكين:

– يا سيدنا... مريدٌ أنا وأنت رحول.

– وماذا تريد؟

– أريد صحبتك وخدمتك وعلمك.

– هل بقي من أهلك أحد؟

– ومن يبقى لي؟ أنا وأبي من عتقاء نور الدين زنكي يوم مات.

– وأبوك؟

– مات.

تأملت ملامحه المعجونة بالرجاء والأمل. وتذكرت حال بدر وهو يتقدم في سنه. سنحتاج عاجلاً أم آجلاً إلى شابٍّ قويّ يعيننا على الطريق. وضعت يدي على كتف سودكين وقلت له مبتسماً:

– ترحل معنا إذن إن شئت.

- أخشى أن أثقل عليكما يا سيدنا، ولا مال عندي ولا راحلة.

- الأرض أرض الله والمقام واسع ورب الدار كريم.

وعندما تراءى لنا بدر عن بعد ممسكاً بزمام الراحلتين هرع إليه سودكين وبشّره بذلك. ونظر بدر جهتي ينتظر توجيهي فقلت له:

- استأجر راحلةً أخرى.

٦٩

"الحزن إذا لم يصحب الإنسان دائماً لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

قليلة هي المدن التي تجوز أسوارها أول مرة فتشعر أنها كانت تنتظر وصولك. تلقي على خطواتك الأولى عتاباً مشوباً بالحنين وشوقاً محفوفاً بالرضا. هكذا استقبلتني بغداد وأنا واحد بين مئاتٍ حملتهم القافلة إلى هنا غير أني شعرت أنها حيتني وحدي تحية المدن السخية للغرباء المتعبين. على ملامحي مذ دخلتها علامات اندهاشٍ تشبه تلك التي ترتسم على الأوجه عندما يعانقك من لا يعرفك. ويحبك من لم يلتقيك. ويصفك من لم يرك. تظلّ الدهشة حاضرةً زمناً طويلاً حتى تنتهي المدينة من تلقينك دروسها الأولى: كيف تمشي على ضفة دجلة ويبقى قلبك خلف أضلعك لا يجري به النهر؟ كيف تمرّ بالرصافة دون أن تستوقفك كل نخلةٍ بحكاية جديدة لا تعيدها في اليوم التالي؟ كيف تتجول في أسواقٍ الكرخ دون يترك كل عطّارٍ وبزّازٍ وصائغٍ في سمعك قولاً لا يفارق ذهنك طيلة النهار لفرط

فصاحته وبلاغته وحلاوته؟ أين تجد زهداً كافياً لتوصد باب بيتك كل ليلة في وجه بغداد وتنام؟

بلغ ابتهاجي ببغداد مبلغاً لم يخفَ على بدر وسودكين. شيءٌ في لطف هذه المدينة يتأرجح بين الجلاء والخفاء. أحتاج إلى أن أصغي طويلاً حتى أعرف ماذا توشوش به بغداد في أذن العارف وكنت أحتاج إلى ذلك. دخلتها مبعثراً فجمعتني. غريباً فآوتني. وكنت على يقين أن نهايتي معها لن تكون كبقية البلاد الأخرى التي طردتني في الأندلس والمغرب ومكة والشام ومصر. قال الموحدون لا دروس لك. والأيوبيون أودعوني السجن. والحلبيون استاؤوا من ديواني. ومكة أقفلت أبوابها أمام قلبي في منتصف العشق. يريد الله أن يبتلي السالك حتى يرى طريقه والعارف حتى يذوق إيمانه. ويقلبني الله بين إصبعيه في المكان والزمان حتى أعرف قدر نفسي فلا أعدو عنها. ولكنه بين حينٍ وآخر يسبغ عليّ من ألطافه الخفيّة، ونعمه السخيّة، كوجودي في بغداد هذا العام. لا ضيق ولا هم. في كل ركنٍ مدرسة ترحب بكل علمٍ وتقبل كل مذهب. في كل شارع بيتٌ يستوقفك لتأمل بنيانه وزينته. في كل بستانٍ أشجارٌ لم أرها من قبل وثمار لم أطعمها قط. وفي كل شارع سقّاؤون يحملون الماء في أكواز مزينة بأجراس تدق دقاً لطيفاً ويسقون ماءً بارداً كالثلج. وفي كل حيّ سوقٌ يباع فيه ما لا يباع في سوقٍ آخر.

قضيت أسابيعي الأولى في بغداد سائحاً لا درس لي ولا كتاب. أخرج من البيت لأطوف في أرجاء المدينة لا أبغي إلا قراءة سطورها المخفية تحت خطوات الناس، وكلمات الله التي كدّسها التاريخ في

هذه المدينة قرناً بعد قرن. تقرأ الأرجل أحياناً وهي تمشي أكثر مما تقرأ الأعين في بطون الكتب. وفي كل يوم كانت تمنحني سياحةً جديدة. إذا دخلت درب الزعفران وجدتُ طيوباً للفرس وطيوباً للعرب وطيوباً للترك وأخرى للروم والهنود والكرج كلها تصنع في بغداد. وإذا اقتربت من البيمارستان ظهرت حوانيت الصيادلة على جانبي الطريق وهم مشغولون بأنابيقهم وبوادقهم ينقعون عشبةً في سائل ويخلطون ذروراً بمرهم ويقطّرون ويخلطون ويحرقون ويصفون على أبوابهم كل دواء في قنانٍ صغيرة. وفي سوق البزازين من القماش ما يكسو الأرض ويفيض عنها من القطن والكتان والدمقس والحرير تحيط به أسواق الندافين والصباغين والغزّالين. وإذا دخلت سوق الورّاقين لم يكفني فيه يوم واحد لأطوف به فضلاً عن أن أقف على ما فيه. فمن لم يكن يعرف حاجته قبل دخوله فلربما تاه في أنحائه كما حدث معي أول مرة ولربما صادفتك فيه مفاجأةٌ جميلة ككتابٍ صغيرٍ في حانوت ورّاق يبيع الكتب الأندلسية اسمه **حصاد البهشيّة**.

حملت الكتاب وقلّبته بين يديّ فلم أجد له مؤلفاً. سألت الورّاق عنه مرتين محاولاً في كل مرّة أن أرفع صوتي أكثر ليسمعني. هزّ الورّاق المسنّ رأسه ولم يجب. بل راح ينظر في الكتاب الذي تناولته من بين كتبه وكأنه يراه لأول مرة. نقدته السعر الذي أراد وجلست على عتبة حانوته أقلّب صفحات الكتاب كمن يقلّب صفحات الأيام عائداً إلى الوراء عشرين سنة. ها هو شانكارا وفيثاغورث وفينوس وإخوان الصفا بين دفتَي كتابٍ جمعهم فيه السكارى في مزرعة

فريدريك. أتراه يكون هو من كتبه؟ ومن غيره؟ وضعت الكتاب في السلة التي معي ولاحظت أنني ما زلت مبتسماً منذ حملته لأول مرة. هبّت الرياح التي تعمّ أرجاء إشبيلية تحمل رائحة البرتقال في كل درب عليّ وأنا واقفٌ وسط سوق الورّاقين ببغداد. ها هي تحية فريدريك تصلني حيث أنا وهو في علم الغيب. لا أدري أحيّ أم ميت؟ أباقٍ في إشبيلية أم شدّ رحاله إلى شماله البعيد؟

أكملت سعيي في سوق الوراقين. أريد ورقاً لكتابٍ لم يلهمني الله إياه بعد ولكني بدأت أجد دبيبه في صفحات قلبي وعقلي. من الباب الشرقيّ اصطفت حوانيت باعة الورق وأمامهم أكداسه المكدسة وعلى كل منها لوحٌ من خشبٍ عليه سعر الورق. ومن خلفهم قدورٌ من النشا والقنب لورق الكاغد ومكابس من القطن والكتان للورق الشامي. يلقفه منهم بعد ذلك القطاعون والصقالون فيجعلون منه أنواعاً عديدة لكل حاجة. القطع الكبير للمكاتبات والعقود، والسميك للمصاحف والصحاح، والصقيل للمراسلات والمعاهدات، والخفيف لملطّفات الكتب ومختصراتها. ثم يليهم سوق النسّاخين يبيعون فيه كل أدوات الكتابة التي أغرتني لأتخلى عن دواتي القديمة وأستبدل بها أخرى من الأبنوس النقيّ. اشتريت قطعاً من كل نوع من الورق لأجربه ثم اشتريت مداداً نفطياً للكتابة الحرة وآخر من عفص الشام للرقاق وثالثاً من الزاج لدفاتري التي أحملها في جيبي. واشتريت ليقةً من المغرة العراقية لعناوين الكتب وأغلفتها.

٧٠

"تعظيم خلقه تعظيمه"

ابن عربي

مرّت سنتي الأولى في بغداد وأنا على قيد الفتنة. كلما اعتدت على مقامي في المدينة أظهرت لي مفاتن جديدة. انتقلت بين بيوتٍ أربعة لا مللاً من الحي السابق بل طمعاً في الحي اللاحق. ثم استقرّ بي الحال أخيراً قريباً من جامع باب الطاق الذي أقيم فيه أطول دروسي وأكثرها حضوراً. صحن الجامع واسعٌ ومن ورائه بيوتٌ تصطفّ على ضفة النهر وأمامها مراكبُ تؤجر للناس يعبرون بها النهر أو يخوضون فيه متنزهين. ثم بائعو السمك يشوونه على السفود حياً ويأكله الناس واقفين في أرغفةٍ صغيرة. وعلى طول سور الجامع من الخارج تصطفّ مقاعد يتناوب على الجلوس فيها قرّاء القرآن كل سبتٍ يتلون منه ما يُوقف الماشي ويجُلس الواقف من حسن أصواتهم وجودة تلاواتهم فيستأجرهم الناس للأفراح والمآتم وحفلات الختان.

استأجرت بيتاً قريباً من حرّ مالي. لم أجد زاويةً ذات وقفٍ تكفي لسكناي أنا وصاحبيّ. أنام في غرفة وينام سودكين وبدر في الأخرى. وفيه فناءٌ مشرفٌ على النهر نطهو فيه طعامنا وننشر ثيابنا. إذا خرجت إلى الجامع فجراً لمحت أسراباً صغيرة من البط قريباً من ضفة النهر تختلط أصواتها بالدواليب التي تجلب الماء جهة السواقي التي تسقي البساتين. وإذا سهرت لأشهد مطلع سرٍّ إلهيٍّ جديد يوشك أن يذوقه قلبي كانت السماء تصفو والأنجم تشعّ وكأنّ كل شيء يتفق مع التنزلات البغدادية على قلب الوليّ الأندلسيّ.

كل ما أفعله هو التدريس في النهار والكتابة في الليل. ضاع أثري في مساجد بغداد الممتلئة بالشيوخ يعلّمون الناس كلَّ مذهبٍ وطريقة. ولم يصل إليّ إلا من وقرت في قلبه طريقتي وأحب أن يتعلم مني لا من غيري. وإذا وجدت نفسي خالياً مشيت إلى دار الحكمة فوجدت فيها من كل نفيسٍ وغالٍ كتباً عربية وفارسية ويونانية وسريانية وهندية في صفوفٍ طويلة مرتبة أحسن ترتيب. فإذا وجدت ضالتي بغير لغتي حملت الكتاب إلى ساحة التراجمة، وعدت بعد شهر لأجده منسوخاً بلغتي بلا أجر إلا ما أجود به على مترجمه استحباباً.

اجتهد سودكين منذ بلوغنا بغداد في خدمتنا أنا وبدر معاً. لا يزال خجلاً من مرافقته إيانا بلا زاد ولا مال فلا يخفف عن نفسه إلا بالعمل. يطهو لنا كل يومٍ طعاماً حتى أمرته أن يكفّ عن ذلك لئلا يحرمنا من فضيلة الجوع. وإذا لمح في ثيابي فتقاً أو في نعالي

قطعاً رتق الثوب وأصلح النعال طيلة الليل حتى أستيقظ لأجدها في أحسن حال. وكلما مددت رجلي لأستريح انكفأ عليها يدلكها. وإذا دخلت الحمام لأغتسل وقف على بابه بوضوئي ومشطي. وإذا طالت أظافري قصّها لي ودرّمها. وكان فوق ذلك متلهفاً للعلم. يحضر الدروس ويقرأ الكتب ويحفظ المتون رغم ما أخذ على عاتقه من عمل وخدمة. استأنس بدر بصحبته وتخفيفه عنه فكانا لا يكادان يفترقان.

وصلتني رسالة من أختي أم سعد حملها حاجٌّ عراقيّ عاد للتوّ تسلّمها بدوره من حاجٍّ مغربيّ. فاضت دموعي وأنا أقرأ كلماتها بالخط المغربي الذي لم أقرأه منذ سنواتٍ طويلة حتى بلغت المقطع الذي رثت فيه ابنها. أجهشت بالبكاء على طفلها الذي لم أره يوماً وشعرت أنها ترثيه وتلومني في آن. وضعت رسالتها التي جفّ حبرها منذ أشهرٍ طويلة قبل أن تبلغني جانباً وخرجت أمشي حيث لا أعرف. دخلت درب سليمان الذي تحفه بيوت القضاة والتجار وأرباب البلاط وجلست عند آخر مكان على النهر لا يكشف أياً من البيوت التي حوله. بكيت قليلاً ثم أكملت سيري حتى خرجت من تلك الضواحي إلى أفقر منها كل بيوتها من طين فلا تدوم طويلاً وكأنها تموت بموت أصحابها فلا يرثها أحدٌ من بعدهم. أكملت مسيري حتى تجاوزت سور المدينة ورحت أمشي في أرباضها. بلغت حظائر الدواب الجرباء التي تعزل خارج الأسوار فاقتربت منها. تأملت عيون الإبل الحزينة الذابلة التي تشتكي أذىً لا تملك دفعه. اكتست جلودها بالقطران لعلاج الجرب فاختلط بعضه

بالدم المتقيح. مددت لها يدي فاقترب بعضها يشمّها ببطءٍ ويأس. وجدت فرجةً في السور فدخلت منها. نفرت مني بعض الدواب والتصقت ببعضها في الطرف الآخر من الحظيرة. جلست على الأرض أتبادل معها النظرات الصامتة وقتاً طويلاً حتى شعرت بالتعب، فخلعت عمامتي وتوسدتها ونمت.

٧١

"لا ينال رضاه إلا من خالف هواه"

ابن عربي

طلع الفجر واستيقظت من نومي بذهنٍ صاف. تحركت الحيوانات في المكان وبدت نشيطة رغم مرضها وكأن الفجر يمدّها بعافية مؤقتة. اعتمرت عمامتي وفتحت باب الحظيرة وغادرتها بهدوء عائداً إلى المدينة وأنا أشعر أن روحي أخف وزناً وقلبي أهدأ وجيباً. اتّسقت في رأسي أسطر الكلام الذي سأكتبه في رسالتي لأختي وكتبتها بالفعل قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم. حفظتها معي بضعة أسابيع حتى وجدت من يحملها إلى مصر فاستودعته إياها وأنا لا أعلم متى تصل إليها. ربما بعد عامٍ أو أقلّ قليلاً. ربما لا تصل. عدت بعد ذلك إلى درسي وبيتي وكتبي وقد نفد نصيبي من الدهشة. ران الاعتياد على قلبي وانطمست في عيني مباهج بغداد ومفاتنها. لم أعد ألتفت إلى سوق ولا نهر ولا بستان. انصرفت إلى ما اعتدت عليه طيلة عمري. أخرج من البيت إلى الجامع وأعود من الطريق نفسه كل يوم. وفي

الليل أوقد قنديلين في غرفتي وأكتب ما انقدح في ذهني من أفكار في الدرس من أسئلة التلاميذ. وأترك ما كتبته مفتوحاً فيباركه الله. فإذا أصبحت وجدت الكلمة صارت كلمتين، والسطر سطرين، فلا يعود بوسعي أن أعترض على شيءٍ منه. ما جادت به السماء لا تردّه الأرض.

مرت أشهرٌ وصرت أشعر بالوحدة. عاد القلق يدبّ في عروقي ويزرع حشائشه الشائكة في قلبي. إذا أقفلت عليّ باب غرفتي لأنام تمنيت لو كان فيها من يؤنس وحشتي ويسليني. بدر وسودكين ينامان في الحجرة الأخرى. أسمع حديثهما أحياناً. بدر يعلّم سودكين ما سبق أن تعلّمه مني وسودكين يحدث بدراً عمّا يظنه بشأني. وأنا الذي يسردان على بعضهما علومه ومعارفه قابعٌ في الحجرة لا يملك أن ينام ولا يعرف ماذا يكتب. يستبدّ بي الأرق فأترك حجرتي وأدخل عليهما. نجلس معاً في ذِكرٍ وسمر حتى ينتصف الليل. فأتظاهر بأن النوم غلبني لأنام في غرفتهما مستئنساً بشخير بدر الذي صار يعلو كلّما تقدم في السن. تأملت ذراعَي ذات ليل قبل أن أنام فلاحظت أنهما نحلتا حتى صارتا مثل عودين في شجرةٍ ميتة. تحسست البقعة التي خلت من الشعر في هامتي والجلد الذي تجمّع تحت حلقي ورأيت الخمسين تقترب مني حثيثاً.

صباح يوم من تلك الأيام تعالت الأصوات وأنا في الجامع والتفتت الأعناق التي كانت أمامي إلى خارجه. علمت أني لا أملك عقولهم في هذه اللحظة فأوقفت الدرس وخرجنا جميعاً ننظر ماذا يجري في الخارج. قرع طبول وصفير وصبية يركضون هنا وهناك وحشدٌ من الناس يصطفون أمام حوانيتهم. ثم مرّ الحمار وفوقه رجلٌ

يركبه ووجهه إلى الخلف وفي رجله سلسلتان طرف كلٍّ منهما في يدّ جنديٍّ من جنود الخليفة. حوقلت واستعذت بالله من هذه الصورة. وعدت إلى داخل المسجد في حين ظلّ طلابي يراقبون مرور سنجر الذي كان والياً للخليفة على خوزستان وهو مغلوبٌ على أمره حتى غاب في آخر الدرب. فعادوا تباعاً وجلسوا في أماكنهم. فقررت أن أستغلّ ما رأوه لتوّهم وأحدثهم عن مكر الله الذي لا يأمنه المرء على نفسه مهما بلغ إيمانه وصلاحه وعلمه وعرفانه.

حُبس سنجر بعد ذلك وانقطع خبره ولكن صورته لم تنقطع في ذهني وهو يطاف به في شوارع بغداد. وعندما أويت إلى فراشي ظلّ قلبي يخفق وكأنه قلب حصانٍ في ميدان السباق القريب. ما زالت تجربة السجن في القاهرة توردني الأوهام والكوابيس وتقضّ مضجعي بين ليلةٍ وأخرى. أقرأ سورة يوسف لعلّ ذكر السجن فيها يخفّف من مواجعي وأبيت على وجل. أي وليٍّ أنا ينتهبه القلق كل ليلة فلا إيمان ولا سكينة؟ لو كان هؤلاء التلاميذ يعلمون ما بقلبي من الخوف لانفضّوا من حولي وبقيت أجوب أزقة بغداد مثل البهاليل الذين لا يلوون على شيء. لم أعد أدري متى حللت بمدينة جديدة هل أقبل على أمرائها وأعيانها لأستقوي بهم إذا ما اختلف في أمري العامة، أم أقبل على الناس في المساجد والجوامع والخوانق لأستقوي بالعامة إذا ما انقلب عليّ السلاطين؟ ينزع بي إيماني أن استقوي بالله وحده ولكن الأمر ليس بهذه السهولة حتى على الأولياء. ذلك ما لا يمكن أن أفصل بشأنه وحدي. إذا أنعم الله عليّ خفت من مكره، وإذا ابتلاني خفت من هجره. ما هذه الحال! أحلم أحياناً أن أعتزل

فلا يراني أحدٌ ولا أرى أحداً. وأحلم أحياناً أخرى أن أسرّع في نشر عرفاني وإيصال علمي قبل أن أهرم ولا أعود صالحاً لشيء. تمرّ بي أيامٌ أستيقظ فيها وقد عزمت أن أؤلف في بيتي ولا أخرج للجامع إلا للصلاة، ثم ينتصف النهار وألوم نفسي على جبنها وتخاذلها بشأن المريدين والطلاب وأخشى من العلم الذي نحبسه في الصدور أن يعّذبنا في القبور فأخرج إليهم.

٧٢

”الوارد المنتظر لا يُعوَّلُ عليه“

ابن عربي

على هذه الحال من القلق الذي يعلو بي ويهبط دخلت سنتي الثالثة في بغداد ثم فوجئت بما لم يكن في الحسبان. وسبحان الذي يغيّر الأحوال ولا تغيّره الأحوال. قطع بدر درسي في يوم من الأيام على غير عادته. رفع ثوبه وراح يتجاوز رقاب الطلاب في طريقه إليّ. أفسحوا له مجالاً بعد أن ترنّح وكاد يسقط حتى بلغ مكاني أخيراً ثم همس في أذني بما زلزل كياني وانتفض له القلب. دهشة وفجيعة ولله الحمد على كل حال:

- خرجت من جامع الشيخ جنازة لا بدّ أن تشيعها.

نظرت في عينيه مستفهماً فلمحت فيهما تصميمَ الذي يعلم أن الأمر لا بد منه. فصرفت الطلاب وأنا أسأل الله أن يلطف بي. وفي جلبة انصرافهم شدّ بدر على ساعدي وقال:

- الشيخ زاهر الأصفهاني.

- ماذا قلت؟!

- أجل. جنازة زاهر الأصفهاني خرجت قبل قليل من جامع الشيخ.

- أمتأكد أنت أم أن الأسماء تشابهت عليك؟

- بل كشفت عن وجهه ونظرت إليه. عظم الله أجرك يا سيدنا.

شدني بدر من ثوبي لأعجل في سيري ولم يجب. لحق بنا سودكين وحثثنا سيرنا حتى استحال ركضاً في بعض الأحيان. تفلّتت عمامتي فثبّتها على رأسي بيد ويدي الأخرى تمسك طرف ثوبي. دموعي تسيل على وجنتي فتطير بها الريح بعيداً. متى جئت إلى بغداد يا سيدي؟ وكم قضيت فيها وأنا معك ولم أرك؟ لماذا هجرني كشف الله حتى لم أعد أعلم من يساكنني في البلاد ومن يموت فيها؟ ماذا جنيت على نفسي حتى صرت عاقاً لأشياخي، أمشي في جنائزهم مثل عامة الناس فلا قبّلت جباههم العليّة ولا غسلت أجسادهم الطاهرة؟

ودخلنا المقبرة فإذا الناس متحلقين حول قبرين. قصدنا أولهما فإذا هو ليس للشيخ فهرعنا إلى الآخر فوجدناهم يهيلون التراب على جسده. لم ألمح إلا طرفاً من كفنه للحظات قبل أن يخفيه عني التراب. صليت على طرف القبر أنا والحبشي وسودكين وبكيت مثلما بكيت على أبي وعمي. انصرف الناس وطلبت من رفيقيّ أن ينصرفا أيضاً ففعلا على قلق. اعتصرت ذاكرتي ورحت أقرأ على قبر زاهر كل الأحاديث التي رواها، والسير التي أحصاها، وما تعلمته منه وما قلّدته فيه. وسردت عليه فتاواه وما رجّحه من آراء العلماء ومذاهب الفقهاء. وألهمني الله ما أقول فسردت على قبره الصامت

كل ما سردته من قبل وأنا جالس بين يديه أستضيء بوجهه الجميل وبسمته الرضيّة. تركت عنده كل ما أرجو أن يشفع له عند ربه ولم أنصرف حتى أشرقت الشمس.

إذا بات زاهر الليلة مدفوناً في ثرى بغداد فأين نظام يا ترى؟ ذهبت وحدي إلى الجامع الذي خرجت منه جنازة زاهر ورحت أسأل كل من لقيته فيه. دلّني خامس من سألتهم على البيت الذي كان يسكنه فقصدته على الفور وأنا أمنّي نفسي برؤية نظام التي اشتقت إليها شوقاً لم أعد أملك له وصفاً، وأخاف من رؤيتها أيضاً خوفاً ترتجف له أضلاعي ارتجافاً. غير أن شوقي غلب خوفي ولهذا أنا واقفٌ أمام بابها الآن. وجدتُ صبيين يلعبان الحجف أمام البيت فكاد قلبي يسقط من بين جنبيّ. إلهي هل يكونان ابنيها؟ نظام أيتها الشمس المضيئة هل تواريت أخيراً خلف كوكبٍ غيري؟ هل رضيت برجلٍ سواي؟ هل أجبرك أبوك على ما تكرهين أم أنه لم يكن ما تكرهين؟

وقفت عند أول الطريق وقدماي لا تكادان تحملاني. أقدم خطوة وأرجع بأخرى وعيناي معّلقتان على الصبيين وقلبي يدفع بي إلى الأمام لأرى نظام ثم يعود بي إلى الوراء ليحمي نفسه من خبرٍ يقصف ما تبقّى من آماله. أخيراً قررت أن أطرق الباب وليكن ما يكون. تقدمت نحو الدار فتوقف الصبيّان عن اللعب لما رآياني أهمّ بطرق الباب، وصرفت نفسي عن النظر إليهما كيلا أرى في وجهيهما شبهاً بنظام فيزداد همّي. لم يجب أحدٌ طرقتي الأولى، فطرقتُ ثانيةً. وبدت على يدي رجفة ورحت أتنفس بصعوبة. أخيراً دخل الصبيّان إلى البيت وكأنهما يهمّان بإخبار أهله عن الطارق الذي بالباب وتركا

الباب مفتوحاً. وسرعان ما أطلّ من ورائه طفلٌ ثالث يحبو. يا إلهي! كم أنجبت نظام!

نظر إلي الطفل من أدنى وعيناه مفتوحتان على أشدهما ولم يتحرك. حدّق بي وحدّقت به. وجهه مستدير ولغده سمين وخداه أحمران. سال من ثغره المفتوح خيطٌ من اللعاب بلغ الأرض وهو لا يزال على تحديقه بي. ابتسمت له فتراجع. انحنيت مقترباً منه فاندفع حابياً داخل البيت. تألمت. في أحوال الرجاء الشديد يكون الجفاء العابر من طفل لا تعرفه شديداً على القلب وكأنه مصيرك الأبديّ.

طرقت الباب طرقاً عالياً ورحت أسلّم لعلّ أحداً يسمعني. سمعت أخيراً صوت امرأتين تتحدثان حديثاً غير واضح ثم اختفى يوم جاء أحد الصبيين وأوصد الباب بقوة. كنت قد طرقت الباب ثلاثاً ولم يعد يحقّ لي أن أطرق ثالثة. فجلست عند عتبته حائراً لا أعرف ماذا أفعل. في البيت أطفال ونساء بلا شك. ولكن هل تكون نظام خلف هذا الحائط الذي أستند عليه يا ترى؟

٧٣

" ما في الوجود إلا محبٌّ ومحبوب"

ابن عربي

مكثت قابعاً مكاني قرابة ساعة. مطرقاً لا أرفع رأسي ولا أحرك ساكناً. ثم أمر الله الباب أن يُفتح، وخرجت منه عجوز ضعيفة الجسد قصيرة القامة تخفي وجهها بخمارٍ رثٍّ ذي شقوق واسعة. أوصدت الباب من خلفها وسعت في الطريق فلحقت بها:

– يا خالة. السلام عليكِ.

– من أنت؟

– أنا محيي الدين بن عربي.

– وماذا تريد؟

– أريد أن أسألك إن كانت هذه الدار التي خرجتِ منها هي دار الشيخ زاهر رحمه الله.

تنهّدت العجوز بحسرة فعلمت أنها داره قبل أن تجيب:

– أجل هي داره.

- وهل ابنته نظام فيها؟

- لا يا بنيّ. هل تعرف نظام؟

- زاهر شيخي، وكذلك فخر النساء في مكة.

- رحمهما الله معاً يا بنيّ.

فوجئت أني لم أفكّر بفخر النساء وها هي امرأة تنعيها أمامي. سالت دمعة من عيني لا أعرف هل كانت حزناً عليهما أم حزناً على حالي. فاجأتني العجوز بأن مدّت يدها ومسحت دمعتي فنزلت أخرى ثم أخرى. فجلست على الأرض وبكيت بكاءً حاراً:

- حماك الله يا بنيّ. حسبك. حسبك.

ولم أجب حتى انتهيت من بكائي وهي واقفة فوق رأسي تحوقل وتدعو الله لي دعوات كثيرة. أخيراً كفكفت دموعي وقمت واقفاً ونظرت إليها برجاء قائلاً:

- أين نظام؟

- نظام يا بنيّ تقيم في رباط المتعبدات مذ جاؤوا إلى بغداد.

تنفّست الصعداء. وخففت اليد التي كانت تعتصر قلبي من قبضتها عليه. أخبرتني العجوز أنها خالة نظام وقد أقام زاهر في بيتها مذ مرض وفقد القدرة على الحركة. شكرتها ومضيت. عاد النبض منتظماً والأنفاس طويلة. ما دامت نظام تقيم في رباط فهي غير متزوجة حتماً. فلا يقيم في الرباط إلا العابدات الزاهدات اللواتي نذرن أنفسهن للعبادة ورعاية الأيتام.

اتجهت إلى الحلة التي فيها الرباطات ورحت أسأل فلم أستدل إلا على رباط واحد للنساء فقصدته مباشرة. عند بابه وقفت ولم تطعني

يدي حين أمرتها أن ترتفع وتطرق الباب. سلّمت قلبي لله وتوكلت عليه أن يقلّبه على الوجه الذي يرضيه. طرقتُ الباب فانفتح من فوره ولم يظهر أحد:

- السلام عليكم. أبحث عن نظام ابنة زاهر الأصفهاني.

انفرج الباب أكثر وأطلّت. كانت هي التي فتحت الباب وكأنها كانت تنتظر طرقتي تلك. تأملت وجهها الذي يحيط بها خمارٌ أسود زاد بياض بشرتها وضوحاً. وتأملت هي وجهي فرأت سنواتٍ من الشوق والخوف والوجل والحبّ المؤجل حتى هذه اللحظة. تبادلنا نظرات مرتبكة للحظات ثم ابتسمت لي فهتفت:

- نظام!

- أهلاً بالمسافر.

- أهلاً بك.

صمتّ لحظة وشعرت أن كلاماً كثيراً يتدافع ليخرج من فمي فانسدّ الطريق ولم أستطع أن أقول شيئاً منه. وأخيراً خرجت من فمي جملة ضعيفة حائرة:

- فخر النساء! لم أعلم بموتها إلا من خالتك!

- لك العذر.

- أعظم الله لكم الأجر.

- لنا ولك.

ظلت نظام واقفة على الباب وأنا خارجه. دائماً هناك بابٌ وعتبة في حبنا. عند باب فخر النساء. باب بيتها في مكة. والآن باب الرباط في بغداد. أبوابٌ فتحت لي لأدخل وظلت مفتوحةً لأخرج. أبواب

طيّبة وظالمة. سخيّة وشحيحة. ولكنها تفسّر كل شيء في علاقتي بها. حبٌّ ذو أبواب. إذا طرقتها ففتحت فهذا لا يعني أنك ستدخل. وإذا دخلت فهذا لا يعني أنك ستبقى. وإذا خرجت فهذا لا يعني أنك ستعود.

شعرت أن وقوفي طال دون كلام. استجمعت شجاعتي وقلت:

- اسمعي يا نظام...

أسندت رأسها على حافة الباب في خفر وابتسمت وهي تقول:

- قل يا محيي.

- تعلمين ما بقلبي من حبكِ...

ازدادت ابتسامتها اتساعاً وصفاءً وهي تقول بصوتٍ هادئ كأنها تهدهد رضيعاً لينام:

- أجل، أعلم ذلك ولا أنساه.

- وأعلم ما بقلبكِ من حبي.

- بل تعلم بعضه، ولو علمته كله لما صدقت.

تجمّع دجلة وصبّ نفسه في عروقي وأنا أسمعها تقول ذلك. فقلت مباشرةً دون أن أنتبه إلى ارتفاع صوتي ونحن في طريق:

- فلمَ تصدّينني عنكِ وقد بيّنت لكِ الود وقطعت لك العهد؟

باعدت بين رأسها والباب واعتدلت في وقفتها وتنفست بعمق ثم أعادت رسم ابتسامتها المطمئنة بشفتيها الورديتين ثم قالت:

- بأي قدرٍ تحبني يا محيي؟

- والله ما طلعت الشمس ولا غابت على حيّ أحب إليّ منك.

- ووالله ما طلع القمر ولا غاب على حيٍّ يرزق أحب إليّ منكَ.

- فلم ترفضين الزواج مني؟

مدّت يدها. أجل مدّت يدها ونحن في طريقٍ يمرّ منه ناسٌ ومسّت ترقوتي. صغرت ابتسامتها وازدادت عيناها اتساعاً وقالت وهي تنظر إلى حيث تجول بيدها في عنقي:

- لأني لا أملك ذلك يا حبيبي.

- ولماذا؟

- لأني وتدك الثالث...

- ......

- والأوتاد يتزوجون الأرض يا حبيبي.

تراجع دجلة الذي كان في عروقي وراح يجفّ بسرعة هائلة كأنه فوق مرجلٍ ضخم. ووقفت مثل صنم لا يملك أن يحرك نفسه. أنظر في وجه نظّام بعينين زائغتين تجمدت فيهما المفاجأة. مسحت بكفها على وجهي وتوغلت بأصابعها في لحيتي واستطردت:

- ... وفي ملطية وتدك الرابع والأخير، فأقبل عليه يثبّت قلبك.

٧٤

المخطوط في دمشق

١٢٩٠ هـ/١٨٧٣م

قطعت عهداً أن أنتظره حيث ودعته عند باب الرباط قبل ثلاثة وسبعين يوماً أحصيها كما أحصي ركعات صلاتي وحبات مسبحتي. وضعت في يده زمام الجواد وصرة المال وشددت على ساعده وأنا أحوج منه إلى من يشدّ على ساعدي. قلت له:

– كم أغبطك أن تقع عيناك على كلمات الشيخ قبل عينَيّ.

– لن يمضي شهران يا أمير إلا وهي بين يديك.

ومذ ذلك اليوم وأنا جالس على كرسيّي هذا الذي يكشف الرباط بأكمله. أستبدل وسادةً تحتي بأخرى كل يومين متى قست وآلمني ظهري. سرعان ما ألف التلاميذ مقامي المؤقت فتحلقوا حولي. تلاميذ الصباح المعدودين الذين أشرح لهم تواليف الشيخ الأكبر في بيتي. وتلاميذ الظهيرة الذين أشرح لهم القرآن في الجقمقية. وتلاميذ المساء الذين يقرأون "صحيح البخاري" في الأشرفية. وتلاميذ الليل الذين ينسخون ما وافقتهم عليه من المواقف

الروحية ويراجعونها معي كل أسبوع. وبين أولئك يمرّ بي طالبو الفتيا فيحدثني كلٌّ منهم بشأنه. وطالبو الشفاعة الذين حيل بينهم وبين والينا صبحي باشا. وطالبو البركة الذين يمسحون على أكمام ثوبي بأقمطة مواليدهم وضمادات مرضاهم. والجزائريون الذين يتقاطرون على دمشق قاصدين إياي في يومهم الأول لأتشفع لهم في عمل أو مسكن إو إعفاء من الضريبة العثمانية. وموظفو المجلس البلدي الذين صاروا يجلبون إليّ أوراقهم لأختمها بختمي بعد أن توقفت عن زيارة المجلس. والمسيحيون الذين ما زالوا بعد مرور ثلاثة عشر عاماً على الفتنة التي استبيح فيها حيّهم وديرهم وكنائسهم يقودهم قسّهم بانتظام كل أسبوع ليستمعوا إلى درسي. حتى الأطفال لا يمنعهم الزحام من التسرب بين قامات الكبار حتى يجدوا طريقهم إليّ وهم يعرفون أني أقدم الطفل على الكبير. فيسألون أسئلتهم المكررة: "كيف هي باريس يا أمير عبد القادر؟ كيف حاربت الفرنسيين يا أمير عبد القادر؟ صف لنا الباب العالي يا أمير عبد القادر؟ هل ركبت الباخرة يا أمير عبد القادر؟". وأحكي لهم الحكايات التي تنفض عن ذاكرتي غبار ستين عاماً وتفتح أمام الدماء أوردة كانت قد جفت في قلبي. ومتى أظلم الليل وخرج العسس رافقني تلميذي القمقشناوي إلى البيت وألحّ عليّ أن أعود إلى مجالسي المعتادة في البيت والتكية والمسجد بدلاً من الجلوس في الطريق مثل عابري السبيل فأجيبه:

– حتى يعود طنطاوي.

– ولكنه إن عاد جاءك حيث أنت يا أمير.

– يا ولدي إني أعلم ذلك. ولكني طنطاوي سيعود بإذن الله حاملاً نسخةً من تواليف الشيخ الأكبر. إني أستحي من المحمول لا الحامل.

– فما رأيك أن نعيّن من يرصده عند أبواب المدينة؟

- نعم. تلك فكرة حسنة.

- من تريدني أن أبعث لهذه المهمة؟

- أنا.

أسقط في يد المسكين. وصرت أصلي الفجر ثم أغذّ السير إلى باب البوابجية حيث تدخل قوافل الأناضول من شمال المدينة. اتخذت مجلساً بين صناع النعل والأحذية تختلط فيه أصوات مطارقهم بأحاديث الدرس. ومن عرفني منهم توقف عن الطرق أو انزوى داخل حانوته أو ربما أغلقه وجاء ليجلس مع الجالسين. كل يومٍ يهديني أحدهم نعلاً حتى توقفت عن قبولها. فصاروا يهدونني جرابات جلديةً لحمل الكتب وزعتها على التلاميذ. يسألني القمقشناوي ليلة أخرى:

- لماذا تأخر طنطاوي يا أمير؟ المسافة بين دمشق وقونية خمسة عشر يوماً ذهاباً ومثلها إياباً، وسينسخ الكتاب في شهر كما قال! هذا يعني أنه متأخر اثني عشر يوماً عن ميعاد عودته المرتقبة.

- بل ثلاثة عشر يوماً ونصف نهار يا قمقش.

- أتظنه أمرٌ قد حلّ به؟

- كان ليبلغني خبره لو حلّ به سوء. لا ريب أنه النسخ طال به أكثر.

ورغم التفاؤل الذي أبديته للقمقشناوي تلك الليلة إلا أن قلقه تسرّب إلى صدري. تقلبت تلك الليلة في نومي حتى أيقظت خيرية. وظل نومي مضطرباً حتى ثلث الليل الأخير. استيقظت للقيام وفرغت منه مبكراً فاضطجعت على سجادتي لأغفو في انتظار أذان الفجر. وحينها رأيت في منامي حبات من لؤلؤ بحجم قبضة اليد تتدحرج تباعاً في الطريق بين السويقة والصالحية فتضيئه. ارتفع أذان الفجر فهرعت للصلاة وأنا أحمد الله على وصول الطنطاوي أخيراً.

وما فرغت من صلاة الفجر إلا وهو ماثلٌ بين يديّ يعانقني وأنا جالس.

– ماذا أخّرك يا ولدي! ألم أوصلك أن تنسخ "الفتوحات المكية" وتعود من فورك؟

– بلى يا أمير. ولكني وجدتُ كتاباً آخر في ضريح مولانا جلال الدين الرومي فاستخرت الله وقررت نسخه. وعلمت أنك لا تسامحني إن لم أفعل.

وأدخل يده في جرابه المعلق على رقبته وأخرج الكتاب. صحت به:

– طنطاوي! هذا ماهوش خط يدّك!

أشعّت عيناه بولعٍ طفولي وهو يتقرفص أمامي ويقول:

– أجل يا أمير. ليس خطي!

– خط من إذن؟

ولم يجب وإن اتّسعت ابتسامته لتمنحني أجمل الإجابات. تأملت الأسطر المخطوطة حتى اختفت وراء حجابٍ من دموعي. سألته بصوتٍ واهٍ:

– لكن... كيفاش يا ولِدي؟ كيفاش عطاهولك؟

– إنها سيرتك العطرة يا أمير. كانوا قد وافقوا لي أن أنسخه وعملت على ذلك فعلاً. ولما أنهيت منه نسختين كتبت على غلاف كلٍّ منهما "مكتبة الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسنيّ الجزائري". قرأها خادم الضريح وأنا أستعد للرحيل فعلم أنها لك، فاستبقى لديه النسختين وقرر إعطائي الأصل ما دام سيكون بعهدتك.

وقمت دون أن يقيمني أحد. ومشيت دون أن يعضدني أحد. واتجهت إلى مكتبتي يتبعني الطنطاوي وهو بعد بثياب السفر. دخلت المكتبة وأنا أبحث عن مكان يليق بكتابٍ مسطورٍ بيد الشيخ الأكبر نفسه. قصدت على الفور ركن الهدايا. أزحت وسام جوقة الشرف الفرنسي. وسام النسر الأبيض

الروسي. صليب البابا بيوس التاسع. النيشان المجيدي العثماني. المسدسين الأمريكيين والبندقية الإنكليزية. كل الهدايا التي تراكمت في خزانتي منذ انقضاء الفتنة. كادت أن تزيح نفسها لو لم أزحها بنفسي ليحلّ محلها هذا الكتاب.

غادر الطنطاوي مكتبتي وأنا جالسٌ في منتصفها أتأمل في أركانها ونوافذها ومداخلها وفتحات تهويتها ومسارب مياهها وأفكر في احتمالات أن يمسّ الكتاب أي سوء. أخيراً وقعت عيناي على صندوق الوصية. فتحته وأخرجت وصيتي التي كتبتها في منفاي الفرنسيّ قبل عشرين سنة ولم أغيّر فيها حرفاً. وضعت الكتاب مكانها ثم أخرجت قلمي وفتحت الوصية وذيلتها في دمشق عام تسعين ومائتين وألف من هجرة النبي الكريم، هذا الفقير عبد القادر يوصي أن يُدفن جوار الشيخ الأكبر إكسير العارفين وإمام المحققين في تربته المباركة في الصالحية. عسى أن تناله بركة الوريث المحمديّ وتنسدل على روحه المذنبة ستارة القطب الأبديّ.

السفْر التاسع

٧٥

"المسافر بلا زاد لا يُقتدى به"

ابن عربي

طيلة الصباح وأنا أيمّم وجهي جهة الشمال لأشم رائحة طريقي. مرّت ثلاث سنوات وتسعة أشهر منذ آخر مرة سافرت فيها سفراً أقطع به الفيافي والقفار. وأظن بغداد قد ألقت عليّ بشباكها حتى لم أعد أشتهي بعدها حِلاًّ ولا مرتحلاً. واليوم بعثت سودكين وبدر إلى السوق ليشتريا عدة السفر إلى ملطية ويستعلما عن خبر القوافل فخلا عليّ البيت. وتجاذبتني لأول مرة رغبتان متضادتان بأن أبقى وأن أرحل. وقد كنت كلما حان وقت الرحيل سبقتني روحي إلى مبتغاي قبل جسدي. ولكن بغداد دار السلام أسبغت على روحي السلام فعلاً. فلا اتصلت فيها بسلطانٍ لأتحرّى شأنه، ولم أنهمك فيها بعملٍ لا يرجى عائده.

عاد بدر ومعه الرحال التي طلبتها ولكن بالأخبار التي لم أتوقعها. ملك الموصل يحشد جيشاً ولا بدّ أن حرباً ما ستقع بينه وبين الكرج

ولا ينصح بسلوك هذا الطريق. تأملت عينيه اللتين تضيقان كلما كبر تحت حاجبين يزدادان كثافةً وبياضاً وسألته:

- وماذا عن القوافل؟

- كلها تأخذ طريق حلب إلى الأناضول.

نفضت يدي من لا شيء وقلت:

- نذهب معهم إذن.

وكانت القافلة اتحاداً من ثلاث قوافل ترفع راية الخلافة العباسية وفيها مئات الرحال متصلة بأكثر من خطام. قطعنا الطريق إلى حلب في سبع وعشرين يوماً انقسمت فيها القافلة مرتين وتفرعت في مسالكً أخرى. أما جيش الموصل الذي تجنبناه فبلغتنا أنباؤه من القوافل التي لقيناها في مفترقات الطرق واستراحاتها. لم يتحرك قط وانتهى كل شيء بشكل طريف. سكر ملك الكرج وركب جواده وسار به وحده فسقط في حفرة. فانتشله أتباع ملك الموصل وافتدوا به مدينتهم بأسرها وانفكّ الحصار وانتهت الحكاية التي جعلتنا نتجه غرباً بدلاً من الشمال.

استبشر الجميع بهذه الأخبار ونحن على مشارف حلب ولكني لم أتمكن من تفريغ ذهني من الأمر. لماذا أرادني الله في الغرب قبل الشمال؟ ليس في أقدارك يا ربي مكان للعبث ولا في حياتي متّسعٌ لتجاهل إشارات السماء. أرقت بسبب ذلك في الليالي الست الأوَل في حلب. ودخل علينا عيد الأضحى تلك السنة وأنا لا أعرف على أي جهة سيعود النوم إلى جفوني الساهرين. أخيراً وكّلت أمري لله. يريدني الله حيث يريدني وأنا وليّه الذي لا وجهة لي إلا حيث يولّيني،

ولا طريق لي إلا حيث يهديني. أيقظت سودكين وبدر وهما في عمق النوم، فلما استيقظا نظرت إليهما وقلت بحزم:

- نبقى في حلب... حتى حين.

فرك بدر وجهه طولاً وعرضاً كعادته إذا أفاق من نوم وقال بمزاجه الذي صار شائكاً منذ سنوات:

- ولِمَ لا تخبرنا في الصباح يا سيدي؟

تأملني سودكين وهو ينتظر جوابي فقلت بنبرةٍ كادت تخذلني وتتهدج:

- حتى أتمكّن من النوم!

وعدت إلى فراشي وغططت في نوم عميق جعل بدراً يربت على كتفي ووجهي عدة مرات قبل أن أستيقظ لصلاة الفجر وكان يكفيه من قبل أن يهمس لي همساً. وفي منامي رأيت تنوراً يتأجج بالنار وأنا أقترب منه حتى وقفت عليه. ثم اتّسعت فوهته فوجدتني داخله دون أن يحرقني. ثم رأيت صدري ينشقّ فتخرج منه قطعتا ثلج كبيرتان بحجم ثمرة إجاص لم تلبثا أن ذابتا في حرارة التنور. ثم خرجت من التنور وتحسست صدري فوجدت قميصي مثقوباً في موضع القلب والناس من حولي يتعجبون من هذا الثقب ويشيرون إليه وبعضهم يسخر منه ويضحك حتى بلغت بيتي وهرعت لأستبدل قميصي بآخر. فلما خلعته وألقيت به على الأرض نهض القميص فجأةً وتشكل على هيئة امرأة عانقتني.

استيقظت من النوم وبقيت في فراشي أحاول تفسير منامي فلم أستطع ولا كشف الله لي. ثمة قلب مفقود وامرأة جميلة. ماذا يريد

الله بعبده الفقير إليه؟ ناديت سودكين وطلبت منه أن يطوف مساجد حلب يسأل عن مفسّر أحلام فغاب النهار كله، وعاد بعد غروب الشمس وجلس بين يديّ وقال:

- سألت خمسة. اثنان قالا لي إن التنور عذاب الزناة في الآخرة وعلى صاحب المنام أن يتوب إلى الله. وثالث قال إن الثلج الذي يخرج من القلب علامة فراغ القلب وبرودته وبعده عن الحق. والرابع قال إن صاحب المنام يحوم حول الحمى يوشك أن يقع في ذنبٍ عظيم.

- والخامس؟

- الخامس لم يفسّر الحلم ولكنه قال بإيجاز: على صاحب المنام أن يتزوج.

أويت إلى فراشي تلك الليلة وأنا أفكّر بعمق مثل سفينةٍ تشقّ بحر الظلمات. وفي منتصف الليل رسوت على بر. أيقظت سودكين فهرع إليّ جزعاً وهو يظن أن سوءاً حلّ بي. قلت له:

- لقد كشف الله لي تفسير حلمي. أخرج الله مريم ونظام من قلبي برداً وسلاماً فأصبح قلبي خالياً. وسيبعث الله لي امرأة تخرج من ثوبي أي أنها ستتبع طريقي وتأخذ نهجي. وستعانقني أي أني سأتزوجها.

فرك سودكين النعاس من عينيه وقال بقلق:

- هذا خيرٌ كله يا سيدنا.

- أجل كل الخير. عد إلى نومك.

عاد سودكين إلى نومه. أما أنا فقد أخذت طاس الماء وتوضأت ورحت أصلي. استخرت الله في صلاتي وسألته أن يعجل لي بالمرأة

التي تسدّ ثقب قلبي الذي رأيته في المنام. ومكثت في صلاتي حتى بزغ الفجر وخرجنا جميعاً إلى المسجد. أشرقت الشمس وخرجت إلى السوق لأشتري ورقاً فوجدت قباباً وخياماً تنشر على طول الطريق وكأن احتفالاً كبيراً يوشك أن يقام. ولم يكن الملك غازياً ولا منتصراً. فسألنا ليأتينا الخبر بولادة ابنٍ جديد للملك الظاهر.

بقيت حلب متزينة بهذا المولد قرابة الشّهر أمر فيها الملك الظاهر أن تنصب الموائد كل يوم ويأكل الناس عليها بلا مقابل. وفي أسبوعه الثالث عقد حفل ختان كبير. وجلب أكابر القوم أطفالهم ليُختنوا مع الأمير الوليد. وبدا للناس أن الملك في أفضل حالاته بولادة ابنه. فلم تنقضِ الاحتفالات إلا وقد أمر بجملة من أعمال البناء: ثلاثة أبواب جديدة للمدينة وسور منيع وتجديد الجامع بعد الحريق الذي حلّ به. لم يعد لدي أي شك بعد هذا كله: رؤيا في المنام وزينة في البلد. اللهم زوجنيّ.

٧٦

"الورع في الحلال لا يُعوَّلُ عليه"

ابن عربي

مرت بضعة أيام على منامي وصورة هذه الزوجة المشتهاة لا تفارق خيالي حتى أولعت بها وأنا لم أرها ولا أعرفها. رحت أسأل الله في دعاء سجودي أن يدنيني منها ويدنيها مني لعل قلبي يسكن بها وروحي تأنس بصحبتها. استجاب الله لي سريعاً. عند باب بيتي التقيته وأنا عائدٌ من المسجد. كان جالساً مع سودكين عند عتبة الباب في انتظار عودتي حتى إذا رآياني مقبلاً قاما إليّ فقبّل الرجل رأسي وأنا أحاول أن أتبيّن ملامحه التي بدت مألوفة.

- سلام الله عليك يا سيدنا.

- أهلاً بك...

- خادمك ومحبك يونس بن يوسف.

التفتُّ ناحية سودكين معاتباً:

- ما بال ضيفنا يجلس عند عتبة الباب يا سودكين؟

طأطأ سودكين رأسه خجلاً وقال:

- دعوته إلى الدخول فأبى...

قاطعه يونس قائلاً:

- أجل دعاني فأبيت، وفضّلت أن أكون في استقبالك يا سيدنا.

وجّهت كلامي إلى سودكين وأنا أشير بإصبعي محذراً إياه:

- لا يجلس عند عتبة بابي ضيف وأنا الحاتميّ الطائي.

- سمعاً وطاعة يا سيدنا.

ودخلنا البيت معاً وسارع سودكين لإعداد قرى الضيف الذي أبى أن يجلس إلى جانبي وأصرّ على التقرفص بين يديّ. وقال:

- بارك الله في علمك وعملك يا سيدنا. حضرت درسك ونهلت من بحر معارفك.

- أي درسٍ كان؟

- كان قبلَ بضعٍ سنين في مكة قبل أن تغادرها فتنفطر لفراقك قلوبنا.

- إذن لأجل هذا كان وجهك مألوفاً لي ولكني لم أتذكرك.

- ولكنك حاضرٌ في القلب والروح والذاكرة يا سيدنا.

- أحسن الله إليك وملأ قلبك وروحك برضاه وبركاته.

جلب سودكين فاكهةً وخبزاً، وجلس قريباً منا جلسته المعتادة التي يلصق فيها ركبتيه بصدره ويسند ذقنه عليهما. أكلنا مما جلب. وسألت الرجل من أين أتى:

- من ماردين يا سيدنا. ولكني أتردد إلى حلب كل صيف.

- وماذا يأتي بك إليها.

- ابنةٌ كانت متزوجة من حلبيٍّ وقد مات.

- رحمه الله. ولها أبناء؟

- لا.

- وماذا تفعل في ماردين؟

- أدرّس صبيان الترك القرآن واللغة العربية. وإذا جئت إلى حلب أفسّر الأحلام.

نظرت إلى سودكين فابتسم لي ابتسامةً ذات مغزى. فنظرت إلى يونس مرةً أخرى فبدا له أني أنتظر توضيحاً ما. فسارع إلى القول:

- قبل أيام جاءني سودكين يطلب مني أن أفسّر له حلمك. وقد فعلت. وقبل أن أعود إلى البيت تلك الليلة جاء من يدعوني إلى بيت ابنتي عاجلاً، فهرعت إليها فوجدت رسولاً من ديوان الجند يبلغها أن زوجها قد استشهد.

- استشهد؟ ما علمت أننا في حرب؟

- لا لم تكن حرباً يا سيدنا. كان في عسكر جرّدهم الملك من حلب ليدفع أذى الفرنجة عن انطرسوس ولكنهم كمنوا لهم وقتلوهم جميعاً.

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

- قدّر الله وما شاء فعل... ولقد حدثتني نفسي أنه لربما كان من تقدير الله أن تترمّل ابنتي في اليوم الذي فسّرت فيه حلمك. وإني لا أجد لها أكفأ منك. فإن رغبت بها فهي زوجتك بلا مهر.

- بارك الله فيك يا يونس. ولكنك تعطيني ما لا تملك. سآتي لرؤيتها بعد انتهاء عدتها. فإن قرّب الله بين قلبينا خطبتها والأمر لها وحدها.

- كما ترى.

انتهت عدة فاطمة وتزوجتها فوجدتها كما أرادها القلب. أو ربما أن قلبي الخالي كان ليرضى بأي شيء وجسدي المتعب كان سيقبل بأي نصيب بعد سنوات طويلة من السفر والخلوات. المهم أنها جاءت سكناً للروح وراحةً للنفس. سرعان ما أزهرت في صدري مثل حديقةٍ من الياسمين. وعاد أبوها إلى ماردين وقد اطمأن على ابنته، وأنستُ أنا بحبها وقد اطمأننت على شيخوختي، ولم يبقَ قلقاً في البيت إلا بدر.

دخلت حجرته مساءً فوجدته مضطجعاً في غير وقت نوم. جلس بصعوبة فور أن ألفاني داخلاً وراح يشتكي من آلام ظهره التي لم تبارحه. قال بصوتٍ تقطّعه التأوهات:

- بعثت سودكين ليجلب ماءً.

- أحسنت.

جلست بجواره فكفّ قدمه وبقينا صامتين بعض الوقت قبل أن يقول:

- والآن... ما لنا لا نذهب إلى ملطية؟

- ثمة إرادة إلهية جعلتنا نتجه غرباً يا بدر.

- ولكن الغرب واسع، فما لنا نبقى في حلب؟

- وماذا في ذلك؟

نظر بدر إلى وجهي متعجباً ثم هزّ رأسه بتحسر وقال:

- ماذا في حلب؟ ما فيها إلا محبوك من الفقهاء ومريدوك من الوعّاظ....

فاجأتني سخريته الكبيرة رغم جمود ملامحه فدهمتني الضحكة. استطرد هو دون أن يعبأ بضحكي:

- ... ولا ينفكّون يشرعون لك أبواب الجوامع بل وأبواب بيوتهم، ويجلسون بين يديك، ويأخذون من علمك.

علت ضحكاتي فتوقف بدر ولم تلن ملامحه قط بل نظر إلى وجهي وهو يقول معاتباً:

- أنسيت ما فعلوه بك قبل سنوات حين فررنا منهم إلى القاهرة؟ إن كنت نسيت فلا أظنهم نسوك.

لم أجبه. غرقت في نوبة ضحك. أخفيت وجهي بكفيّ وراحت ملامح بدر الجامدة تتكرر على ذهني وكلامه الساخر يتردد إلى سمعي فأضحك. لأول مرة منذ صاحبني يتحدث معي بسخرية وكأن قد ضاق ذرعاً بي ولم يعد يحتمل شطحاتي ونزواتي. نظرت إليه فإذا هو لا يزال عابساً وعلى وجهه آثار النوم والإرهاق. راح يمسح عن ثوبه غباراً طفيفاً ولا ينظر في وجهي. قلت له:

- لا أذكر متى كانت آخر مرة ضحكت فيها بهذا القدر يا بدر.

أجابني فوراً دون أن يكفّ عن انشغاله بثوبه:

- غير أنه ليس مقام ضحك. فأنا جادٌّ في ما أقول. لا أظنه في صالحك أن تقيم في حلب.

ثم رفع رأسه ناحيتي وقال:

- فإن كانت إشارتك الإلهية أخذتك غرباً فلنذهب غرباً. غرب الله واسع، ولكن أبعدنا عن معاقل الأيوبيين وملوكهم الذين لا رأي لهم إلا رأي العامة ولا شغل لهم إلا شغل السياسة.

أطرقت في صمت ولم أجب. مسّ كتفيّ ثم رفع بيده ذقني لأنظر في وجهه وقال بنبرةٍ محذّرة:

- يا سيدي، مشنقة السهروردي ما زالت قائمة في دمشق. والذي شنقه كبير الأيوبيين وأعقلهم صلاح الدين، فما ظنك بالسفهاء من أبنائه وأبناء إخوته؟ لقد قتل بعضهم بعضاً فهل تراهم يحفظون دم وليٍّ متصوف من الأندلس؟

- يحفظني الله يا بدر.

- ويمنعك الله من أن تلقي بنفسك إلى التهلكة.

صمتّ فصمت هو الآخر. وجاء سودكين فألفانا صامتين فوضع أمامنا طعاماً ولم ينبس بكلمة. أكلنا ونحن لا نسمع إلا أصوات أشداقنا وهي تلوك الطعام. كنت أفكّر في كلام بدر بعمقٍ شديد وأحاول أن أقيّمه في ميزان العقل بعيداً عن المخاوف غير المبررة. أعلم أنه تقدّم في سنّه وأصبح القلق ديدنه. أين نذهب بعيداً عن الأيوبيين وهم يملكون مصرها وشامها ويمنها؟ بل أين نذهب بعيداً عن الأعداء وهم في كل مكان؟

انتهينا من الطعام وأدار بدر ظهره إلى سودكين ليدلكه له ثم أحجم عن ذلك بعد أن ازداد ألمه. أشفقت عليه مما هو فيه، صاحبي الذي لم يفارقني طيلة هذه السنوات؟ ما عصى لي أمراً ولا ردّ لي طلباً. وها هو يهرم في صحبتي وأنا لا ألقي له بالاً.

- اسمع يا بدر.

التفت جهتي هو وسودكين معاً. فنظرت في عيني بدر مباشرةً وقلت:

- كل الغرب الذي جاءتني منه الإشارة تحت حكم بني أيوب...

قاطعني بدر قبل أن أكمل وقال:

- نذهب إلى دمشق إذن. على الأقل يحميك منهم قاضي القضاة ابن الزكي.

ابتسمتُ ابتسامةً واسعة. كان هذا ما أفكّر فيه فعلاً وهممت باقتراحه عليه، ولكني لم أقل له ذلك. أومأت برأسي علامة الموافقة وأنا أقول:

- هو ذاك يا بدر. سمعاً وطاعة. نرحل إلى دمشق متى أذن لنا ظهرك!

٧٧

"كلُّ إرادةٍ لا تؤثر لا يُعوَّل عليها"

ابن عربي

أرسلت فاطمة إلى أبيها في ماردين ورحلنا إلى دمشق فلا بلغناها ولا وصلناها. وكم من راحلٍ لا تكتمل رحلته ولا يبلغ جهته. سبحان الذي أخرجني من بغداد أبغي ملطية فانتهيت في حلب. ثم أخرجني من حلب أبغي دمشق فانتهيت في البقاع. حدث هذا ونحن على بعد يوم أو يومين من بلوغ محروسة دمشق فإذا دابتي تنزع غرباً. شددت خطَّامها فعضته حتى قطعته. ونزلت لأقودها فسحبتني حتى أوقعتني. نزل سودكين وبدر من دابتيهما وراحا يسوسان هذه البغلة العاصية فتأبت وراحت تطلق شحيجاً عالياً. تناقشنا في احتمال كونها متعبة أو جائعة. قربنا منها التبن فلم تأكله. فربطناها في شجرة وجلسنا قريباً منها لعلها ترتاح.

قال بدر لسودكين:

- ليتك لم تشترِ بغلةً رومية. إنها قوية ولكن عنيدة.

دافعت عن سودكين:

- وكيف له أن يعرف البغلة المطيعة من العنيدة يا بدر؟

- كل بغال الروم عنيدة. لو اشترى بغلاً مصرياً لكنا أكملنا طريقنا الآن.

داعبته ضاحكاً:

- كم تحب مصر يا بدر.

أدار رأسه بعيداً ولم يجب. ثم قال فجأة:

- لا أعرف لي وطناً غيرها. فيها نشأت وكبرت.

ابتعدت قيد خطوات منهما واضطجعت تحت ظل شجرة وحاولت أن أنام. سمعت صوت رجل مسنٍّ يصلي ويدعو الله في صلاته دعاءً شجياً. وقفت وأنا أحاول أن أرهف سمعي. قلت لهما:

- أتسمعان ما أسمع؟

تبادلا النظرات ولم يجيبا. قال سودكين:

- ماذا تسمع يا سيدنا؟

أغمضت عيني ورحت أدور على نفسي. رفعت ذراعيّ عالياً وتركت لعقبيّ حرية تحديد مساري. شعرت بالدوار ولكني لم أتوقف. وكلما ازداد الدوار في رأسي ازداد صوت الرجل المسنّ وضوحاً حتى بدا وكأنه بجواري. درتُ ودرتُ ودرتُ وشعرت أني أرتفع عن صفحة الأرض وأسبح في ملكوت السماء. وانبلج في ظلام عينَيّ المغمضتين فوحٌ من نور وكان الرجل جالساً في جلسة التشهد. ثم سلم التسليمة الأولى فالثانية. ثم نظر إليّ مباشرةً وقال:

- غربة يا أخي!

سقطت ليتلقفني ذراعا سودكين الذي كان يحوم حولي منذ بدأت في الدوران خشية أن أسقط. جلسنا معاً على الأرض وأسندت رأسي على صدره ورحت أحاول فتح عينَيّ في وهج الشمس فأفلح تارةً وأخفق أخرى. نضح بدر على وجهي الماء ثم مسح على جبيني وكشف صدري وراح يجوس فيه بيده المبتلة. وأخيراً شعرت أن بدني يعود إلى الأرض وقد فارقها لثوانٍ، وروحي تعود إلى جسدي وقد سبقتها إلى البقاع.

فقدت توازني في دوراني ولكني وجدت طريقي وعرفت غايتي. وقفت واتجهت إلى بغلتي وقبّلت جبينها الواسع. حللت رباطها وركبت فوقها واتجهنا غرباً.

تبعني بدر وسودكين دون أن يتكلما كلمةً واحدة. وقطعنا ساعةً في الطريق قبل أن يسألني بدر أخيراً:

- أين نذهب يا سيدي؟

- إلى البقاع يا بدر التمام.

- وما غايتنا منها؟

أشرت إلى بغلتي التي كانت تسير بنشاط وقلت:

- اسألها!

تراجع بدر وغمغم متبرماً بكلامٍ لم أسمعه. كنت أعرف أنه متعب وآلام ظهره تعاوده من حينٍ لآخر. ولكني لم أكن أسخر منه. فمذ ركبت على بغلتي وهي تقودني ولا أقودها. وأنا لا أعلم ما غايتي من الذهاب للبقاع. سمعت صوتاً ورأيت شيخاً ولكني لا أعرف من هو ولا ماذا يريد. كل ما أعرفه هو الطريق إليه فوق هذه البغلة. ولسوف

أظل فوقها وهي تسير بي حتى نصل ولو قطعت بي الأرض كلها.
فالإشارات لا تحدث عبثاً، والكشوفات لا تنزل سدى.

٧٨

"كل غيبة لا يرجع صاحبها بفائدة لا يُعوَّل عليها"

ابن عربي

مشينا ساعات وساعات وبدأ بدر يتأوه بصوت عال. كان منكفئاً على ظهر البغلة متعلقاً بعنقها ليخفف من آلام ظهره. ثم صاح فجأةً:

- لم أعد أحتمل هذا!

ونزل من بغلته وانسدح على ظهره وراح يلهث ثم صاح:

- يا ربي لطفك! لم أعد أحتمل.

حففنا به أنا وسودكين. حملناه إلى ظل شجرة وتركناه على ضجعته تلك. كان جبينه متعرقاً وآلام ظهره بادية بوضوح على ملامحه. أشفقت عليه مما يجد من آلام وهو في هذا العمر. يحدث أحياناً أن ينفد صبر المريد ويمتحن الله إرادته. يحدث أن يكبر في السن ويؤلمه ظهره وتطقطق مفاصله. يحدث أن يتمنى الحياة الهادئة الوديعة في خانقاه آمن. والطريق القصيرة بين البيت والمسجد. والدروس اليسيرة والكتب القليلة والغرف الدافئة والأحداث المتوقعة. ولكن

كل هذا ليس بيده ولا بيدي. لا بدّ من السفر كي نستجلب العبر. والمؤمن في سفرٍ دائم. والوجود كله سفرٌ في سفر. ولولا أني حفيٌّ ببدر ولا أحتمل فراقه لتركته يستقرّ حيث يريد غير أني أريد له حياةً أكثر عمقاً وأوغل تجربةً. أريد له تصوفاً يليق بقلبه النقيّ وروحه الطاهرة. ألا يعلم أن من ترك السفر سكن، ومن سكن عاد إلى العدم؟

– يا بدر...

– نعم يا سيدنا.

– هات يدك.

مدّ يده فقبضت عليها وقلت له:

– أتعلم من هو المريد؟

تنحنح بدر وكأنما فاجأه السؤال. ثم تأخر في الإجابة وكأنه اشتمّ في سؤالي عتباً عليه وقال بعد صمتٍ قصير:

– المريد يا سيدنا هو طالب علمك وتلميذ فهمك.

– لا يا بدر. لقد جعلت بهذا كل طلبة العلم على اختلاف هممهم على قدرٍ سواء مع المريدين.

– علِّمني يا سيدنا.

– المريد يا بدر هو المتجرد من إرادته خضوعاً لإرادة الله... أو تعلم من هو المراد؟

– المراد هو الشيخ الذي آتاه الله علماً يفيض به على المريدين من أمثالي.

– لا يا بدر. لقد جعلت بهذا حتى معلمي الصبيان وساسة الدواب مرادين!

- علّمني إذن يا سيدنا.

- المراد هو المجذوب عن إرادته.

صمت بدر ولم يعقّب. علمت أنه ينتظر مني توضيح ما جعلني أعيد مبادئ الصوفية عليه بعد أن صحبني كل هذه السنوات. ولربما ظنّ في الأمر توبيخاً غير مباشر. قلت له:

- يا بدر. أنت مريد تتخلى عن إرادتك بإرادتك. ولكن أنا مرادٌ مجذوب. لا خيار لي في التخلي عن إرادتي.

استمع بدر بإرهاف وتابعت كلامي:

- من أجل هذا يشقّ عليك الأمر أحياناً لأنك في صراع مع نفسك وأهوائها. أما أنا فلا أجد في نفسي هذا الصراع لأن إرادتي نُزعت مني انتزاعاً مذ جذبني الله إليه.

- زادك الله رفعةً في مقاماتك وأحوالك كلها يا سيدنا.

- ولكن هذا يجعلك أعظم أجراً لأن جهادك لنفسك أشد من جهادي لنفسي.

تأثر بدر واستعبر، وتهدّج صوته وهو يقول معتذراً:

- اعذرني. كبرت وأصبح جسدي أثقل ونفسي تميل للراحة والدعة.

- لا عليك يا بدر. هل تذكر كلام البسطامي الذي قلته مراراً في دروسي؟

- أي كلامه يا سيدنا؟

ضربته على كتفه وأنا أضحك قائلاً:

- وصرت تنسى أيضاً أيها العجوز. هل تعرف من أنا؟

ابتسم في خجل وأجاب:

- أنت شيخي وأستاذي.

- شيخي وشيخك البسطامي يقول: "ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي... حتى سقتها إليه وهي تضحك".

سالت دموع بدر على وجنتيه المتغضنتين واختلطت بالعرق الذي كان يسيل من صدغه إلى خديه وإن ظل محافظاً على ابتسامته الخجلة تلك. تأملته وهو في هذه الحال من الابتسام الدامع وتمنيت أني أفلحت في تهدئة نفسه وتسكين خاطره. وشعرت في داخلي بحبٍّ جارفٍ له. طوّقت عنقه بذراعي ورحت أمسح على جبينه وقلت:

- ما زال النهار أمامنا طويلاً. فدعني أقصّ عليك قصةً تسليك يا بدر التمام.

- كلي آذانٌ صاغية.

- ذات يومٍ من الأيام في إشبيلية حلّ بي ضيقٌ وكدر. كانت المدينة تكاد تفقد روحها وتضيق على ساكنيها وأبي ما زال يمنعني من السفر كما نمنع الصغير من النار. فارق أغلب الشيوخ المدينة نحو فاس وسلا ومراكش وتداعى سوق الورّاقين فلم يعد فيه كتابٌ ينفع لم أقرأه. اشتدّ المرض بأمي حتى صار بصرها يزوغ من شدة الصداع. كنت أخرج من البيت لا ألوي على شيء فأمشي على ضفة النهر الكبير لعلي أجد فرجاً لضيقي ومتنفساً لهمومي فأجد شباب إشبيلية في لهوٍ وضياع. يتكلمون بالخليع من القول ويمارسون الشنيع من الفعل وقد ذهب حياؤهم وقلّت مروءتهم ولم تعد تعرف ممَّ يخشى

هؤلاء الشباب وماذا يرجون. فازددت همّاً على همّ، وضيقاً على ضيق. وقادتني قدماي إلى بيت شيخي العريني الذي كنت ألجأ إليه في كل ملمّة وأشكو إليه من كل حزن. طرقت بابه ودخلت لأجده في مصلاه كما اعتدت أن أجده. قال لي فور أن رآني مقطّب الجبين ممتقع الوجه: "ما بك يا ولدي؟". قلت له: "ضاقت بي الدنيا وتراكمت عليّ الهموم يا شيخي". فلم يسألني عن سبب ضيقي ولا عن نوع همومي. كل ما قاله لي هو عبارة واحدة: "عليك بالله!" ثم عاد إلى مصلاه وكأني لست موجوداً. فتركت بيته ورحت أمشي على غير هدى حتى قادتني قدماي مرةً أخرى إلى بيت شيخي الآخر موسى المارتليّ، فوجدته في خلوته يعمل الخوص ويصنع منه سلالاً كما تعودت أن أراه. فأقبلت عليه وجلست إلى جواره ورحت أناوله أعواد الخوص واحداً تلو آخر ليعمل بها. فقال لي: "ماذا لديك اليوم يا بن عربي؟". قلت له: "همٌّ لا ينزاح عن صدري وضيقٌ لا أجد له فرجا". فقال لي دون أن يكفّ عن عمله: "عليك بنفسك!". حنقت! وشعرت أني أوغل في التيه والحيرة وأنا بين هذا الشيخ وذاك. رميت عود الخوص الذي في يدي وقمت مؤذناً بالذهاب. فقال لي: "ما بك؟" فقلت له: "يا سيدنا قد حرت بينكما هذا العريني يقول عليك بالله وأنت تقول عليك بنفسك! وأنتما إمامان دالان على الحق"، فقال لي: "عد إليه وقل له ما قلته لك". فعدت إلى بيت العريني وقلت له ما قال لي المارتلي فقال: "لقد أحسن في قوله". فقلت: "يا شيخ، ولكنه غير قولك!". فقال لي: "هو دلّك على الطريق... وأنا دللتك على الرفيق".

- يا سبحان الله!

شددت بيدي على عضديه وقلت له:

- يا بدر، إذا كان رفيقنا هو الله، فممَّ نشتكي؟

٧٩

"اعتزل الناس ليسلموا منك لا لتسلم منهم"

ابن عربي

أخيراً بلغت البغلة مرادها بعد يومين من السير في سهول البقاع. وقفت عند تلٍّ صغير وراحت تدور حوله ولا تكمل دورتها بل تعود مرةً أخرى. تأملت المكان من حولي فإذا هو خالٍ من الناس. سهلٌ فسيح تحيط به تلالٌ منخفضة الارتفاع قليلة الأشجار. لا يبدو في الأفق لا بناء ولا خيمة ولا أثر لإنسان. غادرنا طريق المسافرين منذ ساعات طويلة تبعاً لمزاج البغلة. حاول سودكين أن يحذرني من ذلك بعد أن كفّ بدر عن الاعتراضات. وقد فكرت فعلاً في خطورة أن نخرج من طريق المسافرين ونتوغل في أرضٍ لا نعرفها على حدود الفرنجة. ولكني توكلت على الله وقررت أن أخوض حيث خاضت هذه البغلة وفعلنا معاً. وكانت تعرف طريقها. لم تصعد بنا جبلاً ولم تنزل بنا وادياً بل ظلت تسير في فسحةٍ من الأرض حتى بلغت مكاننا هذا.

نظر بدر وسودكين جهتي وكأنما ينتظران القرار. لا يمكن أن نبيت في مكانٍ ليس فيه ماء ولا زاد ولا أثر لإنسان. حالما تغيب الشمس ستخرج الوحوش والضواري لتجد ثلاثة متصوفة متعبين لا يجيد أيٌّ منهم حمل السلاح. فكرت. نزلت من بغلتي ورحت أمشي. أطلت التفكير فنزل بدر من ظهر الدابة التي يركبها ورفع جلد الماعز الذي كان يغطي ظهرها وألقاه على الأرض واضطجع فوقه ليريح ظهره وهو يطلق تأوهات خفيفة. تقرفص سودكين بجواره وأسند رأسه على ركبتيه وبدت ساقاه الطويلتان من وراء ثوبه كأنهما عودان تقيمان خيمة. نظرت إلى عيني البغلة فشعرت أنهما عادتا إلى ما كانتا عليه ونحن في طريقنا من حلب إلى دمشق. أدت مهمتها وانتهى الأمر وعلي الآن أن أقرر في أمرنا أو أنتظر إشارةً أخرى. جرّبت الدوران فلم يحدث شيء. تعبت وجلست مكاني ولا نصيب لي من الدوران إلا الدوار. لا إشارة ولا أصوات ولا ضباب. أخيراً قررت:

- نصعد أنا وسودكين التلّ لعلنا نجد بيوتاً. وتبقى يا بدر مع الدواب.

وقف سودكين استعداداً للمضيّ معي وجمع اللجم الثلاث وربطها مع بعضها. ظل بدر مستلقياً على ظهره واتجهت أنا إلى التل وبدأت صعوده. تبعني سودكين وهو يحمل إحدى قرب الماء. وبعد وقتٍ قليل كنا قد بلغنا أعلى التل ورحنا نلوّح لبدر فلا يلوّح لنا. كانت الجهة الأخرى منه مثل الجهة التي جئنا منها خاويةً كأن الله قد أهلك من فيها. هبّت ريحٌ باردة تنبئ بقرب زوال الشمس وتنذر أن المبيت

لن يكون مريحاً. لا بدّ من العودة إلى طريق المسافرين لنبيت في مكان يغشاه الناس وتنفر منه الضواري. وفي الغد يفعل الله ما يشاء.

حدّثت سودكين بذلك فأومأ برأسه موافقاً بطاعة. فبدأنا النزول. وعندها فقط هتف سودكين:

- هناك!

تأملت حيث تشير إصبعه الطويلة فلم أرَ إلا تلالاً بعيدة كالتل الذي نقف فوقه. راح سودكين يهزّ إصبعه وكأنه بذلك سيجعل الرؤية أوضح ويصف ما حول المكان:

- تلك الصخرة... ذلك المنحدر... هل ترى يا سيدنا؟

- ما الذي تراه يا سودكين؟

- كأنه كهف! كأنه بيت!

- أمتأكد أنت؟

- أجل. ابقَ هنا يا سيدنا. سأذهب لأتفقده.

- لا، نذهب معاً.

ومشينا نزولاً من الجهة الأخرى للتل وغاب بدر عن أنظارنا تماماً. وبعد مشي قليل اتضح لي ما رآه سودكين ولم أره. شقٌّ في التل نصفه تسقفه صخرة معترضة ونصفه الآخر بأخشاب وأغصان متشابكة من صنع إنسان. قصدنا المكان مباشرةً. تناهى لسمعنا نباح كلب فقال سودكين:

- لقد اشتمّنا... لا بدّ أنه كلب رعاة.

ووقفنا أخيراً عند باب البيت، وسمعنا قعقة أوانٍ وحفيف بشرٍ يمشون. وقفت قريباً من المدخل وناديت بصوتٍ مسموع:

- السلام عليكم...

وخرج، يكسوه دثارٌ مشقوق الأكمام، حسير الرأس متغضن الجبين ذا حاجبين كثين ووجهٍ مستدير. لحيته تحجب صدره كله. منكباه عريضان رغم انحناء ظهره. في يده طاسة صغيرة فارغة وفي يده الأخرى عصا. قال وهو يقترب محاولاً أن يتبين ملامحنا:

- وعليكم السلام...

ثم اقترب أكثر وهو يحدق في وجهي. فاقتربت منه أيضاً وأنا أحدق في وجهه. وظلّ كلٌّ منا يتأمل الآخر لثوانٍ دون أن نقول كلمةً واحدة. ثم قلت أخيراً:

- أأنت من أظنه أنت؟

لم يجبني. ثم حرك يديه وفيهما العصا والطاسة وكأنما رأى أمراً عجيباً قبل أن يفترّ فمه عن ابتسامةٍ واسعة ثم أقبل وهو يقول:

- محيي!

وتعانقنا، وسودكين يقف مذهولاً وكأنما يحدث أمامه ضربٌ من الخيال. سالت دموع الرجل غزيرةً على وجهه ثم تركني وخرّ ساجداً لله وعاد بعد ذلك ليعانقني عناقاً أطول. ظل يمسك بعضديّ وهو يتأمل وجهي بابتسامةٍ دامعة. ورحت أنا أتأمل ملامحه وأحاول أن أرى الطريق الذي سلكه الزمن فيها. تأبّط يدي بعد ذلك ومشى بي إلى داخل الكهف الذي بالكاد يكفي رجلين. لم يبدُ أنه رأى سودكين على الإطلاق أو أن المفاجأة أنسته رؤياه. التفتُّ إلى سودكين وطلبت منه أن يذهب إلى بدر ويعود به فانطلق في حين جلست أنا بين يدي الرجل الذي ما زالت عيناه مبللتين بالدموع التي سالت واتخذت

مجراها في طيات وجهه المتغضن ولحيته الكثيفة.

- ماذا تفعل هنا؟ أتعيش وحيداً؟

- وحيداً؟ بل كنت وحيداً بينكم. الآن معي الله.

قال قولته تلك وهو ينظر حوله في عصبية وكأنه يبحث عن مفقود. لم يلبث أن التقط أعواداً من الحطب في ركن الكهف وحملها إلى دائرة من رمادٍ متراكم لنيرانٍ أُشعلت وانطفأت مراراً. ثم دخل إلى الكوخ وجلبَ فجلاً وضعه أمامي ثم عاد وجلب دقيقاً وضعه في طاس وصبّ عليه الماء من جرةٍ مثلومة الرأس، وراح يعجن. قلت له:

- ألم تجد الله وأنت معنا؟

- الله في كل مكان، ولكنكم تحجبونه عني.

- منذ متى وأنت في عزلتك؟

ضحك ومدّ يده ليقبض على أطراف لحيتي بلطف وهو يقول:

- منذ كانت لحيتك هذه سوداء كلها يا محيي.

أمسكت لحيتي القصيرة دون شعور وأنا أبتسم بخجل ثم قلت:

- ذووك يظنونك ميتاً.

- وأنت ماذا ظننتني؟

- لقد رأيتك عياناً تصلي وتدعو، ولم أتبيّن ملامحك.

- وأنا رأيتك مقبلاً على بغلة ولم أتبيّن ملامحك أيضاً.

قدح النار فاشتعلت بعد حين. راح ينفخ في الأعشاب الجافة والأغصان الصغيرة حتى علقت النار بالحطب. جلس صامتاً لا ينظر إليّ وقد اكتسى وجهه بخشوعٍ جاد ثم قال:

- قم أريك...

قمت معه ودخلنا إلى الكهف. انعطفنا داخله فأبصرت باباً قصيراً من خشب له مزلاج أداره فانفتح، فإذا هي حجرة صخرية ارتفاعها قدر قامة وطولها قدر سجود وعرضها قدر جلسة. لا يوجد فيها ثقب ولا كوة ولا شباك يدخل منه الضوء حتى بدت ونحن بعد في النهار مظلمةً تماماً. وجدت للباب وأنا في الحجرة مزلاجاً آخر من الداخل.

قال لي:

- هنا أخلو بربي.

- ولكن الخلوة بالله لا تشترط هذا.

- أعلم ذلك. ولكن قطع العلائق مع الناس يشترط ذلك.

- ولا قطع العلائق أيضاً! لقد اختلى أولياء الله في حضرته في بيوتهم وأسواقهم وحوانيتهم ومساجدهم.

ابتسم لي ونحن نعود إلى مكاننا حول النار المشتعلة وهو يقول:

- أولئك أولياء الله وليس أنا! لقد التاثت نفسي حتى لم يطهّرها إلا هذا. ولعلمك... مكثت في كهفي هذا تسع سنواتٍ أجاهد نفسي وأنازعها ولم تتحقق لي الخلوة إلا قبل أشهرٍ قليلة، وما قبل ذلك كان كله رياضة للنفس.

- وماذا تعلمت من خلوتك؟ علّمني.

عاد إلى عجينته وقال وقد بدأت النار تلقي بظلالها على ملامحه والمساء يقترب:

- مكثت بضع سنوات أعتزل الناس لأتقي شرهم ولومهم وعتبهم فلم أجد بغيتي. وفكرت أني إنما اعتزلتهم لأقيهم شري وأكفيهم

أمري فارتاحت نفسي لذلك أكثر. ومذ فكرت بها انقطعت العزلة وبدأت الخلوة. الخلوة يا أخي أرفع درجات العزلة. الخلوة عزلة العزلة.

دمعت عيناي دون أن أشعر عندما تحدث عن الخلوة وغبطته عليها. قلت:

- زدني.

رفع يده عن العجينة وتركها في الطاس وتربّع على الأرض وقال وهو يحدق في النار:

- عشت طيلة عمري تحت سلطان الوهم. ولم يصبح وهمي تحت سلطاني حتى خلوت بالله في هذا الكهف.

ساد صمتٌ قصير لا يقطعه إلا طقطقة النار ثم تناهى إلى سمعنا حوافر البغال تقترب وسرعان ما كان بدر وسودكين معنا. أقبل سودكين من فوره على النار يصفّ جمراتها لما رأى العجينة في الطاس. أما بدر فاقترب وسلّم. ولم يكد يصافح الرجل حتى حملق في وجهه وانقطع الكلام في حنجرته. ظلّ جامد الملامح وهلةً حتى ظننا أنه لا يتنفس. بدت على وجهه علامات اقتراب بكاء من شدة الذهول فضحكنا. جلس على الأرض أخيراً ومدّ ساقه وراح يقلّب بصره بيننا ولا يتكلم!

٨٠

"لا بد من فوت. لا بد من حزن!"

ابن عربي

لم تكد تنتصف الشمس في السماء وتختبئ ظلالنا تحتنا إلا وقد بلغنا أول خانٍ للمسافرين في الطريق إلى بعلبك. سرنا بضع ساعات منذ شروق الشمس متحرّين العلامات القليلة التي وصفها لنا الخليفة يعقوب بن يوسف بكل دقة بعد أن صلّى بنا الفجر وودّعنا دامع العينين شجيّ القلب. وكان هذا الخان الأول الذي نصادفه منذ أيام عديدة. حالما رآه بدر ربط دابته عند الباب من فوره ودخل قبلي وقد كان يدخل دائماً بعدي. جلس بين يدي المغسل عند حوض غسيل الأقدام وراح ينزع أشواكاً دخلت في قدمه. اغتسلنا جميعاً وادّهنّا بالزيت. جمع سودكين ثيابنا وأخذها إلى حوض غسيل الثياب. ثم أخذ بغلتي إلى الحدادين الذي يصطفون قريباً من خانات المسافرين ليصلح حدوتها. جلسنا أخيراً بعد غروب الشمس على مائدة طعام طويلة يجلس حولها كل المسافرين ويقدم لهم الحساء والخبز وبعضاً اللحم.

قررنا أن نبيت ليلتين على الأقل بعد أن علمنا من صاحب الخان أن الخان الذي يليه يبعد مسيرة تسعة أو عشرة أيام كاملة في الطريق إلى محروسة حمص. من أجل ذلك كان الخان غاصّاً بالمسافرين. شاركنا الحجرة أربعة رجالٍ ظنناهم مسلمين من هيئتهم حتى تكلموا فإذا هم نصارى. شرحوا لنا بعربيةٍ ركيكة أنهم قدموا من أنطاكية في طريقهم إلى طرابلس. وفي الصباح التالي بدّلوا ثيابهم العربية وخلعوا عمائمهم وارتدوا سراويلهم الضيقة وأحزمتهم الجلدية وتدلّى من ظهر أحدهم طيلسانٌ مطرّزٌ بصليبٍ عريض. تساءل سودكين عن فعلهم هذا في اللحظة التي دخل فيها صاحب الخان البدين ووجنتاه محمرتان من وهج نار الفرن التي خرج منه خبزنا. فأجابه على الفور:

- كلهم هكذا، يتخفّون بزيّ المسلمين طيلة الطريق خشية القتل.

أزعجت كلمة القتل بدراً فسأل بصوتٍ عالٍ لا يخفي جزعه:

- ومن يقتلهم؟

أجابه سودكين وقد انتقل إليه الخوف أيضاً:

- قطّاع الطريق. من غيرهم.

ألقى صاحب الخان قطعة الخبز الأخيرة قريباً مني وحمل سلته الفارغة مغادراً وهو يقول:

- لا يوجد قطاع طريق هنا. إنهم الحشاشون. وهم يترصّدون النصارى فقط.

اطمأن بدر قليلاً وراح يتناول إفطاره على مهل. نظرت إلى قدميه فإذا جراحه لا تزال مفتوحةً وبعضها ينزف بشكلٍ طفيف. لمستهما بيدي فبدتا قاسيتين منتفختين وقد نشز الجلد من أطرافهما. رفعت

ساقيه ووضعت قدميه في حجري فحاول أن يزيلهما خجلاً فتمسكت بهما. رحت أجسّهما بيدي وأقرأ سورة "يس" فطابت نفسه وراح يتناول إفطاره بهدوءٍ وسكينة. أنهيت قراءتي وراحت أمسح بعض الدم القليل من قدميه فلاحظت أنه لا يجفل من مسّي للجراح المكشوفة. قرصته قرب كعبيه فلم يشعر بما فعلت. أوجست من ذلك خيفةً وحدست ما وددت أنه لم يصدق. ولكنه صدق. فلم نكد نصل إلى ملطية بعد شهر وأسبوع إلا وقد استحالت قدمه اليمنى قطعةً سوداء هجرها الدم وصار يجرّها وراءه جرّاً. أبى بدر على الطبيب أن يبترها فماتت ساقه. وأخيراً اضطجع على لوح الخشب الذي نفر منه أول مرة، وبتر الطبيب ساقه من ركبته قطعاً بالسكين والمنشار. ثم كواه بالحديد فغشي على بدر ساعات طويلة كنت أفكر فيها ما إذا مات، كيف سأعيش بدونه؟ ولكنه أفاق، وهذى، وبكى، وعدنا به إلى البيت وهو صامتٌ يتأمل في فراغ الأشياء وكأنه ناقمٌ على شيءٍ لا نعرفه، وغاضبٌ من أمرٍ لم يفصح عنه.

٨١

"الصبر إذا لم تشك فيه إلى الله لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

مكثت طيلة الأيام التي أعقبت بتر قدمه أمرّضه بنفسي. أستيقظ قبله لأعدّ طعامه وأقرّبه منه وأطعمه إياه وأقيمه وأقعده. أخذ سودكين قياسه وأوصى له بعكازٍ يتوكأ عليه من نجارٍ في الحي. برأت جراحه وأتقن المشي بعكازه ولكنه لم يعد إلى حاله الأولى قط. ويوماً بعد يوم استحال غضبه حزناً. وصار ساهماً طيلة الوقت، صامتاً لا يتكلم إلا إذا كلمته. ولا يكاد يخرج معنا إلى أي مكان غير صلاة الجمعة. جمع الحشايا في زاوية الحجرة فواحدة خلف ظهره وأخرى يمدّ فوقها رجله الباقية وثالثة يتكئ عليها. وأمامه منضدة صغيرة. انتقلت قوة رجله المفقودة إلى يديه فصار يغزل بيديه صوفاً ويصنع لحفاً وقمصاناً. ثم صار يدقّ خشب النضد ويزخرفها. ثم عكف على النسخ، فصرنا نجلب له الورق فيقبع في البيت ينسخ هذا الكتاب وذاك حتى تسودّ يداه.

استأجرت بيتاً من حجرٍ مسقوفٍ بالقرميد في وسطه عمدٌ خشبية. بابه يفضي إلى أزقة داخلية ضيقةٍ وله روشنٌ وحيد تتسلل منه أشعة الشمس. وفي آخره فناءٌ حوّلناه إلى حديقة. دخل فصل الشتاء بعد وصولنا بشهرين فجعلت بدراً في أدفأ الحجرات وقرّبت منه موقداً نحاسياً يخرج دخانه إلى الفناء. وفي ليالي البرد القارس كنا ننام معاً في حجرته بعد أن نجعل في أرضيتها طبقتين من الطنافس. ونتدثر بكل ما في البيت من لحفٍ وأغطية. وننام على صوت تأوهات بدر وآلام قدمه التي يضاعفها البرد.

وفي واحدة من تلك الليالي الباردة طرق بابنا إسحاق. وقبل أن يسلّم قال معاتباً:

– تتسلل إلى بلادي ولا تعلمني يا محيي؟

أجبته ضاحكاً وأنا أعانقه:

– دخلنا من باب المدينة نهاراً وما تسللنا. وليس لنا سبيلٌ إليك وبيننا وبينك حجّابٌ ووزراء.

دخل إسحاق وجلسنا جميعاً حول بدر. فوجئ برؤيته كسيحاً فجلس ملتصقاً به وهو يغالب دموعه ويحاول أن يبدو مستبشراً ضاحكاً لئلا يزيد من أحزانه. سألته:

– طمئنّي عن أحوالك؟

– مسافرٌ لا ألقي عصا الترحال إلا لماماً.

– أين تذهب؟

– تارةً في حضرة خليفة بغداد، وتارةً في حضرة إمبراطور نيقية، وتارةً في حضرة ملك حلب، وتارةً في حضرة ملكة جورجة، ثم

أعود إلى سلطاننا في قونية بالرسائل والأخبار. لا يهدأ له بال حتى يطمئن على علاقته بهم جميعاً.

- ذلك خيرٌ له من حروبٍ لا راية فيها ولا جدوى منها.

تنهّد إسحاق ومدّ قدمه أمامه وهو يقول:

- لا مناص من الحروب. السلطان يحشد الآن لأنطالية وسيخرج إليها بنفسه.

- وتخرج معه؟

- لا. أنا في طريقي إلى بغداد. يريد السلطان من الخليفة أن يبعث إليه من فتواته من ينشئون داراً للفتوة في قونية.

- وماذا يريد بهم؟

ضحك إسحاق ساخراً وهو يقول:

- أنت تسأل عن هذا يا محيي؟ هل خرجت إلى أسواق ملطية ورأيت أصناف الناس؟ في الأناضول خليطٌ لا تعرف لأحدهم فيه نسباً ولا طريقة.

- وما شأن الفتوات بهذا؟

هزّ إسحاق كتفيه وكأن الجواب كان من البداهة بمكان وقال:

- يجتمع تحتها الناس عسكراً في جيش السلطان وغزاةً مجاهدين على الثغور.

نظرت إلى إسحاق وابتسمت ثم قلت:

- إن ديوان الجند قادرٌ على استنفار الناس للجهاد وضمّهم للجيش. الفتوات ليسوا عساكر وجنوداً، إنهم قومٌ آمنوا بالله وزادهم الله هدى.

– ما يريد السلطان أن يجلبهم إلا لإيمانهم وهداهم.

حدقت في وجهه مباشرةً وقلت:

– وتظن الإيمان والهدى يتحقق بشرب الماء المملوح ولبس سراويل الفتوات كما يفعلون في بغداد؟

أطرق إسحاق ولم يتكلم. عدت لأسند ظهري على الجدار أنتظر ردّه. وبعد هنيهةٍ قال:

– صدقت يا محيي. ولكني رسول وما على الرسول إلا البلاغ. السلطان يريد فتوات في قونية مثل فتوات بغداد. يجمع بهم الفتية في جهادٍ وقتال بدلاً من التسكع في الطرقات والضلال وإيذاء العباد.

ثم رفع عينيه فإذا في عينيه حسرة وهو يقول:

– الحق أقوله لك وهو من أسرار السلطنة. حشد الجيش لم يعد سهلاً مهما زاد السلطان في أعطيات الجند ونصيبهم من الغنائم. فكل أعدائه يعدونهم بمثل ما يعدهم فينقلبون في ساعة، ويصبح الكرُّ فرّاً. اختلط الناس في الجيش حتى لتجد في الفرقة الواحدة من الجند عرباً وبلغارَ وأرمنَ وروماً وكرجاً بعضهم حارب في الصفين وقاتل تحت لواءين. من يثق بجيشٍ كهذا؟

ولم ينتظر إسحاق تعقيبي على كلامه بل وقف فجأةً وقال:

– عليّ أن أذهب. في رحالي هدايا ثمينة من السلطان للخليفة وعليّ أن أستودعها قصر الوالي قبل أن يحلّ الظلام.

التفت جهة بدر الذي كان ينصت لكلامنا وعلى وجهه ابتسامةٌ ثابتة وحزينة. عانقه وقبّل جبينه ثم عانقني مودعاً ثم قال:

– سأمرّ بملطية في طريق عودتي.

- على الرحب والسعة يا أخي.

شيّعه سودكين إلى الباب ولمّا عاد قلت له:

- هاتِ ورقاً ودواة.

جلب سودكين ما طلبت فتربّعت في حال الكتابة واستعنت بالله وبدأت أكتب: "بسم الله القويّ المتين. مرسل الفتية إلى الكهف وهو أقرب إليهم من حبل الوتين. أما بعد، فهذا بابٌ في معرفة الفتوة والفتيان ومنازلهم وطبقاتهم وأسرار أقطابهم...".

٨٢

"الحكمة إذا لم تكن حاكمةً لا يُعوَّلُ عليها"

ابن عربي

بدا لي ذات صباح أن وقت الحلّ قد حان. لم يعد السفر سهلاً ما دام صاحبي صار بقدمٍ واحدة، وزوجتي وصلت من ماردين، وأعوامي الخمسون تكدستْ بين مفاصلي مثل صدأ. وتدي الأخير ينتظرني في مكانٍ ما هنا وحنيني إلى السفر أصبح خافتاً مقارنةً بحنيني إلى التأليف. كل شيء في ملطية كان يشير إلى الاستقرار. شتاؤها البارد الذي يضطرني إلى البقاء في البيت والتفرغ للكتابة. لياليها الطويلة التي تجعلني أشتهي الصلاة والخلوة. عربها القلة الذين تكشفهم عمائمهم الضخمة وملامحهم السمراء. وأخيراً بطن فاطمة الذي استدار وراح يكبر ببطء.

أحببتها. ولا أدري هل أحبتني أم لا. شيءٌ في عينيها يقول إنها ما زالت شغوفةً بشهيدها الذي قضى. كان شاباً في مقتبل العمر. وما دام جندياً من خاصة العسكر الذين يبعثهم الملك للمهمات الخاصة

فلا بدّ أنه كان حسن الجسد عَضِلاً تام القوام. والآن هي مع رجلٍ نحيلٍ إلا من بطنٍ تتقدمه. انحسر شعره عن مقدم رأسه، ووخطٌ الشيبُ فوديه وعارضيه. وهي لم تمسّها الثلاثون بعد. شعرها طويلٌ كأنه ليل العاشق. حنطية البشرة مثل نساء مكة. دقيقة الأطراف كأنها لم تكبر معها.

لم يبدُ أن إجابة سؤال الحب ستغيّر شيئاً في أحوالنا. كل شيء سار عادياً كأن الحياة تشير بيدها نحو صدري ثم إلى أرض ملطية الخضراء. زرعت فاطمة في الفناء الذي تحول حديقةً جلّ ما نأكل من قثّاء وبازلاء وكرفس. وعلى مدى سنواتٍ ستّ استطالت شجرة مشمش وأصبحت تظللنا تحتها وتثمر ما يزيد عن حاجتنا حتى يحمله سودكين إلى المسجد ليطعم منه الفقراء والبهاليل.

عاد إسحاق بعد أشهر من غيابه وقد نجح في مهمته وجلب معه فتوات يعلّمون الصبية وشيوخاً يُقرئونهم في المساجد. أكل عندي طعاماً ثم قال إنه ماكثٌ في ملطية لأن السلطان في طريقه إليها غازياً بلاد الأرمن. ولم تمضِ أسابيع إلا وضجّت ملطية الصغيرة بحاشية السلطان وجيشه. مشى بين الناس ممتطياً فرساً رومية عظيمة الظهر والردفين كما حكى لي سودكين. وراح الناس يلقون تحت حوافر فرسه بتلات الورد في الطرقات احتفاءً به حتى بلغ محل إقامته في قصر واليه. غادر إسحاق بيتي ذلك الصباح ليكون في معيّة السلطان فافتقدت دروسنا في النهار ومسامرتنا في الليل.

ولكن فراقنا لم يطل. فلم يكد اليوم الرابع من وصول السلطان ينقضي حتى طرق بابي إسحاق ومعه أمير دواة السلطان الذي وقف

أمامي مثل جنديٍّ في عرض العسكر وامتشق رسالةً من منطقته وفتحها وراح يقرأها أمامي:

– سيدنا ومولانا محيي الدين. يستأذنك السلطان عز الدين كيكاوس أن تحضر في مجلسه هذا اليوم.

ابتسم إسحاق وكأنه يعلم غرابة الدعوة. أبلغت أمير الدواة بموافقتي فانصرف. وبقي إسحاق فاستأذنته لأغتسل وألبس ثياباً جديدة. ودخلت أستحثّ فاطمة أن تحضّر لي لباساً فأخرجت قميصي وجبتي ووشاحي من صندوق الثياب وراحت تنفضهما على عجل. ثم أخرجت عمامةً نظيفة من بين عمامتين كنت ألبسهما في صلوات الجُمَع. وسرعان ما تزيّأتُ بأفضل ما لديّ من لباس، وتعطّرت بزيت الورد والبنفسج الذي يحبه أهل الأناضول. وخرجت إلى إسحاق الذي بدا وكأنه ظل مبتسماً طيلة غيابي في حجرتي حتى خرجت.

خرجنا معاً من بيتي لنجد تختروانا يكاد يسدّ الدرب الضيق الذي عليه بيتي. صعدنا إليه معاً وسار بنا الحصانان إلى قصر الوالي والناس يطلّون برؤوسهم إلى الداخل محاولين التعرف علينا. ركض جماعة من الصبية خلف التختروان حتى اقتربنا من قصر الوالي فتفرقوا. دخلنا قصراً ضيق الممرات في حيطانه فوهات تفوح منها رياح ساخنة من نارٍ توقد في أعلى القصر لتدفئ ممراته وحجراته. وانتهينا بعد قليل إلى حجرةٍ واسعة في وسطها كرسيٌّ واحد فقط للسلطان. يجلس الناس من حوله على طنافس من الصوف والقطن مصفوفة على الأطراف. جلسنا في أقربها إلى الكرسيّ ونحن نسمع جلبةً في

الممرات تنبئ باقتراب دخول السلطان. وما أن دخل، بذقنه الحليقة الناعمة وشاربه الكث، تجاهل الذين يحدثونه وخفّ إلينا وعانقني عناقاً حميماً، وراح يقبّل وجنتيّ فقبّلت وجنتيه، ثم قال بعربيةٍ فصيحة تشوبها لهجة التركمان:

– مرحباً ببحر الحقائق؛ بشيخنا ابن عربي. تباركت بك ملطية. تباركت بك الأناضول بأسرها.

– البركة من الله الذي أسأله أن يبارك فيك وفي ملكك.

– نرجو أن تظل معنا لنستضيء بك ونفيد من علمك.

– أطال الله بقاء السلطان على ما يحب.

التفت السلطان بعد ذلك ناحية إسحاق وكلّمه بالتركمانية كلاماً لا أفهمه. وما أن فرغا من ذلك حتى التفت إسحاق ناحيتي وقال للسلطان بالعربية:

– لا يخفى عليكم يا مولاي أن هذا أعظم ضيف حلّ على ملطية.

فتحوّل السلطان إلى العربية وقال ببشاشة:

– لا شك... لا شك...

وظل السلطان ودوداً، يلتفت إليّ بين حينٍ وآخر ويكرر ترحيبه بي. ولما حانت صلاة العصر أمر بالبسط والسجاجيد وأصرّ أن أتقدمهما لأصلي ففعلت واصطفّ هو وإسحاق ورائي. ولما فرغنا من الصلاة أمر بطعام فجلبوا لنا خروفاً مشوياً مازال سفوده مغروساً فيه ووضعوه أمام ثلاثتنا فقط. نزل السلطان من كرسيه وجلس معنا على الأرض ولم يمدّ يده إلى الطعام حتى اقترب الجاشنكير المنوط به تذوّق طعام السلطان فأكل لقمةً مما يليه ومضغها وبلعها ثم تراجع

إلى طرف الحجرة. فبدأ السلطان بالأكل وراح يقطع بيده لحماً ويضعه أمامي.

أكلنا ما أكلنا وشربنا بعده لبناً بارداً ثم رفع الخدم الطعام وجلبوا المجامر يفوح منها بخورٌ كثيفٌ فطافوا بها علينا، ثم الماء فغسلنا أيدينا. ثم جلبوا صحناً مليئاً بالكستناء ومنقل جمرٍ صغير. راح السلطان يرمي فوق الجمر قطعاً منه حتى تطقطق فيلتقطها بيده ويقشرها ويأكلها بتلذذ. فعلنا مثله. والملك يتحدث عن كل ما يرد على ذهنه من استعدادات الجيش، خططه لغزو الأرمن، ورسائل ليون الثاني التي تصله تباعاً طلباً للصلح. ثم نفض يديه من قشور الكستناء العالقة فيهما واكتست ملامحه بالجدية وقطّب حاجبيه وهو يقول لي:

– رغبت أن أستشيرك في شأن يا سيدنا.

– وما هو؟

– أنت تعلم ما حدث في أنطالية. هجم الفرنجة واحتلوها، وقد قتلوا فيها من المسلمين عدداً كبيراً.

– نعم، علمت بهذا.

– ولعلك علمت أيضاً أنه ما كان لهم أن ينتصروا لولا أن نصارى أنطاكية قدّموا لهم العون والمدد، وخانوا عهد الذمة الذي بذلناه لهم.

– أجل.

– فهل تراني أخطأت في أن جعلت لهم الأمان؟ أنت ترى أن في ملطية وقونية والبلاد نصارى كثر لم أعد أثق بهم.

صمت السلطان في انتظار إجابتي وعلّق إسحاق ناظريه في وجهي

وكأنه لا يثق بما سأقول. أطرقت قليلاً وصمتُّ ثم قلت:

- أيها السلطان...

اتكأ السلطان على يده اليسرى بعد أن كان متكئاً على اليمنى وراح يصغي بانتباه شديد:

- هل بلغتك أنباء مجريط؟

- أي أنباء تقصد يا سيدنا؟

- وكيف لا يبلغك نبأ هزيمة المسلمين على يد الفرنجة وقد قتلوا منهم أنفساً لا تُحصى يقولون لا إله إلا الله؟ أعلم أنها في بلادٍ بعيدة عن بلادك، وملكٍ مختلف عن ملكك. ولكن الذين انتصروا نصارى والذين انهزموا مسلمين.

تململ السلطان وكأنه لم يتوقّع موعظةً وقال وهو يلوّح بيده في الهواء:

- نصر الله دينه وجنده في كل مكان.

- إنك تشكو من النصارى، ولكن العلة ليست فيهم بل فيك أنت. العلة في ما أظهرته من مظاهر الكفر في بلدك. إنما فعلك هذا معهم يذكّرني بفعل ابن مردنيش في مرسيّة عندما مكّن النصارى في البلد فخسر دينه وملكه.

- وكيف أفعل يا سيدنا؟

- افعل فعل عمر بن الخطاب واستوصِ بوصيته في أهل الذمة.

رفع السلطان حاجباه مندهشاً ثم غيّر ملامحه إلى ملامح المعاتب المستخفِّ بحديثي وهو يقول:

- يا سيدنا، لقد تغيّر الزمان. كيف تريدني أن آمر النصارى بجزّ

مقادم رؤوسهم وشدّ الزنانير على أوساطهم ونحن على حدودهم وأغلب رعيتنا على دينهم؟

- إن الزمان زمان الله أيها الملك ماضياً وحاضراً وإليه الأمر مستقبلاً.

ارتفع صوت السلطان ولوى عنقه ليصرف نظره عني وهو يقول:

- صعب يا سيدنا صعب.

- صدقت أيها السلطان. الأمر صعب.

غادرت مجلس السلطان بعد صلاة المغرب. وقبل صعودي إلى التختروان لحق بي حاجبه ووضع في يدي ورقةً مطوية وقال:

- هذا عطاء مولاي السلطان لكم يا شيخنا. دارٌ جديدة في حي القصور.

وأمر موظفاً من موظفي البلاط أن يدلّني على داري الجديدة. شكرته على ذلك ودسست الورقة في حزامي ولم أفضها. تحرك الحصانان وبقيت أستمع إلى خبط حوافرهما المنتظم على الأرض الحجرية. انقبض صدري من هذا العطاء الكبير ولم أفرح. خشيت أن يمنّ عليّ بهديته فأحيد عن دربي وشعرت لوهلة بغضبٍ شديد وندم على قبولي هديته ولم يعد من المقبول أن أرجع إليه وأردّها فأبدوَ مثل من اقتنع أولاً ثم تراجع ثانياً. أغمضت عينيّ ودعوت الله أن يفرّج عني هذه الكربة قبل أن أصل إلى بيتي. ولم تمضِ دقائق حتى جاء فرج الله على شكل شحاذٍ راح يهرول إلى جوار التختروان ويصيح بأعلى صوته:

- صدقة يا سيدي... عيالي جائعون وأنا مريض.

صحت بسائس التختروان فأوقف الحصانين. اقترب السائل مني وقد امتلأت عيناه بالرجاء والأمل. راح يكرّر كلامه بصوت أخفض وهو يحرك رأسه استعطافاً ويفرك أصابعه ببعضها استدراراً لمشاعري.

– فقيرٌ جائع يا سيدي. أعطني يعطكِ الله.

أخرجت الورقة من حزامي ومددتها إليه وقلت:

– ما لي غير هذي الدار... فخذها لك.

٨٣

"أعط الصغير حقه"

ابن عربي

خرج السلطان من ملطية متجهاً إلى سينوب حيث يسعى أن يسدد ضربته الأولى إلى خصمه ليون. زارني إسحاق قبل رحيله وجلب معه زوجته وابنه محمداً ذا العامين. حمله فور دخوله من الباب ووضعه بين ذراعيّ فضممته إلى صدري فضحك ثم راح يجوس بيديه الصغيرتين في لحيتي ويمسّ جبيني ويحاول أن ينزع عمامتي عن رأسي. جلست مع إسحاق بصحبة سودكين وبدر على بساطٍ صغير في الحديقة وزوجتانا في الحجرة التي بالداخل. راح محمد يتهادى بين الأحواض المزروعة ويمسّ بسبابته البتلات الناعمة للياسمين. ثم التقط ثمرة مشمش من الأرض وتأملها قبل أن يلقي بها جهة أبيه لتصيبه في صدره. ضحك إسحاق من ذلك وقال:

- أصبت الرمي... كما يليق بأصغر محارب في جيش السلطان!

تأملت الطفل الصغير وعاد إلى ذهني كشف الله القريب الذي

أراني به ما حلّ في مجريط من هزيمة للمسلمين. أرتالٌ من الأسرى يساقون سوقاً بين أيدي الفرنجة ليباعوا بعد حين في أسواقهم عبيداً. ثم أغار ألفونسو على بقية الحصون والقلاع التي هرب منها الموحّدون وجمع الأطفال في عربات تجرها البغال. كل عشرة أو عشرين طفلاً في عربة تسوقهم إلى مصيرٍ لا يعرفونه بعيداً عن أهلٍ لن يرونهم بعد ذلك. لا أعلم لماذا تخيّلت محمداً منهم وهو يلهو في حديقتي. فزعت من هذا الخيال والتفتُّ من حيني إلى إسحاق قائلاً:

– ألا تشفق على هذا الصغير أن تصحبه معك إلى حرب؟

ابتسم إسحاق وردّ من فوره:

– لا أظنها ستكون حرباً ضروساً. رسائل ليون تتوالى على السلطان تطلب الصلح ولكن السلطان يتجاهلها لعل ليون يخضع أكثر. وحالما يظفر بما يريد سنعود إلى قونية.

– وهل ستمرّ بملطية في طريق عودتك أم سيواس؟

– ملطية حتماً.

– إذن اسمع. يبقى الصبي في بيتي وتعتني به فاطمة. وإن شئت أن تصحب زوجتك معك فافعل أو تبقى مع صغيرها.

– ولكني أشتاق إليه وبالكاد أقضي معه وقتاً وأنا دائم السفر. ولا أريد أن أثقل عليك.

– أرجوك أن تشفق عليه من المخاطرة.

وافق إسحاق أخيراً. ونادى زوجته صفية ليستشيرها في الأمر فقالت له على مسمعٍ مني:

– إن بقي ابني بقيت معه.

فأجبت أنا قبل أن يجيب إسحاق:

- تبقين إذن، وسأفرغ لك حجرة أصحابي.

والتفتُّ على سودكين آمراً:

- خذ من المال الذي بعهدتك أجرةً لحجرة في حينا هذا. وتأكّد أن يكون مدخلها هيناً على بدر.

استعدّ إسحاق للخروج ووقف عند الباب يعانق ابنه ويلاعبه. حمله بين ذراعيه وهو يسألني إن كان يشبهه في شيء. سألته إن كان قد اتّخذ له لقباً مثله فقال إنه لم يفعل بعد. تأملت في عيني الصبي العميقتين وتذكرت ابنتي زينب التي دفنتها بيدي وهي في عمرٍ قريبٍ منه. لو أنها لم تمت لكانت الآن عروساً تزفّ إلى بيتها. دمعت عيناي من هذا الخاطر ففتحت ذراعيّ داعياً الطفل فاستجاب ومال جهتي فحملته وقلت لإسحاق:

- هو "صدر الدين" بإذن الله. فهل توافقني؟

- ونِعْم ما لقّبته.

- ... ولئن مدّ الله في عمري علّمته طريقتي وسلكت به منهجي وسألت الله أن يفتح عليه معارفه السماوية وأسراره القدسيّة.

أمّن إسحاق على كلامي ثم عانقني وطفله بين ذراعيّ. ثم ودّع زوجته وخرج.

ولأسابيع طويلة آنس هذا الطفل الجميل البيت وملأه فرحاً وبهجة. لا يراني جالساً للكتابة إلا أقبل يمشي فوق أوراقي فيلطّخ الحبرُ قدميه الحافيتين ثم يخطو بهما على الورق فيترك أثره عليها. وإذا منعته عن ذلك دار حولي ثم تسلق ظهري ونزع عمامتي ووضعها على

رأسه فانسدلت على وجهه وغطته. يرفعها ليرى النور مرةً أخرى ثم يعيدها. يُضحكه تعاقب النور والظلام على ناظريه ويضحكني معه. جلب سودكين له من السوق عنزاً ووليدها فصار يلاحق الوليد طيلة النهار في أرجاء الحديقة حتى يتعب، ويحاول أن يحمله فيسقط معه. وتخدشه حوافر العنز الصغير فيبكي أحياناً ويشكوه إليّ.

ثم جاء فاطمة مخاضها. استيقظت في الهزيع الأول من الليل وهي تصيح صياحاً عالياً. خرجت من الحجرة لأجد صفية تقف أمام حجرتها وهي تحمل صدر الدين وقد أفزعه صياح فاطمة. تبادلنا الأدوار بسرعة. تناولت منها صدر الدين وعدت به إلى حجرتهما لأهدّئ من روعه وهرعت هي تجلب أدوات الولادة التي حضّرتها فاطمة من قبل وتدخل حجرتها وتغلق الباب. لم ينم صدر الدين ولم أنم. وبين آونةٍ وأخرى تطلق فاطمة صيحةً أظن أنها الأخيرة فأنادي صفية من وراء الباب فتقول:

- ليس بعد يا سيدنا. ليس بعد...

طلع الفجر فخرجت لأصلّي ومعي صدر الدين. فرغنا من الصلاة وسألني الرجال عن حال زوجتي التي سمعوا صياحها فأخبرتهم أنها في مخاضها. لم أكد أعود إلى البيت وأغلق الباب من ورائي إلا وعلت الطرقات عليه. فتحته فإذا ثلاثٌ من نساء الحيّ جئن ليساعدن فاطمة في مخاضها. دخلن تباعاً إلى الحجرة وأغلقن الباب. خرجت إلى العنز في الحديقة ومعي طست الحليب وحلبتها لأسقي صدر الدين. ولم يكد الطست يمتلئ بالحليب الدافئ حتى تناهى إلى سمعي صياح وليد وهتاف نساء. فجلست على أرض الحديقة وبكيت ما شاء الله

لي أن أبكي ولا تعلم العنز ولا وليدها ماذا حلّ بي.

وضعت صفية بين يدي ابني وهي تقول بفرحٍ شديد:

- ولدٌ يا سيدنا... ولد.

نظرت إلى عينيه المغمضتين وفمه الصغير وشعره المبتلّ فمادت بي الأرض لثوانٍ. ابنٌ وقد تجاوزت الخمسين من عمري؟ الشكر والثناء لك يا ربِ إذ أنعمت عليّ نعمتك على زكريا وقد وهن العظم منا واشتعل الرأس شيباً. ندّت من الوليد صيحةٌ فضممته إلى صدري وقرّبت شفتَيّ من أذنيه وأطلقت في سمعه الأذان رطباً كأني أردّد كلماته لأول مرة في حياتي. سألتني صفية إن كنت أرغب في تحنيكه بنفسي أم أترك الأمر لجارتنا المدرّبة فآثرت ذلك. أعدت إليها ابني مرةً أخرى وشعرت بوخزة فراقه الأولى. لم أعرف ماذا أفعل. وقفت في مكاني أمام حجرتي أنتظر عودة ابني إلى أحضاني. عادت به صفية بعد قليل وقالت لي:

- تسألك فاطمة ماذا تسميه؟

اقتربت من باب الحجرة وناديت فاطمة فاستجابت لي بصوتٍ واهن. فقلت لها:

- يا فاطمة. إني أستأذنك أن أسمّيه عماد الدين على اسم الشهيد الذي كنتِ زوجته.

لم تجب فاطمة للحظات ثم سمعت شهيقها وبكاءها بعد ذلك.

٨٤

المخطوط في دمشق

١٣٤٤هـ/١٩٢٥م

اعتدلت جالساً وربتّ على كتفها وهي نائمة إلى جواري:

- قومي يا لطفية!

- ما طلع الفجر يا أبو حاتم!

- على كيفك. ما أكثر نومك!

تناولت ساعتي المستديرة من الطاولة الجانبية ووقفت متجهاً إلى الحمام وأنا أقول لها:

- سيبدأ القصف بعد ربع ساعة على كل حال. لا يوقظك إلا القنابل!

اغتسلت وتوضأت. فرشت سجادتي في الركن الذي صرت أصلي فيه مذ امتنعت عن الذهاب إلى المسجد في هذه الأحوال. في منتصف صلاتي ارتجّ البيت بصوت القنبلة الأولى. فزعت لطفيّة من الفراش وولولت كعادتها عند بدء القصف وكأنه لا يتكرر في الرابعة صباحاً منذ ثلاثة أيام. دقيقون هؤلاء الفرنسيون وأنيقون حتى في تدمير مدينتنا.

أنهيت صلاتي واستندت على الجدار حتى أكمل تسبيحي ولطفيّة تطوف على نوافذ البيت لتتأكد من إغلاقها وكأن القنابل تتسلل من النوافذ ولا تسقط فوق الأسقف. لم يُبقِ لنا القصف نافذةً سليمة واحدة. تكسّرت تباعاً مثل بقية نوافذ الحيّ واكتست بالقماش الثقيل في بعض البيوت وألواح الخشب في بيوت أخرى. لم يعد هناك ما يعزل الصوت فأصبحت الأحاديث والحكايات والشجارات والضحكات اليومية مشتركة بين كل سكان الحيّ كأننا في بيتٍ واحدٍ كبير يسافر الكلام بين جنباته بلا رادع. منذ أيام أفلتت مني ضحكةٌ عندما سمعت جارنا عبد الحميد يوبّخ ابنه بسخرية. سمع ضحكتي فضحك بدوره وصاح بي:

– تضحك دوم يا أبو حاتم!

– يخليلك إياه يا أبو شكري.

وعلى هذا المنوال مضى الأسبوع. تذمّرنا في البداية من تسرب الأصوات وانعدام الخصوصية ثم وجدنا في مجالنا الصوتيّ المشترك الذي خلّفه القصف عزاءً جماعياً لنا نحن الذين لا نعلم متى سيختارنا الفرنسيّ القادم. ينتهي القصف عند التاسعة ليلاً فتزغرد النساء. يطيب لعبد الحيّ أحياناً أن يصيح من نافذته بصوتٍ عالٍ: تكبير. فيتردد صدى التكبيرات بين الرجال والصبيان في أرجاء الحيّ. يحمل عبّاس الشوبكي عوده أحياناً ويغنّي لنا موشحاً أو أغنية. ويستمتع الصبية بمناداة بعضهم بعضاً عبر المناور. ويتبادل الرجال الأخبار مع بعضهم بعضاً: اليوم قصفوا سيدي عمود. سوق الطويل. حي الشاغور. منطقة السنجقدار. ومن كان له أهلٌ في تلك المناطق المنكوبة يرتفع نواح نسائه وحوقلة رجاله. ويشاركهم الجميع عبارات المواساة والتجمل.

وضعت لطفيّة زيتوناً وزعتراً أمامي ولفّت خمارها على رأسها لتصلّي.

أفطرت سريعاً ولبست وخرجت من البيت والصباح يشقّ عباءة الليل ببطء. حي الشيخ محدين ما زال سليماً إلا من النوافذ المحطّمة. لم تستهدفه طائرات الفرنسيين ومدفعيتهم مثل أجزاء أخرى من المدينة كان يتحصن فيها الثوار فدكّتها القنابل دكّاً وأشعلت فيها النيران. لا أعلم حقيقة أحوالها ولا أجرؤ أن أمشي إليها فقد لا أعود. يكفيك من شرّ سماعه. وأنا يكفيني أن أسمع أصوات القنابل تنفجر في الأحياء البعيدة وأبصر الدخان المتصاعد عقبها لأعرف حجم المأساة. وإذا صعدت منارة جامع الخنكار تراءى لي عن بعد أسقف البيوت المهدّمة فأعدّها عدّاً لعلي أعرف قوة الضربة. وعندما أضطر إلى الخروج من محدين اضطراراً، كما حدث قبل يومين عندما سلّمت بندقية أبي الصدئة لأحد الثوار لعله يستفيد منها، أرى ما أوجع قلبي. قبة جامع السنانية مثقوبة بقذيفة. مخازن السنجقدار صارت كومة رماد. وفي خضم كل هذا استباح اللصوص والمرتزقة المدينة وراحوا ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم. قلبي يتقطّع على أهالي تلكم الأحياء رغم أني لا أعرف أحداً منهم. كل يوم نتبادل العزاء في شهيد حتى صرنا نذهب إلى المقبرة على أي حال دون أن يُنعى إلينا أحد ليقيننا أننا سنجد أحداً يُدفن. رأيت ما ملأ قلبي حزناً ورضاً معاً. يحتاج المرء إلى قصفٍ جويٍّ وبريٍّ يدكّ مدينةً بأكملها كي يحمد الله أن امرأته عاقر لا تنجب. ماذا كان حالي لو أن لي أطفال في مدينةٍ منكوبة؟

قبل أن ألج إلى زقاق الجامع مررت ببيت فاروق الصفدي. وجدت بابه مفتوحاً ومؤخرته تبرز من الباب وهو يحاول أن يخرج منه صندوقاً ثقيلاً. فزعت لأساعده وأخرجناه أخيراً ليصطفّ إلى جانبه حقائب جلدية أخرى وصندوقان. سألته:

– إلى أين تذهب يا فاروق؟

- إلى حماة يا أباحاتم.

- المدينة محاصرة! كيف ستغادر؟

دخل فاروق إلى بيته وعاد ببندقيته في يده وقال:

- بهذه!

هزرت رأسي أسفاً وقلت له:

- يا فاروق، أنت كبير السنّ وعندك عيال. لا قبل لك بالقتال!

- ومن قال أني سأقاتل؟

- ماذا تفعل يالبندقية إذن؟

- الفرنسيون يجمعون البنادق. ومن يسلّم بندقيته يسمحون له بالخروج من المدينة.

- هكذا إذن. تصحبك السلامة.

عانقته ومضيت إلى الجامع. صليت تحية المسجد ثم رحت أمسح قضبان الضريح وقاعدته وأنفض عنها الغبار. ربما كان يجدر بي أن أحتفظ ببندقية أبي بدلاً من التبرع بها للثوار. قد أضطر للخروج من دمشق إذا استمر القصف على هذا المنوال أو وصل إلى حيّنا. دعائم بيوتنا الخشبية معرضة للاحتراق بسهولة والنهر ليس بقريب. ولكن إلى أين أذهب؟ لا أعرف مكاناً لي غير دمشق منذ ولدت، ولم أعمل في أي عمل غير خدمة هذا الضريح المبارك. إذا قصفوا حيّنا فليسقط السقف على رأسي وسأموت بين يدي شيخي. لطفيّة نفسها لم تفكّر في الهرب حتى الآن وها أنا أفكر فيه وأنا رجل!

طفت بأنحاء الجامع الذي هجره أغلب مصلّيه. لاحظت ما تبقّى من حاجيات المتشردين الذين فقدوا بيوتهم وصاروا ينامون في الجامع ليلاً ويغادرون صباحاً. أزحتها جانباً وفتحت الأبواب على مصراعيها وجلست

أنتظر أتباع الحضرة الذين تقاطروا واحداً تلو الآخر حتى اكتمل عددنا تسعة. وقفت بينهم وبدأنا ذكرنا معاً:

هو محيي الدين حقاً غوث كل العارفين
خادم الشرع المطهر سيدي الشيخ الأكبر
جلّ من أعطاه مظهر عمّ كل العالمين

في منتصف الحضرة لم يفارق فاروق ذهني. أغمض عيني وأحاول أن أنغمس في الذكر والنشيد. أحرك رأسي يميناً ويساراً لأطرد الهاجس الدنيوي وأتواجد في الحضرة الإلهية.

بابه عبد الغنيّ الولي ابن الولي
بحر علم نبويّ شيخ أرباب اليقين

ولكن فاروق يتربّع في وسط خيالي. لا يحضر البشر في حضرة الله إلا لغاية. فاروق راحل والراحلون حملة رسائل. حفظة أمانات. مبلغو إشارات. فاروق يريد شيئاً.

صفت النظرة. طابَت الحضرَة. جاءت البشرى – يا عيني – لأهل الله
حتى قد ظنّا. من ليسَ منّا. أنا جننّا – يا عيني – بذكر الله
فمن لم يجد. فليتواجد. قصداً يتعرَّض – يا عيني – لفضل الله

انتهت الحضرة سريعاً. سلّمنا على بعضنا واستأذنتهم. هرعت إلى الحجرة القدسية. أولجت المفتاح في ثقب بابها وأدرته مرتين وفتحته وأغلقته من خلفي. جلت بعيني في أرجاء الكتب المطبوعة والمنسوخة وتناولت منها أربعة. أخرجت قطع القماش التي أضمّخها بالمسك لتعطير الضريح في العيد ولففت بها الكتب الأربعة وأحكمت ربطها. خرجت من الحجرة وأغلقتها بإحكام ثم اتجهت جهة الباب. إلى بيت فاروق. كان قد أكمل إخراج حاجياته

ووضعها جميعاً فوق عربة يجرّها حمار.

- فاروق. هل لك أن تحمل هذه الأمانة معك إلى حماة؟

تناول مني الكتب وهو يقول بإخلاص:

- بالطبع يا أبا حاتم. لمن تريدني أن أوصلها؟

- إلى من يحفظها يا فاروق. أياً كان.

السِفْر العاشر

٨٥

"كل حبٍ يزول ليس بحب"

ابن عربي

مثل أشجار المشمش التي تملأ أرجاء ملطية، لا تثمر إلا في سنتها الرابعة. كذلك أثمرت حياتي هنا كما أحب. يكبر عماد ويملأ البيت صخباً. مزاجه صعب وبكاؤه كثير ويشتكي من كل شيء. امتلأ جسده بالبثور طيلة سنواته الأولى وفي عامه الثاني ظنناه ميتاً لا محالة بعد أن ظلت الحمّى تنهب جسده الضعيف كل شهر مرة أو مرتين. ولكن ها هو الآن يتم عامه الرابع وينطق لأول مرة خليطاً من الكلام العربي الذي نردّده في البيت والتركماني الذي يلتقطه من كلام الجيران.

اقتطعت جزءاً من الحديقة وبنيت فيها حجرة تتسع لطفلين صار عماد ينام فيها مع صدر الدين الذي بلغ السادسة من عمره وحفظ نصف القرآن وأحاديث كثيرة وصار يستيقظ قبلي لصلاة الفجر ويسبقني إلى المسجد حتى في الليالي الباردة التي تغوص

فيها قدماه الصغيرتان في أكوام الثلج المتراكم على الطرقات. قرر إسحاق أن يستقرّ في ملطية بعد أن سقط عن حصانه وأصبح بالكاد يحرك كتفه اليسرى. استأذن من السلطان أن يترك خدمته فأذن له. والحقيقة أنه تحجّج بكتفه الكسيرة لينصرف عن خدمة السلطان بعد أن ساءه تدبيره لاحقاً. رأى سلطانه يوجّه غزواته تجاه الشام وأصبح يجيش الجيوش لمحاربة الأيوبيين المسلمين متحالفاً، ويا لسوء الأدب، مع البيزنطيين تارةً والأرمن تارةً أخرى. لم يملك إسحاق أن يكون جزءاً من هذه السياسة، فقرر أن يعتزل.

في الجامع احتل درسي صحنه الكبير صيفاً وربيعاً وستّاً من حجراته الداخلية المفتوحة على بعضها في الشتاء والخريف. أجلس على كرسيٍّ خفيض لا يُعليني إلا قدر شبرٍ أو شبرين من رؤوس التلاميذ. وعن يميني يجلس إسحاق وبدر وسودكين وعن شمالي يجلس أجود التلاميذ خطاً ينسخ ما أزيد فيه من رأي ليس مصنّفاً بعد. أما التلاميذ فمن كل حدبٍ وصوب. مريدون يقيمون في الخوانق من تبريز وخوي وأردبيل والموصل وأرضروم ونصيبين والرها وحلب وأنطالية. وجدنا بعضهم لا يتحدث العربية ولا يعرف منها إلا ما يقرأ به سوراً قصيرة في صلاته ولكنه يحضر لوجه البركة التي تنير قلبه، فخصصت لهؤلاء من يعلّمهم العربية قبل الدرس وبعده. وقسّمت درسي وقتين: وقت لعامة التلاميذ أقرأ عليهم فيه مبادئ الطريق وأصول الشريعة وتفسير القرآن، ووقت لخاصة التلاميذ وأصحابي نقرأ فيه على بعضنا الأسرار العلوية والشؤون القدسية والأنوار الإلهية من كشفٍ وحالٍ وجذبٍ وفيضٍ وشطح.

يفد علينا فيه كبار المتصوفة ذوو الكرامات والملامتية ذوو الزهد والبركات وحتى البهاليل الذين ذهبت الجذبة بعقولهم يتهافتون على الدرس الخاص فنقرأ ما في قلوبهم إن أعجزنا فهم عقولهم.

وفي يوم كان حرياً به أن يكون مثل سابقه لولا أنّ أقدار الله لا تتشابه سبحانه وهو القائل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ طرق بابنا طارقٌ شديد القبضة. فتحت الباب فإذًا برجلٍ عربيٍّ طويل القامة كبير العمامة ينسدل شعره من تحت عمامته حتى يبلغ كتفيه، في جسده شدة وفي كفيه إذ صافحني آثار خشونة. ومع هذه كله كان في ملامحه حذر وشبه رجاء. ورغم أن هذا الباب يطرقه كل مريد وعابر سبيل يبحث عن مقام في خوانق ملطية أو عمل في أحد زواياها، وقد اعتدت على تصفح وجوه الناس وألوانهم وهو قادمون من شرقٍ وغرب، إلا أن هذا الرجل كان مبعث توجّسٍ وشعرت أن في وجهه ما لا تحمله وجوه المريدين عادةً.

- أنت محيي الدين بن عربي؟

- نعم، هو أنا. ومن أنت يا ضيف؟

تسللت عيناه إلى داخل البيت وقد سمحت له بذلك قامته الطويلة التي تعلو قامتي وبدا وكأنه يفتش عن شيءٍ يجهل وجوده. اقترب عماد من الباب ووقف بين ساقَيّ يتأمل من أدنى قامة الرجل الذي بدا له عملاقاً ولا شك. وفي المقابل تأمل الرجل عماداً وعلّق بصره به طويلاً. لم أكرّر سؤالي حتى لا أحرجه. ربما كان ضيفاً لا يريد أن يكشف عن نفسه، ولا يحقّ لي وأنا الحاتميّ الطائيّ أن أصرّ على معرفة هويته إلا بعد مرور أيام الضيافة الثلاثة. ولهذا فبعد أن

طال صمته أشرعت الباب وهممت أن أدعوه للدخول. ولكنه جفل فجأةً وكأنه استيقظ من حلم ولوّح بسبابته في وجهي وهو يقول:

- اسمع يا رجل. إني علمت أنك متزوج من ابنة يونس.

- نعم، هذه زوجتي وأم ولدي هذا.

ازبدّ وجهه وتمعّر ثم صاح فيّ:

- ظلمٌ وفجورٌ وحرام. تتزوجها وهي زوجتي!

في هذه اللحظة سمعت شهقة فاطمة من خلفي متبوعة بعويل. نظر كلانا إلى الداخل ورحنا ننظر إلى فاطمة وقد اقتربت من الباب ثم ألقت نفسها على الأرض وراحت تولول مثل ثكلى. شقّت ثوبها فجأةً فبدا نحرها وبكى عماد من مرآها على هذه الهيئة. امتدت يدي دون إرادة نحو الباب لأغلقه ستراً لها إلا أن قبضة الرجل أوقفته ثم جثا على ركبتيه وراح ينوح نواحاً وكأنه قد اختزنه في صدره سنوات لا عدد لها. وقفت بينهما، فاطمة عن يميني جاثية على الأرض كأنها عجلٌ ذبيح وهو عن شمالي جالسٌ على أربع وكأنه مقصوم الظهر.

يبتلي الله أولياءه ليمتحن قلوبهم للتقوى. وقد ابتلاني بظهور زوج زوجتي بعد أن ظنناه قد مات! أجلسته في مجلسي وهو يرتجف وسقيته ودثرته. عيناه ذاهلتان لا تستقران على شيء ووجهه مصفرّ وكأن الدماء فرّت منه. حدث أن طرق الباب بعد ذلك إسحاق على موعدٍ معي كما هو الحال منذ أسبوعين ونحن نعكف معاً على تقييد رسالةً في اصطلاحات الصوفية. أدخلته وأجلسته ثم عرّفته على ضيفي فتجمّدت ملامحه وظلت على حالها الجامد دقائق قبل أن

يطرق ويغرق في الصمت.

أشعلت ناراً في الموقد وقرّبت من الرجل مشمشاً وحليباً وماءً معطراً بالورد ثم خبزت له خبزاً فأكل قليلاً ولكنه لم يهدأ. ظلّ يكرّر كلاماً يوحي ببطلان زواجي من فاطمة وأنا لا أجادله في ذلك. اكتفيت بالإشارة أن الأمر لله يفعل ما يشاء، وأن شيئاً لن يحدث في هذا البيت إلا بإرادته ووفقاً لشريعته. مرّت ساعتان والرجل متوجّسٌ منا لا يتخلى عن عدوانيته. ثم هدأت نفسه قليلاً بعدما أكل وشرب واكتست ملامحه بالهدوء. تحدثنا في أشياء أخرى مثل الطريق من ماردين إلى ملطية. القوافل. الطقس. الناس. وكلَّ ما سعى إسحاق بالكلام عنه إلى التسلية عن الرجل المسكين وتهدئة أعصابه. وبالفعل بدا أثر ذلك عليه، فصار يحدثنا بما رأى. يبتسم أحياناً ثم يخفي ابتسامته سريعاً.

سألته أخيراً أين كان.

– كنت أسيراً في بلاد الروم.

– وكيف أُسرتم؟

– خرجنا من حلب ونحن مائتا راجل ثلاثون منا من الخيالة وكان هدفنا أن نطرد الفرنجة من أعمال أنطرسوس بعد أن دخلوها وأفسدوا فيها. ولكن وقعنا جميعاً في كمين بين تلين عسكر فوقهما رماة الفرنجة من الليل.

سألته:

– وكم نجا منكم؟

– عشرون أو ثلاثون على الأكثر. ساقونا جميعاً إلى أنطرسوس

قبل أن تصل نجدتنا. وفي اليوم التالي عرضونا على سوق النخاسين واستعجل الحاكم في بيعنا لتجار بنادقة كانوا في المدينة فأبحروا بنا من فورهم نحو صقلية.

قال إسحاق بنبرة حنق:

- هذه خسّة. الأسرى يعرضون للفدية أولاً قبل أن يصبحوا أرقاء.

لم يعلّق الرجل على كلام إسحاق. هزّ رأسه بأسف ثم أطرق صامتاً فاستحثّه إسحاق أن يكمل قصته:

- في صقلية انتقلت من نخاسٍ إلى آخر حتى انتهيت إلى مُلك عاصر نبيذ استعملني في فلاحة الكروم.

تهدّج صوته يوم استرجعت ذاكرته ذلك، فسأله إسحاق وكأنه يحاول أن يصرفه عن تلك الذكريات:

- وكيف هربت من الأسر؟

- لم أهرب. بقيت أعمل في الحقل ثلاث سنوات حتى وفد إلى صقلية تجار مسلمون من الأندلس. فجمعوا من أموال زكاتهم واشتروا به أسرى المسلمين وأعتقوهم.

ابتسم اسحاق ونظر جهتي وهو يكلّم الرجل:

- ما أعظم هؤلاء الأندلسيين!

لم ألتفت لمجاملته. أطرقت في صمتٍ طويل وأنا أفكّر ثم رفعت رأسي وخاطبت الرجل مباشرةً:

- اسمع يا عماد...

نظر الرجل جهتي بتوجّس وكأنه مرتاب مما سأقوله. فقلت:

- أذهب وإياك إلى القاضي، وأنا أشهد أخي إسحاق أن ما سيقضي به شرع الله فقد رضيت به.

٨٦

"العطاء بعد السؤال لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

لم تكفّ فاطمة عن البكاء طيلة الليل. انتفخت عيناها من أثر ذلك واحمرّتا وأصبح وجهها كله مثل رقعةٍ من الجلد أبلاها المطر. نامت في حجرة الصبيان وهي تحتضن عماداً وبقيت أنا أقلب بصري في السقف بحثاً عن مخرج من هذه الحال. هل أنا قادرٌ على التخلي عن فاطمة فعلاً؟ لو فعلت فبوسعي أن أتزوج سريعاً من أي امرأةٍ أريد. وبوسعي أيضاً أن أبقي عماداً معي لو شئت. وبوسعي أن أعتزل النساء جميعاً وأنصرف إلى درسي وكتبي وأختلي بالله أياماً أطول. ولو لم أفعل، وأبقيت فاطمة معي، فلا أظن شيئاً يتبدّل. إنها على صلاحها وطاعتها وخدمتها لا تكاد تقول شيئاً. لا تكلّمني ولا تدللني ولا تقدّم لي أكثر مما تقدّمه أي زوجة لأي زوج في أي صقعٍ من الأرض: طعام وخدمة وفراش فقط. فلا أنست بعلمها كما أنستُ بعلم مريم بنت عبدون ولا اشتهيت كلامها كما اشتهيت كلام نظام بنت زاهر. إنها

امرأة سهلة التعويض.

وأنا في خضم أفكاري إذا بها تفتح الباب وتدخل عليّ. بدا واضحاً أنها مثلي لم تنم. قالت لي مباشرةً:

– اعلم يا محيي أني أرغب البقاء معك.

– لا أظنك صادقة في ذلك يا فاطمة.

– لا يضير صدقي من كذبي. أريد أن أبقى مع ولدي وفي بيتي.

– ففيمَ كان نواحك لمّا رأيته وشقّك القميص وبكاؤك طيلة اليوم إذن؟

صمتت ولم تجب. قلّبت نظراتها في فضاء الحجرة لتتجنّب النظر في وجهي وساعدها الظلام في ذلك. انصرفت وهي تقول:

– أنت لم تسألني ولكني هنا لأجيبك. إن أردتني أن أبقى سأبقى وأنا راضية. ولئن سألني القاضي فهذا ما سأقوله له.

كشفت عبارتها الأخيرة مبتغاها. فهي تحيل الأمر لي في النهاية باستسلام المرأة التي لا ترغب في الدخول في معارك. إنها ولا شك تجنّبت أن تصارحني بما يخيفها: وهو أن أمنع عنها ولدها الصغير. ولكني أيضاً لا أستطيع فراق ابني. ولا أقوى على السفر للقائه.

اليوم التالي كان جمعة. تحدث إسحاق إلى القاضي بعد الصلاة فضرب لنا موعداً في دار القضاء من غدٍ على أن تجيء فاطمة معي. مرّ اليوم عادياً لا غرابة فيه سوى الصمتُ الذي ساد. حتى عماد كان هادئاً على غير عادته وكأنه أوجس في البيت أمراً جللاً دلّته عليه جفون أمه المنتفخة. أما صدر الدين فقد أخذه أبوه منذ تلك الليلة تخفيفاً على فاطمة بعد الصدمة التي تعرضت لها فبات مع والديه.

صباح السبت خرجت مع فاطمة متجهين إلى دار القضاء. ألفينا هناك إسحاق صحبة الرجل الذي بدا وكأنه يستعد لمعركة وقد تجهّمت ملامحه واكتست بغضبٍ دفين. دخلنا إلى الدار وجلسنا جميعاً في الصحن الذي يجلس فيه المتخاصمون بانتظار مناداتهم من قبل القاضي. ساد الصمت. فاطمة ساكنة كأنها حجر. ينظر الرجل جهة باب القاضي وكأنه لم يعد يطيق صبراً. يكلّمني إسحاق من حين لآخر في شؤون عامة وكأنه يريد أن يسليني من فراقٍ وشيك بيني وبين زوجتي وأم ولدي.

أخيراً ونحن في ذلك المجلس كشف الله لي ما أفعله. قلت للرجل:

- اسمع يا أخي عماد.

التفت جهتي، وفي الوقت نفسه تحركت قدما فاطمة وكأنها جفلت من كلامي مع زوجها السابق في حضرتها. قلت له:

- إن رغبت في فاطمة ورغبت بك هي فإني لا أمانع في تطليقها على شرطٍ واحد.

- وما شرطك؟

- أن تقيما معاً في ملطية وفي بيتٍ قريبٍ مني حتى يبلغ عماد الدين الحلم.

انقلب تجهّم الرجل حيرةً بدت على ملامحه، وراح يقلّب نظره بيني وبين إسحاق وبين الأرض ثم قال:

- ولكني لا أعرف أحداً هنا ولا أملك أرضاً وليس بيدي صنعة.

انبرى إسحاق للكلام وقال:

– هذا هيّن. سأجد لك عملاً في أقرب وقت إن شئت.

صدر من فاطمة صوتٌ خافت وكأنها تريد أن تقول شيئاً. أدنيت أذني منها فقالت لي:

– ابني.

– ابنك يبقى معك.

نادى المنادي علينا بالدخول إلى القاضي. فنظرت إلى الرجل أنتظر جوابه فوقف وقال:

– أوافق.

نظرت جهة فاطمة وقلت لها:

– إن كنت موافقة أيضاً فارفعي صوتك.

– موافقة.

دخلنا على القاضي وأبلغناه بما اتفقنا عليه. نظر القاضي جهتي وقال بصوت خفيض:

– أمتأكدٌ أنت من قرارك؟

– أجل.

– إذن عوّضك الله خيراً. وأنت يا عماد، فإني أشهد عليك الشهود أنك تعهّدت بالإقامة في ملطية حتى يبلغ الصبيّ الحلم. وإن سافرت فلا تحمل معك زوجك وولدها.

– أتعهّد بذلك.

– وأنت يا فاطمة، هل ترضين بذلك؟

– رضيت به.

– هل أنت على طهر؟

- نعم.

ثم التفت ناحيتي وقال:

- هل جامعتها في هذا الطهر؟

- لا.

- إذن ارم عليها يمين الطلاق إن شئت.

- طلّقت فاطمة بنت يونس.

التفت القاضي جهة فاطمة وقال لها:

- عدّتك ثلاثة قروء إلا أن تكوني حبلى فعدتك أن تضعي. ثم يكون لك الأمر في الزواج بعد ذلك. حفظكم الله جميعاً. انصرفوا.

خرجنا من دار القضاء وإسحاق يكلّم الرجل ويوصيه أن ينتظر منه خبراً. أومأ الرجل برأسه متفهّماً ثم مضى لشأنه. هرع إليّ إسحاق وقال:

- لقد أرسل السلطان في طلبي، فهل ترى أن تصحبني إليه وتسلي نفسك في قونية بعض الوقت؟

- حسناً.

٨٧

"من طلب السلطنة على الخلق ملأ الله قلبه شغلاً"

ابن عربي

لم تمضِ على وصولنا قونية بضع ساعات حتى جاءنا رسول السلطان يدعونا للحضور إلى البلاط معاً. اغتسلنا على عجل ولبسنا ثياباً جديدة وخرجنا متلفّعين بأغطية من صوف وقد تراكم على الطرقات الصخرية جليدٌ بارد حذّرني إسحاق دون جدوى من الانزلاق فوقه. زلقت مرتين نجوت فيهما معاً من كسر العظام ودقّ الجمجمة. فراح إسحاق يعضدني طيلة الطريق وهو يبتسم قائلاً:

- حتى لا يقول السلطان أني جلبت إليه ضيفاً كسيراً!

دخلنا مجلس السلطان وانتظرنا طويلاً وفي معيتنا رجالٌ آخرون من موظفي البلاط تبادل معهم إسحاق الحديث في حين لزمت أنا الصمت. تردد إسحاق إلى أمير المجلس عدة مرات ليسأله عن قدوم السلطان فأوضح أنه لم يبلغه بهذا الشأن ولكنه مريض. انصرف أغلب من في المجلس ظناً منهم أنه لن يخرج. بقيت أنا وإسحاق وأمير

المجلس حتى دلف علينا أخيراً يمشي ببطءٍ شديد يتبعه الجاشنكير بحذر مستعداً أن يعضده إذا اختلّ توازنه. بدا مرضه واضحاً وسعاله لا يتوقف. جلس على كرسيه بصعوبة وهو يلهث فسلّمنا عليه تباعاً.

ساد صمتٌ لا يقطعه إلا سعال السلطان وتأوهاته الخفيفة كلما أراد أن يعتدل في جلسته. أطرقنا جميعاً صامتين ثم تحدث السلطان أخيراً:

- إسحاق، أمر الفتوات لا أظنه يجري على ما يرام.

صمت إسحاق في انتظار توضيحٍ إضافي جاء من طرف أمير المجلس الذي قال:

- خرجنا للشام بستمئة فتى وعدنا بمئة.

- ماذا حلّ بهم؟

- سالمون، ولكنهم رحلوا كلٌّ إلى شأنه.

- ولكن أغلبهم من أهل الأناضول كما أعرف. اخترتهم من سيواس وملطية وقيصرية فأين يرحلون؟

أجاب السلطان هذه المرة:

- هذا السؤال لك: أين يرحلون؟

- لا علم لي إلا ما بلغتني به يا مولاي.

قال أمير المجلس:

- جواسيسنا تقول إنهم يرتزقون بسيوفهم في أي جيشٍ كان.

قال السلطان بحنق وإن ظل صوته متعباً:

- نعلّمهم القتال... فيقاتلوننا.

بدا إسحاق في غاية الحرج وكأنه ملومٌ على هذه الخيانات. أطرق

برأسه ولم يحر جواباً وبدا أن السلطان لم يشأ أن يستمر في لومه ولكنه قال:

- لا أدري لمَ تركت شأنهم وانصرفت إلى ملطية. كنت أعوّل عليك في إدارة شؤون الفتوات والآن لم يبقَ منهم أحدٌ أصلاً.

قررت أن أتحدث. تنحنحت فالتفت جهتي أمير المجلس ولم يبدُ وكأنّ السلطان قد سمع صوتي، فقلت:

- فليأذن لي مولاي السلطان بقول.

- قل يا محيي.

- من باعك سيفه باعه لغيرك. ومن باع نفسه لله لم يبعها لغيره.

- ماذا تريد أن تقول يا محيي.

- أريد أن أقول إن عزة السلطان وملكه لم يؤتَها ولم تأته إلا بجهاد الظلمة المفسدين يعضده في ذلك رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

- أنت بعد لم تفصح عمّا تريد قوله يا محيي.

- أقول يا مولاي إن مسعاك في حرب الأيوبيين لا يرضي الله. فإنك بذلك كمن استأجرت سيفاً ثم جردته في وجه أخيك. فلا السيف سيفك ولا أخوك عدوك. فكيف ترجو النصر وهذا سلاحك وتلك رايتك؟

بدا أن السلطان أشدّ إرهاقاً من أن يغضب. راح يهزّ رأسه نفياً وكأن كلامي كله لا يعجبه ثم قال:

- أنت لا تعلم شيئاً عن هذه الحرب يا محيي. هم الذين ابتدرونا بالقتال.

- فادفع بالتي هي أحسن يا مولاي.

- دفعنا وما نفع ذلك. وحلب كانت تحت حكم أجدادي قبل الأيوبيين. وقد استنفرني أهلها إليها بعد أن نالهم من ملوكهم أذىً شديد.

قاطع أمير المجلس كلامنا وكأنه يحاول أن يتجنّب إغضاب السلطان فقال محاولاً تغيير مجرى الحديث:

- إن شئت يا مولاي أن نعيد تنظيم الفتوات وندخلها في ديوان الجند ليصبح لكلٍّ منهم جامكية بدلاً من نصيب الغنائم.

قال السلطان متململاً:

- تظل الغنيمة أوفر من الجامكيات وإن ضاعفناها.

ساد الصمت في المجلس وأطرقنا جميعاً لا نعرف ما نقول. أخذ السلطان يفرك جبينه متألماً. ثم أخذته نوبة سعال. هرع الجاشنكير إليه بإناء خشية أن يقيء ولكنه لم يفعل. توقف سعاله وراح يستعيد أنفاسه ونحن صامتون. مرت دقائق طويلة قبل أن يلتفت جهة إسحاق ويقول:

- ادنُ مني يا إسحاق.

دنا منه إسحاق حتى تماسَّ ذراعاهما فقال له السلطان:

- أريدك أن تذهب إلى أخي كيقباذ.

- في السجن؟!

- نعم، ولكن تخرج في أقل عددٍ من الرجال ولا يعلم أحد بقصدك.

- سمعاً وطاعة.

- قل له إن أخاك يفكر في منحك ولاية العهد من بعده فإن وافق

فاستحلفه على أمان أبنائي وخاصتي وعبيدي ثم وثّق ذلك كتابةً. وإن رفض فعد من حيث جئت.

- سمعاً وطاعة.

مدّ السلطان يده، فهرع أمير المجلس ووضع فيها رسالتين مطويتين، وقال:

- هذه رسالتي لأخي، أما هذه فأسماء الأمراء الذين تطوف عليه كلٌّ في مدينته وتأخذ منهم الأمان لأخي ولياً لعهدي من بعدي، وتُشهدهم على عهده وميثاقه لأبنائي وخاصتي وعبيدي.

- سمعاً وطاعة.

ثم التفت السلطان ناحيتي وقال:

- إن شئت يا محيي أن ترافق إسحاق وتعينه في مهمته.

- أفعل بإذن الله يا مولاي.

خرجنا من عند السلطان وإسحاق منغمسٌ في تفكيرٍ عميق وهو يقبض بيده على الرسالتين ولا يتكلم. وصلنا إلى البيت القريب من قصر السلطان ودخلنا. وما أن جلسنا قريباً من موقد الجمر حتى تكلم إسحاق لأول مرة منذ خرجنا من القصر:

- أسمعت ما قال؟ يعهد بالسلطنة لأخيه الذي شاقّه عليها وحاربه من قبل. يريد أن يخرجه من سجنه ويجعله سلطاناً من بعده!

- يؤتي الله الملك من يشاء!

عاد إسحاق لإطراقه وصمته وتفكيره العميق وهو يتأمل الجمرات المتقدة في الموقد. ثم جفل فجأةً وكأنه تذكر شيئاً وقال لي:

- يا محيي، إن ما قلته اليوم في حضرة السلطان خطيرٌ جداً.

- ما قلت إلا ما أرى.

- نعم، ولكنك شمتّ به وهو بعد مهزوم. أما علمت ما فعل بالأمراء الذين خانوه في هذه الحرب؟

- ماذا؟

- أحرقهم!

- يا إلهي! أعوذ بالله من طغيان الطغاة. والله لا أدخل عليه مجلساً بعد هذا اليوم.

- نعم، هذا أسلم لك!

٨٨

"ما حياتي بعدكم إلا الفناء"

ابن عربي

لم يكن البرّ بقسمي صعباً. فقد مات السلطان قبل أن ينقضي الشتاء من ذلك العام. خرج أخوه كيقباذ من السجن إلى العرش مباشرةً. عدت إلى ملطية وحدي بعد أن جبتُ مع إسحاق الإمارات السلجوقية ليعقد البيعة لكيقباذ. وعند عودتي كانت عدة فاطمة قد انتهت وتزوجت وسكنت أقرب ما يكون من بيتي حتى أني أرى زوجها في الصلوات أحياناً. أعدت سودكين وبدراً للسكنى معي بعد أن خلا البيت من فاطمة فاجتمع شمل ثلاثتنا مرةً أخرى. ماتت العنزة الأم في الشتاء بعد ليلة برد قارصة لم ينبلج فجرها إلا وهي طريحة قد جمّد البرد لعابها وأنفها.

رغم مكث بدر في البيت طيلة اليوم وقيام سودكين بخدمتنا إلا أن البيت صار هادئاً هدوءاً لا أطيقه. اختفى بكاء عماد ليلاً إذا أخافه حفيف الأشجار أو هزيم الرعد، وترتيل صدر الدين صباحاً وهو

يسترجع ما حفظه من السور والحديث، وما تحدثه فاطمة في ركن طبخها من جعجعة الرحى وقرقعة القدور ودقّ الهاون. شكوت ذلك لإسحاق في مقتبل الربيع فجلب لنا حصانين وخرجنا معاً إلى سيواس ترويحاً عن النفس. بلغنا الخان الذي نريد في أول السوق الذي ما رأيت في الأناضول أكثر ازدحاماً منه بالناس والبضائع والحوانيت. أياً ما سلكت من دروبه وجدت تجاراً من كل صوب: عربٌ وقفجاق وكرج وأرمن وتركمان، كلٌّ يكلّم الآخر بلغته وبينهم تراجمة يستأجرهم بعض التجار طيلة إقامته في المدينة. وضعنا متاعنا في الخان وسلمنا الحصانين لصاحبه واتجهنا إلى الحمام. خلعنا ملابسنا وغطسنا جميعاً في الحوض ثم بدأ المدلك يغسل إسحاق وأنا أغسل لحيتي في ماء الحمام الدافئ. وعندها تناهى إلى سمعي ما لم أعره اهتماماً في حينها من حديث المدلك لإسحاق عن تلك البقعة المتورمة في عنقه:

- منذ متى؟
- لا أدري. ربما بضعة أشهر.
- تؤلمك؟
- لا.
- تكبر أم ثابتة؟
- بدأت صغيرة ثم كبرت إلى هذا الحجم وتوقفت.

ولو أني أعرت ذلك الحديث اهتماماً لربما كشف الله لي حينها ما استغفلت عنه فحجبه عني. تأكل تلك البقعة صديقي وتورده قبره بعد شهرين وتتركني بعده فرداً. الله كم عرفت ومضوا. كم أحببت

وتخلوا. وكم رافقت ورحلوا. الخيّاط والحصّار والعريني والسبتي والغوث وزاهر والآن إسحاق الذي لم أعرف روحاً أصفى من روحه. الحليم الكريم الذي ينام مبتسماً ويستيقظ مبتسماً. زمّ شفتيه أخيراً عندما أخفى وجهه عنا الكفن. وتوقّف عن الابتسام عندما كاد صدري يتوقف عن النفس. تلقّفه قلبي في خير بقاع الأرض في مكة، وأوسدته لحده في ملطية، وفي صدري لوعة بطول المسافة بين المدينتين، قفراً وشجراً، جبلاً وسهلاً. رحمك الله أيها الصديق الذي أخلص لي وخلّصني معاً.

أقام والي ملطية سرادق عزاء لإسحاق وكأنه من أمراء السلاجقة. اجتمع فيه غنيٌّ وفقير، قريبٌ وبعيد. وجلس الوالي بنفسه ليتلقّى العزاء. وحمل البريد الخبر إلى السلطان كيقباذ وهو يحشد جيوشه استعداداً لغزو قلقيلية. فما منعه انشغاله بالغزو من أن يبعث عزاءً سلطانياً في الرجل الذي حمل إليه بشرى السلطنة وهو في السجن. وأمر بكسى للفقراء وبطعام على نيّة الفقيد.

وعلى مقربة من كرسيّ الوالي جلست مطرقاً حزيناً أفكر في حال صدر الدين الذي عضّه اليتم صغيراً. كان يجلس إلى جواري وفي عينيه مزيجٌ من حزنٍ ودهشة. يلهيه ما في السرادق الكبير من الناس المختلفين في لباسهم وكلامهم ومركبهم حتى يتذكر أن ذلك كله عزاء أبيه فيطرق وتغادر الدهشة ملامحه ويكسوه بدلاً منها الخوف من المجهول والشعور بانهيار السقف الذي كان يظلّه.

عدت إلى البيت ملتحفاً بآخر ما أهداني إياه إسحاق ونحن في سيواس: فرو قندس اشتراه من التجار الروس أسدله على كتفي ليغطي

عنقي من زمهرير الأناضول ويذكرني بصاحبي. ما ذكر الناس سيواس بعد ذلك إلا وردت إلى ذهني صورته وتداعى على ذاكرتي هناء الأشهر التي قضيناها فيها معاً، وطفنا على مساجدها وزواياها وقلاعها وأرباضها ورساتيقها فاستقبلنا أهلوها بالقبول والاحتفاء إما من أجلي وأجل طريقتي أو لأجل إسحاق ومكانته في بلاط السلطنة ومعارفه الواسعة بالتجار الذين جاؤوا من بلاد طالما تردد إليها رسولاً. فقرأنا كتباً واستقبلنا تلاميذ وألبسنا خرقاً والله نسأل أن يتقبل منا عملنا ويدلنا على طريق محبته الشاملة ويرفعنا إلى مقام عطفه ورضاه.

في عزاء إسحاق قال لي أحد المعزين: "آخر الأحزان يا سيدنا". ما أسخف هذه العبارة. لا هي أمنية فتتحقق، ولا دعاء فيُستجاب. كلما ردّدها أحدهم سمعها الناس هكذا: "آخر الأحزان" وسمعتها أنا هكذا: "أتمنى لك الموت عاجلاً قبل أن يصيبك الحزن التالي". من نحن بلا أحزان؟ كيف نأمن على أنفسنا بدونها ألا نتيه في أودية الغفلة مثل شياهٍ ضالة؟ ما أحب الحزن إلى نفس الصوفيّ وما أمقته على نفس الجاهل الذي ألهته الدنيا. يريني الله في الطريق حزناً بعد حزن. وما أن واريت حبيبي وصديقي إسحاق التراب وجلست في بيتي أستذكر ما كان بيننا وأسترجعه، وأتأمل الحياة من منظار فقده وغيابه، حتى اسودّت قدم بدر الثانية مثل سابقتها وعجز عن تحريكها تماماً.

يحمله سودكين من مكانٍ لآخر. يوقفه ويجلسه ويغسله وهو لا يطيق حراكاً. إذا أراد أن ينتقل من مكانٍ لآخر فعل ذلك زحفاً على مرفقيه أو تقلباً على ظهره وبطنه حتى يبلغه. وهو في ذلك صابرٌ

طيب القلب والخاطر. جلبت له طبيباً فقلبه على كل حال ثم خرج دون أن يخبرنا بما فيه وكأنما يئس من حاله ومآله. فعلمت أنه الفراق لا يلبث أن يحلّ بيني وبين صاحبي الأقرب، ورفيقي في السفر من مغرب الأرض إلى مشرقها. كم أطعمني، وكم غسّلني، وكم خدمني، وكم أردفني، وكم عضدني، وكم أخذ مني وأخذت منه. قررت أن أقضي معه ما شاء الله له من بقية عمره فقطعت درسي في المسجد وصرت أقضي يومي كله في حجرته. أنا أكتب وهو ينسخ. وكلما أشكل عليه كلامٌ سأل فأفيض عليه بالجواب إفاضةً تكشف عن سرّ حبي له وعظيم مكانته في صدري.

وفي يوم من تلك الأيام استيقظت من نومي وقد سبقني بدر وجلس يكتب. فلمّا دخلت عليه ابتسم ورفع إليّ الكتاب الذي يكتبه فتناولته فإذا هو حسن النسخ مغلفٌ بعناية وعلى صدره عنوانٌ لا أذكر أني قد كتبته من قبل، **الإنباه في طريق الله**.

– ما هذا يا بدر؟

– فيوضٌ ومواجيد سمعتها منك على مرّ السنين ولم أجدك قد ذكرتها في كتبك، فخشيت أن تضيع فجمعتها في كتاب.

– أنت تكتب كتاباً عني؟

ضحك بدر وقال:

– العلم علمك والخط خطي يا سيدنا.

– سأقرأه وأحققه.

٨٩

"الصبر عند الصدمة الأولى. الصبر الثاني لا يُعوّل عليه"

ابن عربي

طرق بابنا كاتبٌ من دار الوالي ومعه جنديٌّ ولم يدخلا. وقفا جامدي الملامح أمام سودكين الذي يحاول أن يستفهم عن طلبهما فلم يزيدا على القول إنهما مأموران باصطحاب المجذوم إلى حارة الجذامى. حاول سودكين أن يبيّن لهما أن ليس في البيت مجذوم ولا ريب أنهما أخطأ العنوان. ولكنها أصرّا على قولهما وظلا واقفين عند الباب لا يتزحزحان. ناداني سودكين فسمعت منهما ما سمع، واستزدت بأسئلتي:

– من دلّكما عليه؟

– طبيب البيمارستان.

– وماذا قال؟

– قال إنه عاين مجذوماً في هذه الدار.

التفتُّ ناحية سودكين الذي لا يزال يظنهما مخطئين في العنوان.

حاولت أن أشرح له أنهما يقفان أمام الباب الصحيح فلم يقوَ لساني على الكلام. تدحرجت من عينَيّ دموعٌ ساخنة على وجنتَيّ اللتين شققهما برد الخريف المقترب. ودخلت إلى حجرتي لا أقوى أن أنظر إلى بدر القابع في الحجرة الأخرى لا يعرف ماذا يُراد به. استلقيت على الفراش المكوّم في طرف الحجرة ودفنت وجهي في لجّة الصوف وبكيت محاولاً أن لا يصدر مني صوت. بكيت على كل يومٍ قضيته مع بدر، نائمين تحت سقفٍ أو تحت سماءٍ مكشوفة. ماشيين وراكبين. مقيمين وراحلين. طاعمين وجائعين. في حواري فاس وأزقة القاهرة وشعاب مكة وحارات حلب وأحياء بغداد. في كل بيت سكنّاه في مدنٍ كثيرة، وكل خانقاه تدبّرنا فيه أذكاراً جليلة، وكل خانٍ نزلناه في طرق المسافرين. في كل صحراء قطعناها وقد ألهبت الشمس رأسينا، وكل جبلٍ سلكناه وقد جمدّ البرد أطرافنا. على كل طعامٍ اجتمعنا حوله فخصّني بالطيب منه، وكل شرابٍ بللنا به حلوقنا فلم يشرب إلا بعدي.

خرجت من غرفتي فإذا سودكين جالسٌ أمام بابي لا يعلم ماذا يفعل. تركت له مهمة إبلاغ بدر بالأمر وخرجت من البيت أمشي بلا وجهة ولا مقصد.

عدت إلى البيت ليلاً والتقيت سودكين. أشار إلي بإيماء أنه قد أبلغ بدراً بما فيه. دخلت عليه فإذا هو منكبٌّ ينسخ كأن شيئاً لم يكن وقد أنزل الله عليه سكينة المؤمنين. نظر إليّ وقال:

- نسخت نسخةً من كتاب **العظمة** وكتاب **القربة** وسآخذ معي أوراقاً إلى حارة الجذامى لأكمل نسخ كتاب **الميم**!

سالت دموعي على خدي وابتسمت في آنٍ واحد. فابتسم بدر وقد شعر بما أشعر وقال:

– لا تحزن يا سيدنا. فما أنا حزينٌ إلا على فراقك.

– يعزُّ عليّ أن ينتهي بك المقام في حارة الجذامى يا بدر!

– إنه مقامٌ عزيزٌ يا سيدنا. حارة الصابرين المؤمنين الذي يُنقص الله من سيئاتهم كل يوم ويُضاعف من حسناتهم.

– سأزورك قدر ما أستطيع يا أخي.

– بل تزورني كل شهرٍ مرةً واحدة وتمكث أقل من ساعة. فلو أصابتك العدوى فلن أسامح نفسي قط.

انكببت عليه ورحت أقبّل رأسه وهو يصرفه عني حياءً وتواضعاً ويحاول أن يقبّل رأسي. تناولت يده المليئة ببقع الحبر الأسود والأحمر وقبّلتها فتناول يدي وراح يقبّلها. ضممته إلى صدري فاستكان ورحت أبكي وهو هادئ يربت على كتفي ويمسح على ظهري كأنه يهدئ من روع طفلٍ ضائع. أخيراً مسحت دموعي واعتدلت ورحت أنظر إليه محاولاً أن أستودع عينَيّ من وجهه الطيب ما يخفّف عليّ فجيعة فراقه الذي اقترب.

ساد بيننا صمتٌ راح بدر يرتّب فيه الأوراق التي أمامه ويحكم إغلاق دواته وينشغل بما حوله وأنا صامتٌ لا أفعل شيئاً غير تأمله. دخل سودكين ونحن على هذه الحال واتّخذ لنفسه ركناً من الحجرة وجلس محتضناً ساقيه ومخفياً نصف وجهه خلف ركبتيه. وأخيراً تحدث بدر وهو لا يزال ينظر في أوراقه ويرتبها:

– أتعلم يا سيدنا؟

– ماذا يا حبيبي؟

– ذات يوم وأنا طفلٌ في القاهرة قبل أن أدخل في ملك أبي الفتوح أعادني رجلٌ اشتراني قبل يومين فقط إلى النخاس لأني لا أنام وظنني مريضاً. أدخلني النخاس مع أحباشٍ وصلوا للتو مع قافلةٍ عربية. كان بينهم امرأة تضرب الودع فتقول لأحدهم إن مصيره سينتهي في بغداد، وآخر قالت إنه في الكرك، وآخر دمياط. تحلق حولها المساكين كلٌّ يريد أن يعرف أين ستسير به الرياح. ولما انتهوا جميعاً التفتت إليّ وقالت: "وأنت، يا صغيري، ألا تريد أن تعلم من سيكون سيدك؟" قلت لها: "لا، ولكني أريد أن أعرف أين أمي".

صمت بدر قليلاً ونفض يديه مما كان يعمل وعلّق عينيه في الحائط وكأنه انشقّ عن شبّاكٍ يرى منه الماضي البعيد الذي يسرده علينا. ثم استطرد قائلاً:

– ضربت بالودع مرةً ومرتين وثلاثاً وفي كل مرة تهزّ رأسها محتارةً وكأن الودع يخفي أسراره عنها. أخيراً تنهدت ونظرت إليّ نظرة إشفاق لا أنساها وقالت: "ليس عندك أم يا صغيري. لقد ماتت". قلت لها: "كيف ماتت؟"، فضربت ضربةً أخيرة بالودع ثم قالت: "مجذومة".

– سبحان الله!

– أظن عمري ينقص عن السبعين عاماً يا سيدنا بعام أو عامين. وكلما تذكرت ضاربة الودع تلك تذكرت النصف الأول من عبارتها فحسب "ليس عندك أم"، ولا أتذكر النصف الثاني. ما دام لم يعد عندي أم فلا يعنيني كيف ماتت. اليوم فقط تذكرت هذه العبارة

وسودكين يخبرني بأمري.

– شفاك الله يا حبيبي ورفيقي. كان الله في عونك.

– أنا لست حزيناً يا سيدنا. أنا ذاهبٌ إلى حارة الجذامى...

وتنهد واتسعت ابتسامته وهو يقول بنبرةٍ حالمة:

– ... ذاهبٌ إلى أمي.

٩٠

أحبُّ لحبك "الأحباش" طرّاً
واعشق لاسمك "البدر" المنيرا
ابن عربي

جُعِلَتْ حارة الجذامى خارج ملطية تحت مجرى الريح لتحمل أبخرة المجذومين خارج المدينة. لا يأتيهم الماء إلا وقد خرج من البلد فيتصرفون به. وهي ليست إلا بضع عشرات من الخيام يقيمون فيها وقد ابتنى لهم أحد المحسنين مسجداً صغيراً وحماماً. يخدمهم جذامى مثلهم ويتقاضون على ذلك أجراً من ذوي المرضى الذين يأتون لزيارتهم كل حين. بعضهم يقف على مبعدة ويكتفي بالنظر إلى ذويه ويتكلمون مع بعضهم من مسافة بعيدة بصوتٍ عالٍ. وبعضهم الآخر يدخل إلى خيمة قريبة بل ويقضي ليلته عنده. لم يكن هناك قانونٌ يمنع هذا ولا ذاك مثل القوانين الصارمة التي كانت تحكم حارات الجذامى في المغرب. كلٌّ يتصرف هنا حسب درجة إيمانه بقضاء الله وقدره.

نصبت مع سودكين خيمة لبدر قريبا من الحمام والمسجد وسوينا الأرض بينهما له وأزلنا منها الحصى والصخور ليتمكن من الزحف إليهما متى شاء دون أن يتأذى. أوصينا به الخدم وزدنا لهم في الأجرة ليساعدوه على الاغتسال ويجلبوا له طعاماً وشراباً كل يوم. لم يطلب بدر سوى أدوات الكتابة والأوراق ليسلي نفسه بالنسخ. ودعناه بعد أن استحثنا للذهاب قبل أن يصيبنا أذى، فذهبنا. وفور أن تجاوزنا الحارة واقتربنا من ملطية أجهش سودكين في بكاءٍ حار وظلت دموعه ساخنة حتى دخلنا البيت فعلاً وقد خلا إلا مني ومنه. نام كلٌّ منا في حجرته والريح تصفر في أرجاء البيت الذي كان قبل ذلك عامراً فيه امرأة وأطفال وعنزة ومريدون، وأصبح اليوم خالياً إلا من رجلين يملأ الحزن قلبيهما.

أمرّ كل صباح على بيت صفية لأجد صدر الدين واقفاً عند باب البيت في انتظاري. نذهب إلى الدرس ويجلس إلى جواري وأنا أقرأ على التلاميذ ما أقرأه. فمتى انصرفوا جلست معه وحدنا لأستذكر معه ما سمع ويستفهم مني عما استغلق عليه. فإذا خرجنا من المسجد بعد صلاة المغرب آخذه بنفسي إلى دار أمه خشيةً عليه من المشي وحيداً في الأزقة المظلمة. فيأوي إلى أمه وأنصرف. ترك لهما إسحاق مالاً كافياً فلم أخشَ عليهما من الفقر ولكني خشيت عليهما من الرحيل. أمه ما زالت شابة، ولا يلبث رجلٌ ما أن يخطبها لنفسه وربما يرحل بهما بعيداً. ظل هذا الخاطر يؤرقني يوماً بعد آخر، ويزداد كلما لاحظت نبوغ صدر الدين واجتهاده الواضح في طلب العلم وسلوك الطريق. تبيّن لي من جبينه الواسع وعينيه الصافيتين أن

الله سيجعل له ذوقاً وأحوالاً إذا ما تعهّد نفسه بالرياضة والمجاهدة. ولربما ضاع ذلك كله إذا ما ربّاه رجلٌ آخر ليجعل منه شيئاً غير الذي أريده له: جندياً أو كاتباً أو تاجراً أو أي شيءٍ كان. استخرت الله طويلاً في أمره حتى انعقدت لي النية ذات صباح فتركت درسي في منتصفه موصياً سودكين أن يكمل قراءة الكتاب للتلاميذ وتركت صدر الدين معه واتجهت إلى بيت صفية حيث أعلم أن سأجدها وحدها. طرقت الباب فجاءني صوتها من خلفه بالتركمانية فلم أجب. كررت كلامها بالعربية قائلة:

- من الطارق؟

- أنا محيي.

فتحت الباب سريعاً وهي تقول:

- مرحباً يا سيدنا. هل صدر الدين بخير؟

- هو بخير في المسجد، وقد جئت لأسألك ما لا أريد له أن يسمعه.

- أمرك يا سيدنا.

- جئت أخطبك لنفسي يا صفية.

صمتت كما كنت متوقعاً وحركت الباب بلطف ووارت وجهها خلفه. قلت لها وأنا أهمّ بالانصراف:

- سأتركك تفكّرين في الأمر ولا تستعجلي ذلك. أنت تعرفين عني كل شيء وابنك كابني، وسأربيهما معاً. أجيبي طلبي متى شئتِ.

وهممت بالانصراف فنادتني قائلةً:

- يا سيدنا...

- نعم.

- أنا موافقة يا سيدنا.

- ألا تفكرين بعض الوقت يا صفية؟

- الأمر مقضيٌّ منذ زمنٍ طويل يا سيدنا. كنت أنتظرك فحسب.

- مقضيّ؟ ومن قضاه؟

- إسحاق.

- وكيف؟

- قال لي قبل موته أني أتزوجك من بعده. وأوصاني بذلك.

تركتها عائداً إلى المسجد وقد طابت نفسي بكلامها وشعرت بالأمل يعاودني في اخضرار حياتي بعد أن جفّت طيلة السنتين الماضيتين مثل بستانٍ غار ماؤه وضربه الجفاف والقحط. لم تمضِ أسابيع إلا وقد انتقلت صفية وصدر الدين إلى بيتي وعاد سودكين إلى غرف المسجد مرةً أخرى. واشترينا عنزتين بدلاً من عنزة. وخصصت لصدر الدين وعماد الدين درساً يومياً بعد صلاة الفجر في بيتي لا أقرأ فيه إلا لهما. وفي كل يوم كان صدر الدين يبزغ مثل شمسٍ مشرقة. أما عماد الدين فقد كان كسولاً مشاكساً. لا يكاد يصفو ذهنه لأمر. لا يفعل ما آمره إلا إذا لمح قضيب الخيزران بين يديّ فخاف من لسعته وامتثل.

استقرّ العيش مرةً أخرى فاصطفاني الله لسلسلة من المعارج العقلية والمقامات الروحانية والمراتب العليّة. وتنزّلت عليّ منه كشوفات ومواجيد وأحوال نجم عنها كتبٌ ورسائل شتّى. وكنت أحرص كلما كتبت رسالةً أو كتاباً أن أحمل منها نسخةً إلى بدر في خيمته فيفرح

بها فرحاً عظيماً. فلا أعود إليه في الزيارة القادمة إلا وقد نسخ منها نسخةً أو نسختين وطرح عليّ بشأنه سؤالاً أو سؤالين. أما سودكين فقد أوليته اهتماماً أكبر لما كشف الله لي أن روحه سمت وتعالت وأصبحت خالصة التصوف رقيقة الحاشية ساميةً كالسحابة البيضاء.

كل شيء في ملطية كان هادئاً ومستقراً ولكن غيرها لم يكن كذلك. دكّ التتر سمرقند وبخارى وملكوا بلاداً كثيرة وأصبحوا على مرمى حجرٍ من دار الخلافة في بغداد. وتداعت أصداء هذه الجحافل المتوحشة في كل أصقاع الأرض حتى صارت حديث الناس على مختلف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، لا يجمع بينهم إلا الخوف والترقّب وهم يتناقلون قصص هؤلاء القوم الذين ديدنهم الذبح وتسليتهم القتل فلا يغادرون قريةً وفيها نفسٌ يتردد ولا جسدٌ ينبض بالحياة. من أجل هذا استنجد الخليفة في بغداد بالسلطان في قونية وسمعنا في الأسواق منادياً ينادي في الفرسان من أراد أن يخرج في نجدة الخليفة وسيعطى فرساً وسيفاً ودرعاً وجامكية حتى يعود. فاجتمع نفرٌ من فرسان ملطية إلى آخرين من أنحاء السلطنة سيّرهم السلطان باتجاه بغداد.

في أثناء ذلك الوقت بلغتني رسائل من حلب تسألني أن أحلّ بها للتدريس ولم يمرّ عقدٌ من السنوات بعد على خروجي منها طريداً إلى القاهرة. سبحان من يغيّر ولا يتغيّر. مات الملك الظاهر وتولى من بعده ابنه الملك العزيز طفلاً تحت وصاية الأتابك طغرل فتغيّرت الأمور. جزمت أن الرسائل ستكون مسلية فحملتها معي في زيارتي لبدر وقرأتها عليه. وبالفعل ضحك منها وسأل:

- ما الذي غيّر الأحوال يا معلمي؟

- أعتقد أن المصريين هم من يسيّر أمور حلب الآن بعد وفاة الملك الظاهر.

- وكيف ذلك؟

- الملك العادل في مصر هو جدّ الملك العزيز الذي عقدوا له البيعة لأمه، وهو حاميه ومبقيه على العرش ولولا حمايته لتخطفته أيدي الأمراء الأيوبيين.

- إذن لا تلبث حلب أن تدخل كلها في حكم الديار المصرية.

- أجل يا بدر، وتمتلئ بالخوانق والزوايا الصوفية التي يدعونني للتدريس فيها الآن.

- وهل ستذهب؟

- ليس بعد يا بدر. ليس بعد.

نظر بدر إليّ نظرة ذات مغزى وهو يبتسم، ثم قال:

- يا سيدنا. إن كان قعودك لأجلي فأرجو ألا تقعد. إني أعرف حبك للشام وأنا سأكون بخير.

- لا شك أن فراقك سيمزق قلبي يا بدر، ولكن ثمة شؤون أخرى تمنعني من الذهاب. لم يأتِ أمر الله بعد.

ثم جاء أمر الله بملطية لروح من أرواح عباده أن تقبض. مات بدر أخيراً بعد أن لم يعد لديّ شكٌ أنه مفارقٌ عما قريب. صعد السواد حتى بلغ فخذيه واستحال بترهما دون أن يهلك. انتفخ جسده وصار شديد الغضاضة حتى غدا ساعداه وكفاه مثل قِرب الماء. اضطجع أيامه الأخيرة ولم يتحرك. ثم امتنع عن الطعام. ثم تسلخت أجزاء من

جلده وصارت تسيل منها الدماء. ثم صعدت روحه إلى بارئها في ليلةٍ لا قمر فيها. حملته أنا وسودكين إلى المقبرة حتى إذا أدليناه في قبره انتفضت مثل لديغ وما استطعت أن ألج القبر. فأكمل سودكين دفنه وحده وأنا أراقبه عن بعد. فلما فرغ جاءني وهو يلهث من التعب يسألني إن كنت بخير. فقلت له ودموعي تسيل بلا توقف:

– وكيف أكون بخير وقد ذهب بدري المضيء. ومن أنا حتى أدفن مثل هذا.

٩١

"ما خَفِيَ الحق إلا لشدة ظهوره"

ابن عربي

صفية هادئة لا يكاد يصدر منها صوت. إذا أنجزت عملها شُغلت بالحديقة تزرع فيها من كل ذات زهرٍ وثمر حتى استحالت كثيفة الأوراق والأغصان والفروع زاكية الرائحة طيلة العام. تخدمني وكأنها خلقت من أجل هذا. فلا أستيقظ من نومي أو أعود إلى البيت إلا وقد أعدّت لي مغتسلي وطعامي وثيابي معاً. وقد ملأت الدار بالبسط تفرش بها الأرض وتكسو بها الجدار حتى صار البيت دافئاً حميماً كما لم يكن من قبل. لا تنام حتى أنام خشية أن أطلبها فلا أجدها. شعرها بنيٌّ كثيف وحاجباها عريضان وأنفها دقيق وفي وجهها نمشٌ طفيف. تفوق أغلب النساء طولاً وتبدو بينهن أكبر حجماً وأشد مراساً كما يليق بامرأةٍ نشأت في فلاحة الأرض منذ طفولتها وحتى تزوجها إسحاق في تطوافه في بلاد الشام طريداً عاتباً على السلطان الأب كيخسرو قبل أن يستدنيه ويقربه ويعتذر إليه.

ولم أكن أعرف ذلك إلا منها، وما زالت تحتفظ برسالة السلطان التي يلتمس فيها من إسحاق أن يعود إلى الأناضول وله العتبى والرضا. فكتب له قصيدة بالتركمانية قرأتها عليّ صفية وهي تترجم كل عبارة بالعربية:

يا ذا الذات الطاهرة السماوية
يا تاج المجالس الأخوية
لقد امتلأ قلبي غصةً مثل غصة الملك جشميد
وأصبحت مشرداً تارةً كالنمر في الصحراء،
وتارةً كالحوت في الماء.
انقطع عني الصحاب فهيّا...
لقد حان الوقت لكي تعود إلينا
وتنشد مكاناً هاهنا.

غلبها الحياءفلم تكمل القصيدة وكأنها تخشى أن تثير غيرتي من إسحاق. أحببت أن أداعبها فسألتها:

- أيّنا أحب إلى قلبك؟

ولكن دعابتي خابت. دمعت عيناها فجأةً وكأن ما كانت تخشاه قد وقع. فضممتها إليّ وأنا أضحك، وقلت لها:

- أنتِ أحبّ الزوجات، وهو أحبّ الأصحاب.

- وأنت سيدنا ومولانا ومعلمنا.

ثم حبلت أخيراً وأنجبت صبياً كأنه رحمة من رحمات الله هبطت على بيتنا في حين احتياجٍ شديد. أسميته سعد الدين من فرط سعدي

به. حملته في يدي وتأملت في ملامحه فلمست أثراً لجبين صفية الواسع وحاجبيها الكثيفين. قبّلته بين عينيه وحمدت الله على نعمائه. وقررت أن أعتكف في خانقاه خارج ملطية شكراً لله. أبلغت سودكين أننا ذاهبان معاً فابتهج بذلك كثيراً. وخرجنا معاً على بغلة واحدة نتناوب على ركوبها حتى بلغنا الخانقاه بعد يومٍ من السفر. وقضينا فيه أسابيع مع إخوة لنا بين سهر وجوع وذكرٍ. صادفنا شيوخاً من بلخ ومريدين من سمرقند ودراويش من همذان والموصل. عاشرنا من كان مقيماً في الخانقاه طيلة الوقت وبينهم من كان عابر سبيل ينتقل من خانقاه إلى آخر في هيامٍ وتيه لا يحملون معهم إلا آنيتهم الخشبية التي يتلقون فيها الصدقاتٍ. قرأت عليهم كتابين ثم توقفت عن ذلك بسبب اختلاف ألسنتهم وصعوبة الترجمة. واستغرقنا في الذكر الجماعي يقوده متصوّف من خوي لا نعرف له طريقة ولا شيخاً. كلما سألناه من أين جاء قال: "من عند الله"، وإلى أين يذهب قال: "إلى الله". كررت عليه السؤال ونحن وحدنا لعله يكون أحرى بإجابته فقال: "الله هو المبتدأ. الله هو الطريق. الله هو الغاية".

أعجبني قوله وصرت ألازمه ولكن لم يدلِ بأقوالٍ أخرى. يخلو بنفسه طيلة اليوم قريباً من شجرة المشمش الوحيدة التي تتكئ على جدار الخانقاه ولا يكلّم أحداً. يسدل على وجهه طرف قلنسوته الطويلة ويغطي أطرافه بثوبه فلا يبدو منها شيئاً حتى يغدو المنظر وكأن ثوباً طويلاً أسود يتكئ على شجرة. بقدر ما كنت تواقاً لمعرفة ما يقول كنت أيضاً أشعر بالنفور من اعتزاله المفرط. اتجهت إليه ذات يوم وهو على حاله تلك وقلت له:

- إذا كنت تريد أن تخلو وتعتزل فلماذا تقيم في الخانقاه؟

رفع قلنوسته المسدلة على عينيه ونظر إليّ نظرة من بين خصلات شعره الشعثاء التي تتبعثر على وجهه وجبينه وابتسم ابتسامةً واسعة وقال:

- أتريد إجابة صادقة؟

- نعم.

- من أجل الأكل! إنه لذيذٌ وطيب.

لم تمضِ أيام حتى اختفى. وفدنا لاجتماعنا الصباحيّ تباعاً فلم نجده بيننا. ولم نرَ له أثراً طيلة اليوم. فعلمنا أنه حمل متاعه واستمر في ترحاله. تمنينا له أمنيات طيبة ودعونا له جميعاً بسلوكٍ آمنٍ نحو الله. وعدنا إلى شؤوننا. وككل الغافلين ظنناه مجرد رجلٍ غريبِ الأطوار. وفي عالم الدراويش يكون لقاء أمثاله ليس أمراً غريباً، فلطالما التحق بالمتصوفة من ليس منهم، ولازم الخوانق من ليس من أهلها. ويظل الله يؤدّبني ويعلّمني ما يزيدني تواضعاً وإدراكاً لجهلي وقلة علمي. بخ بخ أيها الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر؛ يا من يكشف الله لك كشفاً، ويريك من الأسرار العلوية رؤيا. ها قد مرّ وتدك الرابع من أمامك وأنت لا تدري!

٩٢

"من سكن ما عشق"

ابن عربي

عدت إلى ملطية بعد شهر ومعي سودكين وأربعة من دراويش الخانقاه قرروا أن يتبعوني إلى ملطية ليدرسوا عندي. وعند وصولنا كان في انتظارنا ما لم أتوقعه. وجدت ابني عماداً في بيتي دون أن أطلبه. قالت صفية أخيراً بتحسر:

– جلبته فاطمة ومضت. قالت إن زوجها أصرّ على الرحيل من ملطية ولم يطق العيش فيها.

– وأين ذهبا؟

– إلى ماردين.

– وكيف تترك طفلها وترحل؟ أي جنونٍ هذا!

– لا بأس يا سيدنا. أنا أربيه مثل ابنيّ هذين.

أصبح البيت صاخباً. أنا وصفية وثلاثة أطفال وعنزتان. إذا جاءني ضيف لم أعرف أين أجلسه، وإن بات عندي لم أعرف أين أبيّته.

فطلبت من سودكين أن يبحث لي عن بيت آخر بثلاث حجرات على الأقل. وظل يطوف أياماً في حواري ملطية بحثاً عن هذا البيت فلم يجد. ولكنه وجد شيئاً آخر.

– الدرويش الذي زارنا في الخانقاه يا سيدنا، أتذكره؟

– نعم، ما شأنه؟

– يقتعد مكاناً في السوق يقرأ فيه الكف بلا أجر إلا قوتاً.

هززت رأسي بلا اهتمام وعدت إلى ما كنت فيه من قراءة قبل أن يقطع سودكين قراءتي مرةً أخرى ليسأل:

– يا سيدنا، ماذا نقول في قراءة الكف؟

– إما عرفانٌ أو فراسةٌ أو دجل.

– ومن أي فئة تظن هذا الدرويش؟

– لماذا تسأل يا سودكين؟

– حدثتني نفسي أن أذهب إليه ليقرأ لي كفي ولكني فضّلت أن أستشيرك قبل هذا لئلا يكون في ذلك حرج.

– نذهب معاً ونرى أي رجلٍ هو. أين يجلس؟

– قريباً من البيّازين ناحية المسجد.

– غداً نذهب بإذن الله.

بعد صلاة العصر دلّني سودكين على مكان الدرويش. فإذا هو كما كان يوم رأيته في الخانقاه وإن بدا لي قد زاد نحولاً. يجلسُ متكئاً على جدار المسجد عاكفاً ساقيه أمامه حتى بدتا مثل عمودين يقيمان ثوبه الصوفيّ الثقيل الواسع. اقتربنا منه لنكلمه فسبقنا إليه رجلٌ كان أقرب إليه منا ومدّ إليه كفّه. ضغط الدرويش على كف الرجل بإصبعٍ

نحيلٍ منته بظفرٍ طويلٍ بعض الشيء، ثم قال:

- لستَ مريضاً.

- ولكني لا أنام من شدة الوجع.

- تلك آلام الوضع.

- أي وضع وأنا رجلٌ. أتسخر مني؟

- لست أنت الذي تضع. أنت الموضع.

- ومن الذي يضع؟

- روحك.

- والله إنك تسخر مني يا شيطان!

ومضى الرجل غاضباً وخلّف الدرويش مبتسماً دون أن يعطيه أجره. أما أنا فقد مسّني في تلك اللحظة ما يمسّني عندما أكون في موضع كشف. وبلا إرادة التفتُّ جهة سودكين وقلت له:

- اتركنا وحدنا يا سودكين.

أجاب سودكين طلبي مندهشاً وابتعد. اقتربت من الدرويش فالتقت نظراتنا وهو لا يزال مبتسماً. مادت بي الأرض لحظات وشعرت أني مأخوذٌ بحال لم تكتمل بعد ولا ألبث أن أقع فيها. وفور أن بلغ سودكين آخر الدرب واختفى فيه قلت للدرويش:

- ما لهذا الرجل الذي تولّى مغضباً لا يعرف أن الصلصال لا يشتدّ إلا بالحرارة؟

- كذلك الحب لا يكتمل إلا بالألم.

- يظن أنه لا يولد بعد ولادته مرةً أخرى؟

- وأن الله لا يصنعه كل يومٍ خلقاً جديداً.

- وسمّاك شيطاناً.
- يظن الشيطان خارجه وهو بداخله.
- وماذا نفعل بالشيطان الذي بداخلنا؟
- ماكثٌ فينا ما حيينا. لا جدوى من إخراجه. هو جزءٌ منا.
- وكيف نتطهّر من أثره؟
- إن صُمت طهّرت جسدك، وإن زهدت طهّرت روحك.
- وكيف أطهّر قلبي؟
- بالحب.
- هلاّ قرأت لي كفي وعلمت ما في قلبي؟
- ما في قلبك إلا الله يا محيي.

ثم وضع يده على كتفي وقال:

- ... أنا وتدك الرابع.

انكببت عليه أقبّل رأسه ولحيته وهو يربت على كتفي ويضمني إلى صدره بحنو. كانت دموعي تجري فتبلّل ملابسه. فلمّا رفعتُ رأسي فإذا دموعه تسيل بهدوءٍ عجيب وعلى وجهه ابتسامةٌ كأنها مطلع فجر.

- وماذا أفعل الآن؟
- افعل ما شئت وكن ما كنت، فقد ثبّت الله قلبك بأربعة أوتاد فلا يزيغ بعد ذلك قط.
- ولكني لا أشعر بهذا الثبات الذي تقول يا مولانا.
- لأنك تصرّ أن تعيش في الحياة، وأنا أقول لك: دع الحياة تعيش فيك.

- ما زلت محتاراً في أمور لا أحصيها.

- ارحل كلما احترت.

- أنا راحلٌ يا مولانا.

- صحبتك السلامة يا محيي.

لثمت يده فلثم يدي. مشيت إلى حيث سودكين واستندت عليه وقد شعرت بدوارٍ عابر. وقفت حيث وقف وذهب سودكين ليقرأ كفه دقائق ثم عاد. مشينا بضع خطوات وانعطفنا في زقاق. ثم شعرت برغبةٍ كبيرة في العودة إلى الدرويش. تركت سودكين واقفاً وعدت أهرولُ إلى مكانه فوجدته واقفاً يستعدّ للمضي. بدا بقامته الطويلة وجسده النحيل ومشيه الوئيد مثل نخلةٍ سامقة تتحرك. تبعته وأنا أناديه:

- يا مولانا... يا مولانا...

التفت جهتي بذات الابتسامة الهادئة وقال:

- لبيك يا حبيبي محيي. ماذا تريد؟

- لقد قضيت مع كل وتدٍ من الأوتاد الثلاثة الأوائل ردحاً من الزمن، فأخذت منهم وأخذوا مني، إلا أنت. فكيف يكون هذا؟

- لقد أخذت مني خيراً مما أخذت منهم.

- وما هو؟

- الحب. إنه يملأ قلبك مثل بحرٍ عذب تعيش كل سوابحه بسلام.

- ولكني أتوق إلى صحبتك وأشتاق إلى رؤيتك؟

- أنا معك أينما حللت ورحلت، لأنك مؤمن. إن ديننا هو دين الحب وجميع البشر مرتبطون بسلسلة من القلوب، فإذا انفصلت

حلقة منها حلّت محلها حلقةٌ أخرى في مكانٍ آخر.

- هل ستمكث هنا أم ترحل؟

- أنا مبعوثٌ إلى غيرك يا محيي مثلما كان الحصّار مبعوثاً إليك. أتذكر الحصّار؟

- هل سأراك مرةً أخرى؟

ولمعت عيناه بسعادةٍ ورضا، ثم ضمّ كلتا يديه إلى صدره وهو يقول:

- يا محيي، أنا وتدك. ستظل في قلبي إلى الأبد.

فضممت يدَيّ إلى صدري مثلما فعل تماماً وقلت له:

- ما اسمك؟

ابتسم أصفى ابتسامة في الدنيا وقال:

- أنا شمس. شمس التبريزي!

٩٣

المخطوط في حماة

١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

المدينة محروقة. لا وصف أدقّ من ذلك ولا أكفى. البيوت والشوارع والمساجد والميادين والأسواق. وكذلك القلوب والأرواح والصدور والجثث والأنفاس. كل شيء احترق في سبعة وعشرين يوماً نزل فيها الشياطين على مدينتنا وكأنهم يحملون في صدورهم مليون عام من الغلّ منذ أبى إبليس أن يسجد لآدم. شياطين حديثة ذوو تنظيمات يتسمّون بأسماء غير أسماء الشياطين: سرايا الدفاع، لواء ٤٧ دبابات. لواء ٢١ ميكانيك. فوج ٢١ إنزال جوّي. قوات خاصّة. كلهم شياطين في أطياف مختلفة من الخاكي. وآخرون في ملابس مدنية. دخلوا المدينة ولا هدف لهم إلا القتل. القتل فقط.

انتهى حظر التجوّل أخيراً وخرج الناس ليقيسوا حجم فجيعتهم. مشوا في شوارع لم يعودوا يعرفونها. مرّوا على أحياء لم تعد تعرفهم. الرصيف لا يكلّم المشاة. المسجد لا يقبل المصلين. السوق لا يبيع الزبائن. لكل

رئة عددٌ محدد من الأنفاس لا يجوز أن تتجاوزه في اليوم الواحد. لكل قلبٍ طريقة محددة في التفجّع لا يجوز أن ينسخها من قلبٍ آخر. لكل ثكلى دمعتان. لكل أرملةٍ حسرتان. لكل يتيم رجفتان. لا يجب الإسراف فلا يوجد حزنٌ يكفي الجميع. لا أحد في العالم يعلم ما حدث لنا بسبب التعتيم الإعلامي الصارم. لذلك لا يمكن استيراد عزاءٍ من الخارج. علينا أن نواسي أنفسنا بأنفسنا أو نتوقف عن الحياة مثلما توقفت ثمانون منارة عن الأذان.

خرج الناس من أجداثهم وساروا في أرجاء المدينة. جثث حيّة ترثي جثثاً ميتة. طول الطريق الذي قطعته من حي الجراجمة إلى حي الشيخ عنبر لأرى خالتي لم أرَ دمعةً ولم أسمع آهة. وجومٌ تام اكتست به كل وجوه المارة وكأنهم يخشون أن يفسّر حزنهم تعاطفاً فتحلّ عليهم اللعنة. ولذلك قررت المدينة أن تحزن بطريقةٍ جافة وتكسو وجوهها بالجصّ البشريّ. طريقة مبتكرة لحفظ الأحزان في حالة فيزيائية ثابتة حتى يأتي اليوم الذي يصبح فيه البكاء مسموحاً فيذوب الجصّ ونبكي. وحتى الآن لا أحد يعلم متى يحدث ذلك. وحتى الآن لا أحد يعلم إذا ما كانت الأحداث قد انتهت أو أنها محض هدنة. توجد شائعة تسري بين الناس أن الهدف هو تصفية المدينة بأكملها وأن أرتالاً من الجرافات تحيط بالمدينة من الخارج استعداداً لطمسها تماماً.

وصلت إلى بيت خالتي وأنا معضودٌ باحتمالين: احتمال يعضد ذراعي اليمنى أنها ما زالت حية، وآخر يعضد يدي اليسرى أنها ماتت. احتمال حياتها يتفرع منه احتمالان: أن تكون سليمة أو تكون غير ذلك. احتمال موتها يتفرع منه احتمالان آخران: أن يكون لها جثة أو تكون جثتها اندثرت

تحت ركام مبنى أو دُفنت في مقبرة جماعية. احتمال سلامتها الجسدية لا يعني سلامتها النفسية. احتمال عدم سلامتها يفتح سيلاً من الاحتمالات الأخرى. ماذا كان بالإمكان أن أقضي فيه سبعاً وعشرين يوماً في بيتي إلا في زراعة الاحتمالات في تربةٍ جافة من اليأس والخوف؟ خالتي التي عشت في كنفها السنوات الأربع الأولى من عمري وأمي تعمل معلمةً في السعودية. وكلما عادت ذات إجازة تنزعني من كنفها انتزاعاً وليس لي من الأمر شيء.

مدججاً باحتمالاتي دخلت الشارع الذي فيه بنايتها. طرقت الباب. فتح. وجدتها وعانقتها. دفنت وجهها الشاحب في صدري وراح تبكي بصوتٍ مكتوم. ألصقت شفتيّ بجبينها ورحت أقبّله بصوتٍ مكتوم أيضاً. تحركنا على هذه الهيئة اللصيقة داخل الشقة ليتسنى لها إغلاق الباب. قطعنا العشر دقائق التالية في شهيقٍ لا نضمن زفيره. وأخيراً عاد الصوت إلى هذا الفيلم السينمائي الصامت فسألتني:

– فين كنت يا خالتو!

– الجراجمة مترّسة يا خالتي. ممنوع الخروج ممنوع الدخول.

– قلت لك نام عندي ليلة الأحداث يا ابني ليش ما نمت. مزقت قلبي عليك شهر لم أنم.

– من كان يظن أنِ هذا سيحدث يا خالتي. سامحيني. حتى تيمورلنك لم يفعل هذا بحماة.

مدّت يدها النحيلة لتسدّ فمي. شممت رائحة الصابون الذي لا يفارق يدها بسبب هوس النظافة التي أصابها مذ هرمت. قالت:

– اسكت يا ابني اسكت. احنا ناقصين! الجدران لها آذان.

– لم تعد هناك جدران حتى يكون لها آذان يا خالتي.

أشارت بسبابتها جهة السماء وغمغمت بدعاء لا يسمع. حتى الدعاء كان تخشى أن تلتقطه آذان الأزلام. تأملت شقتها فوجدت كل شيء كما تركته في زيارتي الأخيرة لها قبل الأحداث. صناديق الأغذية المعلبة. قناني المياه شربت نصفها وما زال نصفها مليئاً. جميع ممتلكاتها في حقائب استعداداً لهروبٍ سريع. تماثيل العذراء المتناثرة في كل أركان البيت بشكل مبالغ فيه ليبدو مسيحياً. والصليب الهائل الذي صنعته بنفسها من خشبتين متقاطعتين وعلّقته في قلب غرفة المعيشة لتموّه على الجنود إذا اقتحموا الشقة. تجاوره صورة للرئيس حافظ الأسد في زيّه العسكري ملوّحاً بيده مطوقة بالأزهار الصناعية.

– أين كتبي يا خالتو؟

قامت من مكانها واتجهت نحو الزاوية التي خبأت فيها حقيبتي آخر مرة وجذبتها لتخرج من بين أخواتها وجرتها نحوي. قلت لها قبل شهر:

– هذا أنفس ما في مكتبة الجامع النوريّ!

– أهم شي ما فيها من كتب الإخوان يامو؟

– ولا كتاب. كلهم متصوفة.

– وهل يعرف العسكر الفرق؟

– لا أظن. ولكن لديهم قوائم بالكتب الممنوعة حتماً.

فتحت الحقيبة وقلّبت ما بها من كتب الأكبرية. "الفتوحات" و"الفصوص" و"الرسائل". المخطوط منها والمنسوخ. المشروح منها والمختصر. تأكدت من اكتمالها كما هي فاطمأنت نفسي. أغلقت الحقيبة وعدت لأمدد جسدي على الأريكة المغطاة بمنسوجات التريكو. أغمضت عيني وحاولت أن أنام فلم أستطع. أصوات متقطعة لطلقات مدافع رشاشة

تتسرب إلى الشقة من حين لآخر. انقسمت طيور حماة بين المتحاربين أيضاً فنعقت الغربان فوق أكوام الجثث التي تجدها في الطرقات وناح الحمام بالنيابة عن جميع أهل حماة طيلة الأحداث ولا يزال.

مرّت أسابيع قبل أن ينفضّ الحصار ويسمح للناس بالخروج من المدينة. خرجت متجهاً إلى دمشق ومعي حقيبتي. ارتديت قلادة الصليب التي أصبح المسلمون يتبادلونها في حماة كدليل براءة وحياد. انتقيت من مكتبتي عشرات الكتب التي تثبت ولائي لحزب البعث وجعلتها في حقيبة لأموّه بها بقيتها. مررت في طريقي بتسع وعشرين ثكنة تفتيش خلعت بنطالي فيها جميعاً ووقفت أمام الجنود المتعبين عارياً إلا من التبّان الذي يستر حقويّ. قلبوا حقيبتي كتاباً كتاباً فلم يجدوا أياً منها في قائمتهم. أخذوا مني عشرات الرشاوى حتى لا يبعثوا بأيٍّ من الكتب إلى إدارة المخابرات لتمحيصها. وأخيراً دخلت دمشق لأول مرة في حياتي.

توقفت عند باعة الكتب المستعملة في الحلبوني وتخلصت من كتب التمويه بلا مقابل. وأكملت طريقي نحو التكية السليمانية. ملأت رئتي بالهواء البارد فور دخولي في فنائها الواسع. اتجهت إلى العمارة الشرقية التي لم أرها من قبل وكأني أتردد إليها كل يوم. طرقت عدة أبواب ومشيت في عدة ممرات حتى وقفت أخيراً بين يديّ مدير المتحف الحربيّ. نظر إليّ من الفراغ بين نظارتيه وجبينه دون أن يقوم من كرسيه. وضعت على سطح مكتبه تسعة كتب وقلت له:

– إذا كنت مدير متحف في تكية صوفية فستدرك قيمة هذه الكتب وحدك.

حملت حقيبتي الفارغة وغادرت مكتبه وهو يقلّب في الكتب. ناداني

فلم ألتفت. غادرت المكان سريعاً ومشيت حتى ضفة بردى الجنوبية. جلست وحدي وأخرجت مذكرتي الصغيرة. كتبت هذه الكلمات ثم فتحت الحقيبة وشققت بطانتها الداخلية. أخرجت المسدس الصغير والتقمت فوهته.

السفْر الحادي عشر

٩٤

"الإنسان عالمٌ صغير. والعالم إنسانٌ كبير"

ابن عربي

مرّ عامٌ لم يرني فيه أحدٌ سوى الراعي الأذري الذي يجلب لي الطعام والماء. خلوت بالله في الفصول الأربعة فوجدته فيها جميعاً أعظم من كل تسبيحة ندّت من فمي، وأقرب من كل نبضة خلجت في قلبي. وعرفت أنه الرفيق وإليه الطريق. ولولا العلم الذي في صدري لبقيت في حضرته حتى يختارني إلى جواره. ولكني أنا الذي أريد وهو الذي يفعل ما يريد. وما استقطبني الله إلا لغرض. والآن أعود إلى الناس لأقضي ذلك الغرض.

دخلتُ ملطيّة وعلى ظهري متاعي كله ملفوفاً في حصيرة. لمحت وجوهاً أعرفها. نظروا إليّ ولم يتبينوا ملامحي وقد طال شعري ونحل عودي واسمرّت ملامحي. قصدت بيتي وطرقت الباب. فتحه صدر الدين وهتف باسمي بأعلى صوته الذي صار أجشَّ كأصوات الفتيان ثم أقبل يعانقني. تبعه بعد ذلك عماد الدين ثم أطلّ سعد الدين من

ورائهما خائفاً لا يعرف من هذا الذي يعانقه أخواه بهذه الحرارة. دخلت البيت فإذا صفية تهرع إليّ بيدين مخضّبتين بالعجين. ضمّت يدي وقبّلتها وبكت.

في الليل، نام الصبيان وجلست في طرف الاغتسال وراحت صفية تغسل جسمي عضواً عضواً. وتسألني:

- كيف كانت خلوتك يا سيدنا؟

- ألذّ ما شعرت به في حياتي بأسرها.

- هل يحقّ للنساء أن يدخلن الخلوة أيضاً؟

- بالطبع يا صفية. حضرة الله لا تفرق بين ذكر وأنثى.

- ولكني أشتاق إلى أولادي.

- سيكبرون وتجدين لذلك متسعاً من الوقت.

- هل تعلم أن صدر الدين أتمّ حفظ القرآن؟

- ما أسهل ذلك! عليه الآن أن يعيه.

- عماد الدين لا يحفظ. لا أدري ما أفعل بشأن هذا الولد. هل أبلغك سودكين أنه هرب من المسجد وعاد إلى البيت وحده؟

- دعينا لا نلوم طفلاً هجرته أمه ولم يرها منذ زمن.

- صدقت. ليتها تزوره فيراها.

- سنمرّ بها في طريقنا ويراها.

- طريقنا؟ هل نحن راحلون.

- أجل. إلى دمشق.

- ولماذا دمشق؟

- لأنها مهبط عيسى عليه السلام يوم القيامة. ولقد كانت توبتي

يا صفية عيسوية، فإني أن أرجو أن يكون مماتي بمهبطه.

- وكم نمكث هناك؟

- قلت لك إني أرجو أن يكون مماتي بمهبطه.

ورحلنا في ستّ بغالٍ مع قافلة قطعت بنا الطريق في ربيعٍ لم أرَ أزهى منه، وكأن الأناضول يودّعنا بأجمل لباسٍ في صندوق الطبيعة. وحالما تجاوزناها اختفت القبعات السلجوقية المدببة من الرؤوس وحلّت بدلاً منها عمائم أهل الشام الرقيقة. أقمنا في ماردين بضعة أيام فلم نجد فاطمة ولا زوجها. أما أبوها فأبلغنا أهل المسجد أنه حجّ منذ سنوات وصار إماماً ولم يعد مذ ذلك الحين. بدا لي أن فاطمة قررت أن تقطع صلتها بنا مذ رحلت ولم تترك أثراً ولا رسالة وكذبت على صفية بشأن كونها في ماردين. هكذا أرادت أن تتخلى عن عماد الدين إلى الأبد. كان الله في عونك يا بنيّ.

بلغنا دمشق، واستقبلنا عند أبوابها مؤجرو البيوت كلٌّ يعرض بيته ويصفه بأحسن ما يكون. اتفقنا مع أحدهم على بيتٍ ذي ثلاث حجرات حتى لا أفارق سودكين بعد اليوم ولكنه هو الذي فارقني بعد أشهرٍ قليلة عندما تزوج وانتقل مع زوجته إلى حجرة ملحقة بمسجد الحيّ. انتهينا أخيراً إلى البيت الذي اخترنا وقد بلغ التعب من الصبية الثلاث مبلغه. كان مبنياً من الحجر بلا حديقة. وسرعان ما جلبت صفية من السوق الأصص وزرعت شجيراتها في كل ركنٍ منه. واشترى سودكين جصّاً وسدّ الشقوق الظاهرة منه وصنع له عتبة. انتظم كل شيء في مكانه. الصبيان الثلاثة في حجرة، ولي أنا وصفية حجرة. وسودكين في حجرة فيها كتبي وأوراقي وأدوات كتابتي.

أما الضيوف فنستقبلهم في باحة البيت التي تصل الحجرات الثلاث ببعضها، وفي ركنها نعدّ الطعام.

لم يمضِ على وصولي بضعة أسابيع حتى رتّبني قاضي القضاة زكي بن الزكي في زاويةٍ فسيحة في خانقاه سميساط وخصّص لي ثلاثين درهماً في اليوم كانت أكثر مما أحتاج وأقل مما أراد، وسار معي إلى مجلس الملك المعظم عيسى الذي بدا وكأنه قد بلغه نبأ وصولي إلى دمشق. نهض من مجلسه عندما دخلت عليه، ثم قبّل كفه وألصقها بكفّي وهو يقول:

- مرحباً بشيخنا. مرحباً مرحباً مرحباً.

ولم يقل أكثر من هذه الترحيبات المكررة التي سمعته يرددها مراراً في الترحيب بآخرين كلما دخلت مجلسه. لم أكن أدري إذا ما كان عالماً بما فعله بي أبوه في القاهرة أم أن ذاكرته لا تتسع لكل من حبسهم أبوه من قبل. لم يعد يعنيني الآن حبسني أم لم يحبسني. إذا كانت الدنيا بأسرها في صدري فما الفرق بين البيوت والزنازين؟ ولكني على كل حال لم أتوجس من الملك المعظّم شراً. في دمشق فسحة في اختلاف الرأي وتنوع في مشارب الناس. في كل حي مدرسة لهذا المذهب أو ذاك. ترددت بنفسي إلى مدارس كل مذهب متى استغلقت عليّ مسألة فزرت الشوافع في المدرسة الأتابكية والحنفية في المدرسة البلخية وزوايا المالكية في الجامع الكبير والحنابلة في المدرسة العمرية. سوى ذلك كان لي درس أسبوعي في خوانق دمشق الصغيرة ومجالس ذكر في الترب النائية.

تزوج سودكين من يتيمة كان أبوها يقمّ المسجد الذي نصلّي

فيه. وجد أبوها قائماً يبكي قرب المحراب بعد ما انصرف الناس من صلاة العشاء فذهب يستعلم عن خبره ويخفّف من حزنه فشكا له كبره في السن وخوفه على ابنته من بعده فطلبها سودكين منه على الفور ووافق. عقدتُ زواجهما بنفسي وأعطيته مهراً لها مائتي درهم تجمعت عندي من فائض عطاء ابن الزكيّ. وأعطيت صفية مائتي درهم أخرى خرجت بها إلى السوق واشترت للعروس زينةً ولباساً وأدهنةً وعطوراً جهّزتها بها. وأعطيت صدر الدين الذي صار يافعاً مئة درهم يشتري بها فرشاً وبسطاً وآنية لبيتهما. وأخيراً أوى سودكين إلى زوجه بعد ليلة بهيجة في الخانقاه دعونا له فيها بالتوفيق. ورقص لأجله بعض الدراويش، وأهدوه فيها عطوراً وأعشاباً وهو يغمزونه بابتسامات خفية.

ولم تخلُ حجرة سودكين في بيتي بعد خروجه طويلاً. فلم تمضِ بضعة أسابيع على زواجه حتى قدم أوحد الدين كرماني من ملطية ومعه مريده أيوب المقريّ. طرقا بابي فاستقبلتهما بفرح وأنا أستحضر في نفسي أياماً جميلة قضيتها مع كرماني في ملطيةً. سألتهما عن أحوال البلد فقال كرماني بما عهدته منه من تواضعٍ جمّ وعاطفةٍ حميمة:

– غار الماء ومات الزرع.

– حقاً؟ ماذا حدث؟

– محقت بركته ونزع خيره.

– أعوذ بالله من غضبه. ماذا حدث يا رجل؟

– لم يحدث سوى أنه فارقها الشيخ الأكبر.

قرصته في ركبته وأنا أضحك وظل هو معلقاً ابتسامته على وجهه وكأنه يعني حقاً ما قال. ثم أردف قائلاً:

- أنا وأيوب نستأذنك يا سيدنا في أن نلحق بك في دمشق.

- على الرحب والسعة.

٩٥

"يأتي باللين ما يأتي بالقهر، ولا يأتي بالقهر ما يأتي باللين"

ابن عربي

جاءت الأنباء من بغداد أن الخليفة الناصر مات. تعجّب الدماشقة لموته وكأن الموت ليس حقاً بعد أن جلس على عرش الخلافة ستاً وأربعين سنة. أما البغداديون الذين معنا في التكايا والأسواق فقد كانوا في حيرةٍ من أمرهم وبعضهم لم يعرف خليفةً غيره منذ ولد. فوجئوا بذلك وراحوا يتحدثون في الأمر وكأن حدثاً جللاً يوشك أن يأخذ بغداد بعد رحيل خليفتها المعمّر. اختلفت النيّات والمقاصد. رحل بغداديون كثر عائدين إليها بعد أن كانوا قد حلّوا بدمشق هرباً من مكوس الخليفة وشدته وظلمه وما مسّهم منه من ضر. وفي المقابل ورد إلى دمشق آخرون من أهل بغداد خشوا من تغيّر الأحوال واضطرابها واقتراب التتر من حدودها وأطماع ما تبقّى من الخوارزميين في شمالها.

أقام الملك المعظّم صلاة الغائب على الخليفة الناصر. وعقد

مجلس عزاء استقبل فيه الناس الذين يعزّون في خليفة لا يعرفونه ملكاً لا يهمه أمره. حضرت ذلك العزاء وسلّمت على الخليفة فرحّب بي الترحيبات المكررة المعتادة. يحب لسانه أن يكرّر "مرحباً" دون إرادة أحياناً. ولكنه ما زال يذكر اسمي وكنيتي على كل حال. جلستُ إلى جوار قاضي القضاة الذي أفسح لي وراح يسأل كعادته عن أحوالي وما أريد وما أشاء. شكرته وأثنيت عليه. وبعد صمت قصير التفت جهتي وهمس لي:

– أود أن أستشيرك في شأن ما يا سيدنا. أترى ذلك الرجل الذي يسلّم على الملك الآن؟

رأيت رجلاً ضخم الجسد بلا لحية. يتكئ على كتف ابنه ويتحرك بصعوبة. أجبت:

– نعم. أراه ولا أعرفه.

ضحك القاضي وقال:

– لا أظنك إلا الدمشقيّ الوحيد الذي لا يعرفه. هذا هبة الله بن رواحة، كبير تجار دمشق.

ابتسمت وأجبت:

– تجارته غير تجارتي في سوقٍ غير سوقي.

ضحك القاضي وقال:

– لا شك في ذلك. لا شك يا سيدنا. المهم أنه زارني قبل أيام يريد أن يتبرّع ببناء مدرسة موقوفة على المذهب الشافعي.

– مدرسة شافعية أخرى؟ تسعة أعشار مدارس دمشق شافعية. هلاّ أعفانا من هذا الإسراف؟

– ذلك مذهبه. ليس بوسعنا أن نلومه. وقد وافقت على طلبه وتقرر بناء المدرسة عند باب الفراديس. ولكن ما أردت أن أسألك بشأنه هو تقي الدين الشهرزوري.

– ما به؟

– يريد ابن رواحة أن يفوّض إليه أمر هذه المدرسة.

هززت رأسي بلا اهتمام وأجبت:

– تلك وقفيّته وله أن يختار لها الناظر الذي يشاء.

– لا بد من موافقتي على ناظري المدارس. فما رأيك؟

– لا رأي لي يا قاضينا. أنت تعلم أن بين المتصوفة والفقهاء خصومة. وأخشى إن أدليت برأيي أن أكون قد افتريت على الرجل بدافع خصومتي معه. فأعفني من ذلك عفا الله عنك.

غادرت المجلس بعد هنيهة عائداً إلى درسي وأنا أفكر في أمر هذه المدرسة الجديدة. ما همني أن تكون شافعية أو حنفية بقدر ما همني كثرة هذه المدارس التي يربّون تلاميذهم فيها على كراهية المتصوفة والتقليل من شأنهم والتشكيك بعقائدهم. كل يوم يدخل علينا في الخانقاه من يسبّنا ويسفّه كلامنا، ومن يدّعي أنه منّا ليتجسّس علينا وينقل كلامنا إليهم. ومن يحاول أن يعظنا ويأخذ على أيدينا وكأننا ضالون. سبحان الله! ماذا نقموا منّا إلا حبنا الإلهي. عجزت عقولهم عن إدراك الباطن فأخذونا بالظاهر. وأنّى لي أن أقنع أحدهم في كلمات قليلة بما تطلّبني سنواتٍ طويلة من الخلوة والعزلة والتدبر والسفر حتى يفيض الله عليّ به. وأنّى لهم أن يعوا أن العلم اللدنيّ لا يؤتى بالتعلم ولا يُفهم بالمنطق، بل ينزله

الله على أصحاب الذوق فتتشرّبه قلوبهم قبل عقولهم، وأرواحهم قبل أبصارهم.

دخلت الخانقاه والدرس قائم. تنحّى كرماني عن مكاني الذي أنبته فيه ريثما أحضر العزاء. أشرت إلى المقري أن يتابع القراءة فتابع. ولكن ذهني ظل مشغولاً عن قراءته. أنا قطبٌ الآن ولا بد من موقف يعين المتصوفة على أحوالهم ويحفظ لهم كرامتهم واحترامهم. لا يبدو لي تقيّ الدين الشهرزوري عدواً شرساً بل هو أقلهم عداءً لي. قررت إذا ما انتهى الدرس أن أزور قاضي القضاة وأبلغه بما يساورني من مخاوف تجاه تغذية العداء للصوفية في مدارس المذاهب الفقهية.

صليت مع القاضي في مسجده ودعاني إلى بيته بعد الصلاة. وكعادته التي لم تنقطع أرسل أولاده تباعاً ليسلموا عليّ واحداً تلك الآخر. حتى الفتيات اللواتي بدين لي كواعب جاؤوا وهنّ يرتدين خُمراً رقيقة وأبوهنّ يقول لهنّ:

- سلموا على سيدنا. اغتنموا بركته وسماحته.

وبعدما انصرفوا جميعاً سنحت الفرصة لأبوح للقاضي بما جئت من أجله. عقد حاجبيه وغرق في تفكير عميق وهو يقبض شفتيه بأنامله كعادته وهو يفكّر. همس دون أن يتوقف عن التفكير:

- صدقت يا سيدنا، صدقت.

- ماذا تستطيع أن تفعل بهذا الشأن؟

تنفّس بعمق واتكأ وقال:

- أقل مما تظن يا سيدنا. لا أستطيع أن أقرر لهم ما يدرسونه في مدارسهم.

ثم صمت قليلاً فلم أتكلم. وبعد قليل أردف بحياء:

- ولكنك يا سيدنا قد لا تلومهم إذا اطّلعت على ما يفعله بعض المتصوفة في خوانقهم؟

- ماذا يفعلون؟

- أرجو ألا تأخذ كلامي بمحمل الاعتراض. ولكن الرقص طيلة الليل، والذكر الذي يردفه ضربٌ بالدف والطبل، تجعل بعض الفقهاء لا يأخذ تدريس الخوانق بجدية.

- وماذا أيضاً يا قاضينا؟

أكمل كلامه متجنباً النظر في وجهي:

- كلام بعض المتصوفة يا سيدنا أيضاً عسير الهضم على معدة العامة. كيف يمكن أن يفهم العامة أنّ فرعون مؤمن؟ كيف يفهمون أن الله والوجود واحد؟ كيف يفهمون أن الألوهية تسري في جميع المعبودات حتى الأوثان؟

- هذا كلامي أنا وليس غيري. إن كان في صدرك ملامة عليّ فخاطبني بها مباشرةً ولا تعمّم حديثك.

- اعذرني يا سيدنا. لا شك عندي في سعة علمك وصفاء نيتك. ولكني أحياناً لا أجد ما أردّ به على من يشكوك إليّ. فمن العدل إذا ما أردنا أن ندفع عن المتصوفة أذى الفقهاء أن يعتدل المتصوفة في أقوالهم ويكفّوا عن استفزاز العامة.

أنهى كلامه ثم رفع عينيه جهتي بلطف وهو يحاول أن يستقرئ

ردة فعلي. تنفست قليلاً لأهدأ قبل أنْ أجيب ثم قررت ألاّ أجيب. قمت وأنا أقول:

- صدقت يا قاضينا. سأفكر في كلامك.

٩٦

”عقد الخلائق في الإله عقائداً
وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه“
ابن عربي

طرق سودكين بابي طرقاً مستعجلاً يختلف عن طرقه الحييّ الذي تعودته منه. فتح عماد الدين الباب فقبّل سودكين جبينه وصاح به:

– أين سيدنا؟

وسرعان ما كنا نهرع معاً على عجل باتجاه بيته. وفور دخولنا تناول الوليد من يدي قابلته ووضعه بين يديّ وعيناه تفيضان بالدموع. فأطلقت في سمعه الأذان. ثم قال سودكين:

– ادعُ الله أن يجعله من أهل طريقنا يا سيدنا.

– لا يا سودكين. الطريق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين.

– ادعُ الله أن يجعله من أهل السماء يا سيدنا.

– لا يا سودكين. إنما أنشأه الله على هذه الأرض، فلا يعلو عليها. إنها أمنا.

- فادعُ الله أن يريه الحق حقاً ويصرف عنه الشبهات.
- لا يا سودكين. الكون كله شبهة. فأنت لا تعرف منه إلا أنت.
- ادعُ الله أن يرزقه العلم.
- لا يا سودكين. العلم يطرد الجهل ولكنه لا يجلب السعادة.

حار سودكين ولكن فرحته غلبت حيرته فتناول الوليد من يدي وقال:

- ادعُ له بما تشاء يا سيدنا.
- أسأل الله أن يجعل قلبه مثل مكة، يُجبى إليها من ثمرات كل شيء.
- آمين. لا حرمنا الله من دعائك الجميل يا سيدنا.
- ماذا أسميته؟
- أسميته طاهر.
- ليس في أهلك هذا الاسم. فلم اخترته؟
- تاجر من أهل القاهرة عملت عنده وأنا في أول الطريق وأقرضني مالاً وعجزت عن سداده فعفا عني.
- لكل مسمّى من اسمه نصيب.

وغادرت بيت سودكين وهو يكاد يطير من الفرح. قصدت البيت ولما دخلت أول الدرب لمحت القاضي واقفاً عند بابي ينتظرني. انصرفت عنه وعدت من حيث أتيت، ورحت أدور في الأزقة حتى انتهيت إلى السوق المسقوف أقطع الوقت حتى ينصرف القاضي. تعاقبت عليّ رسله في الأيام التي مضت فلم أجب دعوته. لا شك أنه حار في أمري ولكني لن أجيبه مهما كان الأمر حتى ينصفنا بشأن

الرجل الذي لطخ باب الخانقاه بروث البقر. رفعت شكواي إليه ثم رأيت الرجل بعد ذلك يمضي في دربه كل يوم أمام الخانقاه ولم يصبه أذى.

جاءني رسول الملك المعظم بعد أيام يدعوني للمثول في مجلسه وقد علمت أن ليس وراء هذه الدعوة إلا القاضي ابن الزكي. ذهبت إلى المجلس في الوقت الذي حُدِّد لي ودخلت لأجد المجلس خالياً إلا من حاشية الملك وكتبته. وقف حين رآني وقبّل كفه وألصقها بكفي وهو يرحب بي. ثم أجلسني إلى جواره وقال من فوره:

- قاضي القضاة قد شكاك إلينا يا سيدنا.

- إذا خاصمك القاضي فمن تقاضي!

ضحك الملك ضحكةً مفتعلة وقال لي:

- لعلك تدرك إذن صعوبة الملك إذ أجد نفسي مضطراً لأن أحكم بين الشيخ الأكبر وقاضي القضاة. أي ورطة هذه!

ابتسمت ولم أعقّب على كلامه. فتكلم من فوره:

- اسمع يا سيدنا. لقد أبلغني القاضي أنك شكوت إليه الرجل الذي رمى بالأوساخ على الخانقاه. وهذا والله فعلٌ ذميم لا نرضاه.

ثم غيّر الملك من نبرته وقال بصوت خفيض:

- ولكني يا سيدنا لم أجد أنا والقاضي معاً جدوى من معاقبته. فالشقّ واسع ورقعة العقاب لا تكفي.

- أي شقّ تعني يا مولاي؟

- أنت تعرف ما أعنيه يا سيدنا.

- إن ذكرته بنفسك انقشع الشك وذهبت الريبة.

- أعني **فصوص الحكم**. كتابك الأخير الذي ينسخه الورّاقون هذه الأيام.

- ما به؟

- سأريك الآن ما به.

ثم صاح بصوتٍ عالٍ:

- أيها الدوادار!

هرع إليه من أطراف المجلس حامل دواة الملك ولم يكد يتوسط المجلس حتى عاد إلى مكانه بعد أن قال له الملك:

- هاتِ الرسائل.

غاب وقتاً قصيراً ثم عاد ووضع كومة أوراق بين يديّ. قال الملك لي:

- اقرأها يا سيدنا واحكم بنفسك.

فتحت الرسالة تلو الأخرى فوجدت في كلٍّ منها رسالةً من فقيهٍ ما يشكو إلى الملك عبارةً أو اثنتين أو ثلاثاً من **فصوص الحكم** ويحذر من خطر الكتاب وضلاله. توقفت عن القراءة بعد الرسالة الخامسة ورفعت رأسي فإذا الملك يسند ذقنه بيده ويحدق فيّ باهتمام شديد. قال أخيراً:

- أرأيت الآن يا سيدنا أن الأمر أكبر من سفيهٍ يرمي بالقاذورات على الباب؟

- وماذا يرى مولاي الملك؟

- يا سيدنا، أنت أعلم بما كتبت وليس لي من العلم قدر ما أعطاك

الله وفتحه عليك. ولكني مشغولٌ بأمور السياسة. وهذه الكتابة تثير العامة وتهيج الناس.

بقيت صامتاً، فأردف الملك بنبرةٍ أكثر قرباً:

– يا سيدنا. هذه ليست ملطية، والناس ليسوا تركاً.

أجبته وأنا أنظر في عينه مباشرة:

– صدقت. والحكام ليسوا سلاجقة!

تراجع الملك وقد فاجأه ردّي، وصاح بي:

– ما هذا يا سيدنا! أقرّبك وأستشيرك فتهينني في مجلسي!

– هذه ليست إهانة يا مولاي، بل حقيقة السياسة. لقد آوى السلاجقة المتصوفة عن حبٍّ واقتناع، وآواهم الأيوبيون ليدفعوا بهم أذى المتشيّعة.

عاد الملك يصيح بطريقة دفاعية وهو يقول:

– هذا ظنٌّ ظالمٌ يا سيدنا! إنك لن تجد في دمشق مذهباً إلا وله مدرسة، ولا شيخاً إلا وله تلاميذ. ولا تجد مدينةً أخرى في بلاد المسلمين يجد فيها كل طالب علم بغيته! فاعدل يا سيدنا، وانظر بعين الحق!

– هذا ما عنيته تماماً يا مولاي. كل المذاهب هنا، كلها لأجل السياسة.

وقفت مستعداً للانصراف قبل أن يأذن لي فاتّسعت عينا الملك وهو يسمعني أقول له قبل أن أنصرف:

– اعلم أيها الملك المعظم أني هنا في دمشق ليس من أجلك ولا كي أستظلّ بظلك، فأرض الله واسعة وظل الله أعظم. ولكني كبرتُ

ودنت منيتيّ وقد شئت أن يكون موتي في مهبط عيسى عليه السلام وموطئ قدميه الشريفتين. فإن ضيّقتَ عليّ خرجت من ضيقٍ إلى سعة حتى يبدّل الله أمراً بأمر.

٩٧

"كل جسد لا يُنتج همّة لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

بلغت اليوم الثالثة والستين من عمري وهو أمرٌ جلل وخطير. لن ينتبه أحدٌ ممّن حولي إلى بلوغي هذا العمر ولن تزيد لحيتي شيباً ولا ظهري انحناءً. وستعدّ لي صفية ثيابي ككل صباح، ويرافقني صدر الدين إلى الدرس ذهاباً وإياباً ككل يوم، وسأقول كلاماً وأقضي شؤوناً وآكل طعاماً وأتنفس هواءً ككل من يدبّون حولي على هذه الأرض من البشر. ولكني أعلم أن بلوغي هذا العمر لا يشبه بلوغي أي سنة قبلها. لا الثانية والستون ولا الحادية والستون. إنه العمر الذي لا بدّ فيه للمرء أن تنقلب أحواله وتتغير أقواله وأفعاله. إنه العمر الذي توفي فيه حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أدّى رسالته ونصح أمته. لم يمنحه الله عاماً واحداً بعد هذا العمر ومنحه ليّ أنا الفقير الحقير. لا شك أن السنوات التي يمنحني إياها الله ويمنعها عن حبيبه وخليله سيكون حسابها عسيراً. فويلٌ لك يا محيي إن ضيّعتها في ما

لا ينفع. قم من فراشك. اخرج إلى درسك. اصدع بما في نفسك. اكتب ما كشفه الله لك علماً وبحثاً وعرفاناً.

طوال اليوم والأفكار تتوارد على ذهني تباعاً. حشودٌ من الخواطر والمواجيد والتنزّلات لا أكاد أتدبّر في أحدها حتى يفيض عليّ الثاني، تماماً مثل أسراب الجراد التي غطّت سماء دمشق قبل أيام وما زالت تملأ أزقتها وشوارعها وجدرانها وأسقفها. جرادٌ كبيرٌ قويٌ تطأه مرتين فلا يموت. يتسلق الأشجار ويقضم الأوراق ويتناكح على الحيطان ويتسلل في ملابس الرجال وعمائمهم ويدخل بين النساء وخُمُرِهنّ فتجد إحداهن تنتفض في وسط الناس وكأنها نعجةٌ ذبيحة حتى تطرد الجرادة وتغذّ في سيرها بعد أن ضحك منها الصبيان. امتلأت به كل بقعة في دمشق إلا الخانقاه التي أدرّس فيها. تجنّبها الجراد وكأنه لا يراها. فقال قومٌ: "حتى الجراد يأنف أن يقع على قذر المتصوفة"، وقال آخرون: "حتى الجراد أبى أن يؤذي المتصوفة الذين هم أضياف الله في الأرض". وكلٌّ يفسّر ما يرى بما تشتهي نفسه وتطمئن به.

حتى الملك المعظم وقاضي القضاة أرادا أن يشهدا بنفسيهما هذه الظاهرة. فوجئت بهما في درسي يدخلان الخانقاه معاً بلا حرس ولا حاشية. لوّح لي القاضي عن بعد واكتفى الملك بالابتسام ثم جلسا بتواضع حيث انتهى بهما المجلس. أكملت درسي كالمعتاد وكلما نظرت جهتهما وجدتهما يحسنان الإصغاء ويبديان الاهتمام. فكرت أنهما هنا ليطيّبا لي خاطري بعد ما حدث معي في مجلس الملك آخر مرة. ولما انتهى الدرس سلّمت عليهما وشكرتهما على المجيء،

وأخذتهما إلى صحن الخانقاه حيث نتناول طعامنا فجلب لنا الدراويش مما نأكله عادةً خبزاً ولبناً وعنباً. أكل منه الملك المعظم ثم قال:

- ما أطيب طعامكم! أين الزهد والتقشف؟

هممت بالرد فقاطعتني قهقهة الملك العالية وهو يربت على كتفي قائلاً:

- إنما أمازحك يا سيدنا. فلا تعتب عليّ فقد كثر عليّ عتبك هذه الأيام.

تكلم القاضي ابن الزكي لأول مرة وقال:

- لقد جاءك الملك المعظم وأنا في معيّته لنسألك مسألةً لم نجد لها حلاً لدى من سألناهم من الفقهاء.

أجبته بهدوء وكأني أشعر أن سؤاله لا يحيّره ولا يقضّ مضجعه، وإنما أراد أن يجعل لمجيئه سبباً:

- تفضل أيها الملك.

ابتسم الملك ابتسامة مجاملة وقال:

- كنت أريد أن أسألك بشأن من يقول إن علياً كان أحقّ بالخلافة من أبي بكر.

أكمل القاضي سؤال الملك باستطراد لم يكن له فائدة:

- تعلم يا سيدنا أن المتشيّعة يرون علياً أحقّ الناس بخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم، والسنّة يرون أن أبا بكر كان أحق الناس بها. وكل فريق متمسك برأيه. فما رأي المتصوفة في هذه المسألة؟

سكت الجميع واشرأبت الأعناق ناحيتي في انتظار الإجابة. فقلت:

- اعلم أيها الملك المعظم أن إرادة الله فوق كل إرادة وعلمه فوق كل علم.

ردّد الملك بخشوع:

- صدقت. سبحانه.

تابعت كلامي:

- فلما علم الله بسابق علمه أن أبا بكر سيموت قبل عمر، وعمر سيموت قبل عثمان، وعثمان سيموت قبل علي، جعل الله خلافة الجماعة كما وقع.

هزّ الملك رأسه وبدا على وجهه اهتمامٌ حقيقيّ فتابعت كلامي:

- قد تقدّم من علم الله أجلُ كل واحدٍ من هؤلاء الأربعة فقدّمت إرادته من كان أجلُه أسبق فقط.

ونقلت نظري إلى القاضي وأنا أستطرد:

- فلو أن كلا الفريقين احترم إرادة الله تعالى وسلّم بها لما أشكل عليهم، ولما اختلف المختلفون واحترب المحتربون.

قال الملك وعلى وجهه علامات التدبّر في ما قلت:

- فتح الله عليك يا سيدنا.

أمّن الحضور جميعاً على دعاء الملك ووقف هو استعداداً للانصراف. رافقته حتى باب الخانقاه فقبّل كفه ومسّ بها كفي وغادر مع القاضي محاطين بأسراب الجراد التي تتقافز هرباً من خطواتهما وتعلق بثوبيهما. انتظرت حتى اختفيا في آخر الدرب ثم عدتُ إلى مجلسي وأنا أفكر بعمق في معنى قدوم الملك هذا اليوم وجلوسه في درسي. توجّست خيفةً أن شأناً ما يدبّر في بلاط الملك

ويسهم فيه قاضي القضاة. نظرت في وجوه التلاميذ المتحلقين حولي والدراويش المتوزعين في أطراف الخانقاه وخطر لي خاطرٌ مزعج: إن كان لي من الحظوة والمكانة ما يحميني من دسائس السلاطين والملوك فمن لهؤلاء المساكين؟

رافقني هذا الخاطر المزعج أياماً وليالي انشغلت فيها عن الدرس والكتابة. فكرت في هشاشة الخوانق وضعف المتصوفة في المشرق واعتمادهم الكليّ على الأوقاف والإحسان ورضا السلطان، وفي المغرب أحوال مختلفة. انشغل ذهني بالسياسة طويلاً فصليت ذات ليلٍ وسألت الله أن يفرج عني فجاء فرجه عاجلاً لما انشغلت السياسة بنفسها. فما مرّت أشهر حتى دقّ إسفين الفتنة بين الملك المعظّم في دمشق وأخيه الملك الكامل في مصر. وأنزل الأنبور الإفرنجي جيوشه في عكا يريد بها بيت المقدس وحشد الخوارزمي جيوشه في شمال العراق يريد بغداد. وجد الملك المعظم نفسه بين ثلاثة جيوشٍ من ثلاث دولٍ لا يعرف أيها سينهي ملكه فانشغل بذلك عن المدارس والخوانق ووشايات الفقهاء وتدابير السفهاء. زرته أعزّيه في وفاة أحد وزرائه المقربين فما كاد يعرفني. عيناه زائغتان ووجهه بلا دماء. وفارقت مجلسه وقد أحزنني وكانت تلك آخر مرة أراه فيها. أصيب بالدوسنطارية ومات ومشينا في جنازته إلى بقعةٍ في الصحراء كما أوصى أن يُدفن فيها دفن الفقراء بلا بناء ولا زينة.

٩٨

المخطوط في بيروت

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

نسيت أن أسأله عن صورته أو هيئته. كان هذا ليجعلني أبدو هادئة وأنا أنتظره في المقهى بدلاً من التلفّت المستمر الذي أقوم به وكأني لا أملك عنقاً يقيم رأسي. هل هذا ما يحدث في لقاءات العشّاق الذين ينتظرون بعضهم بعضاً في المقاهي البحرية؟ يتأملون الغادين والرائحين في انتظار صاحب الرسائل كما يحدث في الأفلام؟ يا له من عمرٍ هذا الذي قضيته حتى الثانية والخمسين وأنا لا أعرف شيئاً من هذه الحكايات. قضيت النصف الكاثوليكي من حياتي في مدرسة راهبات والنصف المسلم منها متزوجة. بين دينين ضيّعت فرصة أن أنتظر عاشقاً في مقهى. لذة الترقّب وتصفّح الوجوه وتقليب الاحتمالات ودحرجة الأحلام على طاولة تحرك مفرشها نسمات البحر. أعرف أن هذه الأشياء لا تصنع زواجاً سعيداً بالضرورة كما أثبتت لي ذلك جميع صديقاتي تقريباً وهن يحسدنني الآن على زوجٍ عطوف وأبناء طيبين، ولكن شيئاً لا تغفره المرأة لنفسها قط أن لا يحرق الحب أطراف قلبها يوماً ليجعله يبدو

نبيلاً وعريقاً مثل أوراق المخطوطات القديمة.

قلبي، خلافاً لذلك، ما زال جديداً كأنه مغلّف بالبلاستيك. تحدث من حوله أشياء وتمرّ به حالات ولكنه لا ينفعل. لا يوجد سببٌ وراء سلوكه الجليدي هذا سوى أني امرأة صادقة جداً. الحب بحاجة إلى خيال. والخيال فسيفساء من الكذبات الصغيرة ليس إلا. وأنا منذ صغري ولدت بعقلٍ لا يستطيع صناعة الكذب ولا برمجته. ولهذا لم أكن أتخيل ولا أحلم ولا أتمنى. بل كنتُ في المقابل أعمل وأجتهد ثم أتوقّع. آلة صغيرة على هيئة أنثى. نعم، هذا أقرب تشبيه للهيئة التي خلقت بها وأفضل تبرير لحياةٍ بلا حب. وهو ما جعلني أيضاً أسعد طالبة في مدرسة الراهبات. فكل شيء يدور في أروقتها يتناسب معي تماماً. لم أشتكِ يوماً من النظام الصارم الذي تجري به أيامنا الدراسية بل اشتكيت من أواخر العام الذي يختلّ فيها النظام قليلاً وتميل الراهبات إلى التساهل. تخرج الفتيات مبكراً. يكثرن من المزاح. يتقاذفن حبات البلوط. ولا يبلغن بيوتهنّ إلا وقد تنابزن بالألقاب مع صبيٍّ أو صبيين في الطريق.

لمح النادل فنجان قهوتي فارغاً فحمله ومضى. نظرت إلى ساعتي. الخامسة مساءً موعدي معه. من الآن فصاعداً بوسعي أن ألومه إذا تأخر أو ألعنه إذا لم يأت. ولكن ما الذي يجعله يتخلف عن المجيء؟ ألفا دولار هما أكثر ممّا يحلم به لاجئ سوريّ بالكاد يجد لقمة عيشه في بيروت التي تفوق في غلائها كل مدن سورية. أحملهما في حقيبة يدي نقداً على استعدادٍ لأن أضعهما في يده عندما يناولني المخطوط الذي معه. سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي. محور الأطروحة التي نلت بها درجة الدكتوراه قبل ثماني عشرة سنة.

أذكر جيداً ذلك الصباح الذي ناقشت فيه أطروحتي في السوربون. صباحٌ خريفيّ أبرد مما توقعت تحدثت فيه أربع ساعات متواصلة أمام سبعة محكّمين فرنسيين عن الرمز والنزعة العدمية في فكر ابن عربي. أربع ساعات تحدثت فيها الطالبة التي لا تعرف الخيال ولا الحب عن سيد الحب وأستاذ الخيال في التصوف الإسلامي! كم كان هذا مدهشاً لي. نعم. أدهشت نفسي قبلهم جميعاً. ثم أدهشتهم جميعاً عندما فجرت أمامهم مفاجأتي الكبرى فور منحي الدكتوراه: أعلنت أمامهم أني أسلمت!

حينها كان عليّ أن أكتب رسالةً أصعب بكثير من رسالة الدكتوراه أوجّهها إلى أبي رداً على رسالته التي اتّهمني فيها بالتخليّ عن يسوع المخلّص. شرحت له في عدة صفحات كتبتها في مقهى مثل هذا الذي أنتظر فيه اللاجئ السوريّ اليوم ولكن في باريس كيف أن ابن عربي أوصلني إلى يسوع بطريق أخرى. ألم يردّد دائماً أنه يسوعيّ الهداية؟ لقد جذبني هذا أول ما جذبني إليه عندما قرأته: "الأجسام أربعة: جسم آدم، جسم حواء، جسم ذرية آدم وحواء، وجسم عيسى. خلق الله آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر دون أنثى، وخلق ذريتهما من ذكر وأنثى، وخلق عيسى من أنثى دون ذكر". في ذلك اليوم تعلّقت بابن عربي أكثر. وبعد سنواتٍ معه ما عدت أعلم أيهما هداني إلى الآخر: يسوع أم ابن عربي؟ ولم آبه بإجابة هذا السؤال السببي. كنت على يقين أنهما معاً يشكّلان اتحاداً إيمانياً يناسبني تماماً، فآمنت بهما معاً وصرت امرأةً مسلمةً يسوعية الهداية على الطريقة الأكبرية.

ولأن لا أحد يستطيع أن يعيش بهذه الهوية الإيمانية المعقدة في بلدٍ مثل لبنان بقيت في فرنسا، وتزوجت ريموند، أحد المحكّمين السبعة الذين فاجأتهم بإسلامي في لجنة الدكتوراه. أنجبنا روجيه ومانو وأندريه في تسع

سنين وزرنا مرسية وإشبيلية وفاس ومراكش وتونس والقاهرة ودمشق وحلب وقونية وملطية في محاولة لتتبّع المسار الروحيّ لابن عربي باءت بالفشل. قال ريموند إن السبب يكمن في انقطاع السلسلة بسبب عدم قدرتنا على زيارة مكة لأنه مسيحي. مكة إذن كانت المفاعل الروحيّ الأساسي لابن عربي. وعن هذا كتبنا معاً أولى أوراقنا البحثية المشتركة عن الجغرافية الروحية لتجربة الشيخ الأكبر. وكتبنا ورقة أخرى عن الكيمياء والسيمياء في فلسفة ابن عربي التجسيدية. وكتبنا أخرى عن رمزية انتقاله بين المقامات الصوفية. وأخرى عن أحواله الفيمونولجية. وأخرى عن المحدود واللامحدود في تصوره الكونيّ. ياه كم كانت الكتابة عنه منعشة للعقل ومثرية لمسارنا الأكاديمي معاً. حتى ممارسة الحب تكون أشهى في الليلة التي نتناقش فيها حول ابن عربي على مائدة العشاء!

وصل أخيراً. شديد النحول غائر الخدين يلبس سترةً من الجينز وبنطالاً أسود. أجعد الشعر خفيض الصوت. حيّاني بتأدب مبالغ فيه ثم جلس. تعلقت عيناي بالحقيبة القماشية التي علقها على طرف كرسيه قبل أن يجلس. تمنيت لو أمدّ يدي داخلها لأحظى بالمخطوط الذي جاء بي من باريس إلى بيروت. طلب قهوته ثم قرأ فضولي فمدّ يده إلى حقيبته أخيراً وأخرج المخطوط ووضعه بين يديّ.

– هذا هو يا مدام.

– وكيف لي أن أعرف أنه أصليّ؟

ضحك بلا مبالاة وهو يهزّ كتفيه:

– لا أدري! أنا شخصياً لا أعرف إذا ما كان أصلياً أم لا.

– ومن أين حصلت عليه؟

- وجدته في غرفة المرحوم أخي. في الصندوق الذي يضع فيه حاجياته الثمينة.

- هل عرضته على خبير مخطوطات ليتأكد بشأنه؟

ابتسم نصف ابتسامة وندّت من فمه تلك التاء غير المكتملة التي تعبّر عن عدم الاكتراث وقال:

- يا مدام، أين أجد خبير مخطوطات في دمشق يتفرّغ لي؟ وإذا اتضح أنه حقيقي كيف أضمن أن يعيده لي؟

- وكيف أضمن أنا أنك لا تبيعني مخطوطاً مزيفاً؟

هزّ كتفيه ورفع حاجبيه عالياً ولم يجبني. كنت أعلم أن بوسعي التحقق من المخطوط بسهولة وأنا في باريس. زملائي في قسم المخطوطات سيجرون الاختبارات الكربونية اللازمة بكل سهولة. وبوسعي أيضاً أن أطلب من خبير الخطوط مقارنة الخط بمخطوطات أصلية مكتوبة بيد الشيخ الأكبر. ولكني أيضاً لا أريد أن أبدو بلهاء وأنا أسافر من باريس إلى بيروت بسبب مخطوطة معروضة للبيع على الإنترنت ثم أنقد صاحبها ألفي دولار من أجل قطعة مزيفة!

- أنا آسف يا مدام. من حقك أن تشكّي في صحة المخطوط ولكني بكل صراحة وصدق لا أعرف شيئاً عن المخطوطات. كل ما أعرفه أن أخي كان يقتني عدداً منها ويقضي وقتاً طويلاً في فحصها ونسخها. ولا أظنه احتفظ بهذه المخطوطة بالذات في صندوقٍ مقفل إلا لقيمتها العالية.

ثم هزّ كتفيه وضحك وهو يقول:

- أنا في المقابل بائع نحاسيات! أعطيني قطعة نحاس وأنا أخبرك أي صانع قام بدقّها في سوق الحميدية بأكمله!

- حسناً حسناً.

أخرجت الأوراق النقدية من حقيبتي ووضعتها على الطاولة. أخذها وهو يشكرني ثم ودعني وانصرف. وقبل أن يخرج من باب المقهى تراجع وعاد حيث أجلس. طلب قلماً من النادل ثم كتب رقم هاتفه على المنديل الذي جاء مع كوب القهوة ثم ناولني إياه وقال:

- هذا رقمي في بيروت. إذا اتضح أن المخطوط مزيف فسأحاول أن أعيد لك المال.

ثم أردف وفي عينه شبه دمعة:

- لا أريد أن تتلوث ذمة المرحوم أخي بسببي.

السفْر الأخير

٩٩

"التصوف بغير خُلُق لا يُعوَّل عليه"

ابن عربي

صار صدر الدين يافعاً واشتدّ نهمه لطلب العلم إلى حدٍّ لم أعد معه قادراً على إشباع نهمه. فاقتسمت مهمة تدريسه مع كرماني بعد أن أوصيت صدر الدين وصيةً لا أظنه ينساها. خلوت به في الخانقاه وقربته مني وقبضت على شحمة أذنه وفركتها فركاً قوياً بين إصبعيّ حتى أغمض عينيه من شدة الألم وقلت له:

- إن الشيخ كرماني كان صاحب أبيك وهو من خير أهل الطريق. علمه نافع وهو ذو ذوقٍ وأحوال ولكن...

وزدت من فركي لأذنه لينتبه إليّ بكل حواسه ثم استطردت:

- ... ولكنه مفتونٌ بجمال الشباب!

اتّسعت عينا صدر الدين اندهاشاً مما قلت بعد أن كانتا مغمضتين من فرط الألم. فغر فاه وكأنما قد سمع مني شيئاً إدّا وقال:

- ماذا!؟

- لقد سمعتَ ما قلتُ فلا تجعلني أوغل في نميمة صاحبي. خذ من علمه وكفى، واجلس معه في الخانقاه فحسب. واحذر!

- أمرك يا سيدنا.

أطلقت أذنه فاندفعت فيها الدماء واحمرّت شحمتها. بقي الفتى مطرقاً يحاول هضم ما قلته. لم يكن عندي شكٌّ في تقوى كرماني وفضله ولكني لا آمن عليه مكر الله كما لا آمنه على نفسي. كم أتمنى أن تنمو لحية صدر الدين سريعاً لأتوقف عن القلق بشأنه كلما غاب عن عيني.

أما عماد الدين فلا يأتي إلا بعد أن أرفع صوتي بندائه، ولا يأتمر بأمر إلا بعد أن أغلظ له في القول، ولا ينتهي عن شأن حتى أصفعه على فخذه أو أقرصه في ذراعه. بلغ مبلغ الصبيان ولا همّ له إلا لعب الجحف والنرد في أزقة الحيّ. صحبته معي إلى الخانقاه مراراً فما غفلت عنه عيني إلا اندفع خارجه يتاكف البهاليل المجتمعين عند الباب فيغمزهم وينغزهم فيلحقون به حتى آخر الدرب ثم يعودون فيعود. حتى قبض على قذاله البهلول يعقوب ذات يوم وجرّه حتى منتصف الساحة التي فيها الدرس وأنا أقرأ على تلاميذي وصاح:

- كفّ عنا ابنك هذا وإلا سحقت عظامه!

فيهبّ بعضٌ من تلاميذي يريدون فتكاً بالبهلول على سوء أدبه ويهبّ آخرون ليمنعوه منهم. فيتفلّت عماد الدين من يده ويفرّ هارباً كأنما لم يقلب الخانقاه رأساً على عقب. فإذا عدت إلى البيت لم أجده. يحوم في الحيّ حتى أنام فيتسلل إلى البيت ويدخل حجرته وينام بين أخويه كأن لم يفعل شيئاً. فإذا أصبحنا هبّ من فراشه

وسبقني إلى المسجد لأغفر له فعلته. فأغفرها له وليس لي من الأمر شيء. ولكنه لا يرعويّ.

عاد ذات نهار إلى البيت يبكي بحرقة وكان قد كفّ عن البكاء منذ سنتين وصار يستنكفه. لم يكن في البيت إلا صفية التي راعها أن يعود أبكر من وقت عودته باكياً على غير عادته. استجوبته حتى تعبت فلم يفصح عمّا به. أخذ جرة الماء ودخل حجرة الصبيان واتكأ على بابها لئلا تفتحه وظلّ فيها طيلة النهار وصفية لا تسمع إلا أنينه. ولما عدت أخبرتني بشأنه. سألته فلم يجب. فأوليت المهمة لصدر الدين الذين أخبرني قبل أن أنام أن البهاليل أوقعوا به ودسّوا مسحوق الفلفل في دبره. انتهت علاقة عماد الدين بالبهاليل بعد ذلك اليوم، وأصبح لا يرى أحدهم في أول الدرب إلا انكفأ عائداً من حيث جاء أو اندفع في دربٍ آخر.

لا بدّ أنه كان ألماً فظيعاً هذا الذي يحدثه مسحوق الفلفل، استأثر به ابني عماد. غير أنه لم تمضِ بضعة أسابيع حتى تألم أهل دمشق ألماً أشدّ من ذلك. ولو أن السماء أمطرت وثارت الأرض وهبت الريح فامتلأت الأنوف والعيون والحلوق والقلوب والأرواح بمسحوق الفلفل الحارق لما تألموا مثل هذا الألم. فلا تمر في درب إلا وتسمع ولولةً ونحيباً. ولا تدخل الجامع إلا تسمع حوقلةً وأنيناً. ولا تمشي في السوق إلا وتبصر أتراحاً وأوجاعاً. سلّم الملك الكامل بيت المقدس للأنبور الإفرنجي صلحاً. ولو أنهم أخذوه حرباً وقتلاً وغصباً لكان هذا أخف وطأةً على أنفس المسلمين، لا سيما المسنين من أمثالي الذين شهدوا اليوم الذي استعاد فيه صلاح الدين بيت المقدس

وشهدوا أيضاً اليوم الذي أعاده أحدِ أحفاده إلى الفرنجة طوعاً!

أعلن الملك الناصر داود الذي اعتلى عرش دمشق الحداد. فاشتدّ البكاء وكثر العويل وأقيمت المآتم. وفي الخانقاه لم يكن التلاميذ والدراويش أقلّ حرقةً ممن هم خارجه. قطعوا درسي مراراً بأسئلة لا علاقة لها بالكتاب الذي نقرأه ولا الشأن الذي ندرسه. كلها عن القدس والجهاد والطاعة وأشياء تمور بها نفوسهم وتحتقن بها أوردتهم. حتى سودكين، الذي ما زال منشغلاً بطفله إذا يحبو ويمشي، اشترى سيفاً ودرعاً وخوذةً وهو يظن أن الناصر داود لا يلبث أن يعلن الجهاد لاستعادة بيت المقدس.

ولكن أحداً لم يتمكن من الخروج لا لجهاد ولا غيره. فلم يعلن الناصر داود جهاداً ولم يحشد جيشاً، بل أقام مهرجاناً في باحة الجامع الكبير يلتقي فيه الخطباء والشعراء يتنافسون فيه على هجاء عمّه الكامل ورثاء المدينة المقدسة. فاختلط صدق الأحزان بخبث السياسة. أما الكامل فإنه فور أن أنهى تسليم القدس للفرنجة اتّجه نحو دمشق لينزعها من ابن أخيه. وحاصرنا فيها سنةً ضاق فيها المترفون بانقطاع الأنهار عن سواقيها ونهب الحواصل التي في رساتيقها وغلت الأسعار غلاءً فاحشاً. أما المتصوفة الذين دأبوا على أكل الخبز واللبن في كل الأحوال فلم يشعروا به. حاصروا أنفسهم في الرخاء فلم يشعروا بالحصار في الشدة. خلافاً للأحزان والأتراح، فقد نزلت زلازل السياسة على دمشق أمناً وسكينةً عليّ وعلى تلاميذي. كل ما انشغل الناس بمن يسكن القصر لم يعد يهمهم من يسكن الخوانق.

١٠٠

"كل بقاءٍ يكون بعده فناءٌ لا يعوّل عليه"

ابن عربي

نزلت السبعون على كاهلي ثقيلة ولها مخالب. نهشت أول ما نهشت ذاكرتي فأصبحت أمشي في الدرب إلى شأن حتى إذا انتصف بي الطريق نسيت من أين جئت وإلى أين أذهب. ثم نهشت مفاصلي فلا أقوم ولا أقعد إلا وتطقطق كأني في دكان حدّاد. ضمدت صفية ركبتيّ بنقيع اللحلاح وزيت الكافور كل ليلة فلم يجدِ شيئاً. أصبحت أتهادى في مشيي وأمدّ رجلي في جلستي لئلا تنثني ركبتاي. بعث لي الموت عشرات الرسائل والنذر فما عاد لي عليه من حجة إذا دهمني في أي ساعة من نهارٍ أو ليل. شاب شعري وانحنى ظهري وزاد وجعي وضعف بصري وذهب سمعي واضمحلّت ذاكرتي. وسوى ذلك غادرني الصحاب والرفاق إلى صحبة الجليل التواب. أعياني المشي في جنائزهم وهم في دمشق وتلقّي أخبارهم وهم في غيرها. مات صاحبي عبد الله الأرمني ذو الكرامات، وبيرم المارديني

ذو الخلوات، والسهروردي ذو المروءات، وابن الفارض صاحب التاءات. ولا يلبث أن يلحق بهم جميعاً محيي الدين بن عربي صاحب الذنوب والمعاصي والحسرات!

ما عدت أقدر حتى على حضور درسٍ بأكمله. فأكتفي بتنصيب تلميذ يقرأ الكتاب والتلاميذ يسمعون حتى ينتهي فيسألون. فإن كان سؤالاً قد تكرّر أنبت عني سودكين في إجابته أو النابهين منهم. ولم يبقَ في صحبتي إلا هو. غادر كرماني إلى القاهرة مصطحباً معه صدر الدين وقد شجّعتهم على ذلك. فلم يعد في دِمشق علمٌ لم يسمعاه، ولا كتابٌ لم يقرآه، ولا شيخٌ لم يسألاه. كبر سعد الدين وأصبح يرافقني للخانقاه فيجلس هادئاً صامتاً مصغياً ولكنه لا يتكلم ولا يسأل. أما أخوه الأكبر فصارت الأيام تمرّ فلا أراه إلا صدفةً قبل أن أنام أو فور ما أستيقظ. اشترى قفصاً كبيراً وصار يربّي فيه من أنواع الطيور ما يبيع بعضها في السوق أو يلهو بها مع أقرانه. فلما أصاب دمشق السيل العرم الذي خرّب الدور والخانات وارتفع به الماء في بعض الحارات قدر قامة غمر الماء القفص وهلكت طيوره فحزن عليها حزناً هائلاً وكأن دين الإسلام اندثر وعاد غريباً.

تعاقب بنو أيوب على ملك دمشق. هذا يملك بعد أخيه وهذا بعد أبيه حتى ما عدت أذكر في بعض الأحيان أيّهم يتولى أمرنا الآن. فإذا دعا خطيب الجمعة للملك تذكّرت. وإذا خرجت من المسجد نسيت. أخبرني تلاميذي أن الناصر داود حرّك جيشه من الكرك واستعاد بيت المقدس من الفرنجة فبكيت لذلك فرحاً. فلما صرت في اليوم الذي يليه ختمت درسي بالدعاء المعتاد أن يردّ الله لنا بيت

المقدس. لم أدرك حينها ما سرّ نظرات الشفقة في عيون التلاميذ. ولكني أدركت حتماً بعد جملة من هذه الحوادث أني بلغت العمر الذي تصبح فيه الحياة أكثر مشقةً من الموت.

ولم يتوقف هذا الشقاء على ذهاب صحتي وموت رفقتي بل امتد إلى جيبي فمسّني الفقر. أوقف بنو الزكيّ عطاءهم في محاولة للضغط عليّ بعد أن كثرت الشكاوى ضدي. تهدم الوقف الذي كان ينفق على الخانقاه في السيل. أصبحت ذات يوم وليس معي مالٌ أنفق به على بيتي. احتملت صفية هذا الأمر بعض الوقت ثم اشتكت أن ليس لديها ما نشتري به عشاءنا. أطعمنا سعد الدين آخر رغيف من الخبز وما تبقّى في الزبيل من تمرات قليلة ونمنا تلك الليلة جائعين. وفي الصباح ذكّرتني بطني الخاوية بأحوال جيبي. خرجت من البيت ومشيت عكس اتجاه الخانقاه حتى بلغت الغوطة. وقفت مع الرجال الذين ينتظرون من يستأجرهم للفلاحة فاختير أغلب من وقفوا معي إلا أنا. نفروا من شيبتي وانحناء ظهري مثلما نفروا من الأكتع الذي ظلّ معي والآخر قصير القامة. جلس ثلاثتنا في انتظار رزقٍ تأتي به الطريق حتى انتصفت الشمس في السماء فمرّ رجلٌ واختارنا جميعاً. أرسل الرجلين الآخرين إلى حقله وأخذني معه إلى بستانٍ صغير قرب بيته. فصرت أقلم الأشجار وأجمع الأوراق وأقطف الثمار وأسقي الزروع حتى المساء. تطعمني زوجته ويعطيني هو الدرهمين اللذين أشتري بهما عشاء صفية وسعد الدين.

قضيت ثمانية أشهر على هذا الحال أو ربما تسعة. لم أعد أذكر. بدأت في أواخر الشتاء وها أنا الآن على أعتاب شتاءٍ جديد. جاء

التلاميذ إلى بيتي بعدما افتقدوني في الخانقاه فأخبرتهم أني لن أجيء بعد اليوم. سمّيت لهم الثقاة الذين يسمعون عنهم كتبي فانصرفوا عني. ظنني سودكين معتزلاً فاعتزل هو أيضاً خارج دمشق. وأصبح طريقي إلى البستان غدوٌ يومي ورواحه. تئنّ ركبتاي من الألم أحياناً فأجلس مراتٍ كثيرة حتى أبلغ البستان أخيراً. وفيه أبدأ باليسير من الأعمال خشية أن يستنفد العسير منها قوتي فلا أكمل عملي. أنثر الحب للدجاج وأنظّف القنّ. أجمع البيض في سلة وأضعه أمام بابهم. ثم أكنس الأوراق المتساقطة وأجري الماء في سواقيه. وهذا الذي يؤلم ظهري. فأكمل الكنس زحفاً وقد أثقلت عليّ المجرفة. وأفتح السواقي بيدي وقد أعجزني حمل المسحاة. وتخذلني ذراعاي حتى لا تبلغان ثمرةً تعلو قامتي بقليل.

يزداد العمل مشقةً حتى صرت أقضي نهاراً كاملاً فيما كنت أقضي فيه نصف نهار. ولكني لا أعلم عملاً أيسر من هذا وأخفى عن عيون الناس. قد علمت لو أني اعتذرت عن كتبي وتراجعت عن أقوالي لعاد المال وصفت الحياة، ولكنا نبلغ عمراً يصبح فيه التراجع أشدّ مرارةً من الهرم والوجع. لن أعود إلى ابن الزكي ولا إلى ناظر الخانقاه لأسألهما ديناراً أو دينارين. سأعمل في هذا البستان ما دمت أقف على قدمَيّ آكل من عمل يدي حتى يختارني الله إلى جواره ويقعدني في داره التي لا عمل فيها ولا تعب.

انتصف الشتاء وازداد برده وزمهريره. الريح التي تجوب الأزقة الضيقة تكاد تفقدني توازني إذا واجهتها. خرجت من داري متلثّماً بطرف عمامتي ومرتدياً جبةً ثقيلة من الصوف. وجدت الشوارع

في هرج ومرج. أفواج الناس تصيح في الأزقة وتؤذن وتكبر. صبية يطرقونَ الأبواب ويسألون الرجال الانضمام إليهم. تجنّبت أفواجهم المتراصة كأنهم في حرب وصرت أمشي محاذياً الجدران بغية الوصول إلى البستان ولا أتأخر. ولكن الدرب الذي دخلته ازداد ازدحاماً والناس زادوا هياجاً. وهم يهتفون بصوتٍ واحد يرتجّ له الدرب بأكمله:

- العزّ لنا... والذلّ لكم.

وفجأةً اندفعت زمرة من العسكر فوق جيادهم ومعهم سياط راحوا يضربون الناس بها دون تفرقة. انهالت ضربات السياط على الشيوخ والأطفال والفتيان. من كان منهم هائجاً مع الهائجين ومن كان منهم عابراً مع العابرين مثلي. لسعني السوط في كتفي وخدي فسقطت على الأرض. وطأتني أقدام المتجمهرين وارتطم رأسي بجدار أحد البيوت. وقفت بصعوبة ومفاصلي تئنّ ألماً وفي رأسي دوارٌ كثيف يوشك أن يوقعني في إغماءة. ألصقت نفسي بالجدار لئلا أسقط وحشرت جسدي أمام عتبة باب. جمهرة الناس تركض في الزقاق وقد ألهبت ظهورهم السياط وازداد صياحهم علواً وراحوا يرمون العسكر بالحجارة. وقفت عندما وجدت في نفسي قوةً للوقوف ومشيت قليلاً ثم نشبت يد أحدهم وهو يركض بثوبي فأسقطني مرةً أخرى. اختنقت بالغبار الذي ثارت به أقدام الهاربين وحوافر الخيل. أصاب فكّي حجرٌ ارتدّ من دروع العسكر فمادت بي الأرض. علمت أني لا أقدر على الوقوف. غطيت رأسي بيدَيّ وصحت منادياً الله: لطفك يا لطيف. وأظنني غبت عن الوعي زمناً لا أعرفه.

أفقت وأنا معفّرٌ بالتراب وعمامتي منفرطة. خيطٌ من الدم يسيل من فمي وفي داخله سنٌّ تهتزّ. الزقاق أقل ازدحاماً بالناس وقد فرّ أغلبهم وتفرقوا. تناهت إلى سمعي هتافاتهم المختلطة يرددها فتية صغار مرّوا بقربي. رآني أحدهم ملقيّاً على الأرض في هذه الحالة لا أطيق القيام وحدي فهرع إليّ ومدّ إليّ يده وهو يقول:

- مأجور يا شيخ. جزاك الله خيراً على صدعك بالحق.

ثم التفت إلى رفيقه وهو يقول:

- أي عذرٍ لنا إن نحن لم ننصر العز بن عبد السلام حتى نخرجه من سجنه ونحن رجال أصحاء إن كان حتى هذا الرجل الطاعن في السن قد خرج لنصرته وناله هذا الأذى!

عضدني الشاب حتى وقفت فشعرت بألم هائل في ضلعي. تحسّست مكانه فتبيّن لي بروزاً مؤلماً يوحيً بضلعٍ مكسورٍ أو ضلعين. وقفت أفكّر في ما أنا بصدده. إن استأنفتً مسيري إلى البستان ما استطعت أن أقوم بأي عمل. وإن عدت إلى البيت بتّ الليلة دون عشاء. قررت أن أكمل طريقي إلى البستان. إن كان ضلعي مكسوراً فلن يذهب ألمه إلا بعد أيامٍ طويلة. فلماذا أجمع على نفسي ألم الضلع وألم الجوع.

وصلت البستان أخيراً. ضممت ذراعي اليسرى على ضلعي الكسير ورحت أقوم بعملي. سقطت مني بيضة وانكسرت. أجريت الماء وجلست لأرتاح. جمعت الأوراق وقطفت بعض الثمار وتوقفت لاهثاً. شعرت بالدماء تندفع في رأسي وكأني أقف عليه لا على قدميّ. جلست لألتقط أنفاسي ثم حاولت الوقوف مرةً أخرى.

مادت بي الأرض. سقطت على وجهي. تقافز الدجاج من حولي هلعاً. تعلق نظري بورقة صفراء لم أجرفها. متّ.

ما أسهل حياة البرازخ. أن تتأمل الحياة وأنت مجرد من الإرادة. لا تفعل. ولا تنفعل. يحملك رجلٌ وامرأة إلى بيت غريب. يجسّانك ويحوقلان ثم يحجبان عنك العالم بعباءتك. تحملك المحفّة إلى بيتٍ مألوف. أسمع أصواتهم وأشمّ روائحهم. وإذا تحرك جفناي المسدلان لمحت وجوههم الباكية. صفية تبكي ترمّلها للمرة الثانية. سودكين يعانق قدمَيّ وكأنه لن يدفنهما معي. سعد الدين يرتجف مثل عصفورٍ في ليلة مطر. ابن الزكيّ يلقي تعليماته على الغسّال الذي يجوس بيده في صدري وبطني وأطرافي. عماد الدين يصبّ الماء على رأسي. ينسكب عليّ ماء الكافور فيحجب عن أنفي الشم. ينطبق عليّ قماش الكفن فيحجب عنيّ الرؤية. يرتجّ جسدي على أكتاف الحاملين. يسكن أخيراً في محراب المسجد. يرتفع الأذان. يصلّي الإمام. لا يقرأ سورة يس. يحملني الناس. يرتفع النحيب. أميز أصوات تلاميذي. أسمع قرع نعالهم. تتضاءل الأصوات وتبتعد مع انثيال التراب. تنقطع نهائياً إلا من صرخةٍ حارقة أطلقها سودكين بلا وعي.

محمد حسن علوان

تورنتو، ٢٠١٦

مؤلّف الرواية الأكثر مبيعاً 'سقف الكفاية'

'منذ أوجدني الله في مرسيّة حتى توفاني في دمشق وأنا في سفرٍ لا ينقطع. رأيت بلاداً ولقيت أناساً وصحبت أولياء وعشت تحت حكم الموحدين والأيوبيين والعباسيين والسلاجقة في طريقٍ قدّره الله لي قبل خلقي. من يولد في مدينة محاصرة تولد معه رغبة جامحة في الانطلاق خارج الأسوار. المؤمن في سفرٍ دائم. والوجود كله سفرٌ في سفر. من ترك السفر سكن، ومن سكن عاد إلى العدم.'

محمد حسن علوان كاتب وروائي سعودي. صدر له عن دار الساقي 'القندس' (القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية 2013)، 'سقف الكفاية'، 'طوق الطهارة'، 'صوفيا'.

ISBN 978-6-14425-927-6

DAR AL SAQI

الساقي

www.darulsaqi.com

9 786144 259276 >